عمر بن عبد العزيز

معالم التجديد والإصلاح الراشدى
على منهاج النبوة

تأليف الدكتور

على محمد محمد الصَّلَّابى

الطبعة الأولى للناشر
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/١٧٠٠٩
الترقيم الدولي: I.S.B.N
977-265-671-X

دار التوزيع والنشر الإسلامية
مصـــــــر-القاهـــــــرة -السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦
٢٥١ ش بورســـعيـــد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ - فـــاكس: ٣٩٣١٤٧٥
مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١
www.eldaawa.com
email:info@eldaawa.com

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب: ٧٠، ٧١].

يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، أما بعد:

هذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة، وقد صدر منها السيرة النبوية.. عرض وقائع وتحليل أحداث، أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، والحسن بن على، رضى الله عنهم جميعًا، وقد سميت هذا الكتاب عمر بن عبد العزيز. معالم التجديد والإصلاح الراشدى علي منهاج النبوة، وهو جزء من كتابنا الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، والكتاب يتحدث عن عهد الإصلاحى الكبير والمجدد الشهير عمر بن عبد العزيز، فتحدثت عن حياته وسيرته وطلبه للعلم، وعن أهم أعماله فى عهد الوليد وسليمان، وعن خلافته وبيعته ومنهجه فى إدارة الدولة، واهتمامه بالشورى والعدل وسياسته فى رد المظالم وعزله لجميع الولاة الظالمين، ورفع المظالم عن الموالى وأهل الذمة وإقامة العدل لأهل سمرقند، وعن الحريات فى دولته، كالحرية الفكرية والعقدية والسياسية والشخصية، وحرية

التجارة والكسب، وذكرت أهم صفاته، كشدة خوفه من الله تعالى، وزهده، وتواضعه وورعه، وحلمه وصفحه وعفوه، وصبره، وحزمه، وعدله وتضرعه ودعائه واستجابة الله له، وتحدثت عن معالم التجديد عند عمر بن عبد العزيز، كالشورى، والأمانة فى الحكم وتوكيل الأمناء، وإحيائه مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومبدأ العدل، وعن شروط المجدد، كأن يكون معروفًا بصفاء العقيدة وسلامة المنهج، وأن يكون عالمًا مجتهدًا، وأن يشمل تجديده ميدان الفكر والسلوك، وأن يعم نفعه أهل زمانه، وتكلمت عن اهتمام عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة والجماعة، فى توحيد الألوهية وفى باب أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وفى مفهوم الإيمان، والإيمان باليوم الآخر والمعتقدات الغيبية، كعذاب القبر ونعيمه والمعاد، والميزان والحوض والصراط والجنة والنار، ورؤية المؤمنين ربهم فى الجنة والدعوة للاعتصام بالكتاب والسنة وسنة الخلفاء الراشدين، وموقفه من الصحابة والخلاف بينهم وموقفه من أهل البيت. وتحدثت عن معاملته للخوارج والشيعة والقدرية وعن حياته الاجتماعية، واهتمامه بأولاده وأسرته ومنهجه فى تربيته لأولاده كاختيار المعلم والمؤدب الصالح، وتحديد المنهج العلمى، وتحديد طريقة التأديب والتعليم، وتحديد أوقات وأولويات التعليم، ومراعاة المؤثرات التعليمية، وعن نتائج ذلك المنهج وتأثر ابنه عبد الملك به، وتكلمت عن حياته مع الناس، واهتمامه بإصلاح المجتمع، وتذكيره الناس بالآخرة، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، وإنكاره العصبية القبلية، وتقديره لأهل الفضل وقضائه ديون الغارمين، وفك أسرى المسلمين، وإغنائه المحتاجين عن المسألة، ودفع المهور من بيت المال، وجهوده فى التقريب بين طبقات المجتمع، ومعاملته للشعراء، واهتمامه الكبير بالعلماء، ومشاركتهم الفعّالة معه لإنجاح مشروعه الإصلاحى، فتقربوا منه وشدوا أزره للسير فى منهجه التجديدى، وتعهدوه بالنصح والتذكير بالمسئولية، واستعدادهم لتولى مختلف مناصب الدولة وأعمالها، وتحدثت عن المدارس العلمية فى عهده وعهد الدولة الأموية، كمدرسة الشام والحجاز، والعراق ومصر. إلخ، وعن منهج التابعين فى تفسير القرآن الكريم، وجهودهم فى خدمة السنة، ودور عمر بن عبد العزيز فى تدوينها، وأشرت إلى منهج التزكية والسلوك عند التابعين

وأخذت مدرسة الحسن البصرى مثالاً على ذلك فتحدثت عنها وعن تلاميذها كأيوب السختيانى، ومالك بن دينار، ومحمد بن واسع، وبينت براءة الحسن البصرى من الاعتزال، وتحدثت عن علاقة الحسن البصرى بعمر بن عبد العزيز ورسائله إليه، التى يبين فيها صفات الإمام العادل فى نظره، وذكرت موقف عمر ابن عبد العزيز وأسباب رفعه لحصار القسطنطينية واهتمامه بالدعوة الشاملة، ووضعه لقانون التفرغ للدعاة والعلماء وحضه على نشر العلم وتعليمه وتوجيه الأمة إلى أهميته، وإرسال العلماء الربانيين فى شمال أفريقيا وغيرها لتعليم الناس وتربيتهم على الكتاب والسنة، وإرساله الرسائل الدعوية إلى الملوك بالهند وغيرها، وتشجيعه غير المسلمين على الدخول فى الإسلام.

وأفردت مبحثًا لإصلاحاته المالية وسياسته الحكيمة فى ذلك، وحرصه على ترسيخ قيم الحق والعدل ورفع الظلم، فبينت أهداف السياسة الاقتصادية عنده، من إعادة توزيع الدخل والثروة بشكل عادل وتحقيق التنمية الاقتصادية والرفاهية الاجتماعية، وأشرت لتحقيق تلك الأهداف كتوفير المناخ المناسب للتنمية، ورد الحقوق لأصحابها وفتح الحرية الاقتصادية بقيود، واتباع سياسة زراعية جديدة تمنع بيع الأرض الخراجية، وتعتنى بالمزارعين وتخفف الضرائب عنهم، وحث الناس على الإصلاح والإعمار وإحياء أرض الموات، وتوفير مشاريع البنية التحتية، وتحدثت عن سياسته فى الإنفاق العام، كإنفاق عمر على الرعاية الاجتماعية وترشيد الإنفاق فى مصالح الدولة، كقطع الامتيازات الخاصة بالخليفة وبأمراء الأمويين، وترشيد الإنفاق الإدارى والحربى.

وتكلمت عن المؤسسة القضائية، فى عهده وبعض اجتهاداته الفقهية كرأيه فى الهدية لولاة الأمر ونقض الأحكام إذا خالفت النصوص الشرعية وغير ذلك من الاجتهادات الفقهية والقضائية، وتحدثت عن سياسته الإدارية وأشهر ولاته وحرصه على انتقاء عماله من أهل الخير والصلاح، وإشرافه المباشر على إدارة شئون الدولة وعن قدراته فى التخطيط والتنظيم وعن أسلوبه فى الوقاية من الفساد الإدارى، كالتوسعة على العمال فى الأرزاق وحرصه على الوقاية من الكذب، والامتناع عن أخذ الهدايا والهبات والنهى عن الإسراف والتبذير، ومنع الولاة والعمال من ممارسة

التجارة، وفتح قنـوات الاتصال بين الوالى والرعية، ومحاسبـته لولاة من قبله عن أموال بيت المال، وتطرقت إلى مفـهوم المركزية واللامركزية فى إدارة عمـر بن عبد العزيز واهتمامـه بمبدأ المرونة، وتوظيفه للوقت فى خدمة الدولة والرعـية، وممارسته لمبدأ تقسيم العمل فى الإدارة، وحرصت على بيـان بواعث عمر ابن عبد العزيز فى إصلاحه وتجديـداته، المالية والسياسية والإدارية، . .إلخ، وأشـرت إلى حرصه على تنفيـذ أحكام الشريعة على الدولة والأمة والمجـتمعات والأفـراد، وأشرت إلى آثار التمسك بأحكام القرآن الكريم والسنة النبوية وهدى الخلافة الراشدة على دولته، من التمكين والأمن والاستقرار، والنصر والفتح، والعز والشرف وبركة العيش ورغده، وعشت مع الأيام الأخيرة من حياة هذا المصلح الكبير حتى وفاته.

إن ظهور عمر بن عبد العزيز فى تلك المرحلة التاريخية الحرجة من تاريخ الأمة ومحاولته العظيمة للعودة بالحياة إلى تحـكيم الشريعة وآفاق الخلافة الراشدة الملتزمة بمعطيـات القـرآن والسنة، ظاهرة فـذة تحمل فى دلالتـهـا ليس على بطولة القـائد فحسب، وإنما على قدرة الإسلام نفسه على العودة باستـمرار لقيادة الحياة السياسية والتشريعية والحضارية فى نهاية الأمر وصياغتها بما ينسجم ومبادئه الأساسية[(1)].

إن خلافة عـمر بن عبد العـزيز حجة تاريخيـة على من لا يزال يردد الكلمات والأصوات القائلة: إن الدولة التى تقـوم على الأحكام الإسلامية والشريعـة عرضة للمشـاكل والأزمات وعرضـة للانهيار فى كل سـاعة، وإنها ليـست إلا حُلمًا من الأحلام ولا يزال التاريخ يتـحدى هؤلاء، ويقول لهم: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

ولقد سار نور الدين زنكى المتوفى عام ٥٦٨هـ على منهـج عمر بن عبد العزيز وأخذه نموذجًا ومـثالاً له فى القدوة والتأسى، فـآتت محاولته الإصلاحـية ثمارها للأمة وساهمت فى نهـوضها وعودة الوعى لها وتغلبت على أعدائهـا الصليبيين، وطهرت بيت المقـدس على يدى تلميذه القائد الأشم، البطل المغـوار صلاح الدين الأيوبى، كثر الله من أمثاله فى جيلنا.

---

(١) فى التأصيل الإسلامى للتاريخ، د. عماد الدين خليل، ص (٦٢).

إن الإصلاح ـ كما يفهمه المسلمون الصادقون لا كما يروّج أعداء الإسلام ـ هو الغاية من إرسال الله تعالى الرسل إلى الناس، قال شعيب عليه السلام لقومه الغارقين فى الضلال والفساد فى العقيدة والسلوك: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وقد اضطلع بمهمة الإصلاح لشئون البشر ـ بعد مصلح الإنسانية الأعظم محمد ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ وسار على منهاج النبوة خلفاؤه الراشدون، وعلماء الأمة الأبرار كعمر بن عبد العزيز، والأمة الآن فى أشد الحاجة لمعرفة هدى المصلحين ابتداء من النبى الكريم ﷺ، فقد أصابها التخلف والتيه والتفرق والضعف والاستكانة.

إن فقه حركة التاريخ الإسلامى يرشدنا إلى أن عوامل النهوض وأسباب النصر كثيرة منها صفاء العقيدة، ووضوح المنهج، وتحكيم شرع الله فى الدولة، ووجود القيادة الربانية التى تنظر بنور الله وقدرتها فى التعامل مع سنن الله فى تربية الأمم وبناء الدول وسقوطها، ومعرفة علل المجتمعات وأطوار الأمم، وأسرار التاريخ، ومخططات الأعداء من الصليبيين واليهود والملاحدة والفرق الباطنية، والمبتدعة وإعطاء كل عامل حقه الطبيعى فى التعامل معه، فقضايا فقه النهوض، والمشاريع النهضوية البعيدة المدى متداخلة متشابكة لا يستطيع استيعابها إلا من فهم كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، وارتبط بالفقه الراشدى المحفوظ عن سلفنا العظيم، فعلم معالمه وخصائصه وأسباب وجوده وعوامل زواله واستفاد من التاريخ الإسلامى وتجارب النهوض، فأيقن بأن هذه الأمة ما فقدت الصدارة قط وهى وفية لربها ونبيها ﷺ، وعلم بأن الهزائم العسكرية عرض يزول، أما الهزائم الثقافية فجرح مميت، والثقافة الصحيحة تبنى الإنسان المسلم، والأسرة المسلمة، والمجتمع المسلم، والدولة المسلمة، على قواعدها المتينة من كتاب الله وسنة رسوله، وهدى الخلفاء الراشدين، ومن سار على نهجهم، وعبقرية البناء الحضارى الصحيح هى التى أبقت صرح الإسلام إلى يومنا هذا بعد توفيق الله وحفظه.

إن سيرة عمر بـن عبد العزيز تمدنا بالمفهوم الصحيح لكلمـة الإصلاح؛ المفهوم القرآنى الأصيل الذى فهمه علماؤنا المصلحون فهمًا صحيحًا وطبّقوه تطبيقًا سليمًا، لا المفـهوم الغـربى الحديث الـذى تسرَّب إلى أذهان بعض المفـكرين السيـاسيـين المقلدين للغرب فى حقّه وباطله حتى أصبح من المسلم به عند كثير من أبنائنا اليوم أن الثورة أعمّ وأشمل وأعـمق من الإصلاح الذى يرادف فى الغرب معنى التغـيير الخفيف الذى يحـدث بتدرج ودون عنف، بينما الثورة هى عـندهم انقلاب جذرى دون تدرّج، عنيف ومفاجىء، وما دروا أن الإصلاح بالمفـهوم القرآنى الصحيح له معنى أشمل وأعمّ وأكبر من الثورة، فهو دائمًا نحو الأحسن والأكمل، بينما الثورة قد تكون من الصـالح إلى الفاسد أصلاً، ويتم ذلـك بتغيير سلطة بسلطة وحاكم بحاكم(١).

إن عمر بن عبد العزيز نموذج إصلاحى لمن يريـد السير على منهاج النبوة وعهد الخلافـة الراشدة، ولقد أخلص لله تـعالى فى مشـروعه الإصلاحى، فـتولى الله توفيقـه وأطلق ألسنة الناس بمدحه والثناء عليه، قـال الشاعر أحمـد رفيق المهدوى الليبـى:

فــإذا أحب اللـه باطن عـبــده	ظهـرت عليــه مـواهب الفتــاح
وإذا صــفت للـه نيــة مــصلح	مــال العــبــاد عليــه بالأرواح

والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عـملى لوجهه خالصًا ولعـباده نافعًا، وأن يثيـبنى على كل حرف كتبته، ويجعله فى ميـزان حسناتى، وأن يثيب إخوانى الذين ساهموا فى إتمام هذا الجهـد المتواضع، ونرجو من كل مـسلم يطلع على هذا الكتاب أن لا ينسى العـبد الفقيـر إلى عفو ربه ومغـفرته ورحمته ورضـوانه من دعائه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا

(١) آثار الإمام محمد بشير الإبراهيمى (٢/٦).

مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[فاطر: ٢]. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

الأخوة القرّاء الكرام، يسر المؤلف أن تصله ملاحظاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبه من خلال دور النشر، ويطلب من إخوانه الدعاء بظهر الغيب بالإخلاص والصواب ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

عنوان المؤلف

E_mail : abumohamed2@maktoob.com

عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

الفصل الأول

من الميلاد إلى خلافته

أولاً: اسمه ولقبه وكنيته وأسرته:

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص، بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد، السيد أمير المؤمنين حقًا أبو حفص القرشى الأموى المدنى ثم المصرى، الخليفة الزاهد الراشد أشج بنى أمية[(١)]، كان من أئمة الاجتهاد ومن الخلفاء الراشدين[(٢)]، وكان حسن الأخلاق والخُلق، كامل العقل، حسن السمت، جيِّد السياسة، حريصًا على العدل بكل ممكن، وافر العلم، فقيه النفس، طاهر الذكاء والفهم، أوّاهًا منيبًا، قانتا لله حنيفًا، زاهدًا مع الخلافة، ناطقًا بالحق مع قلة المعين، وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملُّوهُ وكرهوا محاققته لهم، ونقصه أُعطياتهم، وأخذه كثيرًا مما فى أيديهم، مما أخذوه بغير حقٍّ، فما زالوا به حتى سقوه السم فحصلت له الشهادة والسعادة، وعُدَّ عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين والعلماء العاملين[(٣)]، وكان رحمه الله فصيحًا مُفوَّهًا[(٥)].

١- والده: هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم، وكان من خيار أمراء بنى أمية، شجاعًا كريمًا بقى أميرًا لمصر أكثر من عشرين سنة، وكان من تمام ورعه وصلاحه أنه لما أراد الزواج قال لقيمه: اجمع لى أربعمائة دينار من طيب مالى، فإنى أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح، فتزوج أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهى حفيدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقيل: اسمها

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٤)
(٢) المصدر نفسه (٥/ ١١٤) .
(٣) المصدر نفسه (٥/ ١٢٠) .
(٤) المصدر نفسه (٥/ ١٣٦) .
(٥) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٣١)، الجوانب التربوية فى حياة الخليفة عمر بن عبد العزيز، نىء عمر، ص (١١) .

ليلى[1]، كما أن زواجه من آل الخطاب ما كان ليتم لولا علمهم بحاله وحسن سيرته وخلقه، فقد كان حسن السيرة فى شبابه، فضلاً عن التزامه وحرصه على تحصيل العلم، واهتمامه بالحديث النبوى الشريف، فقد جلس إلى أبى هريرة وغيره من الصحابة وسمع منهم، وقد واصل اهتمامه بالحديث بعد ولايته مصر، فطلب من كثير بن مرة فى الشام أن يبعث إليه ما سمعه من حديث رسول الله ﷺ إلا ما كان من طريق أبى هريرة فإنه عنده[2]، وقد كان والد عمر بن عبد العزيز ذا نفس تواقة إلى معالى الأمور سواء قبل ولايته مصر أو بعدها، فحين دخل مصر أيام شبابه تاقت نفسه إليها وتمنى ولايته فنالها[3]، ثم تاقت إلى الجود فصار أجود أمراء بنى أمية وأسخاهم[4]، فكانت له ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره، وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل[5]، ومن جوده كان يقول: إذا أمكننى الرجل من نفسه حتى أضع معروفى عنده فيده عندى أعظم من يدى عنده[6]. وقد أكثر المؤرخون من الثناء عليه لجوده، وهذا الجود كان ممتزجًا باليقين بأن الله سبحانه وتعالى يخلف على من يرزقه، فيقول: عجب لمؤمن يؤمن أن الله يرزقه ويخلف عليه كيف يحبس ماله عن عظيم أجر وحسن ثناء. وكان ذا خشية من الله، ونستقرئ هذه الخشية من قوله حين أدركه الموت: وددت أنى لم أكن شيئًا مذكورًا، ولوددت أنى أكون هذا الماء الجارى أو نبتة بأرض الحجاز[7].

٢ ـ أمه: أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ووالدها عاصم بن عمر بن الخطاب، الفقيه، الشريف أبو عمرو القرشى العدوى، ولد فى أيام النبوة وحدّث عن أبيه، وأمه هى جميلة بنت ثابت بن أبى الأقلح الأنصاريّة، وكان طويلاً جسيمًا، وكان من نبلاء الرجال، دينًا، خيِّرًا، صالحًا، وكان بليغًا، فصيحًا، شاعرًا، وهو جد الخليفة عمر بن عبد العزيز لأُمِّه، مات سنة سبعين، فرثاه ابن عمر أخوه:

(١) عبد العزيز بن مروان وسيرته وأثره فى أحداث العصر الأموى، ص (٥٨).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٤٧).
(٣) الولاة وكتاب القضاة للكندى، ص (٥٤).
(٤) معجزة الإسلام، خالد محمد خالد، ص (٥٥).
(٥) الخطط للمقريزى (١/٢١)، بدائع الزهور (١/٢٨).
(٦) عبد العزيز بن مروان، ص (٥٥).
(٧) المصدر نفسه، ص (٥٦) نقلاً عن البداية والنهاية.

فليت المنايـا كُنَّ خلَّفن عـاصـمًـا فعشنـا جميعًا أو ذهبنا بـنا معًا[1]

وأما جدته لأمه فقد كان لـها موقف مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فعن عـبد الله بن الزبيـر بن أسلم عن أبيـه عن جده أسلم قـال: بينمـا أنا وعمـر بن الخطاب رضى الله عنه وهو يَعُسُّ[2] بالمدينة إذ أعيـا فاتكأ على جـانب جدار فى جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا بنـتاه قومى إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء، فقالت لها: يا أمـتاه أو ما علمت ما كان من أمير المؤمنين اليـوم، قالت: وما كان من عزمتـه يا بنية؟ قالت: إنه أمر مناديًا، فنادى أن لا يشـاب اللبن بالماء، فقالت لها: يا بنتاه قـومى إلى اللبن فامذقيه بالماء، فـإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادى عمر فـقالت الصبيـة لأمها: يا أمتاه، والـله ما كنت لأطيعه فى الملأ وأعـصيه فى الخلاء، وعـمر يسمع كل ذلك، فـقال: يا أسلم عَلِّم البـاب واعرف الموضع، ثم مضى فى عسـه، فلما أصبحا قال: يا أسلم امـض إلى الموضع فانظر من القائلة، ومن المقول لها، وهل لهما من بعل؟ فأتيت الموضع فنظرت فإذا الجارية أيِّم لا بعل لها، وإذا تيك أمها وإذا ليس لهما رجل، فأتيت عـمر وأخبرته، فدعا عمر ولده، فجمعهم، فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه.. فقال عاصم: يا أبتاه لا زوجة لى فزوجنـى، فبعث إلى الجارية، فزوجـها من عاصم فولدت لعـاصم بنتًا وولدت البنت عمر بن عـبد العزيز[3]، ويذكر أن عـمر بن الخطاب رأى ذات ليلة رؤيا، ويقول: ليت شـعرى من ذو الشين[4] من ولدى الذى يملؤها عدلاً، كـما ملئت جورًا[6]، وكان عـبد الله بن عمـر يقول: إن آل الخطاب يرون أن بلال بن عبد الله بوجهه شامة فحسبوه المبشر الموعود حتى جاء الله بعمر بن عبد العزيز[6].

٣ ـ ولادته ومكانها: اختـلف المؤرخون، فى سنة ولادته والراجح أنه ولـد عام ٦١هـ، وهو قول أكثـر المؤرخين ولأنه يؤيد ما يذكر أنه توفى وعـمره أربعون سنة حيث توفـى عام ١٠١هـ[7]، وتذكـر بعض المصادر أنـه ولد بمصر، وهذا القـول

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٩٧) .

(٢) العُس: تقصى الليل عن أهل الريبة، معجم مقاييس اللغة (٤/ ٤٢) .

(٣) سيرة عمر لابن الحكم، ص (١٩، ٢٠)، سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٠).

(٤) الشين: العلامة .

(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٢) .

(٦) المصدر نفسه (٥/ ١٢٢) .

(٧) البداية والنهاية (١٢/ ٦٧٦) .

ضعيف لأن أباه عبد العزيز بن مـروان بن الحكم إنما تولى مصر سنة خمس وستين للهجرة، بعد استيلاء مروان بن الحكم عليها من يد عامل عبد الله بن الزبير رضى الله عنهمـا، فولّى عليها ابنه عـبد العزيز ولم يعرف لعـبد العزيز بن مـروان إقامة بمصر قبل ذلك، وإنما كانت إقامته وبنى مروان فى المدينة[١]، وذكر الذهبى أنه ولد بالمدينة زمن يزيد[٢].

٤ ـ أشج بنى أمية: كان عمر بن عبـد العزيز -رحمه الله- يلقب بالأشج، وكان يقال له: أشج بنى مروان، وذلك أن عـمر بن عبد العزيز عندما كـان صغيرًا دخل إلى إصطبل أبيه عندما كـان واليًا على مصر ليرى الخيل؛ فضـربه فرس فى وجهه فـشجـه، فجـعل أبوه يمـسح الدم عنه ويقول: إن كـنت أشج بنى أميـة إنك إذًا لسعيد[٣]، ولما رأى أخوه الأصبغ الأثر قال: الله أكبر! هذا أشج بنى مروان الذى يملك، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: إن من ولدى رجلاً بوجهه أثر يملأ الأرض عدلاً[٤]. وكان الفـاروق قد رأى رؤيا تشيـر إلى ذلك، وقد تكررت هذه الرؤيا لغير الفـاروق حتى أصبح الأمر مشهـورًا عند الناس بدليل ما قاله أبوه عندما رأى الدم فى وجـهه، وما قاله أخـوه عندما رأى الشج فى وجهه، كـلاهما تفاءل لعله أن يكون ذلك الأشج الذى يملأ الأرض عدلاً[٥].

٥ ـ إخوته: كان لعبد العزيز بن مروان والد عمـر بن عبد العزيز عشرة من الولد وهم: عمر وأبو بكر ومـحمد وعاصم وهؤلاء أمهم ليلى بنت عـاصم بن عمر بن الخطاب، وله من غيـرها ستة وهم: الأصبغ وسهل وسـهيل وأم الحكم وزبّان وأم البنين[٦]، وعاصم هو من تكـنى به والدته ليلى بنت عاصم بن عـمر بن الخطاب فكنيتها أم عاصم[٧].

٦ - أولاده: كان لعمر بن عـبد العزيز رحمه الله أربعة عشـر ذكرًا منـهم: عبد الملك وعبـد العزيز وعبـد الله وإبراهيم وإسحـاق ويعقوب وبكر والوليـد وموسى

---

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٥٤) .

(٢) تذكرة الحفاظ (١/ ١١٨ ـ ١٢٠) .

(٣) البداية والنهاية نقلاً عن فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٠) .

(٤) المعارف لابن قتيبة، ص (٣٦٢) .

(٥) فقه عمر بن عبد العزيز، د.محمد شقير (١/ ٢٠).

(٦) المعارف لابن قتيبة، ص (٣٦٣) .

(٧) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٣٢).

وعاصم ويزيد وزبان وعبد الله[1]، وبنات ثلاث أمينة وأم عمار وأم عبد الله، وقد اختلفت الروايات عن عدد أولاد وبنات عمر بن عبد العزيز، فبعض الروايات تذكر أنهم أربعة عشر ذكرًا كما ذكره ابن قتيبة، وبعض الروايات تذكر أن عدد الذكور اثنا عشر وعدد الإناث ست كما ذكره ابن الجوزى[2]، والمتفق عليه من الذكور اثنا عشر، وحينما توفى عمر بن عبد العزيز لم يترك لأولاده مالاً إلا الشيء اليسير فأصاب الذكر من أولاده من التركة تسعة عشر درهمًا فقط، بينما أصاب الذكر من أولاد هشام بن عبد الملك ألف ألف (مليون)، وما هى إلا سنوات قليلة حتى كان أحد أبناء عمر بن عبد العزيز يحمل على مائة فرس فى سبيل الله فى يوم واحد، وقد رأى بعض الناس رجلاً من أولاد هشام يتصدق عليه[3]. فسبحان الله رب العالمين.

٧- زوجاته: نشأ عمر بالمدينة وتخلق بأخلاق أهلها، وتأثر بعلمائها وأكب على أخذ العلم من شيوخها، وكان يقعد مع مشايخ قريش ويتجنب شبابهم، ومازال ذلك دأبه حتى اشتهر، فلما مات أبوه أخذه عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فخلطه بولده، وقدمه على كثير منهم، وزوجه ابنته فاطمة بنت عبد الملك[4]، وهى امرأة صالحة تأثرت بعمر بن عبد العزيز، وآثرت ما عند الله على متاع الدنيا، وهى التى قال فيها الشاعر:

بنت الخليفة والخليفة جدها ... أخت الخلائف والخليفة زوجها

ومعنى هذا البيت أنها بنت الخليفة عبد الملك بن مروان والخليفة جدها مروان ابن الحكم، وأخت الخلائف فهى أخت الخلفاء الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك، والخليفة زوجها هو عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، حتى قيل عنها: لا نعرف امرأة بهذه الصفة إلى يومنا هذا سواها[5]. وقد ولدت لعمر بن عبد العزيز إسحاق ويعقوب وموسى، ومن

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٣).
(٢) سيرة عمرة بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٣٣٨)، فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٤).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٣٣٨).
(٤) البداية والنهاية (١٢/ ٦٨٠).
(٥) المصدر نفسه (١٢/ ٦٨٠).

زوجاته لميس بنت على بن الحارث وقد ولدت له عبد الله وبكرًا وأم عمار، ومن زوجاته أم عثمان بنت شعيب بن زيان، وقد ولدت له إبراهيم. وأما أولاده عبد الملك والوليد وعاصم ويزيد وعبد الله وعبد العزيز وزيان وأمينة وأم عبد الله، فأمهم أم ولد(١).

٨ ـ صفاته الخلقية: كان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أسمر، رقيق الوجه أحسنه، نحيف الجسم، حسن اللحية، غائر العينين، بجبهته أثر نفحة دابة وقد خطه الشيب(٢)، وقيل فى صفته: إنه كان رجلاً أبيض، دقيق الوجه، جميلاً، نحيفًا، وقيل فى صفته: إنه كان رجلاً أبيض دقيق الوجه، جميلاً، نحيف الجسم، حسن اللحية(٣).

ثانيًا: العوامل التى أثرت فى تكوين شخصية عمر بن عبد العزيز:

١ ـ الواقع الأسرى: نشأ عمر بن عبد العزيز فى المدينة، فلما شب وعقل -وهو غلام- صغير كان يأتى عبد الله بن عمر بن الخطاب لمكان أمه منه، ثم يرجع إلى أمه فيقول: يا أمه أنا أحب أن أكون مثل خالى ـ يريد عبد الله بن عمر ـ فتؤفف به ثم تقول له: اغرب أنت تكون مثل خالك، وتكرر عليه ذلك غير مرة. فلما كبر سار أبوه عبد العزيز بن مروان إلى مصر أميرًا، عليها، ثم كتب إلى زوجته أم عاصم أن تقدم عليه وتقدم بولدها، فأتت عمها عبد الله بن عمر فأعلمته بكتاب زوجها عبد العزيز إليها فقال لها: يا أبنة أخى هو زوجك فالحقى به، فلما أرادت الخروج قال لها: خلفى هذا الغلام عندنا ـ يريد عمر ـ فإنه أشبهكم بنا أهل البيت، فخلفته عنده ولم تخالفه، فلما قدمت على عبد العزيز اعترض ولده فإذا هو لا يرى عمر، قال لها: وأين عمر؟ فأخبرته خبر عبد الله وما سألها من تخليفه عنده لشبهه بهم، فسرّ بذلك عبد العزيز، وكتب إلى أخيه عبد الملك يخبره بذلك، فكتب عبد الملك أن يجرى عليه ألف دينار فى كل شهر، ثم قدم عمر على أبيه مسلّمًا(٤)، وهكذا تربى عمر رحمه الله تعالى بين أخواله بالمدينة من أسرة عمر بن الخطاب، ولا شك أنه تأثر بهم وبمجتمع الصحابة فى المدينة(٥).

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٣١٤، ٣١٥).

(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/٥٨) .

(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ١١)، الآثار الواردة (١/٥٨) .

(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٢٤ ـ ٢٥).

(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/٥٦) .

٢ ـ إقباله المبكر على طلب العلم وحفظه القرآن الكريم: فقد رزق منذ صغره حب الإقبال على طلب العلم وحب المطالعة والمذاكرة بين العلماء، كما كان يحرص على ملازمة مجالس العلم فى المدينة -وكانت يومئذ منارة العلم والصلاح زاخرة بالعلماء والفقهاء والصالحين- وتاقت نفسه للعلم وهو صغير، وكان أول ما استبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على العلم ورغبته فى الأدب(١)، وجمع عمر بن عبد العزيز القرآن وهو صغير، وساعده على ذلك صفاء نفسه وقدرته الكبيرة على الحفظ، وتفرغه الكامل لطلب العلم والحفظ. وقد تأثر كثيرًا بالقرآن الكريم فى نظرته لله عز وجل والحياة والكون، والجنة والنار، والقضاء والقدر، وحقيقة الموت، وكان يبكى لذكر الموت بالرغم من حداثة سنه، فبلغ ذلك أمه فأرسلت إليه وقالت: ما يبكيك؟ قال: ذكرت الموت. فبكت أمه حين بلغها ذلك(٢)، وقد عاش طيلة حياته مع كتاب الله عز وجل متدبرًا ومنفذًا لأوامره، ومن مواقفه مع القرآن الكريم:

أ ـ عن ابن أبى ذيب: قال: حدثنى من شهد عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة، وقرأ عنده رجل: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] فبكى عمر حتى غلبه البكاء وعلا نشيجه، فقام من مجلسه فدخل بيته، وتفرق الناس(٣). ومفهوم هذه الآية: إذا ألقى هؤلاء المكذبون بالساعة من النار مكانًا ضيقًا، قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾، والثبور فى هذا الموضع دعاء هؤلاء القوم بالندم على انصرافهم عن طاعة الله فى الدنيا، والإيمان بما جاء به نبى الله ﷺ حتى استوجبوا العقوبة(٤).

ب ـ وعن أبى مودود قال: بلغنى أن عمر بن عبد العزيز قرأ ذات يوم: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس: ٦١]. فبكى بكاءً شديدًا حتى سمعه أهل الدار، فجاءت فاطمة ـ زوجته ـ فجعلت تبكى لبكائه، وبكى أهل الدار لبكائهما، فجاء عبد الملك، فدخل عليهم

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٦٧٩).
(٢) المصدر نفسه (١٢/ ٦٧٨).
(٣) الرقة والبكاء لابن أبى الدنيا رقم (٨٣).
(٤) دموع القراء، محمد شومان، ص (١٠٧)، نقلاً عن تفسير ابن جرير.

وهم على تلك الحال يبكون فقال: يا أبه، مـا يبكيك؟ قال: خير يا بنى، ود أبوك أنه لم يعرف الدنيـا ولم تعرفـه، والله يا بنى لقد خشـيت أن أهلك، والله يا بنى لقد خشيت أن أكون من أهل النار[1]. ومعنى الآية: أن الله تعالى يخبر نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمتـه، وجميع الخلائق فى كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمـه وبصره مثقال ذرة في حـقارتها وصغـرها فى السماوات، ولا فى الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا فى كتاب مبين كقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. فأخـبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة فى قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشيـاء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبـادة؟ كما قال تعـالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعـراء: ٢١٧ - ٢١٩]، ولهذا قال تعـالى: إذ تأخذون فى ذلك الشىء نحن مشاهدون لكم، راءون سامعون[2].

ج ـ وعن عبد الأعلى بن أبى عبد الله العنزى قال: رأيت عمر بن عبد العزيز خرج يوم الجمـعة فى ثياب دسمـة، ووراءه حبشى يمشى، فلمـا انتهى إلى الناس رجع الحبشى، فكان عمر إذا انتهى إلى الرجلين قـال: هكذا رحمكما الله، حتى صعد المنبر، فخـطب فقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، فقال: ومـا شأن الشمس؟ ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾، حتى انتهى إلى ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١٢، ١٣] فبكى وبكى أهل المسجـد، وارتج المسجد بالبكاء حتى رأيت أن حيطان المسجد تبكى معه[3]. وهذه السورة جاء فيها الأوصاف التى وصف بها يوم القيـامة من الأوصاف التى تنزعج لهـا القلوب، وتشتـد من أجلها الكروب، وترتعد الفـرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولى الألبـاب للاستعـداد لذلك اليوم،

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبى الدنيا رقم (٩١). (٢) تفسير ابن كثير.

(٣) دموع القراء، ص (١١١، ١١٢).

وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليتدبر سورة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [1]. بل ثبت مرفوعًا «من حديث ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ »[2].

د ـ وعن ميمون بن مهران قال: قرأ عمر بن عبد العزيز ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فبكى ثم قال: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ما أرى المقابر إلا زيارة، ولابد لمن يزورها أن يرجع إلى الجنة أو إلى النار[3]، هذه بعض المواقف التى تبين تأثير القرآن الكريم على شخصية عمر بن عبد العزيز.

٣ ـ الواقع الاجتماعى: إن البيئة الاجتماعية المحيطة لها دور فعال ومهم فى صناعة الرجال وبناء شخصيتهم، فعمر بن عبد العزيز عاش فى زمن ساد فيه مجتمع التقوى والصلاح والإقبال على طلب العلم والعمل بالكتاب والسنة، فقد كان عدد من الصحابة لا زالوا بالمدينة، فقد حدث عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، والسائب بن يزيد، وسهل بن سعد، واستوهب منه قدحًا شرب منه النبى ﷺ، وأمّ بأنس بن مالك، فقال: ما رأيت أحدًا أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى[4]، فكان للإقامة بالمدينة آثار نفسية، ومعان إيمانية، وتعلق روحى، وكان لذلك المجتمع قوة التأثير فى صياغة شخصية عمر بن عبد العزيز العلمية والتربوية[5].

٤ ـ تربيته على أيدى كبار فقهاء المدينة وعلمائها: اختار عبد العزيز والد عمر صالح بن كيسان ليكون مربيًا لعمر بن عبد العزيز، فتولى صالح تأديبه، وكان يلزم عمر الصلوات المفروضة فى المسجد، فحدث يومًا أن تأخر عمر بن عبد العزيز عن

---

(١) تفسير السعدى، ص (٩١٢).

(٢) أخرجه الترمذى رقم ٣٣٣٣، والحاكم (٢/ ٥١٥)، (٤/ ٥٧٦) وصححه ووافقه الذهبى والألبانى فى الصحيحة (٣/ ٧٠).

(٣) الرقة والبكاء لابن أبى الدنيا رقم ٤٢٥ .

(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٤) .

(٥) الجوانب التربوية فى حياة عمر بن عبد العزيز، ص (٢٣).

الصلاة مع الجماعة، فقال صالح بن كيسان: ما يشغلك؟ قال: كانت مرجّلتى[1] تسكن شعرى، فقال: بلغ منك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة؟ فكتب إلى عبد العزيز يذكر ذلك، فبعث أبوه رسولاً فلم يكلمه حتى حلق رأسه[2]، وحرص على التشبه بصلاة رسول الله أشد الحرص، فكان يتم الركوع والسجود ويخفِّف القيام، والقعود. وفى رواية صحيحة: أنّه كان يسبح فى الركوع والسجود عشرًا عشرًا[3]، ولما حج أبوه ومرّ بالمدينة سأل صالح بن كيسان عن ابنه فقال: ما خبرت أحدًا الله أعظم فى صدره من هذا الغلام[4]، ومن شيوخ عمر بن عبد العزيز الذين تأثر بهم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، فقد كان عمر يجله كثيرًا، ونهل من علمه وتأدب بأدبه، وتردد عليه حتى وهو أمير المدينة، ولقد عبّر عمر عن إعجابه بشيخه وكثرة التردد إلى مجلسه فقال: لمجلس من الأعمى - عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود- أحب إلىّ من ألف دينار[5]، وكان يقول فى أيام خلافته لمعرفته بما عند شيخه من علم غزير، لو كان عبيد الله حيًا ما صدرت إلا عن رأيه، ولوددت أن لى بيوم واحد من عبيد الله كذا وكذا[6]، وكان عبيد الله مفتى المدينة فى زمانه، وأحد الفقهاء السبعة[7]، قال عنه الزهرى: كان عبيد الله بن عبد الله بحرًا من بحور العلم[8]، وكان يقرض الشعر، فقد كتب إلى عمر بن عبد العزيز هذه الأبيات:

بسم الذى أنزلت من عنده السور   والحمد لله أمّا بعد يا عمر
إن كنت تعلم ما تأتى وما تذر   فكن على حذر قد ينفع الحذر
واصبر على القدر المحتوم وارض به   وإن أتاك بما لا تشتهى القدر
فما صفا لامرئ عيش يُسرُّ به   إلا سيتبع يومًا صفوه كدر[9]

وقد توفى هذا العالم سنة ٩٨هـ، وقيل: ٩٩هـ[10].

---

(١) مرجلتى: مسرحة شعرى.
(٢) البداية والنهاية (١٢/ ٦٧٨).
(٣) المصدر نفسه (١٢/ ٦٨٢).
(٤) المصدر نفسه (١٢/ ٦٧٨).
(٥) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٥٩)، الطبقات(٥/ ٢٥٠)، تهذيب التهذيب (٧/ ٢٢).
(٦) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٥٩).
(٧) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٧٥).
(٨)، (٩) المصدر نفسه (٤/ ٤٧٧).
(١٠) المصدر نفسه (٤/ ٤٧٨، ٤٧٩)

ومن شيوخ عمر: سعيد بن المسيب، وقد تحدثت عن سيرته فى عهد عبد الملك ابن مروان، وكـان سعيد لا يأتى أحـدًا من الأمراء غير عـمر[١]، ومن شيوخه: سالم بن عبد الله بن عـمر بن الخطاب الذى قال فيه سعيد بن المسـيب: كان عبد الله بن عمر أشـبه ولد، عمر به، وكان سالم أشبـه ولد عبد الله به[٢]، وكان ابن عمر يحب ابنه سالم وكان يلام فى ذلك فكان يقول:

يلومـــوننى فى ســالم وألــومــهم وجلدة بين العين والأنف سالم[٣]

كانــت أمه أم ولد، وقـال فيه ابــن أبى الزناد: كان أهل المدينة يكرهون اتــخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم الغُرُّ الســادة: على بن الحسين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبــد الله، ففاقوا أهل المدينة علمًا وتقى وعبـادة وورعًا، فرغب الناس حينئذ فى السرارى[٤]، وقال عنه الإمام مالك: لم يكن أحـد فى زمان سالـم أشبه بمن مـضى من الصالحـين، فى الزهد والفـضل والعيـش منه، كان يلبس الثـوب بدرهمين، ويشترى الشمال[٥] ليحملها. قال: فقـال سليمان بن عبد الملك لسالم ورآه حـسن السِّحنة: أى شىء تأكل؟ قـال: الخـبر والزَّيت، وإذا وجـدت اللحم أكلته. فقال له عمر: أو تشتهيه؟ قـال: إذا لم أشتهه تركته حتى أشتهيه[٦]، وذات يوم دخل سالم بن عبد الله على سليمـان بن عبد الملك، وعلى سالم ثياب غليظة رثَّة، فلم يزل سليمان يرحب به، ويرفعه حتى أقـعده معه على سريره، وعمر بن عبد العـزيز فى المجلس، فقال له رجل من أُخريات الناس: مـا استطاع خالك أن يلبس ثيابًا فـاخرة أحسن من هذه، يدخل فـيها على أميـر المؤمنين؟ وعلى المتكلم ثياب سريَّة، لها قيمة، فقال له عمر: ما رأيت هذه الثياب التى على خالى وضعته فى مكانك، ولا رأيت ثيابًا هذه رفعتك إلى مكان خالى ذاك[٧].

وتربى وتعلم عمر بن عبد العزيز على يدى كثير من العلماء والفقهاء، وقد بلغ عدد شيوخ عمر بن عبد العزيز ثـلاثة وثلاثين، ثمانية منهم من الصحابة، وخمسة وعشرون من التابعين[٨]، فقد نهل من علمهم وتأدب بأدبهم ولازم مجالسهم حتى

---

(١) الجوانب التربوية فى حياة الخليفة عمر، ص (٢٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٩).
(٣)، (٤) المصدر نفسه (٤/ ٤٦٠).
(٥)، (٦) المصدر نفسه (٤/ ٤٦٠).
(٧) المصدر نفسه (٤/ ٤٦١).
(٨) مسند أمير المؤمنين عمر، ص (٣٣).

ظهرت آثار هذه التربية المتـينة فى أخلاقه وتصرفاته[1]. فامتاز بصلابـة الشخصية والجدية فى معالجة الأمور والحـزم، وإمعان الفكر وإدامة النظر فى القرآن، والإرادة القوية والتـرفع عن الهزل والمزاح[2]، هذه هى أهم العوامل التى أثرت فى تكوين شخصيته. ومن الدروس المستفادة هو أن العلماء الربانيين يقع على عاتقهم مسئولية كبيرة وهى الاهتمام بأولاد الأمراء والحكـام وأهل الجاه والمال، ففى صلاحهم خير عظيم للأمة الإسلامية.

ثالثًا: مكانته العلمية:

اتفقت كلمـة المترجـمين له على أنه من أئمة زمـانه، فقد أطلـق عليه كل من الإمامين: مالك وسفـيان بن عيينة وصف إمام[3]، وقال فيه مجاهد: أتيناه نعلمه فما برحنا حتى تعلَّمنا منه[4]، وقال ميمـون بن مهران: كان عمر بن عـبد العزيز معلم العلماء[5]، قال فيه الذهبى: كان إمـامًا فقيهًا مجتهدًا، عـارفًا بالسنن، كبير الشأن، حافظًا، قـانتًا لله، أوَّاهًا منيبًا، يعـد فى حسن السيرة والقـيام بالقسط مع جده لأمه عمر، وفى الـزهد مع الحسن البصرى، وفى العلم مع الزهرى[6]، وقد احتج الفقـهاء والعلماء بقوله وفعله، ومن ذلك رسالة الإمـام الليث بن سعد إلى الإمام مـالك بن أنس رضى الله عنهما وهى رسـالة قصيـرة وفيهـا يحتج الليث ـ مرارًا ـ بصحة قوله، بقول عمر بن عبد العزيز على مالك فيما ذهب إليه فى بعض مسائله[7]، ويرد ذكر عمر بن عبد العزيز فى كتب الـفقه للمذاهب الأربعة المتبوعة على سبيل الاحتجاج بمذهبه، فاستدل الحنفـية بصنيعه فى كثير من المسائل وجعلوا له وصفًا يتميَّز به عن جدّه لأمه: عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال القرشى فى الجواهر المضيئة: (فائدة) يقول أصحابنا فى كتبـهم فى مسائل الخلاف: وهو قول

(١) الجوانب التربوية فى حياة عمر بن عبد العزيز (١/ ٦٧).
(٢) عمر بن عبد العزيز للزحيلى، ص (٣٠).
(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٦٧).
(٤) تهذيب التهذيب (٧/ ٤٠٥)، الآثار الواردة (١/ ٦٧).
(٥) تاريخ أبى زرعة، (٢٥٥)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٦٧).
(٦) تذكرة الحفاظ، ص (١١٨، ١١٩).
(٧) الآثار الواردة فى عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٧٠).

عمر الصغير. يريدون به عمر بن عبد العزيز الإمام الخليفة المشهور[١]، ويكثر الشافعية من ذكره فى كتبهم، ولذلك ترجم له الإمام النووى ترجمة حافلة فى تهذيب الأسماء واللغات، وقال فى أولها: تكرر فى المختصر والمهذب[٢]. وأما المالكية فيكثرون من ذكره فى كتبهم أكثر من غيرهم، ومالك إمام المذهب ذكر فى «الموطأ» محتجًا بفتواه وقوله فى مواضع عديدة فى موطئه[٣]، وأما الحنابلة فكذلك، يذكرونه كثيرًا، وعمر هو الذى قال فيه الإمام أحمد: لا أدرى قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز وكفاه هذا[٤]، وكفانا قول الإمام أحمد أيضًا: إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ويذكر محاسنه وينشرها فاعلم أن من وراء ذلك خيرًا إن شاء الله[٥]، ومن أراد أن يتبحر فى علم عمر بن عبد العزيز ويعرف مكانته العلمية، فليراجع الكتب الآتية: الآثار الواردة عن عمر ابن عبد العزيز فى العقيدة للأستاذ حياة محمد جبر والكتاب فى مجلدين، وهو رسالة علمية، وكذلك فقه عمر بن عبد العزيز للدكتور محمد سعد شقير فى مجلدين وهو رسالة علمية نال بها المؤلف درجة الدكتوراه، وموسوعة فقه عمر بن عبد العزيز لمحمد رواس قلعجى، وسوف نرى فى بحثنا فقه عمر بن عبد العزيز بإذن الله تعالى فى العقائد والعبادات والسياسة الشرعية، وإدارة الدولة، والنظم المالية والقضائية والدعوية وتقيده بالكتاب والسنة والخلفاء الراشدين فى خطواته وسكناته.

رابعًا: عمر فى عهد الوليد بن عبد الملك:

يعد عمر بن عبد العزيز من العلماء الذين تميزوا بقربهم من الخلفاء، وكان لهم أثر كبير فى نصحهم وتوجيه سياستهم بالرأى والمشورة، ويحتل عمر بن عبد العزيز مكانة متميزة فى البيت الأموى، فقد كان عبد الملك يجله ويعجب بنباهته أثناء شبابه، مما جعله يقدمه على كثير من أبنائه ويزوجه من ابنته، ولكن لم يكن

---

(١) الجواهر المضيئة (٤/ ٥٥٢)، الآثار الواردة (١/ ٧١).

(٢) المختصر والمهذب من كتب الشافعية المشهورة.

(٣) انظر: الموطأ الأرقام الآتية: (٣٠٥، ٥٩٢، ٥٩٤، ٦١٤).

(٤) البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة (١/ ٧٢).

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٦١).

له مشاركات فى عهد عبد الملك بسبب صغر سنه واشتغاله بطلب العلم فى المدينة، ومع ذلك فقد أورد ابن الجوزى أنه كتب إلى عبد الملك كتابًا يذكره فيه بالمسئولية الملقاة على عاتقه، وقد جاء فيها: أما بعد، فإنك راعٍ، وكل راعٍ مسئول عن رعيته، حدثنا أنس بن مالك أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كل راعٍ مسئول عن رعيته»[1]. ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾[النساء: ٨٧].

ويقال إن عمر بن عبد العزيز ولاه عمه عبد الملك خناصره لكى يتدرب على الأعمال القيادية فى وقت مبكر[2]، وقد قيل: إن سليمان بن عبد الملك هو الذى ولاه على خناصره، وهناك من رجح هذا القول. وقد تأثر عمر بن عبد العزيز لموت عمه وحزن عليه حزنًا عظيمًا، وقد خاطب عمر ابن عمه مسلمة بن عبد الملك فقال له: يا مسلمة إنى حضرت أباك لما دفن، فحملتنى عينى عند قبره فرأيته قد أفضى إلى أمر من أمر الله، راعنى وهالنى، فعاهدت الله ألا أعمل بمثل عمله إن وليت وقد اجتهدت فى ذلك[3].

١ ـ ولايته على المدينة:

فى ربيع الأول من عام ٨٧هـ ولاه الخليفة الوليد بن عبد الملك إمارة المدينة المنورة، ثم ضم إليه ولاية الطائف سنة ٩١هـ، وبذلك صار واليًا على الحجاز كلها، واشترط عمر لتوليه الإمارة ثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يعمل فى الناس بالحق والعدل، ولا يظلم أحدًا، ولا يجور على أحد فى أخذ ما على الناس من حقوق لبيت المال، ويترتب على ذلك أن يقل ما يرفع للخليفة من الأموال من المدينة.

الشرط الثانى: أن يسمح له بالحج فى أول سنة، لأن عمر كان فى ذلك الوقت لم يحج.

(١) أثر الحياة السياسية، ص (١٥٩).

(٢) الآثار الواردة فى عمر بن عبد العزيز (١/ ٩٣).

(٣) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، بشير كمال عابدين، ص (١٠).

الشرط الثالث: أن يسمح له بالعطاء أن يخرجه للناس فى المدينة، فوافق الوليد على هذه الشروط، وباشر عمر بن عبد العزيز عمله بالمدينة وفرح الناس به فرحًا شديدًا[١].

٢ ـ مجلس شورى عمر بن عبد العزيز: مجلس فقهاء المدينة العشرة:

كان من أبرز الأعمال التى قام بها عمر بن عبد العزيز تكوينه لمجلس الشورى بالمدينة، فعندما جاء الناس للسلام على الأمير الجديد بالمدينة وصلى، دعا عشرة من فقهاء المدينة، وهم عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأبو بكر بن سليمان بن أبى خيثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وأخوه عبد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد بن ثابت، فدخلوا عليه فجلسوا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: إنى دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعوانًا على الحق، إنى لا أريد أن أقطع أمرًا إلا برأيكم، أو برأى من حضر منكم، فإن رأيتم أحدًا يتعدى، أو بلغكم عن عامل لى ظلامة، فأحرّج الله على من بلغه ذلك إلا أبلغنى[٢]. لقد عرفنا أن عمر ابن الخطاب كان يجمع المجلس للأمر يطرأ، فيرى ضرورة الشورى فيه، أما عمر ابن عبد العزيز، وهو سبط عمر بن الخطاب، فقد أحدث مجلسًا، حدّد صلاحياته بأمرين:

أ- أنهم أصحاب الحق فى تقرير الرأى، وأنه لا يقطع أمرًا إلا برأيهم. وبذلك يكون الأمير قد تخلى عن اختصاصاته إلى هذا المجلس، الذى نسميه «مجلس العشرة».

ب- أنه جعلهم مفتشين على العمال، ورقباء على تصرفاتهم، فإذا ما اتصل بعلمهم أو بعلم أحدهم أن عاملاً ارتكب ظلامة، فعليهم أن يبلغوه وإلا فقد استعدى الله على كاتم الحق. ونلاحظ كذلك على هذا التدبير قد تضمن أمرين:

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٦٣)، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٤١، ٤٢).

(٢) الطبقات (٥/ ٢٥٧)، موسوعة فقه عمر، قلعجى، ص (٥٤٨).

أحدهما: أن الأمير عمر بن عبد العزيز لم يخصص تعويضًا لمجلس العشرة، لأنهم كانوا من أصحاب العطاء، وبما أنهم فقهاء، فما ندبهم إليه داخل فى صلب اختصاصهم.

الثانى: إن عمر افترض غياب أحدهم عن الحضور لعذر من الأعذار، ولهذا لم يشترط فى تدبيره حضورهم كلهم، وإنما قال: «أو برأى من حضر منكم»(١)، إن هذا المجلس كان يستشار فى جميع الأمور دون استثناء(٢)، ونستنتج من هذه القصة أهمية العلماء الربانيين وعلو مكانتهم، وأنه يجب على صاحب القرار أن يدنيهم ويقربهم منه، ويشاورهم فى أمور الرعية، كما أنه على العلماء أن يلتفوا حول الصالح من أصحاب القرار من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن للمصالح، وتقليل ما يمكن من المفاسد، كما أن عمر بن عبد العزيز لم يقتصر فى شوراه على هؤلاء فحسب، بل كان يستشير غيرهم من علماء المدينة، كسعيد بن المسيِّب، والزهرى، وغيرهما، وكان لا يقضى فى قضاء حتى يسأل سعيد، وفى المدينة أظهر عمر عبد العزيز إجلاله للعلماء وإكباره لهم، وقد حدث أن أرسل -رحمه الله تعالى- رسولاً إلى سعيد بن المسيِّب يسأله عن مسألة، وكان سعيد لا يأتى أميرًا ولا خليفة فأخطأ الرسول فقال له: الأمير يدعوك، فأخذ سعيد نعليه وقام إليه فى وقته، فلما رآه عمر قال له: عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك رسولنا عن حاجتنا، فإنا لم نرسله ليدعوك، ولكنه أخطأ، إنما أرسلناه ليسألك(٣)، وفى إمارته على المدينة المنورة وسع مسجد رسول الله ﷺ بأمر من الوليد بن عبد الملك، حتى جعله مائتى ذراع فى مائتى ذراع، وزخرفه بأمر الوليد أيضًا، مع إنه -رحمه الله تعالى- كان يكره زخرفة المساجد(٤)، ويتضح من موقف عمر بن عبد العزيز هنا أنه قد يضطر الوالى للتجاوب مع قرارات من هو أعلى منه حتى وإن كان غير مقتنع بها، إذا قدر أن المصلحة فى ذلك أكبر من وجوه أخرى.

---

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (١/ ٥٦١، ٥٦٢).

(٢) نظام الحكم فى الإسلام بين النظرية والتطبيق، ص (٣٩١).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه لابن عبد الحكم، ص (٢٣).

(٤) تفسير القرطبى (١٢/ ٢٦٧)، موسوعة فقه عمر بن عبد العزيز، ص (٢٠).

وفى إمارته على المدينة فى سنة ٩١هـ حج الخليفة الوليد بن عبد الملك فاستقبله عمر بن عبد العزيز أحسن استقبال، وشاهد الوليد بأم عينيه الإصلاحات العظيمة التى حققها عمر بن عبد العزيز فى المدينة المنورة(١).

٣ ـ الحادث المؤسف فى ولاية عمر:

قال العلماء فى السير: كان خبيب بن عبد الله بن الزبير قد حدَّث عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا بلغ بنو أبى العاص(٢) ثلاثين رجلاً اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دولاً»(٣) وهو حديث ضعيف؛ فبعث الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز ـ واليه على المدينة ـ يأمره بجلده مائة سوط وبحبسه، فجلده عمر مائة سوط، وبرد له ماءً فى جرّة ثم صبه عليه فى غداة باردة فكزّ(٤)، فمات فيها. وكان عمر قد أخرجه من السجن حين اشتد وجعه، وندم على ما صنع معه وحزن عمر على موت خبيب، فقد روى مصعب بن عبد الله عن مصعب بن عثمان أنهم نقلوا خبيبًا إلى دار عمر بن مصعب بن الزبير ببقيع الزبير واجتمعوا عنده حتى مات، فبينما هم جلوس، إذ جاءهم الماجشون يستأذن عليهم وخبيب مسجى بثوبه. وكان الماجشون مع عمر بن عبد العزيز فى ولايته على المدينة. فقال عبد الله بن عروة: ائذنوا له. فلما دخل قال: كأن صاحبكم فى مرية من موته، اكشفوا له عنه، فكشفوا عنه، فلما رآه الماجشون انصرف. قال الماجشون: فانتهيت إلى دار مروان، فقرعت الباب ودخلت فوجدت عمر كالمرأة الماخض قائمًا وقاعدًا، فقال لى: ما وراءك؟ فقلت: مات الرجل. فسقط على الأرض فزعًا ثم رفع رأسه يسترجع فلم يزل يعرف فيه حتى مات. واستعفى من المدينة، وامتنع من الولاية. وكان كلما قيل له: إنك قد صنعت كذا فأبشر، فيقول: كيف بخبيب؟(٥)، ولم يزل يذكرها ويتصورها أمام عينيه حتى مات(٦).

---

(١) موسوعة فقه عمر بن عبد العزيز، ص (٢٠) .

(٢) بنو أبى العاص: أى بنو العاص بنى أمية الجد الثالث لكل من الوليد وعمر بن عبد العزيز .

(٣) الحديث رواه البيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ٥٠٧)، عن أبى سعيد وأبى هريرة قال ابن كثير -رحمه الله- بعد ذكر طرق أخرى ورد بها هذا الحديث: وهذه الطرق كلها ضعيفة، انظر البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٩٨) .

(٤) كزّ الرجل: فهو مكزوز، أصابه داء الكزاز، وهو يبس وانقباض من البرد .

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٤٣، ٤٤). (٦) المصدر نفسه، ص (٤٢).

ومن الأدلة على صلاح عمر بن عبد العزيز وقت ولايته على المدينة غير ما ذكر: ما رواه أبو عمر مولى أسماء بنت أبى بكر قال: فأتيته فى مجلسه الذى يصلى فيه الفجر والمصحف فى حجره، ودموعه تسيل على لحيته[1]، وحدّث ابن أبى الزناد عن أبيه، قال: كان عمر بن عبد العزيز وهو أمير على المدينة إذا أراد أن يجود بالشىء قال: ابتغوا أهل بيت بهم حاجة[2].

٤ ـ عظة مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز له:

حبس عمر رجلاً بالمدينة، وجاوز عمر فى حبسه القدر الذى يستحقه، فكلمه مزاحم فى إطلاقه، فقال له عمر: ما أنا بمخرجه حتى أبلغ فى الحيطة عليه بما هو أكثر مما مرّ، فقال: مزاحم -مغضبًا-: يا عمر بن عبد العزيز، إنى أحذرك ليلة تمخض بالقيامة، وفى صبيحتها تقوم الساعة، يا عمر، ولقد كدت أنسى اسمك مما أسمع؛ قال الأمير، قال الأمير، قال الأمير، قال عمر: إن أول من أيقظنى لهذا الشأن مزاحم، فوالله ما هو إلا أن قال ذلك، فكأنما كشف عن وجهى غطاء[3]. وهذه القصة تبين لنا أهمية الصديق الصالح المخلص الذى يذكرك بالله حين الغفلة.

٥ ـ بين عمر بن عبد العزيز والحجّاج فى خلافة الوليد:

ذكر ابن الجوزى أن عمر بن عبد العزيز قد استعفى من المدينة -كما مرّ ذكره- ولكن ذكر غيره أنه عزل عنها، ففى سنة ٩٢هـ عقد الخليفة الوليد لواء الحج للحجاج بن يوسف الثقفى ليكون أميرًا على الحج، ولما علم عمر بن عبد العزيز بذلك، كتب رحمه الله تعالى إلى الخليفة يستعفيه أن يمرَّ عليه الحجاج بالمدينة المنورة، لأن عمر بن عبد العزيز كان يكره الحجّاج، ولا يطيق أن يراه، لما هو عليه من الظلم، فامتثل الوليد لرغبة عمر، وكتب إلى الحجّاج: إن عمر بن عبد العزيز كتب إلىَّ يستعفينى من ممرك عليه، فلا عليك أن لا تمر بمن كرهك فتنحّ عن المدينة[4]، وقد كتب عمر بن عبد العزيز -وهو والٍ على المدينة- إلى الوليد بن

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص(٤٢) .

(٢) المصدر نفسه صـ٤٢، الآثار الواردة (١/ ٦٦).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١٤٠).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه، لابن الحكم، ص (٢٤).

عبد الملك يخبره عما وصل إليه حال العراق من الظلم والضيم والضيق بسبب ظلم الحجّاج وغشمه، مما جعل الحجّاج يحاول الانتقام من عمر، لاسيما وقد أصبح الحجاز ملاذًا للفارين من عسف الحجاج وظلمه حيث كتب الحجّاج إلى الوليد: إن من قبلى من مراق أهل العراق وأهل الثقاف قد جلوا عن العراق، ولجأوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وهن. فكتب إليه يشير عليه بعثمان بن حبان، وخالد بن عبد الله القسرى، وعزل عمر عبد العزيز[1]. وقد كان ميول الوليد لسياسة الحجّاج واضحًا، وكان يظن بأن سياسة الشدة والعسف هى السبيل الوحيد لتوطيد أركان الدولة، وهذا ما حال بينه وبين الأخذ بآراء عمر بن عبد العزيز ونصائحه، وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أن ما كان يراه عمر أفضل مما كان يسير عليه الوليد، وذلك بعد تولى عمر الخلافة وتطبيقه لما كان يشير به[2].

٦ ـ عودة عمر بن عبد العزيز إلى دمشق:

خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة المنورة وهو يبكى ومعه خادمه مزاحم، فالتفت إلى مزاحم وقال: يا مزاحم، نخشى أن نكون ممن نَفَتْ المدينة[3]، يشير بذلك إلى قول رسول الله ﷺ: «ألا وإن المدينة كالكير يخرج الخبث، لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها، كما ينفى الكير خبث الحديد»[4]. قال مزاحم: ولما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة نظرت فإذا القمر فى الدبران[5] ـ كأنه تشاءم من ذلك ـ فقال: فكرهت أن أقول ذلك له فقلت: ألا تنظر إلى القمر ما أحسن استواءه فى هذه الليلة! فنظر عمر فإذا هو بالدبران، فقال: كأنك أردت أن تعلمنى أن القمر بالدبران. يا مزاحم: إنا لا نخرج بشمس ولا بقمر، ولكن نخرج بالله الواحد القهار[6]، وسار عمر حتى وصل السويداء، وكان له فيها بيت ومزرعة، فنزل فيها فأقام مدة يرقب الأوضاع عن بعد، ثم رأى أن مصلحة المسلمين تقتضى

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٣٨٣).
(٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص(١٦٥).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه لابن الحكم، ص (٢٧).
(٤) مسلم، ك الحج، باب: المدينة تنفى شرارها.
(٥) الدبران: نجم بين الثريا والجوزاء، ويقال له: التابع والتوبيع، وهو من منازل القمر سمى دبرانًا لأنه يدبر الثريا، أى يتبعها.
(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٢٧).

أن تكون إقامته فى دمشق، بجوار الخليفة، لعله بذلك يستطيع أن يمنع ظلمًا، أو يشارك فى إحقاق حق، فانتقل إلى دمشق فأقام بها[1]، ولم يكن عمر بن عبد العزيز على وفاق تام مع الخليفة الوليد بن عبد الملك، ولذلك فإن إقامته فى دمشق بجوار الوليد لم تخلُ من مشاكل، فالوليد يعتمد فى تثبيت حكمه على ولاة أقوياء قساة يهمهم إخضاع الناس بالقوة، وإن رافق ذلك كثير من الظلم، بينما يرى عمر إن إقامة العدل بين الناس كفيل باستقرار الملك وائتمارهم بأمر السلطان، فكان رحمه الله يقول: الوليد بالشام، والحجّاج بالعراق، ومحمد بن يوسف ـ أخو الحجّاج ـ فى اليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرة بن شريك فى مصر، . . امتلأت والله الأرض جورًا[2].

٧ ـ نصح عمر للوليد بالحد من صلاحيات عماله فى القتل:

سلك عمر بن عبد العزيز بعض الطرق والوسائل لإصلاح هذا الوضع، فمن ذلك نصحه للوليد بالحد من صلاحيات عماله فى القتل، وقد نجح فى بادئ الأمر فى استصدار قرار يمنع أى والٍ من القتل إلا بعد علم الخليفة، وموافقته على ذلك، فيذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن عبد العزيز دخل على الوليد بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين إن عندى نصيحة، فإذا خلا لك عقلك، واجتمع فهمك فسلنى عنها، قال: ما يمنعك منها الآن؟ قال: أنت أعلم، إذا اجتمع لك ما أقول فإنك أحق أن تفهم، فمكث أيامًا ثم قال: يا غلام مَنْ بالباب؟ فقيل له ناس وفيهم عمر بن عبد العزيز، فقال: أدخله، فدخل عليه فقال: نصيحتك يا أبا حفص، فقال عمر: إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم، وأن عمالك يقتلون، ويكتبون إن ذنب فلان المقتول كذا وكذا، وأنت المسئول عنه والمأخوذ به، فاكتب إليهم ألا يقتل أحد منهم أحدًا حتى يكتب بذنبه ثم يشهد عليه، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك. فقال: بارك الله فيك يا أبا حفص ومنع فقدك. علىَّ بكتاب، فكتب إلى أمراء الأمصار كلهم، فلم يحرج من ذلك إلا الحجّاج فإنه أمضه، وشق عليه وأقلقه. وظن أنه لم يكتب إلى أحد غيره، فبحث عن

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٦٨٣).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٤٦)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٦٢).

ذلك، فقال: من أين ذهبنا؟ أو من أشار على أمير المؤمنين بهذا؟ فأُخبر أن عمر ابن عبد العزيز هو الذى فعل ذلك، فقال: هيهات إن كان عمر فلا نقض لأمره. ثم أن الحجّاج أرسل إلى إعرابى حرورى - من الخوارج - جافٍ من بكر بن وائل، ثم قال له الحجّاج: ما تقول فى معاوية؟ فنال منه. قال: ما تقول فى يزيد؟ فسبه. قال: فما تقول فى عبد الملك؟ فظلمه. قال: فما تقول فى الوليد؟ فقال: أَجْوَرُهم حين ولاك وهو يعلم عداءك وظلمك. فسكت الحجّاج وافترصها منه[1]، ثم بعث به إلى الوليد وكتب إليه: أنا أحوط لدينى، وأرعى لما استرعيتنى، وأحفظ له من أن أقتل أحدًا لم يستوجب ذلك، وقد بعثت إليك ببعض من كنت أقتل على هذا الرأى، فشأنك وإياه. فدخل الحرورى على الوليد وعنده أشراف أهل الشام وعمر فيهم، فقال له الوليد: ما تقول فىّ؟ قال: ظالم جبار. قال: ما تقول فى عبد الملك؟ قال: جبار عاتٍ. قال: فما تقول فى معاوية؟ قال: ظالم. قال الوليد لابن الريان اضرب عنقه فضرب عنقه، ثم قام فدخل منزله وخرج الناس من عنده فقال: يا غلام اردد علىّ عمر، فرده عليه فقال: يا أبا حفص ما تقول بهذا؟ أصبنا أم أخطأنا؟ فقال عمر: ما أصبت بقتله، ولغير ذلك كان أرشد وأصوب، كنت تسجنه حتى يراجع الله عز وجل أو تدركه منيته، فقال الوليد: شتمنى وشتم عبد الملك وهو حرورى، أفتستحل ذلك؟ قال: لعمرى ما أستحله، لو كنت سجنته إن بدا لك أو تعفو عنه، فقام الوليد مغضبًا، فقال ابن الريان لعمر: يغفر الله لك يا أبا حفص، لقد راددت أمير المؤمنين حتى ظننت أنه سيأمرنى بضرب عنقك[2]، وهكذا احتال الحجّاج على الوليد ليصرفه على الأخذ برأى عمر فى الحد من سرف الحجّاج وأمثاله فى القتل[3].

٨- رأى عمر بن عبد العزيز فى التعامل مع الخوارج:

فبالإضافة إلى الموقف الذى مرّ ذكره آنفًا - فى شأن الحرورى الذى بعث به الحجّاج - وردت روايات توضح الموقف نفسه، فعن ابن شهاب أن عمر بن عبد

(١) افترصها: انتهزها.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١١٩ - ١٢١)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٦٤).

(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص(١٦٤).

العزيز أخبره أن الوليد أرسل إليه بالظهيرة، فوجده قاطبًا بين عينيه، قال: فجلست وليس عنده إلا ابن الريان، قائم بسيفه، فقال: ما تقول فيمن يسب الخلفاء؟ أترى أن يقتل؟ فسكت، فانتهرني، وقال: مالك؟ فسكت، فعاد لمثلها، فقلت: أقتل يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكنه سب الخلفاء، قلت: فإني أرى أن يُنكل، فرفع رأسه إلى ابن الريان، فقال الوليد: إنه فيهم لتائه.

٩- نصحه الوليد عندما أراد خلع سليمان والبيعة لابنه:

ومن آخر المواقف التي ذكرت لعمر بن عبد العزيز في عهد الوليد بن عبد الملك نصحه للوليد عندما أراد خلع سليمان والبيعة لابنه عبد العزيز من بعده، فوقف عمر من ذلك موقفًا حازمًا حيث لم يستجب لأمر الوليد في ذلك، وقال حين أراده على ذلك: يا أمير المؤمنين إنما بايعنا لكما في عقدة واحدة فكيف نخلعه ونتركك؟ فغضب الوليد على عمر، وحاول استخدام الشدة معه لعله يوافقه على ما أراد، فيذكر أنه أغلق عليه الدار وطيَّن عليه الباب حتى تدخلت أم البنين أخته وزوجة الوليد، ففتح عنه بعد ثلاث وقد ذبل ومالت عنقه[1].

خامسًا: عمر في عهد سليمان بن عبد الملك:

في عهد سليمان تهيأت الفرص لعمر بن عبد العزيز بقدر كبير، فظهرت آثاره في مختلف الجوانب، فبمجرد تولى سليمان الخلافة قرب عمر بن عبد العزيز وأفسح له المجال واسعًا حيث قال: يا أبا حفص إنا ولينا ما قد ترى، ولم يكن بتدبيره علم، فما رأيت من مصلحة العامة فمُر به[2]. وجعله وزيرًا ومستشارًا ملازمًا له في إقامته أو سفره، وكان سليمان يرى أنه محتاج له في صغيره وكبيره، فكان يقول: ما هو إلا أن يغيب عني هذا الرجل فما أجد أحدًا يفقه عني[3]. وفي موضع آخر قال: يا أبا حفص ما اغتممت بأمر، ولا أكربني أمر إلا خطرت فيه على بالي[4].

١ ـ أسباب تقريب سليمان لعمر: والذي دفع سليمان إلى إفساح المجال أمام عمر بهذه الصورة يعود في نظري إلى عدة أسباب منها:

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/١٤٨، ١٤٩)، أثر العلماء، ص (١٦٧).

(٢) المصدر نفسه نقلاً عن أثر العلماء ص (١٦٨).　　(٣) المعرفة والتاريخ للفسوي (١/٥٩٨).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٢٨)، أثر العلماء، ص (١٦٨).

أ- **شخصية سليمان بن عبد الملك:** حيث لم يكن مثل أخيه الوليد معجبًا بنفسه، معتدًا برأيه وواقعًا تحت تأثير بعض ولاته، بل كان سليمان على العكس من ذلك غير معتد برأيه، خاليًا من التأثيرات الأخرى عليه.

ب- **قناعة سليمان بما يتمتع به عمر من نظرات وآراء صائبة.**

جـ- **موقف عمر من محاولة الوليد لخلع سليمان،** مما جعل سليمان يشكر ذلك لعمر، وقد أشار لهذا الذهبي حيث قال بعد عرضه لموقف عمر: فلذلك شكر سليمان عمر وأعطاه الخلافة بعده[(١)].

٢ - **تأثير عمر على سليمان فى إصدار قرارات إصلاحية:** فقد كان لعمر أثر كبير على سليمان فى إصدار عدد من القرارات النافعة، ومن أهمها: عزل ولاة الحجّاج، وبعض الولاة الآخرين، كوالى مكة، خالد القسرى، ووالى المدينة عثمان ابن حيان[(٢)]، ومنها الأمر بإقامة الصلاة فى وقتها، فأورد ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز: أن الوليد بن عبد الملك كان يؤخر الظهر والعصر، فلما ولى سليمان كتب إلى الناس - عن رأى عمر - أن الصلاة كانت قد أميتت فأحيوها[(٣)]، وهناك أمور أخرى أجملها الذهبي بقوله: مع أمور جليلة كان يسمع من عمر فيها[(٤)].

٣ - **إنكاره على سليمان بن عبد الملك فى تحكيمه كتاب أبيه:** كلَّم عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك فى ميراث بعض بنات عبد العزيز من بنى عبد الملك، فقال له سليمان بن عبد الملك: إن عبد الملك كتب فى ذلك كتابًا منعهن ذلك، فتركه يسيرًا ثم راجعه، فظن سليمان أنه اتهمه فيما ذكر من رأى عبد الملك فى ذلك الأمر، فقال سليمان لغلامه: ائتنى بكتاب عبد الملك، فقال له عمر: أبا لمصحف دعوتَ يا أمير المؤمنين؟ فقال أيوب بن سليمان: ليوشكن أحدكم أن يتكلم الكلام تضرب فيه عنقه، فقال له عمر: إذا أفضى الأمر إليك، فالذى دخل على المسلمين أعظم مما تذكر، فزجر سليمان أيوب، فقال عمر: إن كان جهل فما حلمُنا عنه[(٥)]. فهذا موقف من مواقف الجرأة فى قول الحق الذى يُحمد لعمر

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٩).
(٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٦٩).
(٣) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٧٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٥).
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٣١).

حيث اعتبر سليمان بن عبد الملك كتابة أبيه شرعًا لا يمكن تغييره، فنبهه عمر إلى أن الكتــاب الذى لا ينقض ولا يغيّــر هو كتــاب الله تعالى وحــده، وهكذا يصل الطغيــان بضحاياــه إلى تعظيم شأن الآباء والأجداد الذيــن ورّثوا ذلك المجد الزائل لأبنائهم إلى الحد الذى يعتبرون فيه قضاءهم شــرعًا نافذًا، من غير نظر فى موافقته لحكم الإسلام أو مخالفته، وهنا مــوقف يذكر لسليمان حيث وبخ ولده الذى هدد عمر أن قال كلــمة الحق، وهذا يدل على ما يتصف به سليمان من ســرعة الرجوع إلى الحق إذا تبين له[1].

٤ ـ إنكاره على سليــمان بن عــبد الملك فى الإنــفاق: قدم سليــمان بن عــبد الملك المدينة فأعطى بها مالاً عظيــمًا، فقال لعمر بن عبد العــزيز: كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص؟ قــال: رأيتك زدت أهل الغنى غنى، وتركت أهل الفــقر بفــقرهم[2]. فهذا تقويم جــيد من عمر بن عبد العــزيز لعمل سليمان بن عبــد الملك، فقد كان سليمــان لجهله- بدقائق أحكام الشريعــة فى مجال الإنفاق ـ يظن أنه بإنــفاقه ذلك المال الكثير على الرعيــة قد عمل صالحًا، فأفاده عمر بن عــبد العزيز بأنه قد أخطأ حينما صرف ذلــك المال لغير مستحقــيه، وحرم منه أهله[3]، فقد بيَّن عمر رحمه الله أهمية التفريق بين بذل الخير وصرفه لمستحقيه.

٥ ـ حث عمــر سليمــان على رد المظالم: خرج سليــمان ومعــه عمــر إلى البوادى، فأصابه سحاب فيه برق وصواعق، ففــزع منه سليمان ومن معه، فقال عمر: إنما هذا صوت نعمــة، فكيف لو سمعت صوت عــذاب؟ فقال سليمــان: خذ هذه المائة ألف درهم وتصدق بهــا، فقال عــمر: أو خيــر من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قــال: وما هو؟ قال: قوم صحبوك فى مظالم لم يصلوا إليك، فجلس سليمان فرد المظالم[4]، ويظهر عند عمر وضوح فقه ترتيب الأولويات، فرد المظالم مقدم على بذل الصدقات.

٦ ـ أرى دنيا يأكل بعضها بعضًا: أقبل سليمان بن عبد الملك، وهو أمير المؤمنين، ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان، وفيه تلك الخيول والجمال والبغال

(١) التاريخ الإسلامى (١٥/ ٣٠،٣١) .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، ص (١٣١). (٣) التاريخ الإسلامى (١٥/ ٢٩).
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص (٣٣)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٧٠).

والأثقال والرجال، فقـال سليمان: ما تقول يا عمـر فى هذا؟ قال: أرى دنيا يأكل بعضها بعـضًا، وأنت المسئول عن ذلك كله. فلما اقتـربوا من المعسكر، إذا غراب قد أخذ لقمـة فى فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بـها ونعب نعبة[1]، فقال له سليمـان: ما تقول فى هذا يا عمـر؟ فقال: لا أدرى. فقال: مـا ظنك أنه يقول؟ قال: كأنه يقول: من أين جاءت؟ وأين يذهب بها؟ فقال له سليمان: ما أعجبك؟ فقال عمر: أعجب منى من عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه[2].

٧ ـ هم خصماؤك يوم القيامة: لما وقف سليمان وعمر بعرفة جعل سليمان يعجب من كثرة الناس، فقال له عمر: هؤلاء رعيتُّك اليوم، وأنت مسئول عنهم غدًا وفى رواية: وهم خصماؤك يوم القيامة، فبكى سليمان وقال: بالله أستعين[3].

٨ ـ زيد بن الحسن بن على مع سليمـان: كان زيد بـن الحسن بن على قـد أجاب الوليد بن عبد الملك فى مـسألة خلع سليمان خوفًا من الوليد، وكـتب بموافقته من المدينة إلى الوليد، فـلما استخـلف سليمان وجـد الكتاب، فبـعث إلى واليه على المدينة، أن يسأل زيدًا عن أمر الكتاب، فإن هو اعترف به فليبعث بذلك إليه، وإن أنكر فعليه اليمين أمام منبر رسول اللـه ﷺ، فلما بعث باعترافه إلى سليمان كتب سليمان إلى والى المدينة أن يضربه مائة سوط ويمشيه حافيًا. . فحبس عمر الرسول وقال: لا تخرج حتى أكلم أمير المؤمنين فيما كتب فى زيد بن الحسن؛ لعلى أطيب نفســه فيترك هذا الكتــاب. فجلس الرسول فمـرض سليمان، فقـال للرسول: لا تخرج فإن أمـير المؤمنين مريض، فلما توفى سليـمان وأفضى الأمر إلى عـمر دعا بالكتاب ومزقه[4]. وظل عمر بن عبـد العزيز قريبًا من سليمان طيلة مـدة خلافته يحوطه بنصحه ويشاركه مسئولياته[5]، ويرى الدكتور يوسف العش أن سياسة عمر بن عبد العزيز ومنـطلقاتها بدأت منذ بداية خلافة، سليمـان، نعم أن سليمان كان يشتط حينًا فى سياسته، فيتخذ تدابير لعل عمر لا يقرها، لكن عمر بن عبد العزيز كان بالرغم من ذلك راجح الـقوة فى خلافتـه وسياســة عمر لم تتـغير، فـهو فى

(١) نعب الغراب: صوَّت أو مد عنقه وحرك رأسه فى صياحه.

(٢)، (٣) البداية والنهاية (١٢/ ٦٨٥).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٠٤).

(٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٧٣).

دمشق مثله فى المدينة، على أنه فى دمشق يستطيع أن يفعل أكثر من المدينة، والأمر المهم عنده هو منع الجور[1] والظلم والعسف، ونلاحظ أن عمر بن عبد العزيز تعامل مع سنة التدرج وفقه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى رد المظالم ومنعها، وعندما وصل للخلافة ازداد فى إحقاق العدل ومحاربة الظلم لأن الصلاحيات المتاحة كانت أكبر، فهو نصح عمه عبد الملك وذكره بالآخرة مع جبروته وظلمه، ولم يتقاعس فى عهد ابن عمه الوليد، وتقدم خطوات، ووفق حسب الإمكان فى عهد سليمان، وأتيحت له الفرصة فى خلافته، وبالتالى لا نقول إن ما حدث لعمر على مستواه الشخصى انقلاب، وإنما الانقلاب فى توظيف الدولة لخدمة الشريعة فى كل شئون الحياة ولو كان على حساب العائلة الحاكمة، التى كانت لها مخصصاتها وصلاحياتها، والتى اعتبرها عمر بن عبد العزيز حقوقًا للأمة يجب ردها إلى بيت المال أو إلى أصحابها الأصليين.

سادسًا: خلافة عمر بن عبد العزيز:

ومن حسنات سليمان عبد الملك قبوله نصيحة الفقيه العالم رجاء بن حيوة الكندى، الذى اقترح على سليمان فى مرض موته أن يولى عمر بن عبد العزيز، وكانت وصية لم يكن للشيطان فيها نصيب[2]، قال ابن سيرين: يرحم الله سليمان؛ افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز، وكانت سنة وفاته سنة ٩٩هـ، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، وكان منقوشًا فى خاتمه: (أؤمن بالله مخلصًا)[3]، وتعددت الروايات فى قصة استخلاف سليمان لعمر، وقد ذكرت بعضها فى حديثى عن عهد سليمان، ومن الروايات أيضًا: ما ذكره ابن سعد فى طبقاته، عن سهيل بن أبى سهيل قال: سمعت رجاء بن حيوة يقول: لما كان يوم الجمعة لبس سليمان بن عبد الملك ثيابًا خضرًا من خز ونظر فى المرآة فقال: أنا والله الملك الشاب، فخرج إلى الصلاة يصلى بالناس الجمعة فلم يرجع حتى وعك، فلما ثقل كتب كتاب عهده إلى ابنه أيوب، وهو غلام لم يبلغ، فقلت: ما تصنع يا أمير المؤمنين؟ إنه مما يحفظ به الخليفة فى قبره أن يستخلف

(١) الدولة الأموية، يوسف العش، ص (٢٥٤).

(٢) عصر الدولتين الأموية والعباسية للصَّلاَّبى، ص (٣٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ١١١، ١١٢).

الرجل الصالح، فقال سليمان: كتاب أستخير الله فيه، وأنظر، ولم أعزم عليه، فمكث يومًا أو يومين، ثم خرقه ثم دعانى، فقال: ما ترى فى داود بن سليمان؟ فقلت: هو غائب بقسطنطينية، وأنت لا تدرى أحى هو أم ميت. قال: يا رجاء فمن ترى؟ قال: فقلت: رأيك يا أمير المؤمنين، وأنا أريد أن أنظر من يذكر. فقال: كيف ترى فى عمر بن عبد العزيز؟ فقلت: أعلمه والله فاضلاً خيارًا مسلمًا. فقال: هو على ذلك، والله لئن وليته، ولم أولِّ أحدًا من ولد عبد الملك لتكونن فتنة ولا يتركونه أبدًا يلى عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده - ويزيد بن عبد الملك غائب على الموسم - قال: فيزيد بن عبد الملك اجعله بعده، فإن ذلك مما يسكنه ويرضون به، قلت: رأيك، قال: فكتب بيده بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إنى وليته الخلافة من بعدى، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله، ولا تختلفوا، فيطمع فيكم. وختم الكتاب فأرسل إلى كعب بن حامد صاحب الشرطة أن مرْ أهل بيتى فليجتمعوا، فأرسل إليهم كعب، فجمعهم، ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم: اذهب بكتابى هذا إليهم، فأخبرهم أنه كتابى ومرهم فليبايعوا من وليت. قال: ففعل رجاء، فلما قال لهم ذلك رجاء قالوا: سمعنا وأطعنا لمن فيه، وقالوا: ندخل فنسلم على أمير المؤمنين، قال: نعم. فدخلوا فقال لهم سليمان: هذا الكتاب - وهو يشير لهم، وهم ينظرون إليه فى يد رجاء بن حيوة - هذا عهدى، فاسمعوا، وأطيعوا، وبايعوا لمن سميت فى هذا الكتاب. قال: فبايعوا رجلاً رجلاً. قال: ثم خرج بالكتاب مختومًا فى يد رجاء. قال رجاء: فلما تفرقوا جاءنى عمر بن عبد العزيز فقال: يا أبا المقدام، إن سليمان كانت لى به حرمة ومودة، وكان بى برًا ملطفًا، فأنا أخشى أن يكون قد أسند إلىَّ من هذا الأمر شيئًا، فأنشدك الله وحرمتى ومودتى، إلا أعلمتنى إن كان ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن يأتى حال لا أقدر فيها علىَّ ما أقدر الساعة. فقال رجاء: لا والله لا أخبرك حرفًا واحدًا. قال: فذهب عمر غضبان. قال رجاء: ولقينى هشام بن عبد الملك، فقال: يا رجاء، إن لى بك حرمة ومودة قديمة، وعندى شكر، فأعلمنى أهذا الأمر إلىّ؟ فإن كان إلىَّ علمت، وإن كان إلى غيرى تكلمت، فليس مثلى قصر به، ولا نحى عنه هذا الأمر، فأعلمنى فلك الله لا أذكر اسمك أبدًا. قال رجاء: فأبيت وقلت: لا والله لا أخبرك حرفًا واحدًا مما أسر إلىَّ. ، فانصرف هشام.. وهو يضرب بإحدى يديه

على الأخرى، وهو يقـول: فإلى مَنْ إذا نُحيت عنى؟ أتخرج من بنى عـبد الملك؟ فوالله إنى لعين بنى عبد الملك، قال رجـاء: ودخلت على سليمان بن عبد الملك، فإذا هو يمـوت. قال: فجـعلت إذا أخذته سكرة من سكرات الموت، حرفـته إلى القبلة، فـجعل يقـول وهو يفأق: لم يأت ذلك بعـد يا رجاء. حتـى فعلت ذلك مرتين. فلما كانت الثالثة قال: من الآن يا رجاء، إن كنت تريد شيئًا، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهـد أن محـمدًا عبـده ورسوله. قـال: فحرفـته، ومـات، فلما أغمضته سـجيته بقطيفة خضراء وأغلقت البـاب، وأرسلت إلى زوجته تنظر إليه، كيف أصبح، فقلت: نام وقد تغطى، فنظر الرسـول إليه، مغطى بالقطيفة فرجع، فأخبرها، فقبلت ذلك، وظنت أنه نائم. قال رجاء: وأجلست على الباب من أثق به وأوصيته أن لا يريم حتى آتيه، ولا يدخل على الخليـفة أحدًا. قال: فخرجت، فأرسلت إلى كعب بن حامد العنسى، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين، فاجتمعوا فى مسجد دابق، فـقلت: بايعوا، قالوا: قد بايعنا مرة ونبايـع أخرى! قلت: هذا أمير المؤمنين، بايعوا على ما أمر به، ومن سمى فى هذا الكتاب المختوم، فبايعوا الثانية رجلاً رجلاً. قـال رجاء: فلما بايعـوا بعد موت سليمـان، رأيت أنى قد أحكمت الأمر، قلت: قـوموا إلى صاحبكم فقـد مات. قالوا: إنا لله وإنا إليـه راجعون، وقرأت عليهم الكتاب، فلـما انتهيت إلى ذكر عمر بن عـبد العزيز نادى هشام: لا نبايعـه أبدًا. قال: قلت: أضرب والله عنقك، قم فبـايع. فقام يجر رجلـيه. قال رجاء: وأخـذت بضبعى عمـر، فأجلسته علـى المنبر، وهو يسترجع لما وقع فـيه، وهشام يـسترجع لما أخطـاه، فلما انتـهى هشام إلى عـمر، قال: إنا لله وإنـا إليه راجعون، أى حين صـار هذا الأمر إليك على ولد عبد الملك، قال: فـقال عمر: نعم، فإنا لله وإنا إليه راجعـون، حين صار إلىَّ لكراهتى له[1]. وقال أبو الحسن الندوى على موقف رجـاء بن حيوة: وكـان لرجاء مأثرة لا ينسـاها الإسلام، ولا أعرف رجلاً من ندماء الملوك ورجالهم انتفع بقربه ومنزلته عند الملوك مثل انتفاعه، وانتهز الفرصة مثل انتـهازه، وأسدى للإسلام خدمة مثله[2]، فرحم الله رجاء بن حيوة فقـد رسم منهجًا لمن يجلس مع الملوك من العلماء كيف يـعز الإسلام ويذكر الخلفاء بالله وينتهز الفرص المناسبة لخدمة دين الله.

---

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٤٥)، الطبقات (٥/ ٣٣٥ ـ ٣٣٨).

(٢) رجال الفكر والدعوة للندوى (١/ ٤٠).

١ ـ منهج عمر فى إدارة الدولة من خلال خطبته الأولى:

صعد عمر المنبر وقال فى أول لقاء مع الأمـة بعد استخلافه: أيها الناس إنى قد ابتليت بهـذا الأمر عن غـير رأى كـان منى فـيه، ولا طلبـة له، ولا مشـورة من المسلمين، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعـتى، فاختاروا لأنفسكم. فصاح الناس صيحة واحـدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيـنا بك، فوّل أمرنا باليمن والبركة. وهنـا شعر أنه لا مفر من تحـمل مسئوليـة الخلافة، فأضـاف قائلاً يحدد منهجه وطريقته فى سـياسة الأمة المسلمة[١]: أما بعد، فإنه ليس بعد نبيكم نبى، ولا بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب، ألا إن ما أحل الله حلال إلى يوم القيامة، ألا إنى لست بقـاض، ولكنى منفذ، ألا وإنى لست بمبـتدع ولكنى مـتبع، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع فى مـعصية الله، ألا إنى لست بخـيركم، ولكنى رجل منكم غير أن الله جعلنى أثقلكم حملاً. أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس، و إلا فلا يقـربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يسـتطيع رفعها، ويـعيننا على الخير بجـهده، ويدلنا من الخير على ما نهتدى إليه، ولا يغتابن عندنا الرعية، ولا يعترض فيما لا يعنيه. أوصيكم بتقـوى الله، فإن تقوى الله خلف من كل شىء، وليس من تقوى الله عز وجل خلف، واعـملوا لآخرتكم، فإنه من عـمل لآخرته كفـاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه، وأصلحوا سـرائركم، يصلح اللهُ الكريمُ علانيتكم، وأكثروا من ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات. . . وإن هذه الأمة لم تخـتلف فى ربها عـز وجل، ولا فى نبيهـا ﷺ، ولا فى كتـابها، وإنما اخـتلفـوا فى الدينار والدرهم، وإنى والله لا أعطى أحـدًا باطلاً، ولا أمنع أحـدًا حقًا. ثم رفع صوته حتى أسـمع الناس فقال: يا أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عـصى الله فلا طاعة له، أطيعونى ما أطعت الله، فـإذا عصيت الله فلا طاعـة لى عليكم. وإن من حولكـم من الأمصار والمدن فـإن هم أطاعوا كـما أطعتم فأنا وليكم، وإن هم نقموا فلست لكم بوال[٢]، ثم نزل.

---

(١) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ماجدة فيصل، ص (١٠٢).

(٢) انظر مع بعض الاختلاف: الطبقات (٥/ ٣٤٠)، سيـرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، ص (٣٥، ٣٦)، عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (١٠٤).

وهكذا عقدت الخلافة لعمر بن عبد العزيز فى ذلك اليوم، وهو يوم الجمعة لعشر خلوْن من صفر سنة تسع وتسعين[1]، ويظهر لنا من هذه الخطبة السياسة التى قرر عمر بن عبد العزيز اتباعها فى الحكم وهى:

أ- التزامه بالكتاب والسنة، وأنه غير مستعد للاستماع إلى أى جدل فى مسائل الشرع، والدين، على أساس أنه حاكم منفذ، وأن الشرع بين من حيث تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم الله، ورفضه للبدعة والآراء المحدثة.

ب- حدد لمن يريد أن يتصل به ويعمل معه من رعيته أن يكون اتصاله معه لخمسة أسباب:

- أن يرفع إليه حاجة من لا يستطيع أن يصل إلى الخليفة، أى أنه جعل المقربين منه همزة وصل بينه، وبين من لا يستطيعون الوصول إليه، فيعرف بذلك حوائج الناس، وينظر فيها.

- أن يعينه على الخير ما استطاع، أى أن علاقة هؤلاء به تقوم على أساس نزعة الخير، يعين الخليفة عليه، وبالتالى يحذره من أى شر.

- فرض على من يقترب إليه فريضة أن يرشده، ويهديه إلى ما فيه خير الأمة، وخير الدين.

- نهى من يريد أن يتقرب إليه، عن أن يغتاب إليه أحدًا.

- أن لا يتدخل أى متقرب منه فى شئون الحكم، وفيما لا يعنيه عامة.

لقد كان يدرك مدى تأثير البطانة والمقربين من الحاكم على الحاكم، وعلى الرعية، وعلى أسلوب الحكم، فآثر أن ينبه الناس حتى يتركوه يحكم بما ارتضى فى نطاق شرع الله، دون أن يبعدهم نهائيًا؛ لأنه أجاز لهؤلاء المقربين أن يدلوه على الخير، ويعينوه عليه، وأن ينقلوا إليه حاجة المحتاج[2].

ج- كما أنه حذر الناس من عواقب الدنيا لو أساءوا فيها، وطلب إليهم أن يصلحوا سرائرهم ويحذروا الموت، ويتعظوا به.

---

(١) البداية والنهاية (١٢/٦٥٧).
(٢) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (١٠٥).

د- قطع على نفسه عهدًا بأن لا يعطى أحدًا باطلاً، ولا يمنع أحدًا حقًا، وأنه أعطاهم حقًا عليه، وهو أن يطيعوه ما أطاع الله، وأنه لا طاعة له عليهم إذا عصاه سبحانه وتعالى. هذه هى الخطوط العريضة لسياسة عمر، ذكرها فى أول لقاء له مع الرعية وأهل الحل والعقد فى المسجد، بعد بيعته، فدولته قد حدّدها بالسير على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وقد آثر أن لا يدع لأى عامل من عمال،ه حجة عليه بعد ذلك، ففصَّل ما أجمل فى خطبته الأولى فى كتب أرسلها إلى عماله، وقد كانت هذه الكتب نوعين:

- كتب إلى العمال يبصرهم بما يجب عليهم أن يلتزموا فى مسلكهم الشخصى، والخاص، إزاء الرعية، وسوف نتحدث عن ذلك بإذن الله.

- وكتب إلى عماله التى حددت سياستهم، وطريقة تعاملهم مع أفراد الرعية من المسلمين، وغير المسلمين، ممن كانوا يسكنون دار الإسلام، وعمر فى هذه الكتب - كما سيظهر بإذن الله - تكلم عن موقفه كفقيه متبحر فى أصول الدين[1]، وسيأتى الحديث عن منهجه من خلال أعماله.

٢ - الحرص على العمل بالكتاب والسنة:

من أهم ما يميز منهج عمر فى سياسته، حرصه على العمل بالكتاب والسنة، ونشر العلم بين رعيته وتفقيههم فى الدين وتعريفهم بالسنة، ومنطلق عمر فى ذلك فهمه لمهمة الخلافة، فهى حفظ الدين وسياسة الدنيا به[2]، فهو يرى أن من أهم واجباته تعريف رعيته بمبادئ دينهم وحملهم على العمل بها، فورد عنه أنه قال فى إحدى خطبه: إن للإسلام حدودًا وشرائع وسننًا، فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان، فلئن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص[3]. وقال أيضًا: فلو كان كل بدعة يميتها الله على يدى، وكل سنة يعيشها الله على يدى ببضعة من لحمى حتى يأتى آخر ذلك على نفسى كان فى الله يسيرًا. وفى موضع آخر قال: والله لولا أن أُنعش

---

(١) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (١٠٦).

(٢) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص (٥).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٦٠).

سنة أو أسير بحق ما أحببت أن أعيش فواقًا[١]، لهذا بادر عمر فى تنفيذ هذه المسئولية المهمة، فبعث العلماء فى تعليم الناس وتفقيههم إلى مختلف أقاليم الدولة، وفى حواضرها وبواديها، وأمر عماله على الأقاليم بحث العلماء على نشر العلم، فقد جاء فى كتابه الذى بعث إلى عماله: ومُرْ أهل العلم والفقه من جندك فلينشروا ما علمهم الله من ذلك، وليتحدثوا به فى مجالسهم[٢]، ومما كتب به إلى بعض عماله: أما بعد، فأمر أهل العلم أن ينشروا العلم فى مساجدهم، فإن السنة كانت قد أميتت[٣]، كما أمر عماله أن يجروا الرواتب على العلماء ليتفرغوا لنشر العلم[٤]، وانتدب العديد من العلماء لتفقيه الناس فى الدين، فبعث يزيد بن أبى مالك الدمشقى والحارث بن يمجد الأشعرى يفقهان الناس والبدو[٥]، وذكر الذهبى أن عمر ندب يزيد بن أبى مالك ليفقه بنى نمير ويقرئهم، وبعث نافع مولى ابن عمر إلى أهل مصر ليعلمهم السنن[٦]، وكان قد بعث عشرة من الفقهاء إلى إفريقية يفقهون أهلها، وسيأتى الحديث عنهم بإذن الله، ولم تنحصر مهمة هؤلاء العلماء فى التعليم فحسب، بل منهم من أسند إليه بعض الولايات، ومنهم من تولى القضاء وأسهم أكثرهم -بالإضافة إلى نشر العلم- فى مجال الدعوة والجهاد فى سبيل الله، وهذا الاهتمام الذى تميز به منهج عمر لتعليم الناس وتفقيههم أمور دينهم له أبعاد سياسية وآثار أمنية، ذلك أن نشر الوعى الدينى الصحيح والفقه فيه بين أفراد الرعية له أثر فى حماية عقول أبناء الأمة من عبث الأفكار التى ينعكس خطرها على الاستقرار السياسى والأمنى، كأفكار الخوارج[٧] وغيرهم.

٣ ـ الشورى فى دولة عمر بن عبد العزيز:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ

---

(١) الفواق: ما بين الحلبتين من الوقت، أو ما بين فتح اليد وقبضها على الضرع .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٧٣).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٧٦).

(٤) البداية والنهاية نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٧٩).

(٥) مختصر تاريخ دمشق (٦/ ١٧٥)، أثر العلماء، ص (١٧٩).

(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٣٨) .

(٧) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٨٠) .

فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقد اهتم عمر بن عبد العزيز بتفعيل مبدأ الشورى فى خلافته، ومن أقواله فى الشورى: إن المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة لا يضل معهما رأى، ولا يفقد معهما حزم[١]، وكان أول قرار اتخذه عمر بعدما ولى أمر المدينة للوليد ابن عبد الملك، يتعلق بتطبيق مبدأ الشورى، وجعله أساسًا فى إمارته، حين دعا فقهاء المدينة وكبار علمائها، وجعل منهم مجلسًا استشاريًا دائمًا[٢] ـ كما مر معنا ـ. وحرى بمن جعل الشورى أحد مبادئ إمارته حين كانت مسئوليته جزئية أن يطبقه وقت المسئولية الكاملة، والمهمة العظمى، ألا وهى ولاية أمر المسلمين كافة، وقد تبين مبدأ الشورى من أول يوم فى خلافته، وقال للناس: أيها الناس، إنى قد ابتليت بهذا الأمر، من غير رأى كان منى فيه، ولا طلبة له ولا مشورة من المسلمين، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى، فاختاروا لأنفسكم. فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك، فول أمرنا باليمن والبركة[٣]، وبذلك خرج عمر من مبدأ توريث الولاية الذى تبناه معظم خلفاء بنى أمية إلى مبدأ الشورى والانتخاب، ولم يكتف عمر باختياره ومبايعة الحاضرين، بل يهمه رأى المسلمين فى الأمصار الأخرى ومشورتهم، فقال فى خطبته الأولى ـ عقب توليه الخلافة ـ: . . وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم فأنا وليكم، وإن هم أبوا فلست لكم بوال، ثم نزل[٤]. وقد كتب إلى الأمصار الإسلامية فبايعت كلها، وممن كتب لهم يزيد بن المهلب يطلب إليه البيعة بعد أن أوضح له أنه فى الخلافة ليس براغب، فدعا يزيد الناس إلى البيعة فبايعوا[٥]. وبذلك يتضح أنه لم يكتف بمشورة من حوله بل امتد الأمر إلى جميع أمصار المسلمين، ونستنتج من موقف عمر هذا ما يلى:

أ- أن عمر كشف النقاب عن عدم موافقة الأصول الشرعية فى تولى معظم الخلفاء الأمويين.

ب- حرص عمر على تطبيق الشورى فى أمر يخصه هو ، ألا وهو توليه الخلافة.

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردى، ص (١٨٩).

(٢) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص (٢٨٣).

(٣) سيرة مناقب عمر بن عبد العزيز، ص (٦٥).

(٤) البداية والنهاية (١٢/ ٦٥٧).

(٥) تاريخ الطبرى، نقلاً عن النموذج الإدارى المستخلص من عمر، ص (٢٨٥).

جـ- أن من طبق مبدأ الشورى فى أمر مثل تولى الخلافة حرى بتطبيقه فيما سواه.

وكان عمر يستشير العلماء، ويطلب نصحهم فى كثير من الأمور أمثال سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظى، ورجاء بن حيوة وغيرهم، فقال: إنى قد ابتليت بهذا الأمر فأشيروا على[1]. كما كان يستشير ذوى العقول الراجحة من الرجال[2]، وقد حرص عمر على إصلاح بطانته لما تولى الخلافة، فقرب إلى مجلسه العلماء وأهل الصلاح، وأقصى عنه أهل المصالح الدنيوية والمنافع الخاصة، ولم يكتف - رحمه الله - بانتقاء بطانته، بل كان زيادة على ذلك يوصيهم ويحثهم على تقويمه، فقال لعمر بن مهاجر: إذا رأيتنى قد ملت عن الحق فضع يدك فى تلبابى، ثم هزنى، ثم قل: يا عمر ما تصنع؟[3]، وقد كان لهذا المسلك أثر فى تصحيح سياسته التجديدية ونجاحها، حيث كان لبطانته أثر فى شد أزره، وسداد رأيه وصواب قراره[4]، فمن أسباب نجاح عمر بن عبد العزيز تقريبه لأهل العلم والصلاح وانشراح صدره لهم ومشاركتهم معه لتحمل المسئولية، فنتج عن ذلك حصول الخير العميم للإسلام والمسلمين.

٤ ـ العدل فى دولة عمر بن عبد العزيز:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضى وجوبه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] وللعدل صورتان: صورة سلبية بمنع الظلم وإزالته عن المظلوم، أى بمنع انتهاك حقوق الناس المتعلقة بأنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وإزالة آثار التعدى الذى يقع عليهم، وإعادة حقوقهم إليهم، ومعاقبة المعتدى عليها، فيما يستوجب

(١) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص (١٦).

(٢) النموذج الإدارى المستخلص من عمر بن عبد العزيز، ص (٢٨٥).

(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٧٥ - ١٧٧).

(٤) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٧٨).

العقوبة[1]. وصورة إيجابيـة: وتتعلق أكثر مـا تتعلق بالدولة، وقيامـها بحق أفراد الشعب فى كفالة حـرياتهم وحياتهم المعاشية، حتى لا يكون فيـهم عاجز متروك، ولا ضعـيف مهمل، ولا فـقير بائس، ولا خـائف مهدد، وهذه الأمـور كلها من واجبات الحـاكم فى الإسلام[2]. وقد قام أمـير المؤمنين عمـر بهذا الركن العظيم والمبدأ الخطيـر على أتم وجه، وكان يرى أن المسئـولية والسلطة هى القيام بـحقوق الناس والخضوع لشروط بيعتهم، وتحقيق مصلـحتهم المشروعة، فالخليفة أجير عند الأمة وعليه أن ينفذ مطالبها العـادلة حسب شروط البيعة[3]، وقد أحب الاستزادة من فهم صفات الإمـام العادل وما يجب أن يقوم به ليتصف بهـذه الخصلة الفريدة الحميدة، فكتب إلى الحسن البصرى يـسأله فى ذلك، فأجابه الحسن: الإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتب لهم فى حياته ويـدخرهم بعد مماته، والإمام العدل يا أمـير المؤمنين كالأم الشفـيقة البرة الرفيـقة بولدها، حملته كرهًا، ووضعـته كرهًا، وربته طفلاً، تسهـر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتفطمـه أخرى، وتفرح بعافيتـه، وتغتمّ بشكايته، والإمام العدل يا أميـر المؤمنين وصىّ اليتامى، وخازن المساكيـن، يربى صغيرهم، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه، وتفسد بفساده، والإمام العدل يا أمير المؤمـنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم، وينظر إلى الله، ويريهم وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين، فيما ملَّكك الله كعبد ائتمنه سيـده واستحفظه ماله وعياله، فبدَّد، وشرَّد العيال، فأفقر أهله وفرَّق ماله[4].

أ ـ سياسته فى رد المظالم:

– أمير المؤمنين يبدأ بنفسه: تنفيذًا لما أراده عمر من رد المظالم مهما كان صغيراً أو كبيراً؛ بدأ بنفـسه، روى ابن سعد: أنه لما رد عمر بن عبـد العزيز المظالم قال: إنه لينبغى أن لا أبدأ بأول من نفسى[5]. وهذا الفعل جعله قدوة للآخرين، فنظر إلى

(١) عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، عبد الستار الشيخ، ص (٢٢٢).
(٢) المصدر نفسه ص (٢٢٢)، نظام الإسلام، محمد المبارك، ص (٤٥، ٤٦).
(٣) عمر بن عبد العزيز، خامس الخلفاء، عبد الستار الشيخ، ص (٢٢٣).
(٤) المصدر نفسه، ص (٢٢٤).
(٥) الطبقات (٥/ ٣٤١).

ما فى يديه من أرض، أو متاع، فخـرج منه حتى نظر إلى فص خاتم. فقال: هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب فخرج منه[1]. وكان ذلك لإصراره على قطع كل شك بيقين، وحتى يطمئن إلى أن ما فى يده لا شبهة فيه لظلم أو مظلمة، حتى ولو كـان ورثه، خصوصًا أن القصص والحكايات كانت كثيرة يتناقلها الناس عن مظالم ارتكبت على عهد خلفاء بنى أمية، وعمالهم، وقد بلغ به حرصه على التثبت أنه نزع حلى سيفه من الفضة، وحلاه بالحديد، قال عبد العزيز بن عـمر: كـان سيف أبى محـلى بفضة فنزعـها وحـلاه حديدًا[2]، وكان خروجه مما بيده من أرض أو متاع بعـدة طرق كالبيع، ذلك أنه حين استخلف نظر إلى ما كان له من عبد، وإلى لباسه وعطره، وأشياء من الفضول، فباع كل ما كان به عنه غنى، فبلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار، فـجعله فى السبيل[3]. أو عن طريق ردها إلى أصـحابها الأصـليين، وهذا مـا فعله بالنسـبة للقطائع التى أقطعـه إياها قومـه، يروى ابن الجوزى عن إسمـاعيل بن أبى حكيم أنه قال: كنا عند عـمر بن عـبد العـزيز حتى تفـرق الناس ودخل إلى أهله للقـائلة فإذا مناد ينادى: الصـلاة جامعة. قال: ففزعنا فزعًا شديدًا مخافة أن يكون قد جاء فتق من وجه من الوجوه أو حدث. قـال جويرية: وإنما كان أنـه دعا مزاحـمًا فقـال: يا مزاحم، إن هؤلاء القوم قـد أعطونا عطايا، والله ما كان لهـم أن يعطوناها، وما كان لنا أن نقـبلها، وإن ذلك قد صار إلىَّ ليس على فـيه دون الله محاسب. فقال له مـزاحم: يا أمير المؤمنين، هل تدرى كم ولدك؟ هم كذا وكذا، قال: فذرفت عيناه، فجعل يستدمع ويقول: أَكِلهم إلى الله؟ قال: ثم انطلق مزاحم من وجـهه ذلك حتى استأذن على عبـد الملك، فأذن له ـ وقد اضطجع للقـائه ـ فـقال له عبد الملك: مـا جاء بك يا مزاحم هذه السـاعة؟ هل حدث حـدث؟ قال: نعم أشد الحـدث عليك وعلى بنى أبيك. قال: وما ذاك؟ قال: دعانى أمير المؤمنين ـ فذكر له ما قاله عمر ـ فقال عبد الملك: فمـا قلت له؟ قال: قلت له يـا أمير المؤمنين، تدرى كـم ولدك؟ هم كذا، وكذا قال: فما قال لك؟ قال: جـعل يستدمع ويقول: أَكِلهم إلى الله تعالى. قال عبد الملك بـئس وزير الدين أنت يا مزاحم. ثم وثب فانطلق إلى باب أبيـه عمر،

---

(١) الطبقات (٥/ ٣٤١، ٣٤٢).

(٢)، (٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٥٥)، عمر وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٠٥).

فاستأذن عليه، فقال له الآذن: أما ترحمونه، ليس له من الليل والنهار إلا هذه الوقعة؟ قال عبد الملك: استأذن لى، لا أم لك. فسمع عمر الكلام، فقال: من هذا؟ قال: هذا عبد الملك. قال: ائذن له. فدخل عليه ـ وقد اضطجع عمر للقائلة- فقال: ما حاجتك يا بنى هذه الساعة؟ قال: حديث حدثنيه مزاحم. قال: فأين وقع رأيك من ذلك؟ قال: وقع رأيى على إنفاذه. قال: فرفع عمر يديه، ثم قال: الحمد لله الذى جعل لى من ذريتى من يعيننى على أمر دينى. نعم يا بنى أصلى الظهر، ثم أصعد المنبر فأردها علانية على رؤوس الناس. فقال عبد الملك: يا أمير المؤمنين، ومن لك إن بقيت إلى الظهر أن تسلم لك نيتك إلى الظهر. قال عمر: قد تفرق الناس ورجعوا للقائلة، فقال عبد الملك: تأمر مناديك ينادى: الصلاة جامعة، فيجتمع الناس. فنادى المنادى: الصلاة جامعة. قال: فخرجت فأتيت المسجد فجاء عمر فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا، والله ما كان لهم أن يعطوناها وما كان لنا أن نقبلها. وإن ذلك قد صار إلىَّ ليس على فيه دون الله محاسب، ألا وإنى قد رددتها، وبدأت بنفسى وأهل بيتى، اقرأ يا مزاحم، قال ـ وقد جيء بسفط قبل ذلك، أو قال جرنة -فيها تلك الكتب-: فقرأ مزاحم كتابًا منها، فلما فرغ من قراءته ناوله عمر ـ وهو قاعد على المنبر وفى يده جلم ـ قال: فجعل يقصه بالجلم. واستأنف مزاحم كتابًا آخر فجعل يقرؤه، فلما فرغ منه دفعه إلى عمر فقصه، ثم استأنف كتابًا آخر فما زال حتى نودى بصلاة الظهر[1]. ومن بين ما رده عمر مما كان فى يده من القطائع جبل الورس باليمن وقطائع باليمامة[2]، إلى جانب فدك وخيبر[3]، والسويداء، فخرج منها جميعًا إلا السويداء، فقد قال عمر فيها: ما من شىء إلا وقد رددته فى مال المسلمين إلا العين التى بالسويداء، فإنى عمدت إلى أرض براح ليس فيها لأحد من المسلمين ضربة سوط، فعملتها من صلب عطائى الذى يجمع لى مع جماعة المسلمين، وقد جاءت غلتها مائتا دينار[4]. وأما قرية فدك ـ التى تقع شمال المدينة ـ فقد كانت تغل فى السنة عشرة

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص (١٠٧، ١٠٨).

(٢) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٠٧). (٣) المصدر نفسه، ص (٢٠٧).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٤٠).

آلاف دينار تقريبًا، فلما ولى عــمر الخلافة سأل عنها وفحصهــا، فأخبر بما كان من أمرها فى عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان. . . فكتب ـ بناء على ذلك ـ إلى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كـتابًا قال فيه: أما بعد فإنى نظرت فى أمــر فدك وفـحصت عنه، فـإذا هو لا يصلح لى، ورأيت أن أردها على مــا كنت عليه فى عهد رســول الله وأبى بكر وعمر وعثمان، وأترك مــا حدث بعدهم، فإذا جاءك كتابى هذا فاقبضها وولِّها رجلاً يقوم فيها بالحق والسلام[1].

وأما الكتيــبة فهى حصن من حصون خــيبر، وعندما تولى عمر بن عــبد العزيز كتب إلى عامله على المدينة أبــى بكر بن محمد بن عمرو بن حــزم يقول: افحص لى عن الكتيبــة، أكانت من خمس رسول الله ﷺ من خيبــر أم كانت لرسول الله خاصة؟ قال أبو بكر: فـسألت عمرة بنت عبد الرحــمن فقالت: إن رسول الله لما صالح بنى أبى الحقيق جزأ النطاة والشق خمسة أجزاء، فكانت الكتيبة جزءًا منها، وأعادها عمر بن عبد العزيز إلى مــا كانت إليه فى عهد رسول الله[2]، كما أرجع عمر للرجل المصــرى الذى كانت أرضه بحلوان بعد أن عرف أن والده عــبد العزيز قد ظلم المصرى فيها، وحتى الدار التى كان والده عبد العزيز بن مروان قد اشتراها من الربيع بن خارجة الذى كــان يتيمًا فى حجره، ردها عليــه، لعلمه أنه لا يجوز اشتــراء الولى ممن يلى أمره، ثم التـفت إلى المال الذى كان يأتيــه من جبل الورس باليمن، فرده إلى بيت مال المسلمين رغم شدة حاجة أهله إلى هذا المال، لكنه كان يؤثر الحياة الآخرة على الحياة الدنيا، كما أمر عمر بن عبد العزيز مولاه مزاحمًا برد المال الذى كان يأتيه من البحرين كل عام إلى مال الله[3].

وهكذا بدأ عــمر بنفســه يضرب المثل ويكون الأســوة أمام رعــيتــه حين رد من أملاكه كل مــا شابته شائبــة الظلم، أو الشك فى خلاص حقه فــيه، فرد كل ذلك إلى أصحابه، انطلاقًــا من تمسكه بالزهد، وإيمانه برد المظالم إلى أصحــابها تقوى لله، ووضعًا للحق فى نصابه، بعد أن انــتهى من رد كل مال شك بأنه ليس له فيه حق، اتجه إلى زوجته فــاطمة بنت عبد الملك ـ وكان لها جوهر ـ فقــال لها عمر: من أين صار هذا المال إليك؟ قالت: أعطانيه أمــير المؤمنين، قال: إما أن ترديه إلى

(١) الطبقات (٥/٣٨٩)، عمر وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٠٨).
(٢) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٠٩).
(٣) المصدر نفسه، ص (٢١٢).

بيت المال، وإما أن تأذنى لى فى فراقك، فإنى أكره أن أكون أنا وأنت وهو فى بيت[1]، وقد أوضح عمر لها سبب كرهه له بقوله: قد علمت حال هذا الجوهر وما صنع فيه أبوك، ومن أصابه، فهل لك أن أجعله فى تابوت ثم أطبع عليه وأجعله فى أقصى بيت مال المسلمين وأنفق ما دونه، وإن خلصت إليه أنفقته، وإن مت قبل ذلك فلعمرى ليردنه إليك. قالت له: أفعل ما شئت وفعل ذلك. فمات ـ رحمه الله ـ ولم يصل إليه، فرد ذلك عليها أخوها يزيد بن عبد الملك فامتنعت من أخذه، وقالت: ما كنت لأتركه ثم آخذه، وقسمه يزيد بين نسائه ونساء بنيه[2].

– رد مظالم بنى أمية: وإذا كان عمر قد بدأ بنفسه فى رد المظالم، فقد ثنى فى ذلك بأهل بيته وبنى عمومته وبإخوته من أفراد البيت الأموى، وفور فراغه من دفن ابن عمه سليمان بن عبد الملك، فقد رأى ما أذهله، وهو أن أبناء عمه من الأمويين أدخلوا الكثير من مظاهر السلطان التى لم تكن موجودة على عهد النبى ﷺ، أو خلفائه الراشدين، فأنفقوا الكثير من المال من أجل الظهور بمظاهر العظمة والأبهة أمام رعيتهم، ومن تلك المظاهر المراكب الخلافية التى تتألف من براذين وخيول وبغال، ولكل دابة سائس، ومنها أيضًا تلك السرادقات والحجرات والفرش والوطاءات التى تعد من أجل الخليفة الجديد، وفوجىء بتلك الثياب الجديدة وقارورات العطر والدهن التى أصبحت له؛ بحجة أن الخليفة الراحل لم يصبها فهى من حقه بصفته الخليفة الجديد، وهذا كله إسراف وتبذير لا مبرر له يتحمله بيت مال المسلمين، وهو بأمس الحاجة لكل درهم فيه لينفق فى وجهه الصحيح الذى بيَّنه الله ورسوله، وهنا أمر مولاه مزاحمًا فور تقديم هذه الزينة له ببيعها، وضم ثمنها إلى بيت مال المسلمين[3].

ولقد كانت لعمر بن عبد العزيز سياسة محددة فى رد المظالم من أفراد البيت الأموى تكون لديه خطوطها فور تسلمه زمام الخلافة، حين وفد عليه أفراد البيت الأموى عقب انصرافه من دفن سليمان يسألونه ما عودهم الخلفاء الأمويون من قبله، وحين أراد عبد الملك أن يرد أفراد البيت الأموى عن أبيه كشف له أبوه عن

(١) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢١٢)، الطبقات (٥/ ٢٩٣).
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٥٢، ٥٣).
(٣) عمر بن العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢١٣).

سياسته تلك حين قال له: وما تبلغهم؟ قال: أقول أبى يقرئكم السلام ويقول لكم: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: ١٣].

ثم أوضحها له مرة أخرى حين جاءه يطالبه بالإسراع باستخلاص ما بأيدى الأمويين من مظالم، فقال: يا بنى، إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة، ومتى ما أريد مكايدتهم على انتزاع ما فى أيديهم لم آمن أن يفتقوا علىّ فتقًا تكثر فيه الدماء، والله لزوال الدنيا أهون علىَّ من أن يهراق فى سببى محجمة من دم، أو ما ترضى أن لا يأتى على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة، ويحيى فيه سنة حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين؟[1]، ثم زاد فى توضيح سياسته تلك حينما قال له ولده عبد الملك: ما يمنعك أن تمضى الذى تريد؟ فوالذى نفسى بيده ما أبالى لو غلت بك وبى القدور، قال: وحق هذا منك؟، قال: نعم والله، قال عمر: الحمد لله الذى جعل من ذريتى من يعيننى على أمر دينى، إنى لو باهت الناس بالذى تقول لم آمن أن ينكروها، فإذا أنكروها لم أجد بدًا من السيف، ولا خير فى خير لا يجىء إلا بالسيف. يا بنى، إنى أروض الناس رياضة الصعبة، فإن بطأ بى عُمُرٌ أرجو أن ينفذ الله مشيئتى، وإن تَعْدُ منيتى فقد علم الله الذى أريده[2].

وهكذا يتبع عمر أسلوب الحكمة والحسنى فى تنفيذ سياسته، وتطبيقًا لهذه السياسة فإنه قد مهد لهذه الخطوة الحاسمة والخطيرة بخطوات تسبقها خروجه هو أولاً مما بيده من مظالم وردها إلى أصحابها، أو بيت المال، ثم اتجه إلى أبناء البيت الأموى فجمعهم وطلب إليهم أن يخرجوا مما بأيديهم من أموال وإقطاعات أخذوها بغير حق[3]. وشهدت الأيام الأولى من خلافة عمر تجريدًا واسع النطاق لكثير من أموال وأملاك بنى أمية، ظلت تنمو فى الماضى، وتتضخم لكونهم العائلة الحاكمة ليس إلا.. وهاهى الآن ترد إلى بيت مال المسلمين لكى يأخذ العدل مجراه، وتعود أموال المسلمين إلى المسلمين، لا يستأثر بها أحد دون أحد، ولا حزب دون حزب.. أموال وأملاك من شتى الصنوف والأنواع، جمعت بمختلف الطرق وسائر

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٦٠ - ٢٦٣).

(٢) المصدر السابق، ص (٢٦٢، ٢٦٣). (٣) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢١٥).

الأساليب. . جرد عمر بنى أمية منها ومزق مستنداتها واحدًا واحدًا، وردها إلى مكانها الصحيح، مظالم وجوائز وهدايا ومخصصات استثنائية وضياع وقطاع، جمعت كلها على شكل ممتلكات ثابتة ونقود سائلة بلغت فى تقدير عمر شطرًا كبيرًا من أموال الأمة جاوزت النصف[(١)]، ولا تمضى سوى أيام معدودات حتى يجد بنو أمية أنفسهم مجردين إلا من حقهم الطبيعى المشروع، فيضجون ضد سياسة عمر هذه، ويعلنون معارضتهم الصارمة لها، فماذا يكون جواب عمر؟ انظروا: والله لوددت ألا تبقى فى الأرض مظلمة إلا ورددتها على شرط ألا أرد مظلمة إلا سقط لها عضو من أعضائى أجد ألمه ثم يعود كما كان حيًا، فإذا لم يبق مظلمة إلا رددتها سالت نفسى عندها[(٢)]. ولكن بنى أمية لم ييأسوا من هذا الحزم والعزم إزاء حقوق الأمة، وهم الذين ما خطر ببالهم يومًا أن يجردوا هذا التجريد، فاجتمعوا وطلبوا من أحد أولاد الوليد -وكان كبيرهم ونصيحهم- أن يكتب إلى عمر، فكتب إليه: أما بعد فإنك أنسيت من كان قبلك من الخلفاء وسرت بغير سيرتهم، وسميتها المظالم نقصًا لهم ولأعمالهم، وشاتمًا لمن كان بعدهم من أولادهم ولم يكن ذلك لك، فقطعت ما أمر الله أن يوصل، وعملت بغير الحق فى قرابتك، وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلمًا وجورًا وعدوانًا، فاتق الله يا ابن عبد العزيز وارجع، فإنك قد أوشكت لم تطمئن على منبرك إن خصصت ذوى قرابتك بالقطيعة والظلم، فوالله الذى خص محمدًا ﷺ بما خصه من الكرامة لقد ازدادت من الله بعدًا فى ولايتك هذه التى تزعم أنها بلاء عليك، وهى كذلك، فاقتصد فى بعض ميلك وتحاشيك[(٣)]. ويظهر فى هذا الكتاب مآخذ الأمويين على سياسة عمر وهى:

- خالف سيرة من قبله من الخلفاء وأزرى بهم وعاب أعمالهم.
- أساء إلى أولاد من قبله من الخلفاء.
- لم يكن عمله منسجمًا مع الحق.
- إن قطيعة أهل بيته تهدد مكانه من الخلافة.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١١٥).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٤٧ ـ ١٥١).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٢٦، ١٢٧)، عمر بن عبد العزيز، صالح العلى، ص (١٩٤).

ولا ريب أن سياسة عمر بن عبد العزيز تهدد مكانة الأسرة الأموية وتضعف مراكز قوتها، وقد تؤدى إلى دفعها لاتخاذ مواقف مهددة للخليفة القائم، وفى هذا خطر كبير عليه وعلى الخلافة[1]، وكان رد عمر حممًا من نار الحق تتفجر فى كل كلمة فيها: . . ويلك وويل أبيك، ما أكثر طلابكما وخصمائكما يوم القيامة . . رويدك فإنه لو طالت بى حياة، ورد الله الحق إلى أهله، تفرغت لك ولأهل بيتك، فأقمت على المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق وراءكم[2].

- بنو أمية يلجأون إلى أسلوب الحوار الهادئ: وما أن يئس بنو أمية من صمود عمر إزاء معارضتهم الجماعية الشديدة هذه، لجأوا إلى أسلوب الحوار الهادئ، علهم يصلون عن طريقه إلى ما يشتهون؛ فيتكلمون معه يومًا مستثيرين فيه نزعة القربى وعاطفة الرحم، فيجيبهم: أن مالى يتسع لكم، وأما هذا المال - أى المال العام - فحقكم فيه كحق أى رجل من المسلمين. والله أنى لا أرى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله[3]، ودخل عليه هشام بن عبد الملك يومًا فقال: يا أمير المؤمنين إنى رسول قومك إليك، وإن فى أنفسهم ما جئت لأعلمك به، إنهم يقولون: استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك وخل بين من سبقك وبين ما ولوا بما عليهم ولهم، وببديهة يجيب عمر: أرأيت أن أتيت بسجلين أحدهما من معاوية والآخر من عبد الملك فبأى السجلين آخذ؟ قال هشام: بالأقدم. فقال عمر: فإنى وجدت كتاب الله الأقدم، فأنا حامل عليه من أتانى ممن تحت يدى وفيمن سبقنى[4].

- بنو أمية يرسلون عمة عمر بن عبد العزيز: فعندما عجز الرجال من بنى أمية عن جعل عمر يخاف أو يلين عن سياسته إزاءهم، لجأوا إلى عمته فاطمة بنت مروان، وكانت عمته هذه لا تحجب عن الخلفاء، ولا يرد لها طلب أو حاجة، وكانوا يكرمونها ويعظمونها، وكذلك كان عمر يفعل معها قبل استخلافه، فلما دخلت

(١) عمر بن عبد العزيز، صالح العلى، ص (١٩٥).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٤٧ - ١٥١).

(٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١١٤، ١١٥).

(٤) المصدر نفسه، ص (١١٨، ١١٩)، ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز، د. عماد الدين خليل، ص (١١٧، ١١٨).

عليه عظمها وأكرمها كعادته، وألقى لها وسادة لتجلس عليها. فقالت: إن قرابتك يشكونك ويذكرونك أنك أخذت منهم خير غيرك، قال: ما منعتهم حقًا أو شيئًا كان لهم، ولا أخذت منهم حقًا أو شيئًا كان لهم، فقالت: إنى رأيتهم يتكلمون، وإنى أخاف أن يهيجوا عليك يومًا عصيبًا. فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقانى الله شره. قال: فدعا بدينار، وجنب، ومجمرة، فألقى ذلك الدينار بالنار، وجعل ينفخ على الدينار إذا احمر تناوله بشىء، فألقاه على الجمر فنشى وقتر فقال: أى عمة أما ترثين لابن أخيك من هذا؟[1] وتؤخذ العمة بهذا المشهد المؤثر، وتلتفت إلى عمر طالبة منه أن يستمر فى الكلام. واسمعوه يقول، وكأنه يرسم لوحة فنية رائعة للعدالة الاجتماعية التى جاء بها الإسلام لكى يجعلها تفجر الخير والنعيم على الجميع قال: إن الله بعث محمداً ﷺ رحمة، ولم يبعثه عذابًا إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهرًا شربهم فيه سواء، ثم ولى أبو بكر وترك النهر على حاله، ثم ولى عمر فعمل عملهما، ثم لم يزل النهر يستقى منه يزيد ومروان وعبد الملك وابناه الوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إلىّ، وقد يبس النهر الأعظم فلم يرو أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه، فقالت: حسبك، قد أردت كلامك فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئًا أبدًا. فرجعت إليهم فأخبرتهم كلامه[2]، وجاء فى رواية: إنها قالت لهم: .. أنتم فعلتم هذا بأنفسكم، تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده، فسكتوا[3].

- **تلاشى المعارضة الجماعية لبنى أمية:** وسرعان ما تلاشت السمة الجماعية لمعارضة بنى أمية بعد ما رأوا من جد عمر إزاء أموال الأمة وقالوا: ليس بعد هذا شىء[4]. ومن ثم أخذ كل منهم يسعى على انفراد ليسترد ما يستطيع استرداده من الأموال، ولكن عمر الذى وقف تجاه رغباتهم مجتمعين، أحرى به الآن أن يتصدى لكل واحد منهم على انفراد، ويعلمه أنّ حق الأمة لا يمكن أن يكون موضع مساومة فى يوم من الأيام[5].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١١٧).

(٢) الكامل فى التاريخ (٣/ ٢٧٠). (٣) المصدر نفسه (٣/ ٢٧١).

(٤) عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٥٨، ٥٩)، ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز، ص (١١٩).

(٥) ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر، ص (١١٩).

أ- رد الحقوق لأصحابها:

لم يقف عمر عند حد استرداد الأموال من بنى أمية وردها إلى بيت المال، بل يخطو خطوة أخرى، ويعلن لأبناء الأمة الإسلامية أن كل من له حق على أمير أو جماعة من بنى أمية، أو لحقته منهم مظلمة، فليتقدم بالبينة لكى يرد عليه حقه.. وتقدم عدد من الناس بظلاماتهم وبيّناتهم، وراح عمر يردها واحدة بعد الأخرى: أراضٍ ومزارع وأموال وممتلكات[1]، ومرة بعث إليه واليه على البصرة برجل اغتصبت أرضه فرد عمر هذه الأرض إليه ثم قال له: كم أنفقت فى مجيئك إلىّ؟ قال: يا أمير المؤمنين تسألنى عن نفقتى وأنت قد رددت على أرضى، وهى خير من مائة ألف؟ فأجابه عمر: إنما رددت عليك حقك، ثم ما لبث أن أمر له بستين درهمًا كتعويض له عن نفقات سفره[2]، وقد قال ابن موسى: ما زال عمر بن عبد العزيز يردّ المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات[3]، وذات يوم قدم عليه نفر من المسلمين وخاصموا روح بن الوليد بن عبد الملك فى حوانيت[4]، قد قامت لهم البينة عليه، فأمر عمر روحًا برد الحوانيت إليهم، ولم يلتفت لسجل الوليد، فقام روح فتوعدهم، فرُوع رجل منهم وأُخبر عمر بذلك، فأمر عمر صاحب حرسه أن يتبع روحًا فإن لم يرد الحوانيت إلى اصحابها فليضرب عنقه، فخاف روح على نفسه وردّ إليهم حوانيتهم[5]، وردّ عمر أرضًا كان قوم من الأعراب أحيوها، ثم انتزعها منهم الوليد بن عبد الملك فأعطاها بعض أهله، فقال عمر: قال رسول الله ﷺ: «.. من أحيا أرضًا ميتة فهى له»[6]، ولقد أحبّ آل البيت وأعاد إليهم حقوقهم وقال مرة لفاطمة بنت على بن أبى طالب رضى الله عنهما: يا بنت على، والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحبّ إلىَّ منكم ولأنتم أحب إلىَّ من أهل بيتى[7].

ب ـ عزله جميع الولاة والحكام الظالمين:

لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة عمد إلى جميع الولاة والحكام والمسئولين الظالمين فعزلهم عن مناصبهم، ومنهم خالد بن الريان وصاحب حرس سليمان بن

---

(١) ملامح الانقلاب الإسلامى، ص (١٢٠).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٤٦، ١٤٧).

(٣) الطبقات لابن سعد (٥/ ٣٤١).

(٤) الحوانيت: جمع حانوت وهو محل التجارة.

(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٦٠).

(٦) صحيح الجامع للألبانى رقم (٢٧٦٦).

(٧) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى، ص (١٣١)، السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، ص (٤٥).

عبد الملك الذى كان يضرب كل عنق أمره سليمـان بضربها، وعين محله عمرو بن مهـاجر الأنصارى، فقـال عمر بن عـبد العزيز: يا خـالد ضع هذا السيف عنك، اللهم، إنى قد وضعـت لك خالد بن الريان، اللهم لا ترفعه أبدًا، ثم قـال لعمرو بن مهاجـر: والله إنك لتعلم يا عمرو، أنه ما بينى وبينك قـرابة إلا قرابة الإسلام ولكنى سمعتك تكثـر تلاوة القرآن، ورأيتك تصلى فى موضع تظن ألا يراك أحد، فرأيتك حسن الصلاة، فخُذْ هذا السيف قد وليتك حرسى[1].

وهكذا يعـزل عمـر الظالمين، وهذا أسلوبه فى اختـيار الولاة والقـضاة والكـتاب وغـيرهم، إنـه يبحث عن أصلـح الناس دينًا وأمـانة، ولما انتقـد أحـد ولاته الذين اختارهم نكت بين عينيه بالخيزرانة فى سجدته وقال: هذه غرتنى منك. يريد سجدته أى أثر السجود فى وجهه، فهـذه علامة من علامات صلاح الرجل، وهى دليل على كثرة السـجود، ومن أجل ذلك اختاره عمـر بن عبد العزيز، وعمـر لا يكتفى بمظهر الرجل ولكنه يختبـره أيضًا، فقد رأى رجلاً كـثير الصلاة، وأراد أن يمتـحنه ليوليه، فأرسل إليه رجلاً من خـاصته فقال: يا فلان إنك تعلم مقامى عند أمـير المؤمنين فما لى لو جعلتـه يوليك على أحد البلدان؟ فقـال الرجل: لك عطاء سنة، فرجع الرجل إلى عمر وأخبره بما كان من هذا الرجل، فتركه لأنه سقط فى الاختبار[2]. وكان من ضمن من عزلهم عـمر بن عبد العزيز: أسامـة بن زيد التنوخى -وكان على خراج مصر- لأنه كان غاشمًا ظلومًا يعتدى فى العقوبات بغير ما أنزل الله عز وجل، يقطع الأيدى فى خلاف ـ دون تحقق شروط القطع ـ فأمر به عـمر بن عبد العزيز أن يحبس فى كل جُنُد[3] سنة، ويقيد ويحل عنه القيد عند كل صلاة ثم يرد فى القيد، فحبس بمصر سنة، ثـم فلسطين سنة، ثم مات عـمر وولى يزيد بن عبـد الملك الخلافـة فردّ أسامة على مصر فى عمله[4]، وكتب عمر بن عبـد العزيز بعزل يزيد بن أبى مسلم عن إفريقية، وكـان عامل سوء يظهر التأله والنفـاذ لكل ما أمر به السلطان مما جل أو صغر من السيرة بالجور، والمخالفة للحق، وكان فى هذا يكثر التسبيح والذكر، ويأمر بالقوم فيكونون بين يديه يعـذبون وهو يقول: سبحان الله والحمـد لله، شد يا غلام

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٥٠).

(2) فقه عمر بن عبد العزيز، د. محمد شقير (١/ ٩١).

(3) الجند: المدينة وقيل مدن الشام.

(4) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٣٢).

موضع كذا وكذا، لبعض مواضع العذاب، وهو يقول: لا إله إلا الله والله أكبر، شد يا غلام شد موضع كذا وكذا، فكانت حالته تلك شر الحالات، فكتب عمر بعزله[1]، وهكذا استمر عمر فى عزل الولاة الظلمة وتعيين الصالحين، وسيأتى الحديث عن فقه عمر فى تعامله مع الولاة فى محله بإذن الله تعالى.

ج - رفع المظالم عن الموالى:

تعرض الموالى قبل عمر بن عبد العزيز للمظالم، فقد فرضت الجزية على من أسلم منهم، كما مُنعوا من الهجرة مثلما حدث للموالى فى العراق ومصر وخراسان، وفى عهد عبد الملك أوقع الحجّاج بالموالى ظلمًا عظيمًا، فقد عمل على إبقاء الجزية على من أسلم منهم، وحرمهم من الهجرة من قراهم، وهذا ما دفعهم للاشتراك فى ثورة ابن الأشعث ضد الحجّاج، كما وقع الظلم على الموالى فى مصر وخراسان، فلما تولى عمر بن عبد العزيز أزال تلك المظالم التى لحقت بهؤلاء الموالى وكتب إلى عماله يقول: .. فمن أسلم من نصرانى أو يهودى أو مجوسى من أهل الجزيرة اليوم فخالط المسلمين فى دارهم، وفارق داره التى كان بها، فإن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه غير أرضه وداره إنما هى من فىء الله على المسلمين عامة، ولو كانوا أسلموا عليها قبل أن يفتح الله للمسلمين كانت لهم، ولكنها فىء الله على المسلمين عامة[2]، وكتب إلى عامله على مصر -حيان بن شريح- يقول: وأن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة، فإن الله تبارك وتعالى قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥] وقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، إلا إن هذا العامل أرسل إلى عمر يقول: أما بعد، فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن نابتة عشرين ألف دينار أتممتها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل[3]. وجاء رد عمر: أما بعد، فقد بلغنى كتابك وقد

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٣٢، ٣٣). (٢) المصدر نفسه، ص (٧٨، ٧٩).

(٣) الخطط للمقريزى (١/٧٨)، عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٣٣).

وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطًا، فضع الجزية عمن أسلم ـ قبح الله رأيك ـ فإن الله إنما بعث محمدًا ﷺ هاديًا ولم يبعثه جابيًا، ولعمرى ولعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على دينه[1]. وفى رواية ابن سعد: أما بعد، فإن الله بعث محمدًا داعيًا ولم يبعثه جابيًا، فإذا أتاك كتابى هذا فإن كان أهل الذمة أسرعوا فى الإسلام وكسروا الجزية فاطو كتابك وأقبل[2]. ولم يكن عامل عمر على مصر هو الوحيد الذى طلب من عمر السماح له فى أخذ الجزية ممن أسلم، فها هو عامله على الكوفة ـ عبد الحميد بن عبد الرحمن ـ يسأله أخذ الجزية المتراكمة على اليهود والنصارى والمجوس الذين أسلموا، فجاءه رد عمر الواضح أيضًا يقول: كتبت إلىَّ تسألنى عن أناس من أهل الحيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة، وتستأذننى فى أخذ الجزية منهم، وإن الله -جل ثناؤه- بعث محمدًا ﷺ داعيًا إلى الإسلام ولم يبعثه جابيًا، فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه فى ماله الصدقة ولا جزية عليه، وميراثه ذوى رحمه إذا كان منهم من يتوارثون أهل الإسلام، وإن لم يكن له وارث فميراثه فى بيت مال المسلمين الذى يقسم بين المسلمين، وما أحدث من حدث ففى مال الله الذى يقسم بين المسلمين يعقل عنه منه والسلام[3]. كما كتب إليه عامله على البصرة ـ عدى بن أرطأة ـ يقول: أما بعد، فإن الناس كثروا فى الإسلام وخفت أن يقل الخراج. فكتب إليه عمر: فهمت كتابك، والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا[4].

هذا إلى جانب إبطاله لمظلمة المنع من الهجرة التى أوقعها الحجّاج بالموالى فى العراق، وهكذا أبطل عمر تلك المظالم التى أصابت الموالى، فترتب على ذلك أن أعاد إليهم حقوقهم المسلوبة والهدوء والطمأنينة إلى نفوسهم، وباتوا ينعمون بالمساواة والعدل مع غيرهم من أبناء الأمة الإسلامية[5].

---

(١) الخطط للمقريزى (١/ ٧٨)، عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٣٣).
(٢) الطبقات (٥/ ٣٨٤).
(٣) الخراج لأبى يوسف، ص (١٤٢)، عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٣٤).
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٩٩ ـ ١٠٠).
(٥) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٣٤).

د ـ رفع المظالم عن أهل الذمة:

زاد عبد الملك فى عـهده الجزية على أهل قبـرص، وكان معاوية بن أبى سـفيان غزا قبـرص بنفسه وصالحهم صلحًـا دائمًا على سبعة آلاف دينار، وعلى النصـيحة للمسلمـين، وإنذارهم عدوهم من الروم. ولم يزل أهل قبرص على صلـح معاوية حتى ولى عبد الملك بن مروان، فزاد عليهم ألف دينار، فجرى ذلك إلى عهد عمر ابن عبد العزيز فحطها عنهم[1]، كما أصابت الزيادة فيما يجبى من جزية أهل الذمة فى العراق، وقد وضعهـا عنهم عمر بن عبد العزيز كسياسـة عامة التزم بها فى أن يرفع المظالم عن أهل الذمة حتى يدعهم ينعمون بحياتهم فى ظل الشرائع الإسلامية السمحة. ويؤيد ذلك ما جاء فى كتابه إلى عامله على البصرة ـ عدى بن أرطأة: أما بعد، فإن الله سبحانه إنما أمر أن تؤخـذ الجزية ممن رغب عن الإسلام واختار الكفر عتـيًا[2]، وخسـرانًا مبينًا، فـضع الجزية على من أطاق حملهـا، وخلِّ بينهم وبين عمارة الأرض، فـإن فى ذلك صلاحًا لمعاش المسلميـن، وقوة على عدوهم، وانظر من قبلك من أهل الذمة ممن قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجْرِ عـليه من بيت مال المسلمين مـا يصلحه. فلو أن رجلاً من المسلمـين كان له مملوك كبرت سنه وضـعفت قوته وولت عنه المكاسب كان من الحـق عليه أن يقوته حتى يفرق بينهما موت أو عتق، وذلك أنه بلغنى أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال: ما أنصفناك، إن كنا أخذنا منك الجزية فى شبيبتك ثم ضيعناك فى كبرك. قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه[3].

كما بلغت سيـاسة عمر بن عبد العزيز فى وضع المظـالم عن الناس مساعدتهم أيضًا وذلك حـين كتب إلى عامله على الكوفـة يقول: انظر من كانت عليـه جزية فضعف عن أرضـه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضـه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين[4]، وقد أمر عمر ولاته بالأخذ بالرحـمة والرأفة بالناس، فقد منع تعذيب أهل البصـرة وغيـرهم لاستـخراج الخراج منهم، وعـندما أرسل إليه عـامله على البصرة عـدى بن أرطأة يقول: إن أناسًا قِبلنا لا يؤدون ما عليـهم من الخراج حتى

---

(١) فتوح البلدان، ص (١٥٩)، عمر وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٤٠).

(٢) عتيًا: العاتى المجاوز للحد فى الاستكبار.

(٣) الأموال لأبى عبيد، ص (٥٧).

(٤) المصدر نفسه ص٣٢٠، عمر وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٤١).

يمسهم شيء من العذاب، فكتب إليه عمر: أما بعد، فالعجب كل العجب من استئذانك إياى فى عذاب البشر كأنى جنة لك من عذاب الله، وكأن رضاى ينجيك من سخط الله، وإذا أتاك كتابى هذا فمن أعطاك فاقبله عفواً وإلا فأحلفه، فوالله لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إلىَّ من أن ألقاه بعذابهم. والسلام[1].

ومما أصاب أهل الذمة من المظالم قبل عهد عمر بن عبد العزيز سبى بنات ونساء من لواتة بشمال إفريقية، ولكن عمر رد هذه المظلمة، يذكر أبو عبيد أن عمر بن عبد العزيز كتب فى اللواتيات: من أرسل منهن شيئًا فليس من ثمنها شيء وهو ثمن مرجها الذى استحلها به ـ أو كلمة تشبه الثمن ـ قال: ومن كانت عنده امرأة منهن فليخطبها إلى أبيها، وإلا فليردها إلى أهلها. قال أبو عبيد: قوله اللواتيات هن من لواتة: فرقة من البربر، يقال لهم لواتة، أراه قد كان لهن عهد، وهم الذين كان ابن شهاب يحدث أن عثمان أخذ الجزية من البربر، ثم أحدثوا بعد ذلك فسبوا. فكتب عمر بن عبد العزيز بما كتب به[2]، كما أرجع عمر بن عبد العزيز إلى أهل الذمة كل أرض أو كنيسة أو بيت اغتصب منهم[3].

ومما رفعه عمر عن أهل الذمة من المظالم السخرة على أساس أنه يحل للمسلمين أن يسخروا أهل الذمة لمصالحهم الشخصية، طالما أن هذا غير موجود فى صلحهم[4]. فكتب إلى عماله يقول: . . . ونرى أن توضع السخرة عن أهل الأرض، فإن غايتها أمر يدخل فيه الظلم[5]، وهكذا رد عمر بن عبد العزيز ما أصاب أهل الذمة من مظالم، فترتب على ذلك أن أعاد السكينة، والطمأنينة، والهدوء إليهم، وأوضح لهم أن بإمكانهم أن يعيشوا فى ظل الإسلام آمنين مطمئنين تشملهم سماحة الدين ويظلهم عدله، وتستقيم أمورهم وشئونهم فى كنفه، لا يضارون ولا يستضعفون ولا يستعبدون، لهم حقوقهم المعلومة وعليهم واجباتهم المحددة، ضمنها لهم الشارع الحكيم، وما تأسس من أحكام كتاب الله وسنة رسوله الكريم[6].

(١) الخراج لأبى يوسف، ص (١٢٩).
(٢) فتوح البلدان، ص (٢٢٦، ٢٢٧).
(٣) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٤٥).
(٤) المصدر نفسه، ص (٢٤٥).
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٨٣).
(٦) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٤٨).

هـ- إقامة العدل لأهل سمرقند:

لما وصل خبر تولية عمر بن عبد العزيز الخلافة إلى سكان ما وراء النهر، اجتمع أهل سمرقند وقالوا لسليمان بن أبى السرّى: إن قتيبة غدر بنا، وظلمنا وأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والانصاف، فأْذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين، يشكو ظلامتنا، فإن كان لنا حق أُعطيناه، فإن بنا إلى ذلك حاجة. فأذن لهم سليمان، فوجهوا منهم قومًا فقدموا على عمر، فكتب لهم عمر إلى سليمان بن السرى: إن أهل سمرقند، قد شكوا إلىَّ ظلمًا أصابهم، وتحاملاً من قتيبة عليهم؛ أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كتابى، فأجلس لهم القاضى فلينظر فى أمرهم، فإن قضى لهم فأخرجهم[1] إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن يظهر عليهم قتيبة. فأجلس سليمان جُمَيْعَ بن حاضر القاضى فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء، فيكون صلحًا جديدًا أو ظفرًا عنوة، فقال أهل الصُّغد[2]: بل نرضى بما كان ولا نجدِّد حربًا، وتراضوا بذلك، فقال أهل الرأى: قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم، وأمنونا وأمنّاهم، فإن حكم لنا عدْنا إلى الحرب ولا ندرى لمن يكون الظفر، وإن لم يكن لنا اجتلبنا عداوة فى المنازعة، فتركوا الأمر على ما كان، ورضوا ولم ينازعوا[3].

أية دولة فى القرن العشرين تحنى رأسها هكذا للعدل كى يأخذ مجراه وللحق كى يعود إلى أصحابه؟ وأى حاكم فى تاريخ الشعوب التى لم تعرف الله، استجاب - هكذا- لنداءات المظلومين الذين سلبت حقوقهم، كهذه الاستجابة السريعة الحاسمة من عمر بن عبد العزيز؟ ألا أنه المسئول الذى نذر نفسه للدفاع عن قيم الحق والعدل فى أقطار الأرض، فبدونهما تفقد شريعة الله مقوماتها وأهدافها العليا[4]. فهذا مثل رفيع من عدل عمر وإننا لنلاحظ فى هذا الخبر عدة أمور:

- أن الناس يقبلون على التظلم والشكوى والمطالبة بالحقوق حينما يكون الحكام عادلين، لأنهم يعلمون أن دعواهم ستؤخذ مأخذ الجد، وسينظر فيها بعدل،

(١) يعنى المسلمين الغزاة.

(٢) الصُّغد: قوم يسكنون بعض بلاد ما وراء النهر.

(٣) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٧٢).

(٤) ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز، ص (٦٨).

فهؤلاء المتظلمون قد سكتوا على ما هم فيه من الشعور بالظلم طيلة ولاية الوليد وسليمان، فلما رأوا عدل عمر بن عبد العزيز رفعوا قضيتهم.

- أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لم يهمل قضيتهم، وإنما أحالها إلى القضاء الشرعى، وهذا مثل من الخضوع للإسلام والتجرد من هوى النفس، وكان باستطاعته أن يعمل كما يعمل كثير من المسئولين، من إرسال خطابات الوعيد والتهديد والبحث عن رؤوس القوم وإجراء العقوبات المناسبة عليهم، ولكنه قد نذر نفسه لرفع المظالم وإقرار العدالة، وذلك لا يكون إلا بحكم الشرع والتحاكم إليه.

- أن أولئك القوم قد أسقط فى أيديهم لما اطلعوا على كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، ورأى أهل الرأى منهم أنهم خاسرون فى كلا الحالين، سواء حكم لهم أو عليهم، وأن مصلحتهم فى بقائهم على ما هم عليه، وبهذا زال تظلمهم وشعروا بعدالة الحكم الإسلامى[١].

و- الاكتفاء باليسير من البينات فى رد المظالم:

نظرًا لمعرفة عمر بن عبد العزيز بغشم الولاة قبله، وظلمهم للناس حتى أصبحت المظالم كأنها شيء مألوف، فإنه لم يكلف المظلوم بتحقيق البينة القاطعة على مظلمته، وإنما يكتفى باليسير من البينة، فإذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها إليه دون أن يكلفه تحقيق البينة، فقد روى ابن عبد الحكم وقال: قال أبو الزناد: كان عمر بن عبد العزيز يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة، وكان يكتفى باليسير، إذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه، ولم يكلفه تحقيق البينة، لما يعرف من غشم الولاة قبله على الناس، ولقد أنفد بيت مال العراق فى رد المظالم حتى حُمل إليه من الشام[٢]. فما أحسن ما فعله عمر بن عبد العزيز وما أحسن التيسير على الناس قدر المستطاع، لأن فيه اختصارًا للوقت وتوفيرًا للجهود[٣]، كما أن هذا العمل نستنبط منه قاعدة هامة فى التفريق بين أصول التحقيق فى القضاء العادى وبين أصول التحقيق فى القضاء الإدارى، وضعها عمر بن عبد العزيز، فالبينة القاطعة قد تستحيل إقامتها، وجمع عناصرها، فإذا كان الظلم واضحًا، اكتفى قاضى المظالم بالبينة اليسيرة[٤].

(١) التاريخ الإسلامى (٦٢/١٥، ١٦).

(٢) سيرة عمرة بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٠٦، ١٠٧).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٥٥٨). (٤) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٢/٥٦٥).

ز ـ وضع المكس[1]:

لما كان المكس من الظلم والبخس، لأنه جباية أو ضريبة تؤخذ من الناس بغير وجه شرعى، ولما كانت الزكاة على المسلم، والجزية والعشور والخراج على الذمى كافيه عما سواها، فقد نهى عمر عن المكس وشدد فى ذلك ومنعه كما يأتى: عن محمد بن قيس قال: لما ولى عمر بن عبد العزيز وضع المكس عن كل أرض، ووضع الجزية عن كل مسلم[2]. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطأة أن ضع عن الناس المكس ولعمرى ما هو بالمكس ولكنه البخس الذى قال الله فيه: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. فمن أدى زكاة ماله فاقبل منه، ومن لم يأت فالله حسيبه[3]، وكتب إلى عامله عبد الله بن عوف على فلسطين: أن اركب إلى البيت الذى يقال له: المكس، فاهدمه ثم احمله إلى البحر فانسفه فى اليم نسفًا[4]. نعلم مما سبق أن المكس دراهم تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق وأن ذلك يصدق على الجمارك التى تؤخذ على السلع عند استيرادها فى هذا الزمان، وأن عمر بن عبد العزيز يرى أن ذلك من الظلم فمنعه[5]. والحجة فيما فعله عمر بن عبد العزيز قول الله تعالى: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٣].

ح- رد المظالم وإخراج زكاتها:

قرر عمر بن عبد العزيز رد المظالم التى فى بيوت المال، وأخذ زكاتها لسنة واحدة[6]، عن مالك بن أنس عن أيوب السختيانى أن عمر بن عبد العزيز رد مظالم فى بيوت الأموال، فرد ما كان فى بيت المال وأمر أن يزكى لما غاب عن أهله من السنين، ثم كتب بكتاب آخر: إنى نظرت فإذا هو ضمار[7] لا يزكى إلا لسنة واحدة[8]، وعن عمرو بن ميمون قال: أخذ الوالى فى زمن عبد الملك مال

(١) المكس: دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق فى الجاهلية أو هى الجباية.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٣٤٥).
(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٨٣).
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١١٣).
(٥) فقه عمر بن عبد العزيز، د. محمد شقير (٢/ ٥٦١).
(٦) المصدر نفسه (٢/ ٥٦٦).
(٧) المال الضمار: أى الذى لا يرجى رجوعه.
(٨) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٣٤٢).

رجل من أهل الرقة يقال له: أبو عائشة عشرين ألفًا فأدخلت فى بيت المال، فلما ولى عمر بن عبد العزيز أتاه ولده فرفعوا مظلمتهم إليه، فكتب إلى ميمون: ادفعوا إليهم أموالهم، وخذوا زكاة عامه هذا، فلولا أنه كان مالاً ضمارًا أخذنا منه زكاة ما مضى[1].

هذا هو عمر بن عبد العزيز فى دولته التى أقامها على العدل، وكان رحمه الله يعلم ولاته أنه بالعدل تستقيم الحياة بكل شئونها، فلما أرسل إليه بعض عماله يقول: أما بعد، فإن مدينتنا قد خربت، فإن يرَ أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالاً نرمّها به فعل. فكتب إليه عمر: أما بعد، فقد فهمت كتابك، وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابى هذا فحصِّنها بالعدل، ونَقِّ طرقها من الظلم، فإنَّه مرمَّتها والسلام[2]، وكتب إلى بعض عماله: إن قدرت أن تكون فى العدل والإحسان والإصلاح كقدر من كان قبلكم فى الجور والعدوان والظلم، فافعل، ولا حول ولا قوة إلا بالله[3]، وكتب إلى أبى بكر بن حزم: أن استبرئ الدواوين، فانظر إلى كل جور جاره من قبلى من حق مسلم أو معاهد فردَّه إليه، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم[4].

وكان رحمه الله يواجه فى تنفيذ ما يريده من العدل مصاعب ومشقات ومقاومة، وعقبات، فكان ينفق بعض المال فى سبيل تهدئة بعض النفوس، لإنفاذ الحق ونشر العدل، ورفع الظلم، دخل عليه ابنه عبد الملك ذات يوم، فقال: يا أبتِ ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل؟ فوالله ما كنت أبالي لو غلت بى وبك القدور فى ذلك؟ قال: يا بنى، إنما أروِّض الناس رياضة الصَّعْب، إنى لأريد أن أحيى الأمور من العدل، فأوفِّر ذلك حتى أُخرج معه طمعًا من طمع الدنيا، فينفروا لهذا ويسكنوا لهذا[5]، وقام برصد الجوائز لمن يدل على خير، أو ينبه على خطأ، أو يشير إلى وقوع مظلمة لم يستطع صاحبها إبلاغها، فكتب كتابًا أمر أن يُقرأ على الحجيج فى المواسم وفى كل المحافل والمجامع جاء فيه: أما بعد، فأيما

(١) مصنف ابن أبى شيبة (٣/ ٢٠٢).

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص (٢٣)، عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٢٢٦).

(٣) الطبقات (٥/ ٣٨٣، ٣٨٤).

(٤) المصدر نفسه (٥/ ٣٤٢، ٣٤٣).

(٥) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٢٢٦).

رجل قدم علينا فى رد مظلمة، أو أمر يصلح الله به خاصًا أو عامًا من أمر الدين، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار، بقدر ما يرى من الحسبة، وبُعد الشقة. رحم الله امرأً لم يَتكَاءده بُعد سفر، لعل الله يحيى به حقًا، أو يميت به باطلاً، أو يفتح من ورائه خيرًا[١].

ولاستعذابه حلاوة العدل ورحمته وتنعم الناس بتفيّؤ ظلاله كان يقول: والله لوددت لو عدلت يومًا واحدًا وأن الله تعالى قبضنى[٢]، ومع أنه رأى ثمرات العدل التى قطف منها جميع الناس فى خلافته إلا أن نفسه التوّاقة لكل شامخ ورفيع كانت تطمح للمزيد، ولقد عبر عن ذلك بقوله: لو أقمت فيكم خمسين عامًا ما استكملت العدل[٣]. وحتى الحيوانات نالهن عدله وإنصافه ورفع الظلم عنه، وإليك هذه المشاهد:

- النهى عن نخس الدابة بالحديدة وعن اللجم الثقال: فقد أكد عمر بن عبد العزيز على الرفق بالحيوان وعدم ظلمه أو تعذيبه، قال أبو يوسف: حدثنا عبيد الله بن عمر: أن عمر بن عبد العزيز نهى أن يجعل البريد فى طرف السوط حديدة ينخس بها الدابة، ونهى عن اللجم الثقال[٤]، وقد أصدر أوامره بمنع استخدام اللجم الثقيلة مع الخيول والبغال، كما منع استخدام المناخس ذات الرؤوس الحديدية[٥].

- فى تحديد حمولة البعير بستمائة رطل:

وحين بلغه أن قومًا يحملون على الجمال ما لا تطيق، وذلك فى مصر، كتب إلى واليها يحدد أقصى حمولة للبعير بستمائة رطل، وطلب منه إبلاغ قراره هذا الناس وأمره بتنفيذه[٦].

هذه بعض الملامح السريعة على إقامة العدل فى دولة عمر بن عبد العزيز، إن من أهداف التمكين إقامة المجتمع الذى تسود فيه قيم العدل ورفع الظلم، ومحاربته بكل أشكاله وأنواعه، وهذا ما قام به عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

---

(١) المصدر نفسه، ص (٢٢٧) تَكَاءَدَهُ: شقَّ عليه وصعب. (٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٣).
(٣) تاريخ ابن عساكر نقلاً عن عمر بن عبد العزيز، لعبد الستار الشيخ، ص (٢٢٧).
(٤) مصنف ابن أبى شيبة (١٢/ ٣٣٢)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٥٧٣).
(٥) ملامح الانقلاب الإسلامى، ص (٧١). (٦) فقه عمر بن عبد العزيز، محمد شقير (٢/ ٥٧٥).

٥ ـ المساواة:

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى**»(١)، وقد قام عمر بن عبد العزيز بتطبيق هذا المبدأ فى دولته، وكان أول مؤشر على رغبته فى تطبيق مبدأ المساواة، حين أقسم أنه يودُّ أن يساوى فى المعيشة بين نفسه ولحمته التى هو منها وبين الناس(٢)، فقال: أما والله لوددت أنه بُدئ بى، وبلحمتى، التى أنا منها، حتى يستوى عيشنا وعيشكم، أما والله لو أردت غير هذا من الكلام، لكان اللسان به منبسطًا ولكنت بأسبابه عارفًا(٣). وقال فى خطبة له: . . وما منكم من أحد تبلغنا حاجته إلا أحببت أن أسد من حاجته، ما قدرت عليه(٤).

كما أن عمر اتخذ مبدأ المساواة بين الناس، فى الحقوق والواجبات فى جميع مجالات الحياة، فلم يميز بين الناس فى حقهم فى تولى الوظائف والولايات، ولم يعط أحدًا -كائنًا من كان- شيئًا ليس له فيه حق، فقد ساوى بين أمراء وأشراف بنى أمية وبين الناس، فمنع عنهم العطايا والأرزاق الخاصة، وقال لهم حين كلموه فى ذلك: يتسع مالى لكم، وأما هذا المال ـ يقصد المال الذى فى بيت مال المسلمين ـ فإنما حقكم فيه كحق رجل، بأقصى برك الغماد(٥). فكانت سياسته المالية تقوم على مبدأ المساواة، فبيت المال لجميع المسلمين، ولكل واحد منهم حق أن يأخذ منه أسوة بغيره، فلا يكون حكرًا على فئات معينة من الناس، ومن أعماله التى تدل على ترسيخه مبدأ المساواة بين الناس ما أعلنه عندما رأى أمراء بنى أمية قد استحوذوا على قطع واسعة من الأرض وجعلوها حمى، يحرم من الاستفادة

(١) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص (٢٩٧).
(٢) المصدر نفسه، ص (٢٩٧). (٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١١٢).
(٤) تاريخ الطبرى نقلاً عن النموذج الإدارى من إدارة عمر، ص (٢٩٧).
(٥) بلد باليمن وهو أقصى حجر باليمن، وقيل موضع بمكة.

منها عامة الناس، فقال: إن الحمى يباح للمسلين عامة.. وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين، إنما الغيث ينزله الله لعباده، فهم فيه سواء[1].

كما ساوى بين من أسلم من أهل الأديان الأخرى من النصارى واليهود وبين المسلمين، وعمل على كسر حاجز التنافر بينهم، فقال: ... فمن أسلم من نصرانى أو يهودى أو مجوسى، من أهل الجزية اليوم، فخالط المسلمين فى دارهم وفارق داره التى كان بها، فإن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه[2]، ويروى ابن سعد: أن عمر بن عبد العزيز جعل العرب والموالى فى الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء، غير أنه جعل فريضة المولى المعتق خمسة وعشرين دينارًا[3]، وفى مجال المساواة بين الناس أمام القضاء، وأحكام الإسلام، نكتفى بهذا الدليل الذى كان عمر فيه أحد أطراف النزاع أمام القاضى، وتفصيل ذلك أنه: أتى رجل من أهل مصر عمر بن عبد العزيز، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن عبد العزيز ـ يقصد والد عمر ـ أخذ أرضى ظلمًا، قال: وأين أرضك يا عبد الله؟ قال: حلوان، قال عمر: أعرفها ولى شركاء ـ أى شركاء فى حلوان ـ وهذا الحاكم بيننا، فمشى عمر إلى الحاكم فقضى عليه، فقال عمر: قد أنفقنا عليها، قال القاضى: ذلك بما نلتم غلتها، فقد نلتم منها مثل نفقتكم، فقال عمر: لو حكمت بغير هذا ما وليت لى أمرًا أبدًا، وأمر بردها[4].

وكان عمر يقيم وزنًا لمبدأ المساواة بين المسلمين، حتى فى الأمور العامة، ومن ذلك أمره بأن لا يُخص أناس بدعاء المسلمين والصلاة عليهم، فكتب إلى أمير الجزيرة يقول: .. وقد بلغنى أن أناسًا من القصاص قد أحدثوا صلاة على أمرائهم، عِدل ما يصلون على النبى ﷺ، فإذا جاءك كتابى هذا، فمر القصاص، فليجعلوا صلاتهم على النبى ﷺ خاصة، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة، وليدعوا ما سوى ذلك[5]، ومن ذلك يتضح اهتمام عمر بالمساواة بين عامة الناس حتى فى الدعاء لهم، ولا يختص أحد بدعاء، فالمسلمون عامة فى حاجة إلى دعوة الله عز وجل لهم، والله سبحانه وتعالى جدير بالإجابة[6]، وقد طبق

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٨١).
(٢) المصدر السابق، ص (٧٩).
(٣) الطبقات (٥/ ٣٧٥).
(٤) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٩٨).
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٧٣).
(٦) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٢٩٩).

مبدأ المساواة بينه وبين عامة الناس، فقد حصل أن شتمه رجل بالمدينة لسبب أو لآخر، فلم يكن ما أمر به سوى ما قد يأمر به كما لو كان المشتوم أحد أفراد الأمة، ذلك ما حدث حين حُكم فى رجل فى مسجد رسول الله ﷺ، وأبو بكر بن محمد بن حزم والى عمر على المدينة فى صلاته، فقطع عليهم الصلاة، وشهر السيف، فكتب أبو بكر إلى عمر، فأتى بكتاب عمر، فقرئ عليهم، فشتم عمر، والكتاب، ومن جاء به، فهمَّ أبو بكر بضرب عنقه، ثم راجع عمر وأخبره أنه شتمه، وأنه همَّ بقتله، فكتب إليه عمر: لو قتلته لقتلتك به، فإنه لا يقتل أحد بشتم أحد إلا أن يُشتم النبىُّ ﷺ، فإذا أتاك كتابى فاحبس على المسلمين شره، وادعه إلى التوبة فى كل هلال، فإذا تاب فخلِّ سبيله[1]، ولم يكتف عمر بالأخذ بمبدأ المساواة بنفسه فحسب، بل كان يأمر عماله وولاته بذلك، فقد كتب إلى عامله على المدينة يقول له: اخرج للناس فآس بينهم فى المجلس والمنظر، ولا يكن أحد الناس آثر عندك من أحد، ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندى اليوم سواء، بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم[2]. كانت تلك بعض مواقف عمر، وإن كانت متفاوتة، إلا أن فيها دلالة واضحة على أخذ عمر بمبدأ المساواة فى دولته[3].

٦ ـ الحريات فى دولة عمر بن عبد العزيز:

إن مبدأ الحرية من المبادئ الأساسية التى قام عليها الحكم فى دولة عمر بن عبد العزيز، ويقضى هذا المبدأ بتأمين وكفالة الحريات العامة للناس كافة ضمن حدود الشريعة الإسلامية، وبما لا يتناقض معها، فقد اهتم عمر بجميع صور الحرية الإنسانية، فجاء مستعرضًا لأنواع وصور الحرية، فأقر ما كان فيها موافقًا لتعاليم الإسلام، وأعاد ما لم يكن كذلك إلى دائرة التعاليم الإسلامية، وإليك بعض التفاصيل عن الحريات فى دولة عمر بن عبد العزيز:

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٤٢).

(٢) الطبقات (٥/ ٣٤٣)، النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٣٠١).

(٣) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٣٠١).

أ ـ الحرية الفكرية والعقدية: حرص عمـر بن عبد العزيز على تنفيذ قـاعدة حرية الاعتقاد فى المجتمع، وكانت سياسته حيال النصارى واليهود تلتزم بالوفاء بالعهود والمواثيق وإقامة العدل معهم ورفع الظلـم، وعدم التضييق عليهم فى معتقدهم ودينهم انطلاقًا من قـوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقـرة، : ٢٥٦]، وكان عمر ينهج أسلوب الدعوة مع ملوك الهند، والقبائل الخارجة عن الإسلام، وسيأتى الحديث عن ذلك بالتفصيل بإذن الله تعـالى، ولم يكره عمر أحدًا من النصارى أو غيرهم على الدخول فى الإسلام، وأما حرية الفكر من حـيث الرأى والتعبير، فقد أخذت نطاقًا واسعًا فى إدارة الدولة، وقيادته لعماله ورعيته، فقد أتاح لكل متظلم أن يشكو من ظلمـه وأطلق للكلمة حـريتهـا، وترك للناس حرية أن يقـول كلٌّ ما يريد، وقد عبر عن هذا القاسم بن محـمد بن أبى بكر الصديق بقوله: اليوم ينطق كل من كان لا ينطق[(١)] إذا لم يخالف الشرع.

ب - الحرية السيـاسية: كمـا أعلن عمر استـئناف الحرّية السيـاسية التى منحـها الإسلام للمسلمين، إذ لا طاعة لمخلوق فى معصـية الخالق، حتى وإن كان حاكمًا أو واليًا، فـقد أعلن عـمر فى أول يوم من أيام حكمـه الحرية فى الأمـر بالمعروف والنهى عن المنـكر، منكرًا على الناس واقـعـهم المـظلم، وأن الإسـلام لا يرضى السكوت عن الظلم، فقـد خطب الناس يومًا فقال: . . . ألا لا سـلامة لامرئ فى خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق فـى معصية الله، ألا وإنكم تسـمون الهارب من ظلم إمامه: الـعاصى، إلا وإن أولاهما بالمعصيـة الإمام الظالم[(٢)]، ومما يدل على إعطاء عمـر الناس الحرية السيـاسية، أن أول إجراء اتخـذه عقب إعلان العـهد له بالخلافة تنازله عن الخـلافة وطلب من الناس أن يختاروا خليفة، فـإذا كانت الحرية السياسية تتجلى فى ممارستها فى موضعين: أولهما المشاركة فى اختيار الحاكم، عن طريق أهل الحل والعقد، وبيعة المسلمـين ورضاهم، وثانيهما: إبداء الرأى والنصح للحكام، ونقد أعمالهم بمقاييس الإسلام[(٣)]، فإن عمر قد مارس الحـرية السياسية فى هذين الموضعـين فجعل لهم الخيـار فى توليه الخلافـة قبل الوعظ والنصح[(٤)]، وسيأتى بيان ذلك فى محله بإذن الله.

---

(١) الطبقات لابن سعد (٥/ ٣٤٤) . (٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٤٠).
(٣) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٣١٢).
(٤) المصدر نفسه، ص (٢١٢).

ج- **الحرية الشخصية**: عمل عمر بن عبد العزيز على تحقيق وتدعيم الحرية الشخصية لأفراد الأمة الإسلامية، إذ بدا له بعض القيود على الهجرة، أو ما يسمى بحرية التنقل، أو الغدو والرواح، فاتخذ إجراء فتح فيه باب الهجرة لمن يريد، إذ قال: . . وأما الهجرة فإنا نفتحها لمن هاجر من إعرابى فباع ماشيته، وانتقل من دار إعرابيته إلى دار الهجرة وإلى قتال عدونا، فمن فعل ذلك فله أسوة المهاجرين فيما أفاء الله عليهم[١]، كما قال فى كتابه لعماله: . . وأن يفتح لأهل الإسلام باب الهجرة[٢]. وإذا كان ذلك موقفه من حرية الناس فى الهجرة والتنقل، فقد تجلى حرصه على مبدأ حرية الإنسان فى أمر قل مَنْ يراعيه، أو يهتم به، أمر يخص من هم فى ملكه، ألا وهو تخييره لجواريه عقب تولى الخلافة بين العتق والإمساك على غير شىء، فقد علم أن لهنّ عليه حقوقًا لن يستطيع الإيفاء بها بعد توليه الخلافة، فترك لهنّ حرية الإقامة معه من غير شىء أو العتق، فتكون الواحدة منهنّ حرة حرية شخصية كاملة[٣]، فقد روى ابن عبد الحكم أن عمر خيّر جواريه، فقال: إنه قد نزل بى أمر شغلنى عنكنّ، فمن اختارت منكنّ العتق أعتقتها، ومن أمسكتها لم يكن لها منى شىء، فبكين بكاءً شديدًا يأسًا منه[٤].

د ـ **حرية التجارة والكسب**: أما فى حرية التجارة والكسب وابتغاء فضل الله فى البر والبحر، كجزء من الحرية الاقتصادية، فقد أكد فى كتاب له إلى عماله على ضرورة منح الناس حرية استثمار أموالهم، والاتجار بها فى البر والبحر على حد سواء، فقد كتب إلى عماله: . . وإن من طاعة الله التى أنزل فى كتابه أن يدعى الناس إلى الإسلام كافة، . . . وأن يبتغى الناس بأموالهم فى البر والبحر، ولا يمنعون ولا يحبسون[٥]. وكتب أيضًا: . . وأما البحر، فإنا نرى سبيله سبيل البر، قال الله تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [الجاثية: ١٢]، فأذن أن يتجر فيه من شاء، وأرى أن لا نحول بين أحد من الناس وبينه، فإن البر والبحر لله جميعًا سخرهما لعباده يبتغون فيهما

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٧٩).
(٢) المصدر نفسه، ص (٧٨).
(٣) النموذج الإدارى المستخلص، ص (٣١٠).
(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٢١).
(٥) المصدر نفسه، ص (٩٤).

من فـضله، فكيف نحول بين عـباد الله وبين مـعايشـهم[١]. ويقول عـمر فى موضع آخر: . . أطلق الجسور والمعابر للسابلة يسيرون عليها دون جعل[٢]، لأن عمال السوء تعـدوا غير ما أمروا به[٣]، وأما عن الأسعار والتسـعير زمن عمر، فقد قال أبو يوسف: حدثنا عبد الرحمن بن شوبان عن أبيه قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، ما بال الأسعار غالية فى زمانك، وكانت فى زمان من قبلك رخـيصة؟ قـال: إن الذين كانوا قبلـى كانوا يكلفون أهل الذمـة فوق طاقتهم، ولم يكـونوا يجدون بدًا من أن يبيعوا ويكسـروا ما فى أيديهم، وأنا لا أكلف أحدًا إلا طاقتـه، فباع الرجل كيف شاء، قال: فـقلت: لو أنك سعَّرت، قال: لـيس إلينا من ذلك شيء، إنما السعـر إلى الله[٤]. وتشـدد عمر فـى أمر السلع المحرمة، ومنع التعامل بها، فالخمر من الخبائث التى لا يجوز التعامل فيها بين المسلمين، لحـرمتها ولضررها حـيث يؤدى شربها إلى استـحلال الدم الحرام وأكل المال الحرام[٥]، ويقول عمر: فإن من نجده يشرب منه شيئًا بعد تقدمنا إليه فيه نوجعـه عقوبة فى ماله ونفسه ونجـعله نكالاً لغيره[٦]. ولقد أثمرت سـياسة عمر فـى رد الحقوق وإطلاق الحرية الاقـتصادية المنضبطة، حـيث وفرت للناس الحوافـز للعمل والإنتاج، وأزالت العـوائق التى تحول دون ذلك، وهذا أدى إلى نمو التجارة، ونمو الـتجارة أدى إلى زيادة حصيلة الدخل الخـاضع للزكاة، وهذا يؤدى بدوره إلى زيادة الزكـاة، مما يؤدى إلى رفع مسـتوى الطبـقات الـفقـيرة، وارتفاع قـوتها الشـرائية، والتى ستـتوجه إلى الاسـتهلاك، وبـالتالى إلى زيادة الطلب على السلع والخدمـات، وهذا كله يؤدى إلى انتعاش الاقتـصاد، وارتفاع مستوى المعيشة وزيادة الرفاه[٧]. لقد كانت الحرية فى دولة عـمر بن عبد العزيز

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٩٨).

(٢) الجعل: من الجعالة وهو ما يجعل للشخص على عمله.

(٣) الإدارة الإسلامية، محمد كرد، ص (١٠٥).

(٤) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، ص (٤٨).

(٥) المصدر نفسه، ص (٤٨).

(٦) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٠٣).

(٧) السياسة الاقـتصادية والمالية لعمر بن عـبد العزيز، ص (٤٨)، سياسة الإنفـاق العام فى الإسلام، عوف محمد الكفراوى، ص (٣٧٢).

مصونة ومكفولة، ولها حدودها وقيودها، ولذلك ازدهر المجتمع وتقدم فى مدار الرقى، فالحريـة حق أساسى للفرد والمجتمـع، ليتمتع بها فى تحـقيق ذاته، إبراز قدراته، وسلب الحرية من المجتمع سلب لأهم مقـوماته فهو أشبه بالأموات، إن الحرية فى الإسـلام إشعاع داخلى ملأ جنبـات النفس الإنسانية بارتبـاطها بالله، فارتفع الإنسان بهذا الارتباط إلى درجة السمـو والرفعة، فأصبحت النفس تواقة لفعل الصالحات، والمسارعة فى الخيـرات ابتغاء مرضاة رب الأرض والسماوات، فالحرية فى المجتـمع الإسلامى دعامة من دعائمه تحققت فى دولة عـمر بن عبد العزيز فى أبهى صورة انعكست أنوارها على صفحات الزمن[١].

(١) المجتمع الإسلامى، محمد أبو عجوة، ص (٢٤٥) مع بعض التصرف .

الفصل الثانى

أهم صفاته ومعالم تجديده

أولاً: أهم صفاته:

إن شخصية عمر بن عبد العزيز تعتبر شخصية قيادية جذابة، وقد اتصف -رضى الله عنه- بصفات القائد الربانى، ومن أهم هذه الصفات: إيمانه الراسخ بالله وعظمته، وإيمانه بالمصير والمآل، وخوفه من الله تعالى، والعلم الغزير، والثقة بالله، والقدوة، والصدق، والكفاءة، والشجاعة والمروءة، والزهد، وحب التضحية، والتواضع، وقبول النصيحة، والحلم والصبر، وعلو الهمة، والحزم، والإدارة القوية، والعدل، والقدرة على حل المشكلات، وقدرته على التخطيط والتوجيه والتنظيم والمراقبة، وغير ذلك من الصفات، وبسبب ما أودع الله فيه من الصفات الربانية استطاع أن يقوم بمشروعه الإصلاحى ويجدد كثيراً من معالم الخلافة الراشدة التى اندثرت أمام زحف الملك العضوض، واستطاع أن يتغلب على العوائق فى الطريق، وتوجت جهوده الفذة بنتائج كبيرة على مستوى الفرد والمجتمع والدولة، وأصبح منهج عمر بن عبد العزيز الإصلاحى التجديدى مناراً للعاملين على مجد الإسلام، وقد نرسم نور الدين زنكى خطوات عمر بن عبد العزيز فى عهده، فحقق نجاحًا كبيرًا للأمة فى صراعها مع الصليبيين، وكان الفضل لله ثم الشيخ أبى حفص عمر محمد الخضر المتوفى عام ٥٧٠هـ والذى كان أحد شيوخ نور الدين زنكى، حيث كتب لنور الدين كتابه الجامع لسيرة عمر ابن عبد العزيز لكى يسير عليها نور الدين زنكى فى خطواته وجهاده، وإن من أهم الصفات التى تجسدت فى شخصية عمر بن عبد العزيز هى:

١ـ شدة خوفه من الله تعالى:

كانت ميزته الكبرى والسمة التى اتسم بها، ودافعه إلى كل ذلك هو إيمانه القوى بالآخرة، وخشية الله، والشوق إلى الجنة، وليس لغير هذا الإيمان القوى، الذى امتاز به عمر بن عبد العزيز أن يحفظ إنسانًا -فى مثل شباب عمر بن عبد العزيز، وقوته

وحريتـه وسلطانه ـ من إغراءات مـادية قاهرة، ومن تسويلات الشـيطان، والنفس المغرية، وتفرض عليه المحـاسبة الدقيقة للنفس، والاسـتقامة على طريق الحق[1]، فقد كان مشتاقًا إلى الجنـة، مؤثرًا الآخرة على الدنيا، مؤمنًا بقوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]، فـأدرك عمر بفطرته السليمة وعقيدته الصحيحة، أن آخرة المسلم أولى باهتمامه من دنياه، يقول عـمر فى كـتاب له إلى يزيد بن المهـلب: .. لو كانت رغـبتى فى اتخـاذ أزواج، واعتقال أموال، كان فى الذى أعطانى من ذلك، ما قد بلغ بى أفضل ما بلغ بأحد من خلقه، ولكنِّى أخاف ـ فيما ابتليت به ـ حسـابًا شديدًا، ومسألة عظيمة، إلا ما عافى الله ورحم[2].

كمـا كان عمـر شديد الخوف من الله تعـالى، تقول زوجتـه فاطمة بنت عـبد الملك: والله ما كان بأكثر الناس صلاة، ولا أكـثرهم صيامًا، ولكن والله ما رأيت أحدًا أخـوف لله من عـمر، لقـد كان يذكـر الله فى فراشـه، فينتـفض انتـفاض العصفور من شـدة الخوف حتى نقول: ليصبـحَنَّ الناس ولا خليفة لهم[3]، وقال مكحـول: لو حلفت لصدقت، مـا رأيت أزهد ولا أخوف لله من عـمر بن عـبد العزيز[4]، ولشدة خوفه من الله، كان غزير الدمـع وسريعه، فقد دخل عليه رجل وبين يديه كانون فيه نار، فقال: عظنى. قـال: يا أمير المؤمنين ما ينفعك من دخل الجنة، إذا دخلت أنت النـار، وما يضـرّك من دخل الـنار، إذا دخلت أنت الجنة، قال: فبكـى عمر[5] حتى طفئ الكانون الذى بين يديه من دمـوعه، وقد كان جلّ خوفه ـ رحمه الله ـ من يوم القيامة، فيدعو الله، ويقول: اللهم إن كنت تعلم إنى أخاف شـيئًا دون القـيامة، فـلا تؤمن خوفى[6]، ذلك اليوم الذى أحـدث تغيرًا جذريًا فى مجرى حياته، ذلك اليوم الذى يقول عنه عمر: «..لقد عنيتم بأمر، لو عنيت به النجـوم لانكدرت، ولو عنيت به الجـبـال لذابت، ولو عنيت به الأرض لتـشـقـقت، أمـا تعلمـون أنه ليس بين الجنة والنـار منزلة، وأنكم صـائرون إلى

(١) النموذج الإدارى المستخلص، ص (١٤٠) نقلاً عن رجال الفكر للندوى.
(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن النموذج الإدارى، ص (١٤٠).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٤٢).
(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص(٢٢١).
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص (٩٠).
(٦) تاريخ الخلفاء ص (٢٢٤).

إحداهما[1]، نعم إن الخوف من الله، والرؤية الواضحة للحياة، والفناء والخلود، والإحساس بيوم الحساب، والانفعال بمشاهد الجنة والنار، هى التى تضع المسئولين، وتجعلهم يرتعدون خوفًا إن هم انحرفوا قيد شعرة عما يريد الله[2]، فالوعى والإحساس بيوم الحساب، وغيرهما من الصفات الاعتقادية، تجعل القائد لا يخطو خطوة، ولا يقول قولاً، ولا يفعل فعلاً، إلا ربط ذلك بما يرضى الله عز وجل، وتلك الصفات والجوانب، لم تُعْطَ حقها من البحث والتحرى فى الدراسات القيادية الحديثة، وهى أساس النجاح فى القيادة، وأهم الصفات القيادية التى ينبغى للقائد أن يتحلى بها، وإن من أهم صفات عمر بن عبد العزيز، الإيمان الراسخ بالله واليوم الآخر، وشدة خوفه من الله، والوجل من يوم القيامة[3].

٢ـ زهده:

فهم عمر بن عبد العزيز من خلال معايشته للقرآن الكريم، ودراسته لهدى النبى الأمين ﷺ ، ومن تفكره فى هذه الحياة بأن الدنيا دار ابتلاء واختبار، وإنها مزرعة للآخرة، ولذلك تحرّر من سيطرة الدنيا بزخارفها، وزينتها، وبريقها، وخضع وانقاد وأسلم لربه ظاهرًا وباطنًا، وكان وصل إلى حقائق استقرت فى قلبه ساعدته على الزهد فى هذه الدنيا، ومن هذه الحقائق:

أـ اليقين التام بأننا فى هذه الدنيا أشبه بالغرباء، أو كعابرى سبيل، كما قال النبى ﷺ : «كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» [4].

ب ـ وأن هذه الدنيا لا وزن لها ولا قيمة عند رب العزة إلا ما كان منها طاعة لله ـ تبارك وتعالى ـ إذ يقول النبى ﷺ : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء» [5].

ج ـ وأن عمرها قد قارب على الانتهاء: إذ يقول النبى ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين بالسبابة والوسطى» [6].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٣٢).

(٢) ملامح الانقلاب، ص (٤٥).

(٣) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٤٢).

(٤) الترمذى، ك الزهد رقم (٢٣٣٣) وهو حديث صحيح.

(٥) الترمذى، ك الزهد رقم (٢٣٢٠).

(٦) مسلم، ك الفتن وأشراط الساعة رقم (١٣٢ ـ١٣٥).

د ـ وأن الآخرة هى الباقية وهى دار القرار، فلهذه الأمور وغيرها زهد عمر بن عبد العزيز فى الدنيا، وأول الزهد: الزهد فى الحرام، ثم الزهد فى المباح، وأعلى مراتب الزهد أن تزهد فى الفضول وكل ما لك عنه غنى[1]، وكان زهد عمر بن عبد العزيز مبنيًا على الكتاب والسنة، ولذلك ترك كل أمر لا ينفعه فى آخرته، فلم يفرح بموجود وهى الخلافة، ولم يحزن على مفقود من أمور الدنيا، وقد ترك ما هو قادر على تحصيله من متاع الدنيا انشغالاً بما هو خير فى الآخرة ورغبة فيما عند الله عز وجل[2]، قال مالك بن دينار: الناس يقولون: مالك بن دينار زاهد، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذى أتته الدنيا فتركها[3]، قال ابن عبد الحكم: ولما ولى عمر بن عبد العزيز زهد فى الدنيا، ورفض ما كان فيه، وترك ألوان الطعام، فكان إذا صنع له طعام هُيىء على شىء وغطى، حتى إذا دخل اجتذبه فأكل[4]، فكان لا يهمه من الأكل إلا ما يسد جوعه ويقيم صلبه.

وكانت نفقته وعياله فى اليوم كما فى الأثر، عن سالم بن زياد: كان عمر ينفق على أهله فى غدائه وعشائه كل يوم درهمين[5]، وكان لا يلبس من الثياب إلا الخشن، وترك مظاهر البذخ والإسراف التى سادت قبله، وأمر ببيعها وأدخل أثمانها فى بيت مال المسلمين[6]، وهكذا فعل بالجوارى والعبيد حيث رد الجوارى إلى أصحابهن إن كن من اللاتى أخذن بغير حق، ووزع العبيد على العميان وذوى العاهات، وحارب كل مظاهر الترف والبذخ، والإسراف[7]، وأما ما قيل عن زهده بالنسبة للنكاح، فقد روى ابن عبد الحكم فقال: وقالت فاطمة زوجته: ما اغتسل من جنابة منذ ولى حتى لقى الله غير ثلاث مرات، ويقال: ما اغتسل من جنابة حتى مات[8]، فهذا ينافى ما اشتهر به عمر بن عبد العزيز من حبه الشديد لهدى الرسول ﷺ، فيستبعد منه رحمه الله أن يترك السنة، وأن يقع فى ظلم زوجاته وحقوقهن، فإن ترك الزواج وتحريم ذلك لا علاقة له بالزهد الإسلامى الذى بينه رسولنا ﷺ، وهو دخيل على المجتمع المسلم، وهو ما تفتخر به بعض

---

(١) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٤٨).

(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ١٤٦).

(٣) حلية الأولياء (٥/ ٢٥٧).

(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٤٣).

(٥) المصدر نفسه، ص (٣٨).

(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ١٥٥).

(٧) المصدر نفسه (١/ ١٥٥).

(٨) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٥٠).

الفـرق المنحرفـة عن الإسـلام، وتدعى أنه من الزهد الإسـلامى، ولهم فى ذلك حكايات لا يشك من تأملها أنها لا تمت إلى الإسلام بصلة، ولهم فى ذلك وصايا عجيبة وتوجيهات غريبة، فمن أقوالهم:

- من ترك النساء والطعام فلابد له من ظهور كرامة.

- من تزوج فقد أدخل الدنيا بيته، فاحذروا من التزويج.

- لا يبلغ الرجل إلى منازل الصديقـين حتى يترك زوجتـه كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوى إلى منازل الكلام.

- من تعود أفخاذ النساء لا يفلح.

- من تزوج فقد ركن إلى الدنيا[١].

إلى غـير ذلك من العـجائب والغـرائب، وهذا المفهـوم يخالف الإسـلام دين التـوسط والاعـتـدال، فقـد قـال رسـول الله ﷺ: «**فـمن رغب عن سنـتى فليس منى**»[٢]. وجملة القول أن زهد عـمر بن عبد العزيز كان مقـيدًا بالكتاب والسنة، وأن كثيرًا مما نسب إليه فى هذا الباب لا يصح لمخالفته هدى النبى ﷺ، ومن زهد عمر بن عبد العزيز فى جمع المـال، أنه كان على النقيض ممن يلى منصبًا فى وقتنا الحاضـر، فقد كانت غلتـه حين استـخلف أربعين ألف دينار، ثم أصبـحت حين توفى أربعمـائة دينار، ولو بقى لنقصت[٣]، حيث لم يرتزق رحـمه الله من بيت المسلمين شيئًا[٤]، فقد كان رحمه الله من زهاد زمانه، إن لم يكن أزهدهم، فكان يقول: إن الدنيا لا تسـر بقدر ما تضر، تسـر قليلاً وتحزن طويلاً[٥]. وأخباره فى الزهد كثـيرة ذكر منهـا الشيخ أبو حفص عـمر بن محـمد الخضـر المعروف بالملاء حوالى ثمانية وعشرين أثرًا[٦]، لقد وصل عمر بن عبد العـزيز إلى مرحلة متقدمة فى الزهد والتحلى بصفات الزاهدين، وذلك ما لا يسـتطيع الوصول إليه أصحاب العيش فى الظروف المادية فى وقـتنا الحاضر، الذى طغت فـيه المادة على كل شىء

(١) الطبقات للشعرانى (١/ ٣٤).

(٢) فتح البارى على صحيح البخارى (٩/ ١٠٤).

(٣) حلية الأولياء (٥/ ٢٥٧).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١٨٦).

(٥) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٥١).

(٦) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ٣٦٦- ٣٧٨).

فى الحياة، وأصبح الناس يقيسون بعضهم البعض بما يملك من الدنيا وحطامها، حسبنا من قادة وزعماء هذا العصر المادى إن لم يتصفوا بصفة الزهد، على أقل تقدير، أن يكفوا أنفسهم عن الطمع، والجشع، وأن يسعوا إلى الكسب الحلال، وأن يعملوا على قهر رغباتهم الدنيوية، لينالوا ما تاقت إليه نفس عمر بن عبد العزيز إلى ما هو أسمى من الدنيا.. إلى جنات النعيم(1)، ونختم حديثنا عن الزهد عند عمر بن عبد العزيز بهذا الأثر، فقد قال لمولاه مزاحم: إنى قد اشتهيت الحج، فهل عندك شيء؟ قال: بضعة عشر دينارًا. قال: وما تقع منى؟ ثم مكث قليلاً، ثم قال له: يا أمير المؤمنين تجهّز، فقد جاءنا مال، سبعة عشر ألف دينار من بعض مال بنى مروان، قال: اجعلها فى بيت المال، فإن تكن حلالاً فقد أخذنا منها ما يكفينا، وإن تكن حرامًا فكفانا ما أصابنا منها، قال مزاحم: فلما رأى عمر ثقل ذلك علىّ قال: ويحك يا مزاحم لا يكثرن عليك شيء صنعته لله، فإن لى نفسًا توّاقة لم تَتُق إلى منزلة فنالتها إلا تاقت إلى ما هى أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التى ليس بعدها منزلة، وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة(2).

٣ـ تواضعه:

قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا... ﴾ [الفرقان: ٦٣]. قال ابن القيم: أى يمشون بسكينة ووقار متواضعين(3). وقال ﷺ: «**إن الله أوحى إليّ: أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد**»(4). وهذه الصفة الحميدة كانت إحدى الصفات الأساسية التى تميز بها عمر بن عبد العزيز، فقد أدى زهد عمر إلى تواضعه، لأن شرط الزهد الحقيقى هو التواضع لله(5)، وقد كان تواضع عمر فى جميع أمور حياته ومعاملاته، فذلك ما يتطلبه الأمر من قائد خاف الله، ورجا ما عنده، وأراد الطاعة والولاء من رعيته(6)، ومما يذكر من تواضع عمر جوابه لرجل ناداه: يا خليفة الله فى الأرض، فقال له عمر: مه إنى لما ولدت أختار لى أهلى اسمًا فسمونى عمر، فلو ناديتنى: يا عمر، أجبتك، فلما

---

(١) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٥١).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٦٢). (٣) مدارج السالكين (٢/ ٣٤٠).

(٤) مسلم رقم (٢٨٦٥). (٥) عمر بن عبد العزيز للزحيلى، ص (١٠٥).

(٦) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٥٢).

اخترت لنفسى الكُنى فكنيت بأبى حفص، فلو ناديتنى يا أبا حفص أجبتك، فلما وليتمونى أموركم سميتمونى بأمير المؤمنين، فلو ناديتنى يا أمير المؤمنين أجبتك، وأما خليفة الله فى الأرض فلست كذلك، ولكن خلفاء الله فى الأرض داود والنبى ﷺ وشبهه (أى الأنبياء)[1]، مشيرًا إلى قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]. ومن تواضعه أن نهى الناس عن القيام له، فقال: يا معشر الناس: إن تقوموا نقم، وإن تقعدوا نقعد، فإنما يقوم الناس لرب العالمين، وكان يقول للحرس: لا تبتدئونى بالسلام، إنما السلام علينا لكم[2]، وكان متواضعًا حتى فى إصلاح سراجه بنفسه، فقد كان عنده قوم ذات ليلة فى بعض ما يحتاج إليه، فغشى سراجه، فقام إليه فأصلحه، فقيل له: يا أمير المؤمنين ألا نكفيك؟ قال: وما ضرنى؟ قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز[3]، ومن تواضعه أيضًا قال يومًا لجارية له: يا جارية روّحينى قال: فأخذت المروحة فأقبلت تروحه، فغلبتها عينها فنامت، فانتبه عمر، فإذا هو بالجارية قد احمّر وجهها، وقد عرقت عرقًا شديدًا ـ وهى نائمة ـ فأخذ المروحة وأقبل يروحها، قال: فانتبهت، فوضعت يدها على رأسها فصاحت، فقال لها عمر: إنما أنت بشر مثلى أصابك من الحر ما أصابنى، فأحببت أن أروحك مثل الذى روحتنى[4]، وكان يمتنع عن كثرة الكلام ـ وهو العالم الفصيح المفوّه ـ خشية على نفسه من المباهاة بما عنده، أو يظن الناس به ذلك، فكان يقول: إنه ليمنعنى من كثير من الكلام مخافة المباهاة[5]، ودخل عليه رجل فقال له: يا أمير المؤمنين، إن من كان قبلك كانت الخلافة لهم زينًا، وأنت زين الخلافة، وإنما مثلك كما قال الشاعر:

وإذا الدرّ زان حسن وجوه ... كان للدرّ حسن وجهك زينًا

فأعرض عنه[6]. وقال له رجل: جزاك الله عن الإسلام خيرًا. فقال: لا، بل جزى الله الإسلام عنى خيرًا[7]، ودخل عليه رجل -وهو فى ملأ من الناس- فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: عُمّ سلامك[8]، وهكذا

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٤٦).
(٢) المصدر نفسه، ص (٣٤، ٣٥).
(٣) المصدر نفسه، ص (٣٩).
(٤) أخبار أبى حفص للآجرى، ص (٣٩).
(٥) المصدر السابق، ص (٨٤).
(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٦)، الحلية (٥/ ٣٢٩).
(٧) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٧)، الحلية (٥/ ٣٣١).
(٨) الطبقات (٥/ ٣٨٤).

كان أمير المؤمنين عمر، يخفض الجناح للمؤمنين، ولا يتكبر على أحد من عباد الله، ولم تزده الخلافة إلا تواضعًا ورأفة ورحمة، ولم يحمله المنصب إلا على الإخبات والخضوع لسلطان الحق، يصلح سراجه بنفسه، ويجلس بين يدى الناس على الأرض، ويأبى أن يسير الحراس والشُرط بين يديه، ويعنّف من يعظمه، أو يخصه بسلام من بين الجالسين، ويتأبى أن يتميز على الناس بمركب، أو مأكل، أو ملبس، أو مشرب[1].

٤ـ ورعه:

من صفات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الورع، والورع هو الإمساك عما قد يضر، فتدخل المحرمات والشبهات لأنها قد تضر، فإنه من اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى حول الحمى يوشك أن يواقعه[2]، والورع فى الأصل الكف عن المحارم والتحرج منها، ثم استعير للكف عن الحلال المباح[3]. وللدلالة على ما كان يتصف به عمر من الورع، وتحرى السلامة من الشبهات، فقد روى أنه كان يعجبه أن يتأدم بالعسل، فطلب من أهله يومًا عسلاً فلم يكن عنده، فأتوه بعد ذلك بالعسل، فأكل منه، فأعجبه، فقال لأهله: من أين لكم هذا؟ قالت امرأته: بعثت مولاى بدينارين على بغل البريد، فاشتراه لى، فقال: أقسمت عليك لما أتيتنى به، فأتته بُعكَّة[4]، فيها عسل، فباعها بثمن يزيد على الدينارين، ورد عليها مالها، وألقى بقيته فى بيت مال المسلمين وقال: أنصبت دواب المسلمين فى شهوة عمر[5]. ومن ورعه أنه كان له غلام يأتيه بقمقم[6]، من ماء مسخن، يتوضأ منه، فقال للغلام يومًا: أتذهب بهذا القمقم إلى مطبخ المسلمين، فتجعله عنده، حتى يسخن، ثم تأتى به؟ قال: نعم أصلحك الله، قال: أفسدته علينا، قال: فأمر مزاحمًا أن يغلى ذلك القمقم، ثم ينظر ما يدخل فيه من الحطب ثم يحسب تلك الأيام، التى كان يغليه فيها، فيجعله حطبًا فى المطبخ[7]. ومن أمثلة ورعه كان لا يقبل أى هدية من عماله أو

---

(١) عمر بن عبد العزيز، لعبد الستار الشيخ، ص (١٢٣).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٦١٥).

(٣) لسان العرب (٨/ ٢٨٨).

(٤) العكة: وعاء من جلد ماعز يدبغ ويخصص للسمن والعسل.

(٥) أخبار أبى حفص للآجرى، ص (٥٤).

(٦) القمقم: هو ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره.

(٧) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٤٠).

من أهل الذمة خوفًا من أن يكون ذلك من باب الرشوة، فعن عمرو بن مهاجر قال: اشتهى عمر بن عبد العزيز تفاحًا فقال: لو كان لنا -أو عندنا- شيء من التفاح، فإنه طيب الريح طيب الطعم، فقام رجل من أهل بيته فأهدى إليه تفاحًا، فلما جاء به الرسول، قال عمر: ما أطيب ريحه وأحسنه، ارفعه يا غلام، فأقرئ فلانًا السلام وقل له: إن هديتك قد وقعت منا بموقع بحيث تحب، فقلت: يا أمير المؤمنين ابن عمك ورجل من أهل بيتك، وقد بلغك أن النبى ﷺ كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، قال: ويحك! إن الهدية كانت للنبى هدية وهى لنا اليوم رشوة[1]، ومن ورعه أنه كان لا يرى لنفسه أن تشم رائحة مسك أتته من أموال المسلمين، فعندما وضعت بين يديه مسكة عظيمة فأخذ بأنفه، فقيل: يا أمير المؤمنين إنما هو ريح، قال: وهل ينتفع منها إلا بريحها[2]، وكان يحترز من استعمال أموال المسلمين العامة، فكان يسرج السراج من بيت المال إذا كان فى حاجة المسلمين، فإذا فرغ من حوائجهم أطفأها ثم أسرج عليه سراجه الخاص به من ماله الخاص[3]، وقد ذكر المؤرخون كثيراً من الأمثلة التى تدل على ورعه، فقد اعتبر أن البعد عن أموال المسلمين حتى فى الأشياء اليسيرة القليلة هو من باب الابتعاد عن الشبهة، فكان بعيداً عن الشبهات[4] احتياطًا لدينه، وذلك أن الأمور ثلاثة كما قال هو بنفسه:

١ ـ أمر استبان رشده فاتبعه. **٢ ـ وأمر تبين خطؤه فاجتنبه.**

٣ ـ وأمر أشكل عليك فتوقف عنه [5].

وكان رحمه الله ورعًا حتى فى الكلام فعندما قيل له: ما تقول فى أهل صفين؟ قال: تلك دماء طهر الله يدى منها، فلا أحب أن أُخضب لسانى بها[6]، وهكذا يتضح أن ورع عمر كان فى شأنه كله، فى مأكله وحاجته وشهوته، ومال المسلمين

(١) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٩٧).

(٢) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٢٠٠)، كتاب الورع لابن أبى الدنيا، ص (٧٤) وقال محقق الكتاب إسناده إسناد الأثر.

(٣) الآثار الواردة فى عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ١٦٤).

(٤) المصدر نفسه (١/ ١٦٥).

(٥) العقد الفريد (٤/ ٣٩٧)، الآثار الواردة (١/ ١٦٥).

(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١٩٥).

وفى كل أمور حياته، ذلك الورع النابع من الإيمان القوى، والشعور بالمسئولية، واستحضاره الآخرة، فقد كانت صفة الورع من صفاته الجلية، فقد بلغ به مبلغًا جعله يشترى مكان قبره الذى سيوارى فيه، فلا يكون له من الدنيا دون مقابل حتى موضع قبره(١).

٥ - حلمه وصفحه وعفوه:

ومن الصفات التى تجسدت فى شخصية عمر بن عبد العزيز الحلم والصفح والعفو، فعن شيخ من الخناصريين قال: كان لعمر بن عبد العزيز ابن له من فاطمة، فخرج يلعب مع الغلمان فشجه غلام، فاحتملوا ابن عمر والذى شجه فأدخلوهما على فاطمة، فسمع عمر الجلبة وهو فى بيت آخر فخرج، وجاءت امرأة فقالت: هذا ابنى وهو يتيم، قال: أله عطاء؟ قالت: لا. قال: فاكتبوه فى الذرية، فقالت فاطمة: أتفعل هذا به وقد شج ابنك؟ فعل الله به، وفعل! المرة الأخرى يشج ابنك ثانية، فقال عمر: إنكم أفزعتموه(٢). وعن إبراهيم بن أبى عبلة قال: غضب عمر بن عبد العزيز يومًا غضبًا شديدًا على رجل، فأمر به فأحضر وجرِّد وشُدَّ فى الحبال وجىء بالسياط فقال: خلُّوا سبيله، ثم قال: أما أنى لولا أن أكون غضبان لسُؤْتُك. وتلا: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وعن عبد الملك قال: قام عمر بن عبد العزيز إلى قائلته، وعرض له رجل بيده طومار(٣)، فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين، فخاف أن يُحبس دونه فرماه بالطومار، فالتفت عمر فوقع فى وجهه فشجه. قال: فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو قائم فى الشمس، فلم يبرح حتى قرأ الطومار وأمر له بحاجته وخلَّى سبيله.(٤) وروى أن رجلاً نال من عمر فلم يجبه. فقيل له: ما يمنعك منه؟ قال: التقى مُلجم(٥)، وعن حاتم بن قدامة أن رجلاً قام إلى عمر بن عبد العزيز وهو يخطب فقال له: أشهد أنك من الفاسقين. فقال له عمر: وما يدريك؟ وأنت شاهد زور فلا نجيز شهادتك(٦)، وروى أن عمر بن عبد العزيز لما

(١) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٥٦).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٠٧)، الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٢٣).

(٣) الطومار: صحيفة مطوية.

(٤) حلية الأولياء (٥/ ٣١١).

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٠٨).

(٦) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٢٤).

ولى الخلافة خرج ليلة فى السحر إلى المسجد ومعه حرسى فمرّا برجل نائم على الطريق فعثر به عمر. فقال له: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا، فهمَّ الحرس به. فقال له عمر: مه، فإنه سألنى أمجنون أنت؟ فقلت: لا[1]. وروى أن رجلاً قام إلى عمر بن عبد العزيز وهو على المنبر فنال منه وأغضبه، فقال له عمر: يا هذا أردت أن يستفزنى الشيطان مع عزة السلطان أن أفعل بك اليوم ما تفعل بى غداً مثله. اذهب غفر الله لى ولك[2]. وقيل: أتى ولد لعمر بن عبد العزيز وهو يبكى، فقال له: ما شأنك؟ فقال: ضربنى فلان العبد. فجىء به. فقال له: ضربته؟ قال: نعم. فقال له: اذهب فلو أنى معاقب أحداً على الصدق لعاقبتك، اذهب ولم يكلمه[3]. والمواقف فى حلمه وصفحه وعفوه كثيرة، وهذا غيض من فيض.

٦- صبره:

ومن صفاته -رحمه الله- الصبر والشكر، روى أنه لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز حضر عند قبره فقال: لا تعمقه، فإن ما علا من الأرض أفضل مما سفل منها[4]، وروى أنه حين مات عبد الملك ولده، وسهل بن عبد العزيز أخوه ومزاحم مولاه، قال رجل من أهل الشام: والله لقد ابتُلى أمير المؤمنين ببلاء عظيم؛ مات ولده عبد الملك، لا والله إن رأيت ولداً كان أنفع لوالده منه، ثم أصيب أمير المؤمنين بأخ لا والله ما رأيت أخًا أنفع لأخ منه. قال: وسكت عن مزاحم. فقال عمر بن عبد العزيز: لم سكت عن مزاحم، فوالله ما هو أدنى الثلاثة عندى، رحمك الله يا مزاحم مرتين أو ثلاثًا، والله لقد كنت كفيت كثير الدنيا، ونعم الوزير كنت فى أمر الآخرة[5]، وعن حفص بن عمر قال: لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز جعل أبوه يثنى عليه عند قبره، فقال مسلمة: أرأيت لو بقى أكنت تولِّيه؟ قال: لا. قال: فأنت تثنى عليه بهذا الثناء، قال: إنى أخاف أن يكون زُيِّن لى من المحبة له ما يزين فى عين الوالد من حبِّ ولده[6]. وخطب عمر فى خطبته فقال: ما من أحد يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، إلا كان الذى أعطاه الله من الأجر فيها أفضل مما أخذ منه، وقال: الرضا قليل، والصبر معتمد المؤمن. وقال: من عمل على غير علم كان ما يفسد

---

(١)، (٢)، (٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر (٢/ ٤٢٥).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٤٢٧).

(٥) المصدر نفسه (٢/ ٤٢٧).

(٦) المصدر نفسه (٢/ ٤٢٨).

أكثـر مما يصلح، ومن لم يَعـدَّ كلامـه من عمله كـثرت خطاياه، والرضـا قليل، ومعول المؤمن على الصبر[1]. وكان من أجلِّ ما صـبر عليه عمر فى حـياته: أمر الخلافة، فقد قـال: والله ما قعدت مقعدى هذا إلا خـوفًا أن يثبت عليه من ليس بأهل، ولو أنى أطاع فيما أعمل لسلمتها إلى مـستحقيها ـ يعنى الخلافة ـ، ولكننى أصبر حتى يأتى الله بأمر من عنده، أو يأتى بالفتح[2].

٧- الحزم:

لقد اتسم عمر بن عبد العزيز بهذه الصفة، فى وقت أكثر ما يكون فيه أمر الأمة والخلافة فى حاجة إلى الحزم، وبخاصة فيما يتعلق بالولاة والأمراء والعمال، ولقد تحلى عمـر بصفة الحزم وضـبط الأمور، وعدم التهـاون فيما يراه ضروريًـا لخدمة الصالح العـام، وما يصلح به أمر المسلمـين، وقد أخذ حزم عـمر صورًا مخـتلفة ومجالات عدة، كحزمه مع أمراء وأشراف بنى أمية، ومع الذين يريدون شق عصا المسلمين والخروج على جادتهم وإثارة الفتن وسـفك الدماء وغير ذلك من الأمور، فقد كـان أول مؤشر على حزمـه موقفه من بنى مروان، إذ قـال لهم: أدوا ما فى أيديكم ولا تُلجـئونى إلى ما أكـره، فأحملكم على مـا تكرهون، فلم يجبـه أحد منهم. فقال: أجيبونى، فـقال رجل منهم: والله لا نخرج عن أموالنا التى صارت إلينا من آبائنا، فنُفقِّـر أبناءنا ونكفر آباءنا، حتى تتـزايل رؤوسنا، فقال عـمر: أما والله لولا أن تستعينوا علىَّ بمن أطلب هذا الحق لـه، لأضرعت خدودكم عاجلاً، ولكنى أخاف الفتنة، ولئن أبقانى الله لأُردَّنَّ إلى كل ذى حق حقه إن شاء الله[3]، وكان إذا وقع فى أمر مضى فـيه، وجاءه يومًا كتاب من بعض بنى مروان فـأغضبه فاشتاط،[4] ثم قال: إن لله من بنى مروان يـومًا ـ وقيل: وذبحًـا ـ وايم الله، لئن كان ذلك الذبح على يدى، فلمـا بلغهم ذلك، كفوا وكـانوا يعلمون صرامـته، وأنه إذا وقع فى أمر مضـى فيه[5]. وأما فـيمـا يتعلق بمن يريد شق عـصا المسلمـين والخروج عليهم، فـقد اتبع معـهم أسلوب الحوار والمناظرة ـ وهم الخـوارج الذين ثاروا ضد بنى أمية بقـيادة شوذب الخارجى ١٠٠هـ- ليقف على مـا دفعهم إلى ذلك، ويرى

---

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر (٢/٤٢٨). (٢) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص(١٤٤).

(٣) العقد الفريد (٥/١٧٣). (٤) استشاط الرجل: أى احتد واحتدم كأنه التهب فى غضبه.

(٥) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٥٨).

إن كان الحق معهم نظر فى أمره، وإلا فليدخلوا فيما دخل فيه الناس، إلا أنه فى الوقت نفسه قرن إجراءاته تلك بشيء من الحزم والصلابة، عندما يصل الأمر إلى مرحلة سفك دماء المسلمين أو الإفساد، إذ كتب إلى عامله على العراق يقول: لا تحركهم إلا أن يسفكوا دمًا، أو يفسدوا فى الأرض، فإن فعلوا فخلّ بينهم وبين ذلك، وانظر رجلاً طيبًا حازمًا فوجهه إليهم، ووجه معه جندًا، وأوصه بما أمرتك به[1]، وهكذا كان عمر فى حزمه، فقد أخذ الإجراءات والمواقف الحازمة، والتى كانت على درجة كبيرة من الأهمية والحساسية، وكان لذلك الحزم مردود إيجابى كبير على سير الأمور، وتنفيذ ما كان يسعى لتحقيقه من العدل والطمأنينة ومعالم الخلافة الراشدة[2].

٨ ـ العدل:

إن صفة العدل من أبرز صفات عمر بن عبد العزيز القيادية على الإطلاق، وقد تحدثنا عن العدل فى دولته وسياسته فى رد المظالم فيما مضى، ولقد أجمع العلماء قاطبة على أنه ـ أى عمر بن عبد العزيز ـ من أئمة العدل، وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين[3]، ولعل من أهم أسباب عدل عمر هو إيمانه بأن العدل أحد نواميس الله فى كونه، ويقينه التام بأن العدل ثمرة من ثمرات الإيمان، وأنه من صفات المؤمنين المحبين لقواعد الحق، ويرجع وإلى إحساس عمر بوطأة الظلم للناس فى خلافة من سبقه من الخلفاء والأمراء الأمويين، بالإضافة إلى السبب الأهم وهو: ما أمر الله به من العدل والإحسان، وأنهما الأسس العامة لأحكام الشرائع السماوية، وما نماه الإسلام فى نفس عمر، من حب للعدل وإحياء لقيمه[4]، وإليك هذه الصور من عدله والتى لم أذكرها فيما مضى، فنورد ما رواه الآجرى من أن رجلاً ذميًا من أهل حمص قدم على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله عز وجل، قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبنى أرضى ـ والعباس جالس ـ فقال له: يا عباس ما تقول؟ قال: أقطعنيها يا

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٥٩).
(٢) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٦٣).
(٣) البداية والنهاية نقلاً عن النموذج الإدارى، ص (١٦٣).
(٤) النموذج الإدارى، ص (١٦٣، ١٦٤).

أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وكتب لى بها سجلاً، فقال عمر: ما تقول يا ذمى؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل. فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك، فاردد عليه يا عباس ضيعته فردّها عليه[1].

ومن مواقفه العادلة ما حدّث به الحكم بن عمر الرعينى، قال: شهدت مسلمة بن عبد الملك يخاصم أهل دير إسحاق عند عمر بن عبد العزيز بالناعورة[2]، فقال عمر لمسلمة: لا تجلس على الوسائد، وخصماؤك بين يدى، ولكن وكّل بخصومتك من شئت، وإلا فجائى القوم بين يدى، فوكل مولى له بخصومته - يعنى مسلمة - فقضى عليه بالناعورة[3]، وهذا قليل من كثير، مما أوردته كتب السير عن عدل عمر.

٩ـ تضرعه ودعاؤه واستجابة الله لدعائه:

كان عمر بن عبد العزيز كثير التضرع والدعاء، فقد كان يقول: يا رب خلقتنى ونهيتنى، ووعدتنى بثواب ما أمرتنى، ورهبتنى عقاب ما نهيتنى عنه، وسلطت علىَّ عدوًا أسكنته صدرى وأجريته مجرى دمى، إن أهمّ بفاحشة شجعنى، وإن أهم بصالحة ثبطنى، لا يغفل إن غفلت، ولا ينسى إن نسيت، ينصب لى فى الشهوات، ويتعرض لى فى الشبهات، وإلا تصرف عنى كيده يستذلنى، اللهم فأقهر سلطانه علىَّ بسلطانك عليه حتى أحبسه بكثرة ذكرى لك؛ فأكون مع المعصومين بك، ولا حول ولا قوة إلا بالله[4]، وكان يقول: اللهم أصلح من كان فى صلاحه صلاح أمة محمد ﷺ، اللهم أهلك من كان فى هلاكه صلاح أمة محمد ﷺ[5]، وكان يدعو بهذا الدعاء: اللهم ألبسنى العافية حتى تهنّينى المعيشة، واختم لى بالمغفرة حتى لا تضرنى الذنوب، واكفنى كل هول دون الجنة حتى تبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين[6]، وكان يقول: اللهم إنى أطعتك فى أحب الأشياء إليك وهو التوحيد، ولم أعصك بأبغض الأشياء إليك وهو الشرك، فاغفر لى ما بينهما[7]. وكان يقول:

---

(١) أخبار أبى حفص، ص (٥٨).

(٢) الناعورة: موضع بين حلب وبالس يبعد عن حلب ثمانية أميال.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٩١).

(٤) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ٣٤١).

(٥) المصدر نفسه (١/ ٣٤٢).

(٦) المصدر نفسه (١/ ٣٤٣).

(٧) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٣٠).

اللهم أنى أعوذ بك أن أُبدّل نعمتك كفرًا، أو أن أكفرها بعد موتها، أو أن أنساها فلا أثنى بها[1]. وكان كثيرًا ما يدعو فيقول: اللهم رضنى بقضائك، وبارك لى فى قدرك، حتى لا أحب تعجيل شىء أخرته، ولا تأخير شىء عجلته[2]. وكان رحمه الله مستجاب الدعوة، فروى ابن الحكم أن ابن الريان كان سيافًا للوليد بن عبد الملك، فلما ولى عمر الخلافة قال: إنى أذكر إباءه وتيهه، ثم قال: اللهم إنى قد وضعته لك فلا ترفعه، فما رُئى شريف قد خمد ذكره مثله حتى لا يذكر[3]، وقد دعا عمر رحمه الله حين حج وأخبر قبل دخوله إلى مكة بقلة الماء فيها، فدعا عند ذلك، فأجاب الله دعاءه، فسقوا؛ وهذا حين كان أميرًا على المدينة[4]، كما دعا على غيلان القدرى حين ناظره فقال: اللهم إن كان عبدك غيلان صادقًا وإلا فاصلبه، فصلب بعد فى خلافة هشام بن عبد الملك[5].

ثانيًا: معالم التجديد عند عمر بن عبد العزيز:

يرى المتتبع لأقوال العلماء والمؤرخين والمهتمين بدراسة الحركة التجديدية، إجماعًا تامًا على عدّ الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز المجدد الأول فى الإسلام[6]، وكان أول من أطلق عليه ذلك الإمام محمد بن شهاب الزهرى، ثم تبعه على ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال: يروى فى الحديث: «**إن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة أمر دينها**» فنظرنا فى المائة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز[7]، وتتابع العلماء على عدّه أول المجددين، وذكر بعض أهل العلم هو من المقصودين بحديث رسول الله ﷺ: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها**»[8]. ولا شك أن عمر بن عبد العزيز خليق بأن يكون ممن يحمل عليه هذا الحديث، فقد كان عالـمًا عاملاً، همه كله، وعزمه، وهمته، آناء الليل والنهار، إحياء السنن وإماتة البدع ومحدثات الأمور

---

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ٣٤٣).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٤٤).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٣٠).
(٤) البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة (١/ ١٨٣).
(٥) الشريعة للآجرى (١/ ٤٣٨).
(٦) عون المعبود (١١/ ٣٩٣) العظيم آبادى، جامع الأصول (١١/ ٣٢٢).
(٧) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٧٤).
(٨) المجددون فى الإسلام للصعيدى، ص (٥٧)، موجز تاريخ تجديد الدين للمودودى، ص (٦٣).

ومحوها، وكسر أهلها باللسان، والسنن[1]، يقول ابن حجر العسقلانى: إن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر فى نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها فى شخص واحد، إلا أن يدعى ذلك فى عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما من جاء بعده فالشافعى، وإن كان متصفًا بالصفات الجميلة إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل[2]. ومع أن بعض العلماء رأى أن مقام المجدد الكامل لا يستحقه إلا مهدى آخر الزمان، وأنه لم يولد فى الأمة المسلمة مجدد كامل حتى الآن، وإن كان عمر بن عبد العزيز أوشك أن يبلغ مرتبة المجددية الكاملة لو أنه استطاع إلغاء طريقة الحكم الوراثية، وإعادة انتخاب الخليفة عن طريق الشورى[3]. وسواء استحق عمر بن عبد العزيز لقب المجدد الكامل أم لا، فإن الأعمال التجديدية التى قام بها، والجهود الكبيرة التى بذلها لاستئناف الحياة الإسلامية، وإعادتها إلى نقائها وصفائها فى زمن الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين تجعله على رأس المجددين الذين جاد بهم الزمان حتى يومنا هذا، وقد ساعده على ذلك موقعه الذى تبوأه على رأس خلافة قوية، منيعة الجانب، مترامية الأطراف، ولكى ندرك حجم الأعمال التجديدية التى اضطلع بها هذا الخليفة، وقدر الإصلاح الذى أحدثه، ينبغى أن نقف على حجم الانحرافات التى طرأت على الحياة الإسلامية والتغيّر والانقلاب الذى حدث للخلافة الإسلامية، ولعلنا لا نجانب الحقيقة إذا حصرنا الانحراف فى ذلك الوقت بنظام الحكم، وما نتج عن ذلك من مظالم وفساد، وأما الحياة العامة فكانت أنوار النبوة لازالت ذات أثر بالغ فيها، وكان الدين صاحب السلطان الأول فى قلوب الناس[4].

١ـ من إصلاحات عمر وأعماله التجديدية:

أ ـ الشورى: قد مرّ معنا أن عمر بن عبد العزيز فى أول لقاء له مع الناس حمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس إنى قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأى كان

(١) الآثار الواردة عن عمر فى العقيدة (١/ ١٧٧).
(٢) فتح البارى (١٣/ ٢٩٥).
(٣) موجز تاريخ تجديد الدين للمودودى، ص (٦٩).
(٤) عمر بن عبد العزيز للندوى، ص (١٠).

منى فيه، ولا طلبة له، ولا مشـورة من المسلمين، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى، فاختـاروا لأنفسكم. فصاح الناس صيحة واحدة: قـد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك؛ فَلِ أمرنا باليُمن والبركة[1]. وبهذا يكون عمر قد قام بأول عمل تجديدى، حيث أعفى الناس من الملك العـضوض، ولم يجبرهم على القبول بمن لم يختاروه، بل رد الأمر إليهم وجعله شورى بينهم[1].

ب ـ الأمانة فى الحكم وتوكيل الأمناء:

فقـد تواترت النقول المفـيدة أنه بلغ من حرصـه على ذلك أقصى المراتب، فـقد استشعر عظم المسئولية وضخامـة الحمل منذ اللحظة الأولى لاستلامه الخلافة، فقال لمن سأله: مالى أراك مغـتمًا؟ قال: لمثل ما أنا فيه فليُـغتم، ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقـه غير كاتب إلىّ فـيه، ولا طالبه منى[3]. وقال: لست بخير من أحد منكم، ولكنى أثقلكم حملاً[4]. وكان يطالب عمّاله باختيار أصحاب الكفاءة والدين فيمن يولونه شأنًا من شئون المسلمين، فقد كتب إلى أحد عمّاله: لا تولين شيـئًا من أمر المسلمـين إلا المعروف بالنصيحـة لهم، والتوفيـر عليهم، وأداء الأمانة فيمـا استرعى[5]، ولم تكن سياسـته فى التورع عن أموال المسلمين سـياسة طبقها على خـاصة نفسه فقط بل ألزم بها عمّاله وولاته، فـقد كتب إلى عامله أبى بكر بن حزم: أن أدق قلمك، وقارب بين أسطرك، فـإنى أكره أن أخرج من أموال المسلمين ما لا ينتفعون به[6]، وقد ساس رعيـته سياسة رحيمـة، وأمَّن لهم عيشًا رغيدًا، وكفاهم مذلة السؤال، فقسم فضول العطاء فى أهل الحاجات[7]، وقسم فى فقراء أهـل البصرة ثلاثة دراهم لكل إنسان، وأعطى الزمنـى خمسين خمـسين[8]، وطلب من عماله أن يجـهزوا من أراد أداء فريضة الحج[9]، وكتب إلى عماله: أن

(١) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى، ص (٦٥).

(٢) التجديد فى الفكر الإسلامى، د. عدنان محمد، ص (٧٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٨٦). (٤) المصدر نفسه (٥/ ٥٨٦).

(٥) تاريخ الطبرى، نقلاً عن التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٨١).

(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٩٥).

(٧) تاريخ الطبرى، نقلاً عن التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٨١).

(٨)، (٩) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٧٤).

اعـملوا خانات فى بـلادكم، فمن مـر بكم من المسلمـين، فأقـروهم يومًـا وليلة وتعهدوا دوابهم، فـمن كانت به علّة فأقروهم يومين وليلتين، فـإن كان منقطعًا به فقوّوه بما يصل به إلى بلده[1]، وقد عزّ فى زمن عمر وجود من يقبل الزكاة، يقول عمر بن أسـيد: والله ما مات عمـر بن عبد العزيز حـتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون، فـما يبرح يرجع بماله كله؛ قد أغنى عمر الناس[2]، وكانت حـرمة المسلميـن فوق كل الأموال، فـقد كتب إلى عـماله: أن فادوا بأسارى المسلمين، وإن أحاط ذلك بجميع مالهم[3]، ولاتزال خلافة عمر بن عبد العـزيز حجة تاريخية، على كل أولئك الذين يشككون فى إمكانيـة إقامة نظام اقتصـادى إسلامى، وبرهانًا ساطعًـا على أن الاحتكام للشريعة الربانيـة هو وحده الذى يكفل للناس السعادة فى الدنيا والآخرة[4].

ج ـ مبدأ العدل:

فقـد كان فـيه لعمـر القدح المعَلَّى، وكـان بحق وارثًا فيه لجـدّه لأمه عـمر بن الخطاب رضى الله عنه، فـقـد ضرب فـيه عـلى النقود عـبـارة: أمر الله بالوفـاء والعدل[5]، وطلب أن لا يقـام على أحد حـد إلا بعد علمـه[6]، وكتب لعـامله الجراح بن عبد الله الحكمى أمير خـراسان: يا ابن أم جراح، لا تضربن مؤمنًا ولا معـاهدًا سوطا إلا فى حق، واحـذر القصاص، فـإنك صائر إلى من يعلـم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وتقرأ كتابًا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا إحصاها[7]. وأنصف أهل الذمة وأمر أن لا يعتدى عليهـم أو على معابدهم وكتب إلى عماله: لا تهدموا كنيسة ولا بيـعة، ولا بيت نار صولحتم عليه[8]، وقد رفع المكس وحطّ العشور والضرائب التى فـرضتها الحكومات السابقة، وأطـلق للناس حرية التجارة فى البر والبحر، وقـد تبرأ من المظالم التى كان يرتكبها بنو أميـة وتبرأ من الحجّاج وأفعاله وأنكر على عمّاله الاستنان بسنته[9].

---

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٧٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٨٨).
(٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٢٠).
(٤) خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز، ص (٤١، ٤٢).
(٥) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٩٨).
(٦) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٧٤).
(٧) المصدر نفسه (٧/ ٤٦٤).
(٨) المصدر نفسه (٧/ ٤٧٧).
(٩) سيرة ومناقب عمر، ص (١٠٧، ١٠٨).

د ـ أحياؤه مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

أخذت الخلافة تتراجع عن الغاية التى قامت من أجلها وهى حراسة الدين، فنهض عمر بهذا المبدأ، ورفع لواءه وأعلى شأنه، وجعله المهيمن والمقدّم على ما سواه. وما حقق عمر ما حققه من أعمال وإنجازات إلا انطلاقًا من خوفه الشديد من الله، وطلبه فيما فعله مرضاته، وقد ساعده على ذلك أنه كان من أجلة العلماء التابعين وأئمة الاجتهاد[١]، حتى قال عنه عمر بن ميمون: كان العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة[٢]. وقد كان لسلامة دينه وصدق عقيدته الأثر البالغ فى تجديده وإصلاحاته، فقد حارب الأهواء والبدع، وشدد النكير على أهلها[٣]، وسيأتى بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى. وقد نقل عنه الإمام الأوزاعى قوله: إذا رأيت قومًا يتناجون فى دينهم بشىء دون العامة، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة[٤]. وكان يرى أنه لا قيمة لحياته لولا سنة يحييها، أو بدعة يميتها[٥]، وقد اهتم اهتمامًا شديدًا بديانة الناس وأخلاقهم، فكتب إلى عمّاله: اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلوات، فمن أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشدّ تضييعًا[٦]. والناظر فى رسائل عمر وخطبه ومواعظه -وهى أكثر من أن تحصى- يرى إيمانًا قويًا، ومراقبة جلية، وخوفًا من يوم يقف فيه الناس بين يدى رب العالمين، وقد أثرت شخصية عمر وسياسته العادلة تأثيرًا بالغًا فى حياة العامة وميولهم وأذواقهم ورغباتهم[٧]، يدل على ذلك ما ذكره الطبرى فى تاريخه مقارنًا عهد عمر بعهود من سبقه من الحكام السابقين: كان الوليد صاحب بناء واتخذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون فى زمانه، فكان يسأل بعضهم بعضًا عن البناء والمصانع، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم عن التزويج والجوارى، فلمّا ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون، فيقول الرجل للرجل: ما وراءك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم، ومتى ختمت؟ وما تصوم من الشهر؟[٨] ولم يكتف

---

(١) التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٨٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/٥١٨).
(٣) التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٨٦).
(٤) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٨٣).
(٥) التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٨٦).
(٦) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٢١).
(٧) التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٨٦).
(٨) تاريخ الطبرى نقلا عن التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٨٧).

عمـر بإقامة الدين داخل دولتـه، بل وجّه عنايتـه إلى غير المسلمـين، ودعاهم إلى الدخول فى الإسلام، وراسل ملوك الهند وملوك ما وراء النهر، ووعدهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فأسلم الكثير منهم وتسموا بأسماء العرب(١)، ولعل من أجلِّ الأعمـال التى خدم بها هذا الدين أمـره بتدوين العلوم الإسلامـية، وخاصـة علم الحديث، وسـيأتى بيـان ذلك بالتفـصيل بإذن الله تعـالى، كل هذه الأعمال العظيمة والإصـلاحات الجليلة حققها عمر فى مدة خلافـته الوجيزة، فغدا درة للأمة، ومنارة يستهدى بنورها الملتمسون دروب التجديد والإصلاح(٢).

٢ـ من شروط المجدد وصفاته:

نستطيع أن نحدد أهم شـروط المجدد والصفات التى ينبغى أن تتوافـر فيه حتى يعد من المجددين من خلال سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

أ ـ أن يكون المجدد مـعروفًا بصـفاء العـقيدة وسـلامة المنهج: وذلك لأن من أخص مهـمات التجـديد إعادة الإسلام صـافيًا نقـيًا من كل العناصـر الدخيلة، وهذا لا يحصل إلا إذا كان المجدد من السائرين علـى منهج الرسول ﷺ وصحابته الكرام، ومن الطائفة الناجية المنصورة التى جاء وصفهـا بأنها فرقة من ثلاث وسبعين فرقة، وأنها تلزم ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحـابه فى عقيدته، ومنهجه وتصوراته(٣). وهذا الشرط قد توافر فى عـمر بن عبد العزيز، وسوف نوضـحه فى آثاره العقدية عند دراستها بإذن الله تعالى.

ب ـ أن يكون عالمـًا مجـتهدًا: وهذا الشرط تحقق فى عـمر بن عبد العـزيز، فقد واجه المشكلات التى تولدت فى عـصره واجتـهد فى وضع الحلول الشرعيـة لها، وفى الحقـيقة أن رتبة الاجـتهاد ليست عـسيرة إلى الحد الذى تصـوره بعض كتب أصول الفـقه، ومن ذهب إلى وضع شـروط يكاد يكون من المحال الإحـاطة بها، حيث أوجبـوا أن يحيط المجتهـد بعلوم الآلة كلها من نحو ولغـة وبلاغة، وبعلوم الشريعة من تفـسير وحديث وأصول فـقه وعلوم قرآن ومصطلح حـديث وسيرة، وبعلمى المنطق وعلم الكلام، وغيـر ذلك مما يصعب الإحاطة به(٤)، والصواب أن

---

(١) خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز للندوى، ص (٣٠). (٢) التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٨٧).
(٣) المصدر نفسه، ص (٤٦). (٤) عون المعبود (١١/ ٣٩٢).

الاجتهاد سهل ميسور، لمن كانت عنده أهلية النظر، والمهم أن نعلم أن المجدد يشترط فيه أن يكون محيطًا بمدارك الشرع، قادرًا على الفهم والاستنباط، مطّلعًا على أحوال عصره، فقيها بواقعه[1]، يقول المناوى: إن على المجدد أن يكون قائمًا بالحجة، ناصرًا للسنة، له ملكة رد المشتبهات إلى المحكمات، وقوة استنباط الحقائق والنظريات، من نصوص الفرقان وإرشاداته ودلالاته واقتضاءاته من قلب حاضر وفؤاد يقظان.[2] ويقول العظيم آبادى: إن المجدد للدين لابد أن يكون عالمًا بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة، ناصرًا للسنة، قامعًا للبدعة[3]، ويقول المودودى: من الخصائص التى لابد أن يتصف بها المجدد هى: الذهن الصافى، والبصر النفاذ، والفكر المستقيم بلا عوج، والقدرة النادرة على تبيين سبيل القصد بين الإفراط والتفريط، ومراعاة الاعتدال بينهما، والقوة على التفكير المجرد عن تأثير الأوضاع الراهنة، والعصبيات الراسخة على طول القرون، والشجاعة والجرأة على مزاحمة سير الزمان المنحرف[4]، ويقول فى تعداده لعمل المجدد: الاجتهاد فى الدين، والمراد به أن يفهم المجدد كليات الدين، ويتبين اتجاه الأوضاع المدنية والرقى العمرانى فى عصره، ويرسم طريقًا لإدخال التعبير والتعديل على صورة التمدن القديمة المتوارثة، يضمن للشريعة سلامة روحها وتحقيق مقاصدها، ويمكّن الإسلام من الإمامة العالمية فى رقى المدنية الصحيح.

ج - أن يشمل تجديده ميدانى الفكر والسلوك فى المجتمع: وذلك لأن تصحيح الانحراف من أخص المهمات التى ينبغى أن يقوم بها المجدد، ومعلوم أن الانحراف يطرأ على السلوك كما يطرأ على الفكر، بل إن غالب الانحرافات السلوكية منشؤها انحرافات فكرية، فيقوم المجدد بتصويب الأفهام والأفكار، وتخليصها مما داخلها من شكوك وشبهات، ويحيى العلم النافع، والفهم الصحيح للإسلام، ويبثه بين الناس، وينشره بالتدريس، وتأليف الكتب، وغير ذلك من الوسائل المتاحة، ثم يعمد إلى إصلاح سلوك الناس وتقويم أخلاقهم، وتزكية نفوسهم، وإبطال التقاليد المخالفة للشريعة، وإعلان الحرب على البدع والخرافات، والمنكرات

(١) التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٤٦).
(٢) فيض القدير للمناوى (١/ ١٤).
(٣) عون المعبود (١١/ ٣١٩).
(٤) موجز تاريخ تجديد الدين للمودودى، ص (٥٢).

المتفشية فى حياة الناس، ومواجهة الفساد بمختلف أشكاله وصوره، وخاصة الفساد فى الحكم والإمارة، بهذا يكون المجدد قد جمع بين القول والفعل، والعلم والعمل، وقد أشار السلف إلى هذا الشرط بقولهم عن المجدد: إنه ينصر السنة ويقمع البدعة(١).

د ـ **أن يعم نفعه أهل زمانه**:وذلك لأن المجدِّد رجل مرحلة زمنية، تمتد قرنًا من الزمن، فلابد إذن من أن يكون منارة يستضىء بها الناس، ويسترشدون بهداها، حتى مبعث المجدد الجديد على الأقل، وهذا يقتضى أن يعم علم المجدد ونفعه أهل عصره، وأن تترك جهوده الإصلاحية أثرًا بينًا فى فكر الناس وسلوكهم، وغالبًا ما يتم تحقيق ذلك عبر من يربيهم من تلامذة، وأصحاب أوفياء، يقومون بمواصلة مسيرته الإصلاحية، وينشرون كتبه وأفكاره، ويؤسسون مدارس فكرية تترسم خطاه فى الإصلاح والتجديد(٢).

٣ ـقول رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»(٣) والدروس والعبر والفوائد المستنبطة منه:

يعد هذا الحديث إحدى البشائر بحفظ الله لهذا الدين مهما تقادم الزمان وبكفالته سبحانه إعزاز هذه الأمة ببعثة المجددين الربانيين الذين يحيونها بعد موات، ويوقظونها من سبات، بما يحملونه من الهدى والنور، وأن هذا الحديث يمنح المسلم طاقة من الأمل الأكيد، بأن المستقبل للإسلام مهما تكاثرت قوى الشر، وتعاظم طغيان أهل الباطل، وبأن النور سيسطع مهما احلولك الليل، واشتد الظلام، ونحن فى الوقت الحاضر بحاجة ماسّة لتأكيد هذا المعنى، ونشره بين الناس، حتى نقاوم موجات اليأس والقنوط التى عمَّت النفوس، فجعلتها تستسلم للذل والخضوع والخنوع، بحجة أننا فى آخر الزمان، وأنه لا فائدة ولا رجاء من كل جهود الإصلاح التى تبذل، لأن الإسلام فى إدبار والكفر فى إقبال، وها قد ظهرت علامات الساعة الصغرى، ونحن فى انتظار العلامات الكبرى التى

---

(١) عون المعبود (١١/ ٣٩١)، التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٤٨).

(٢) التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٤٨).

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ١٥١).

سيعقبها قيام الساعة، وقد يستدل أصحاب هذا الاتجاه ببعض الأحاديث، ويفهمونها على غير الوجه المراد منها[١]. من ذلك استدلالهم بحديث أنس رضى الله عنه عند البخارى: «لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شرٌّ منه حتى تلقوا ربكم»[٢]، وحديث: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء»[٣]. وينسون أنه لا يجوز أن نفهم هذه الأحاديث بمعزل عن الأحاديث الأخرى التى تحمل البشرى والأمل للأمة، مثل حديث: «مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أو آخره»[٤]، وفى قوم دون غيرهم، وفى زمن دون زمن، كما ذكر ابن القيم[٥] ولذلك شهد التاريخ الإسلامى حقبًا من الظهور والإشراق كعهد عمر بن عبد العزيز[٦]، ونور الدين، وصلاح الدين، ويوسف بن تاشفين، ومحمد الفاتح، وغيرهم، وتجب الإشارة هنا إلى أن حديث التجديد الذى نحن بصدد شرحه، وكذا الأحاديث التى تحمل البشرى بعودة الإسلام إلى واجهة الحياة، وإن كانت أخبارًا يقينية صدرت عن الصادق المعصوم، ولابد أن تتحقق كما أخبر، إلا أنها تحمل فى مضمونها تكليفًا واستنهاضًا لعزمات المسلمين بوجوب السعى الدؤوب لتحقيق نصر الله لهذا الدين، وإعزاز أهله، كما هى سنة الله فى ترتيب المسببات على الأسباب[٧].

أ ـ فى قوله ﷺ: إن الله يبعث لهذه الأمة[٨]: إن هذا المبعوث لم يعد همه نفسه فقط، بل تجاوز ذلك ليعيش لهذه الأمة، فهو صاحب عزيمة وهمة، يعيش هموم أمته ويبذل قصارى جهده، مواصلاً عمل النهار بالليل، لينقذ هذه الأمة من وهدتها، ويعيد لها ثقتها بدينها، ويردها إلى المنهج الصحيح، مصابراً على ما يعترض سبيله من عقبات، ومغالبًا كل المشقات والتحديات، ليصل إلى رفعة هذه الأمة وعودة مجدها[٩].

---

(١) التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٥٥).

(٢) البخارى رقم (٦٥٤١)، ك الفتن.

(٣) مسلم، ك الإيمان رقم (٢٠٨).

(٤) سنن الترمذى رقم (٢٧٩٥) صحيح.

(٥) مدارج السالكين (٣/ ١٩٦).

(٦) التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٥٦).

(٧) الاجتهاد للتجديد، عمر عبيد حسنة، ص (٧).

(٨) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ١٥١).

(٩) التجديد فى الإسلام نقلاً عن التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٥٧).

ب ـ **قوله: على رأس كل مائة سنة**[1]: الرأس في اللغة يمكن أن يراد به أول الشيء، كما أن يمكن أن يراد به آخره[2]، وقد اختلف العلماء في المراد من الرأس في هذا الحديث، فقال بعضهم: المراد: أول المائة، وقال آخرون: المراد آخرها[3]، وهذا ما اختاره ابن حجر[4]، والطيبي[5]، والعظيم آبادي[6]، وقد احتج العظيم آبادي لاختياره بكون الإمامين الزهري وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة المتقدمين والمتأخرين، اتفقوا على أن من المجددين على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعي رحمه الله، وقد توفي عمر بن عبد العزيز سنة إحدى ومائة، وله أربعون سنة، ومدة خلافته سنتان ونصف، وتوفي الشافعي سنة أربع ومائتين[7]، ولا يمكن عد عمر بن عبد العزيز مجدد المائة الأولى اعتباره أولها لأنه لم يكن مولودًا أولها فضلاً عن أن يكون مجددها، وكذا الإمام الشافعي لم تكن ولادته بداية المائة الثانية فضلاً عن أن يكون مجددها[8].

ج ـ **هل يشترط لعد المجدد أن تقع وفاته على رأس المائة؟** يشترط بعض العلماء لاستحقاق المجدد هذا الوصف أن تقع وفاته على رأس القرن، إلا أن هذا الرأي مرجوح، لأن كلمة (البعث) في الحديث تدل على الإرسال والإظهار، والموت قبض وزوال، فالمقصود من الحديث: أن المجدد من تأتي عليه نهاية القرن، وقد ظهرت أعماله التجديدية، واشتهر بالصلاح وعمّ نفعه، ولا يشترط أن تقع وفاته قبيل نهاية القرن أو أن يبقى حيًا حتى يدخل عليه القرن التالي[9].

د ـ **هل مجدد القرن واحد أو متعدد؟** أثار قوله ﷺ: **«من يجدد لها دينها»** سؤالاً في الماضي والحاضر، هو: هل المقصود بلفظة (من) الواردة في الحديث فرد واحد من أفراد الأمة وأفذاذها يحيي الله بها دينها، أم المراد بها ما هو أوسع من ذلك فيشمل الأفراد والجماعات، وذهب كثير من العلماء إلى أن المجدد فرد واحد، ونسب السيوطي هذا الرأي إلى الجمهور، فقال في أرجوزته عن المجددين:

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ١٥١).
(٢) عون المعبود (١١/ ٣٨٦).
(٣) المصدر نفسه (١١/ ٣٨٦).
(٤) فتح الباري (١٣/ ٢٩٥).
(٥) عون المعبود (١١/ ٣٨٩).
(٦)، (٧) المصدر نفسه (١١/ ٣٨٧).
(٨) التجديد في الفكر الإسلامي، ص (٥٨).
(٩) المصدر نفسه، ص (٦١).

وكــونه فــردًا هــو المشـــهــور قــد نطق الحــديث والجمــهــور[١]

وذهب فريق آخـر من العلماء إلى أن كلمة (من) فى الحديث للعـموم فى أصل وضعهـا اللغوى[٢]، فتـشمل الواحد والجـماعة على حـد سواء[٣]، ومن هؤلاء العلماء ابن حجر وابن الأثير والذهبى وابن كثير والمناوى والعظيم آبادى[٤]، ويتبين من خلال البحث أن حمل لفظة (من) فى الحديث على العموم أولى، لأن التاريخ والواقع يثبت وجود أكثر من مـجدد على رأس كل قرن من القرون الخوالى، ولأن مهمـة التجديد مـهمة ضخـمة واسعة لكونهـا لا تقتصر على جـانب من جوانب الدين، ولأن رقعة الأمة الإسلامية تمتد على مساحة شاسعة يصعب معها على فرد بل مجموعة أفراد أن يقوموا بعملية التجديد الشامل المطلق[٥].

هـ ـ المجدد هو دين الأمة وليس الدين نفسه:

يلاحظ المتأمل فى قوله ﷺ: **«من يجدد لهـا دينها»** أنه أضاف الدين إلى الأمة ولم يقل يجدد لها الدين، وذلك لأن الدين بمعنى المنهج الإلهى الذى بعث الله به رسوله ﷺ، وما اشتـمل عليه من عقائد وعبادات وأخـلاق وشرائع، تنظم علاقة العبد بربه وعلاقته بغيره من بنى جنســه، ثابت كما أنزله الله لا يقبل التغيير، ولا التجـديد، وأما دين الأمة بمعنى عـلاقة الأمة بالديــن ومدى تمسكها وتخلقـها به. وترجمتها له واقـعًا ملموسًا على الأرض، فهو المعنى القابل للتـجديد ليعيد الناس إلى المستوى الذى ينبغى أن يكونوا عليه بعلاقتهم مع الدين[٦].

---

(١) عون المعبود (١١/ ٣٩٤).

(٢) التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٦١).

(٣) المصدر نفسه، ص (٦١).

(٤) المصدر نفسه، ص (٦٢، ٦٣).

(٥) المصدر نفسه، ص (٦٥).

(٦) من أجل صحوة إسلامية للقرضاوى، ص (٢٦، ٢٧).

الفصل الثالث

اهتمام عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة

اهتم عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة، وحرص على تعلمها وتعليمها وبثها بين الناس، وتناثرت أقواله فى عقائد أهل السنة بين المراجع والمصادر الإسلامية؛ من عقائد وتفسير وحديث وفقه وغيرها، وقام الأستاذ حياة بن محمد بن جبريل بجمع الكثير منها، ونال بهذا الجهد العلمى رسالة الماجستير، والكثير ممن كتب عن حياة عمر بن عبد العزيز لم يسلط الأضواء على هذا البعد المهم فى حياته والمتعلق بحرصه على توعية الناس وتعليمه المعتقد الصحيح، الذى جاء ذكره فى كتاب الله وسنة رسولهﷺ ، ومن أهم الجوانب العقائدية التى تحدث فيها عمر ابن عبد العزيز رحمه الله:

أولاً: توحيد الألوهية:

توحيد الألوهية أساس دين الإسلام، بل هو أساس كل دين سماوى، به أرسل جميع الرسل، وأنزلت عليهم جميع الكتب، وهو الذى دعا إليه كل رسول من آدم عليه السلام إلى نبينا محمدﷺ ، بل هو الغاية من خلق الجن والإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وكان سلف هذا الأمة رحمهم الله يهتمون بهذا النوع من التوحيد، وممن كان له إسهام فى هذه المسألة عمر بن عبد العزيز[(١)]، وقبل بيان ما أُثر عنه فمن الأهمية بمكان بيان المقصود من توحيد الألوهية عند إطلاقه؛ فعرف بأنه: استحقاق الله سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له[(٢)]، وعرفه بعض الباحثين بأنه: توحيد الله بأفعال العباد وهو المعبر عنه بتوحيد الطلب والقصد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، ومحبته وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه والرهبة والرغبة منه وإليه وحده، والتقرب إليه بسائر العبادات البدنية والمالية دون إشراك أحد أو شىء من خلقه[(٣)]،

---

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ١٩٩).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٩).

(٣) رسالة توحيد الألوهية أساس الإسلام للباحث حامد عبد القادر الأحمدى، ص (٧) مطبوع على الآلة الكاتبة نقلاً عن الآثار الواردة عن عمر فى العقيدة (١/ ٢٠٠).

وقد ورد عن عمر بن عبد العزيز آثار فـى الدعاء والتبرك والخوف والرجاء والتوكل والشكر:

١ـ الدعاء:

أ ـ مر عـمر بن عبد العـزيز برجل فى يده حصاة يلعب بهـا وهو يقول: اللهم زوجنى من الحور العين، فقام إليه فـقال: بئس الخاطب أنت، ألا ألقيت الحصاة، وأخلصت إلى الله الدعـاء[١]. وفى هذا الأثر بيَّن عـمـر بن عبـد العـزيز أن من شروط الدعاء الإخـلاص وحضور القلب، وهذا ما دل عليـه الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [غافر: ١٤] وقال ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه**»[٢].

ب ـ قال عـمر بن عبد العـزيز: اللهم إنى أطعتك فى أحب الأشـياء إليك وهو التوحيد، ولم أعصك فى أبغض الأشياء إليك وهو الكفر، فاغفر لى ما بينهما[٣]. فهنا توسل عمر بن عـبد العزيز بالطاعة والتوحيد وطـلب الغفران من الله تعالى، ولا شك أن التوسل بـالأعمال الصـالحة مشـروع كحديث الثـلاثة الذين أووا إلى الغار[٤]، فإنهم توسلوا بأعمالهم الصالحة ليجيب الله دعاءهم ويفرج كربتهم، وقد توسل المؤمنون بأعـمالهم الصالحـة من الإيمان وقدمـوه قبل الدعاء، قـال تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، فإنهم قدمـوا الإيمان قبل الدعاء، وأمثال ذلك كثير[٥].

ج ـ حصلت زلزلة بـالشام، فكتب عمـر بن عبد العـزيز: أما بعـد، فإن هذا الرجف شىء يعاتب الله به العـباد، وقد كتب إلى أهل الأمصـار أن يخرجوا يوم كذا من شهـر كذا، فمن كان عنده شىء فليـتصدق[٦]. قال الله عز وجل: ﴿ قَدْ

(١) الحلية (٥/ ٢٨٧)، سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٨٤).

(٢) سنن الترمذى (٥/ ٤٨٣)، صحيح سنن الألبانى رقم (٢٧٦٦).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن القيم الجوزية، ص (٢٤٢).

(٤) مسلم رقم (٢٧٤٣).

(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٢١٩).

(٦) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٦٤)، الحلية (٥/ ٣٠٤، ٣٠٥).

أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥] وقولوا كما قال آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقولوا كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] وقولوا كما قال يونس عليه السلام: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فقد أمر -رحمه الله- الرعية بالالتجاء إلى الله تعالى، والتصدق والاستغفار والخروج إلى المصلى عندما حصلت الزلزلة بالشام(١).

د ـ قال ميمون بن مهران: كنت عند عمر بن عبد العزيز، فكثر بكاؤه ومسألته ربه الموت، فقلت: لم تسأل الموت، وقد صنع الله على يديك خيرًا كثيرًا؟ أحيا بك سننًا، وأمات بك بدعًا، قال: أفلا أكون مثل العبد الصالح حين أقر الله عينه وجمع له أمره قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. وقد طلب الدعاء له بالموت على الإيمان، ودعا به اقتداء بالصالحين، فهذا الدعاء من سنن المرسلين وهو من شعار الصالحين، وقد يكون أيضًا دعا به ـ رحمه الله ـ خوفًا من الفتنة فى الدين، لاسيما عند وفاة أعوانه: ابنه عبد الملك ومولاه مزاحم وأخيه سهل، كما جاءت فى بعض الروايات(٢).

٢ـ الشكر: عن يحيى بن سعيد قال: بلغنى أن عمر بن عبد العزيز قال: ذكر النعم شكرها(٣)، وقال عمر بن عبد العزيز: شيدوا نعم الله عز وجل بالشكر لله تعالى(٤)، وكتب إلى بعض عماله فقال: .. أوصيك بتقوى الله وأحثك على الشكر فيما عندك من نعمته وآتاك فى كرامته، فإن نعمه يمدها شكره ويقطعها كفره(٥). وقد حث عمر بن عبد العزيز على شكر الخالق تبارك وتعالى على نعمه الكثيرة وآلائه الجسيمة، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقال عز وجل: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا

---

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٢٢٠).

(٢) العقد الفريد (٤/ ٣٩٦)، الآثار الواردة (١/ ٢٢٤).

(٣) مصنف ابن أبى شيبة (٨/ ٢٤٠).

(٤) ابن أبى الدنيا، كتاب الشكر لله تعالى، ص (١٩).

(٥) ابن أبى الدنيا، ذم الدنيا، ص (٨١).

تكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. والشكر يستلزم المزيد قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وما أثر عن عمر - رحمه الله تعالى - فى هذا الجانب يبين منهج السلف فى التعامل مع النعم التى ينعمها الخالق على عباده(١).

٣- التوكل: قال الحكم بن عمر: كان لعمر بن عبد العزيز ثلاثمائة حرسىّ وثلاثمائة شرطى، فشهدته يقول لحرسه: إن لى عندكم بالقدر حاجزًا، وبالأجل حارسًا، من أقام منكم فله عشرة دنانير ومن شاء فليلحق بأهله(٢). ولما خرج عمر ابن عبد العزيز من المدينة نظر مولاه مزاحم إلى القمر فإذا القمر فى الدبران(٣)، قال: فكرهت أن أقول ذلك له فقلت: ألا تنظر إلى القمر، ما احسن استواءه فى هذه الليلة، فنظر عمر فإذا هو بالدبران فقال: كأنك أردت أن تعلمنى أن القمر بالدبران، يا مزاحم إنا لا نخرج بشمس ولا قمر، ولكننا نخرج بالله الواحد القهار(٤). يظهر هنا حرص عمر على التوكل مع الأخذ بالأسباب المشروعة، والتوكل هو الاعتماد على الله مع الأخذ بالأسباب، وهو أصل من أصول التوحيد، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقال عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. والتوكل، من أعظم الأسباب التى يحصل بها المطلوب، ويدفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب. وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها(٥).

٤- فى الخوف والرجاء: عن يزيد بن عياض بن جعدبة، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى سليمان بن أبى كريمة: إن أحق العباد بإجلال الله والخشية منه من ابتلاه بمثل ما ابتلانى به، ولا أحد أشد حسابًا ولا أهون على الله إن عصاه منى، فقد ضاق بما أنا فيه ذرعى، وخفت أن تكون منزلتى التى أنا بها هلاكًا إلا أن يتداركنى الله منه برحمة، وقد بلغنى أنك تريد الخروج فى سبيل الله، فأحب يا

---

(١) الآثار الواردة (١/ ٢٣٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٦).
(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٣٥).
(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٣٢).
(٥) مدارج السالكين (٢/ ١٢٥).

أخى إذا أخـذت موقـفك أن تدعـو الله أن يرزقنى الشـهادة، فـإن حالى شـديدة وخطرى عظيم، فاسأل الله الذى ابتلانى بما ابتلانى به أن يرحمنى ويعفو عنى[1].

وقال ربيع بن سبرة لعمر بن عبـد العزيز -وقد هلك ابنه وأخوه ومولاه مزاحم فى أيام -: يا أمير المؤمنين ما رأيت رجلاً أصيب فى أيام متوالية بأعظم من مصيبتك، ما رأيت مثل ابنك ابنًا، ولا مثل أخيك أخًا، ولا مثل مولاك مولى، قال: فنكس ساعـة ثم قال لى: كـيف قلت يا ربيع؟ فأعـدتها عليـه. فقـال: لا والذى قضى عليـهم الموت، ما أحب أن شـيئًـا من ذلك كان لم يكن من الذى أرجـو من الله فيهم[2]، وعن قتادة أن عـمر بن عبد العزيز كتب إلى ولى العـهد من بعده: بسم الله الرحمن الـرحيم. من عبـد الله عمر أمـير المؤمنين إلى يزيد بن عـبد الملك: السلام عليك، فـإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أمـا بعد، فإنى كـتبت إليك وأنا دنف[3] من وجعى، وقد علمتنى أنى مسئول عما وليت، يحاسبنى عليه مليك الدنيـا والآخر،ة ولست أسـتطيع أن أخـفى عليه من عـملى شيـئًا يقـول: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧] فإن يرض عنى الرحـيم فقد أفلحت ونجوت من الهول الطويل، وإن سخط على فيـا ويح نفسى إلى ما أصير، أسأل الله الذى لا إله إلا هو أن يجيرنى من النار برحمته، وأن يمن علىَّ برضوانه والجنة[4]. ومن كلام عمر يتبين لنا جـمعه بين الخوف والرجاء ولا شك أن الجمع بين الخوف والرجـاء هو من عقيدة السلف الـصالح، وهو توسط المؤمن بين الأمن من مكر الله واليـأس من روح الله، فـالسلف كـانوا يخـافـون ربهم، ويرجـون رحمته[5]، وهم سائرون على ما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وقد مدح الله أهل الخوف والرجـاء بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

---

(١) الطبقات (٥/ ٣٩٤، ٣٩٥)، الآثار الواردة (١/ ٢٤٠) .

(٢) المعرفة والتاريخ للفسوى (١/ ٦١٠)، الآثار الواردة (١/ ٢٤١) .

(٣) دنف الرجل من مرضه: براه المرض حتى أشفى على الهلاك .

(٤) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٢٤٤) .

(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٢٤٥).

ثانيًا: معتقد عمر بن عبد العزيز فى أسماء الله الحسنى:

أسماء الله الحسنى: هى كلماته الدالة على ذاته المتضمنة إثبات صفات الكمال له، بلا مماثلة، وتنزيهه عن صفات النقص والعيب[1]. والأسماء الحسنى المعروفة هى التى يدعى الله بها، وهى التى جاءت فى الكتاب والسنة، وهى تقتضى المدح والثناء بنفسها[2]، ولا شك أن كل قارئ للقرآن الكريم، وللأحاديث النبوية يجد أن الله تباركِ وتعالى فى كتابه قد سمى نفسه بأسماء، وأن رسوله ﷺ قد سمى ربه بأسماء، ومن المعلوم أن السلف الصالح يثبتون لله تعالى من الأسماء ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسول الله ﷺ، لأنه لا أحد أعلم بالله من الله، ولا أحد أعلم بالله بعد الله من رسوله ﷺ، وأسماء الله تعالى كلها حسنى، وهى أعلام، وأوصاف، وهى أسماؤه حقيقة دالة على ذاته وصفاته وهى توقيفية، وغير محصورة بعدد معين، وغير مخلوقة، ولا يجوز الإلحاد فيها[3]، ومن خلال رسائل وخطب عمر بن عبد العزيز نوضح بعض أسماء الله تعالى التى ذكرها فى رسائله وخطبه، ومنهج عمر بن عبد العزيز هو منهج الحق الذى دل عليه الكتاب والسنة، وقد قعد أهل السنة قواعد فى أسماء الله تعالى يمكن استنتاج بعضها من كلام عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فمن هذه القواعد ما يلى:

- أن أسماء الله تعالى أزلية، قال عمر بن عبد العزيز: . . ولقد أعظم بالله الجهل من زعم أن العلم كان بعد الخلق[4] بل لم يزل الله وحده بكل شىء عليمًا، وعلى كل شىء شهيدًا، قبل أن يخلق شيئًا وبعد ما خلق. فبين عمر أن الله له الأسماء الحسنى وهى العليم، والشهيد أزلاً، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة[5].

- أن أسماء الله تعالى توقيفية، وهذا منهج أهل السنة والجماعة، وهو ما تبين بالاستقراء من كلامه حيث لم يذكر حسب اطلاعى إلا أسماء الله الواردة فى الكتاب والسنة، وهذا هو الحق إذ لا يجوز أن يسمى الله إلا بما سمى به نفسه فى كتابه الكريم أو على لسان نبيه ﷺ[6].

---

(١) منهج أهل السنة ومنهج الأشاعرة فى توحيد الله، خالد عبد اللطيف (٢/ ٣٩١) .

(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٧٦) . (٣) المصدر نفسه (١/ ٢٨٧)

(٤) الحلية (٥/ ٣٤٨)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٣٠٤).

(٥) الآثار الواردة (١/ ٣٠٥). (٦) المصدر نفسه (١/ ٣٠٥) .

ـ **أن أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف**، أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعانى، وهى بالاعتبار الأول ـ أى أعلام ـ مترادفة، وبالاعتبار الثانى ـ أى أنها أوصاف ـ متباينة لدلالة كل واحد منها على معناه الخاص، فالحى الرحمن الرحيم كلها أسماء لمسمى واحد، لكن معنى الحى غير معنى الرحمن؛ هكذا[١]. وقد خالف معتقد السلف الصالح فى توحيد الأسماء الحسنى بعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام؛ فالجهمية[٢] أنكرت الأسماء الحسنى وذلك لظنهم أن التوحيد نفى محض، وأن إثبات الأسماء الحسنى إثبات لأعراض حادثة، ولم يثبتوا من الأسماء الحسنى غير اسمى (القادر والخالق) لأن الجهم لا يسمى أحدًا من المخلوقين قادرًا لنفيه استطاعة العباد، ولا يسمى أحدًا خالقًا غير الله تعالى، لأن عنده أن كل صفة أو اسم يجوز أن يسمى أو يتصف به غير الله فلا يجوز إطلاقه على الله تعالى[٣]، وعلى هذا يجب على المسلم الوقوف عند ما ثبت وترك الابتداع، والتحريف والتأويل المفضى إلى الإلحاد[٤] فإن الله تعالى قال: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقد وردت فى رسائل عمر بن عبد العزيز وخطبه كثير من أسماء الله الحسنى، كالله عز وجل، والرب، والرحمن والرحيم، المليك والخبير، والكريم، والحى، والرقيب، والشهيد، والواحد القهار، والعلى العظيم، والعفو الغفور، والعزيز الحكيم، والوارث، والخالق، والعليم[٥]، ونتحدث عن بعض هذه الأسماء.

١ـ **فى اسمه تعالى «الرب»**: كان عمر يقول: يا رب انفعنى بعقلى[٦]. والرب من أسماء الله الحسنى، قال تعالى: ﴿**بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ**﴾ [سبأ: ١٥]. ومعنى الرب: المصلح للشىء. ورب الشىء: مالكه، فالله عز وجل مالك العباد ومصلحهم ومصلح شئونهم[٧]، ومصدر الرب الربوبية، وكل من ملك شيئًا فهو

---

(١) القواعد المثلى، ص (٨) .

(٢) الجهمية: سيأتى الحديث عنها فى محاورات عمر لأهل الفرق.

(٣) منهاج السنة (٢/ ٥٢٦)، الآثار الواردة (١/ ٣٠٦) .

(٤) الآثار الواردة (١/ ٣٠٦).

(٥) المصدر السابق (١/ ٢٧٩ - ٣٠٦) .

(٦) سيرة عمر لابن عبد الحكم ص (٦٨)، الآثار الواردة (١/ ٢٨١) .

(٧) الآثار الواردة (١/ ٢٨١).

ربه، يقال: هذا رب الدار، ورب الصنيعة، ولا يقال الرب معرفًا بالألف واللام مطلقًا إلا لله عز وجل لأنه مالك كل شيء[1].

٢ـ فى اسمه تعالى «الحى»: كان لعمر بن عبد العزيز صديق، فأخبر أنه قد مات فجاء إلى أهله يعزيهم، فصرخوا فى وجهه، فقال لهم عمر: إن صاحبكم هذا لم يكن يرزقكم، وإن الذى يرزقكم حى لا يموت[2]. فالحى اسم من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وحياته تعالى لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال، الحياة المستلزمة لكمال الصفات فى العلم والقدرة والسمع والبصر، وغيرها[3].

٣ـ فى اسميه «الواحد القهار»: قال عمر بن عبد العزيز لمولاه مزاحم: يا مزاحم إنا لا نخرج بشمس ولا قمر، ولكنا نخرج بالله الواحد القهار[4]. وهما من أسماء الله الحسنى قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، والواحد القهار أى: المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته، وأفعاله العظيمة، وقهره لكل العوالم؛ فكلها تحت تصرفه وتدبيره، فلا يتحرك منها متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه[5].

٤ـ فى اسميه تعالى «العلى العظيم»: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد رسالة واختتمها بقوله: . . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم[6]. والعلى العظيم من الأسماء الحسنى، قال تعالى: ﴿وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وهو العلى بذاته فوق عرشه، العلى بقهره لجميع المخلوقات، العلى بقدره لكمال صفاته[7]، والعظيم: الذى تتضاءل عند عظمته جبروت الجبابرة، وتصغر فى جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة[8].

---

(١) اشتقاق أسماء الله الحسنى للزجاجى، ص (٣٢، ٣٣)، الآثار الواردة (١/ ٢٨١) .

(٢) الحلية (٥/ ٣٣٠)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٨٨) .

(٣) اشتقاق أسماء الله الحسنى، ص (١٠٢) .

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٣٢) .

(٥) تفسير السعدى، ص (٤٢٨) .

(٦) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٨١) .

(٧)، (٨) تفسير السعدى، ص (١١٠) .

فهذه بعض أسماء الله الحسنى التى جاءت فى الرسائل والآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز، وهى للمثال وليست للحصر.

ثالثًا: معتقد عمر بن عبد العزيز فى صفات الله تعالى:

صفات الله عز وجل هى نعوت الكمال القائمة بالذات الإلهية، كالعلم والحكمة، والسمع، والبصر، واليدين والوجه، وغيرها مما أخبر الله تعالى بها عن نفسه فى كتابه وعلى لسانه نبيه ﷺ، وتوحيد الله عز وجل فى صفاته هو أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به نبيه ﷺ نفيًا وإثباتًا، فيثبت ما أثبته لنفسه وينفى عنه ما نفاه عن نفسه[1]. فالأصل فى هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله نفيًا وإثباتًا، فيثبت ما أثبته لنفسه، وينفى عنه ما نفاه عن نفسه، وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه، مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد، لا فى أسمائه ولا فى آياته، فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون فى أسمائه وآياته، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]. فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفى مماثلة المخلوقات إثباتًا بلا تشبيه، وتنزيهًا بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد للتشبيه والتمثيل، وفى قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] رد للإلحاد والتعطيل[2]. وقد جاءت الآثار عن عمر بن عبد العزيز فى باب الصفات، فأثبت ما أثبته الله لنفسه، وتحدث عن إثبات صفة النفس، والوجه، والعلم، والكبرياء والقدرة، والعلو، والمعية والقرب، وصفة المشيئة والإرادة، وصفة الغضب، والرضا، وصفة الرحمة[3]، وإليك الحديث عن بعضها:

---

(١) أقوال التابعين فى مسائل التوحيد والإيمان (٣/ ٨٧٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٨).

(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٣١٣ - ٣٥٩).

١ـ صفة النفس: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الضحاك بن عبد الرحمن رسالة فقال: أما بعد، فإن الله عز وجل جعل الإسلام -الذى رضى به لنفسه ومن كرم عليه من خلقه- لا يقبل دينًا غيره(١). وهذا الأثر يبين إثبات صفة النفس، وهو ما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وقال ﷺ فى ثنائه على ربه: «.. لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»(٢)، فنفسه تعالى هى ذاته المقدسة، كما تبين ذلك من الكتاب والسنة(٣). فنفسه تعالى هى ذاته المتصفة بصفاته، وليس المراد بها ذاتًا منفكة عن الصفات، ولا المراد بها صفة الذات(٤).

٢ـ صفة الوجه لله تعالى: كتب عمر إلى الخوارج رسالة وفيها: .. وإنى أقسم لكم بالله لو كنتم أبكارى من ولدى.. لدفقت دماءكم ألتمس بذلك وجه الله والدار الآخرة(٥). صفة الوجه من الصفات الخبرية الذاتية، دل عليها الكتاب السنة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢]. وكان رسول الله ﷺ يسأل ربه، ففى سؤاله ربه لذة النظر إلى وجهه يقول: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك»(٦).

٣ ـ صفة القدرة لله تعالى: كتب عمر إلى بعض عماله: أما بعد، فإذا دعتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم، فاذكر قدرة الله عليك فى نفاذ ما يأتى إليهم وبقاء ما يأتى إليك(٧). وقال فى رسالته فى الرد على القدرية وفيها: .. فالله أعز فى قدرته وأمنع من أن يملك أحدًا إبطال علمه(٨). يتبين من خلال الأثرين السابقين إثبات عمر بن عبد العزيز صفة القدرة لله تبارك وتعالى، وهى من الصفات التى دل عليها السمع والعقل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٨٦)، الآثار الواردة (١/ ٣١٣).
(٣) مسلم رقم (٤٨٦).
(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٣١٤).
(٤) الفتاوى نقلاً عن الآثار الواردة (١/ ٣١٤).
(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٧٥).
(٦) صححه الألبانى فى صحيح سنن النسائى (١/ ٢٨٠، ٢٨١).
(٧) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٢٥).
(٨) الحلية (٥/ ٣٤٧).

[البقرة: ٢٠]. ومن السنة حديث أبى مسعود البدرى لما ضرب غلامه قال له النبى ﷺ: «**اعلم يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام**»[١].

هذه بعض الآثار التى تدل على إثبات عمر بن عبد العزيز لصفات الله تعالى على أصول منهج أهل السنة والجماعة.

رابعًا: نهيه عن اتخاذ القبور مساجد:

عن إسماعيل بن أبى حكيم أنه سمع عمر بن عبد العزيز يقول: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال: «**قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. لا يبقى -أو قال: لا يجتمع- دينان بأرض العرب**»[٢]، وقال: حصين: إن عمر بن عبد العزيز نهى أن يبنى القبر بآجر وأوصى بذلك[٣]. والحديث الذى أرسله عمر -رحمه الله- يبين تحذير رسول الله ﷺ لأمته من اتخاذ القبور مساجد، وبين أن ذلك فعل اليهود والنصارى، والمسلم منهى عن الاقتداء بهؤلاء الضلال المغضوب عليهم بنص القرآن، ولا شك أن اتخاذ القبور مساجد والبناء عليها وتجصيصها مما أجمع على منعه سلف هذه الأمة، كما مر عن عمر بن عبد العزيز حيث نهى أن يبنى القبر بآجر وأوصى أن لا يفعل ذلك بقبر[٤]، ولما أمر الوليد بن عبد الملك ببناء المسجد النبوى حين كان عمر عاملاً له على المدينة وإدخال حجرات الرسول ﷺ -ومنها حجرة عائشة -رضى الله عنها- التى فيها قبر الرسول ﷺ وصاحبيه- كان عمر بن عبد العزيز هو الذى جعل مؤخر القبر محددًا بركن، لئلا يستقبل قبر النبى ﷺ فيصلى إليه، جعل ذلك حين انهدم جدار البيت فبناه على هذا فصار للبيت خمسة أركان[٥]، والمقصود أن عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- قد سد منافذ الشرك بعلمه وحكمته، كما تبين من نقل من شاهدوا بناء المسجد النبوى فى عهد ولايته على المدينة النبوية، ولا شك أن نهى النبى ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجدًا كان خوفًا من المبالغة فى تعظيمه والافتتان به، بل ربما أدى ذلك

---

(١) مسلم رقم (١٦٥٩).

(٢) البخارى رقم (١٣٣٠)، مصنف عبد الرزاق (١٠/ ٣٥٩، ٣٦٠).

(٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٣٤٦).

(٤) الآثار الواردة عن عمر فى العقيدة (١/ ٢٦٤).

(٥) المصدر نفسه (١/ ٢٦٥).

إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية[1]. وقد منع عمر من اتخاذ البناء لقبره، وأوصى بذلك مع أنه كان فى الزمن الذى فيه العقيدة صافية نقية إذا قورن ذلك الزمان بما بعده، ولكن لفهمه الصحيح لمقاصد السنة ولاتباعه المنهج الصحيح؛ منهج النبى ﷺ وأصحابه، وفَّقه الله تعالى للوصية بأن لا يبنى على قبره خشية أن يتخذ مسجدًا، فحسم الموقف قبل أن يستفحل، ولا شك أن ما ذهب إليه عمر هو ما يدل عليه الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: نهى النبى ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه[2].

خامسًا: مفهوم الإيمان عند عمر بن عبد العزيز:

قال عدى بن عدى: كتب إلىّ عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن للإيمان فرائض وشرائع وحدودًا وسننًا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص[3]، وعن جعفر بن برقان قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن عرى الدين وقوائم الإسلام: الإيمان بالله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فصلوا الصلاة لوقتها[4]. فقد بين عمر بن عبد العزيز أن للإيمان فرائض أى: أعمالاً مفروضة كالصلاة والحج والصوم، وشرائع أى: عقائد دينية كالإيمان بالله وملائكته، وحدودًا أى: منهيات ممنوعة كشرب الخمر والزنا، وسننًا أى مندوبات كإماطة الأذى عن الطريق، وغيرها من المندوبات. فهذه الأمور كلها من الإيمان[5]، وهذا المأثور عن عمر هو الحق الذى يدل عليه الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، فالإيمان عند أهل الحق: قول اللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان[6]، فمن الأدلة الدالة على أن الإيمان قول باللسان قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[البقرة: ١٣٦]. وقوله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى (٢/ ١٨٥).
(٢) مسلم رقم (٩٧٠).
(٣) فتح البارى على صحيح البخارى (١/ ٤٥).
(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٧٢)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٥٤٣).
(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٥٤٥).
(٦) المصدر نفسه (١/ ٥٤٤).

نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله»[1]. ومن الأدلة على أن أعمال القلوب من الإيمان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ....﴾ [الأنفال:٣]. والوجل من أعمال القلوب، وقد سمى فى الآية إيمانًا. ومن الأدلة على أن أعمال الجوارح من الإيمان قوله تعالى: ﴿...وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ....﴾ [البقرة:١٤٣]. يبين ذلك سبب نزول الآية حين سُئل عليه السلام: أرأيت الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله عز وجل﴿...وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ....﴾ . وفى هذا دلالة على أنه تعالى سمى صلاتهم إلى بيت المقدس إيمانًا، فإذا ثبت ذلك فى الصلاة ثبت ذلك فى سائر الطاعات[2]، وكتب عمر بن عبد العزيز رسالة وفيها: أسأل الله برحمته وسعة فضله أن يزيد المهتدى هدى، وأن يرجع بالمسىء التوبة فى عافيته[3]، وفى قوله عند الحديث عن الإيمان، . . .فمن استكملهن فقد استكمل الإيمان، ومن لم يستكملهن لم يستكمل الإيمان[4]. فهذه الآثار تبين أن الإيمان يزيد وينقص، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة والآثار عن السلف الصالح. قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال:٢]. وقال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له»[5]، ومن أقوال سلف الأمة قول البخارى: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحدًا يختلف فى أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص[6].

سادسًا: الإيمان باليوم الآخر:

الحديث عن الإيمان باليوم الآخر يشتمل على أمور كثيرة، منها: كل ما أخبر به الله ورسوله مما يكون بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه، وما يكون من البعث والنشور، وما يكون فى يوم القيامة من ثواب وعقاب وجنة ونار. . .إلخ وقد تحدث عمر بن عبد العزيز عن هذه الأمور، منها:

(١) مسلم رقم (٣٢) .

(٢) الاعتقاد للبيهقى، ص (٩٥، ٩٦)، الآثار الواردة (١/ ٥٤٥) .

(٣) الطبقات (٦/ ٣١٣)، الآثار الواردة (١/ ٥٥٠) .

(٤) فتح البارى (١/ ٤٥) .

(٥) الإيمان لابن أبى شيبة، ص (٥)، وصححه الألبانى، الآثار الواردة عن عمر (١/ ٥٥٣) .

(٦) البخارى مع الفتح (١/ ٤٧).

١ـ عذاب القبر ونعيمه: قال عمر بن عبد العزيز لرجل: يا فلان قرأت البارحة سورة فيها زيارة، ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢]. فكم عسى يلبث عند المزور حتى ينكفى، إما إلى جنة وإما إلى نار[١]. وخطب مرة فقال: أيها الناس ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين، وفى بيوت الميتين، وفى دور الظاعنين، جيرانًا كانوا معكم بالأمس أصبحوا فى دور خامدين، بين آمن روحه إلى يوم القيامة وبين معذب روحه إلى يوم القيامة[٢]. وخطب مرة أخرى بخناصرة فقال: . . فى كل يوم تشيعون غاديًا إلى الله ورائحًا، قد قضى نحبه وانقضى أجله، ثم تغيبونه فى صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد فارق الأحباب وخلع الأسباب وواجه الحساب وسكن التراب، مرتهنًا بعمله غنيًا عما ترك، فقيرًا إلى ما قدم[٣]، وما قاله عمر بن عبد العزيز يدل على إثبات عذاب القبر ونعيمه وهو معتقد أهل السنة، والجماعة، وبهذا دلت النصوص من الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. فقد ثبت فى الصحيح أنها نزلت فى عذاب القبر[٤]. وقال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٥].

٢ـ الإيمان بالمعاد ونزول الرب لفصل القضاء: خطب عمر بن عبد العزيز بخناصرة فقال: أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثًا، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معادًا ينزل الله تبارك وتعالى للحكم فيه والفصل بينكم[٥]. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: أما بعد، فكأن العباد قد عادوا إلى الله فينبئهم بما عملوا؛ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى[٦]، وعن جرير بن حازم قال: قرأت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عدى: . . . اعلم أن أحدًا لا يستطيع إنفاذ قضايا ما بين الناس حتى لا يبقى منها شىء، لابد أن تتأخر قضايا ليوم الحساب[٧]. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطأة: أما بعد، فإنى أذكرك ليلة تمخض بالساعة وصباحها القيامة، فيالها من ليلة، وياله من صباح

(١) الحلية (٥/٣١٧)، الكتاب الجامع لسيرة عمر (١/٣٣٦).
(٢)، (٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٢٥٩، ٢٦٠).
(٤) الروح لابن القيم، ص (١٤٤).
(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٤٢).
(٦) ذم الدنيا لابن أبى الدنيا، ص (٨١).
(٧) فى الزهد، هناد السرى (١/٢٩٩، ٣٠٠)، الآثار الواردة (١/٤٤٨).

كان على الكافرين عسرين[1]. وكتب إلى بعض الأجناد: أما بعد، أوصيكم بتقوى الله ولزوم طاعته.. فمن كان راغبًا فى الجنة أو هاربًا من النار، فالآن فى هذه الأيام الخالية، والتوبة مقبولة، والذنب مغفور، قبل نفاد الأجل وانقضاء المدة وفراغ الله عز وجل للثقلين ليدينهم بأعمالهم فى موطن لا تقبل فيه فدية، ولا تنفع فيه الحيلة، تبرز فيه الخفيات، وتبطل فيه الشفاعات، يرده الناس جميعًا بأعمالهم، ويتفرقون منه أشتاتًا إلى منازلهم، فطوبى يومئذ لمن أطاع الله عز وجل، وويل يومئذ لمن عصى الله عز وجل[2].

إن الإيمان بالمعاد والبعث والنشور وأن الله تبارك وتعالى يجمع كل الخلائق، وبيان الحكمة من ذلك، وبيان شدة هذا اليوم على الكفار هو مدلول الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى هنا، ولا شك أن الإيمان بالمعاد من أهم العقائد التى تميز بها الإسلام، وقد تحدث القرآن الكريم عن الإيمان بالمعاد، إما تصريحًا وتأكيدًا أو تلميحًا وإشارة، وقد بين الله تبارك فى كثير من آيات الكتاب وجوب الإيمان بالبعث، وبين فى بعضها الرد على من ينكر حشر الأجساد بحجج عقلية لا يمكن للمنكرين إلا الإذعان لها أو المكابرة[3]، قال تعالى: ﴿**اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [الروم: ١١] وقال عز وجل: ﴿**ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦] وقال فى منكرى البعث، ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ [يس: ٧٧ـ ٧٩]. وقال تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ**﴾ [القيامة: ٣٦ـ ٤٠]. كما ثبت فى الأحاديث الإيمان بالبعث، منها حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «**قال الله: كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياى فزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياى فقوله: لى ولد**

(١) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١١٥) أبو حفص، الملاء (١/٢٠٦).

(٢) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١١٥، ١١٦)، أبو حفص، الملاء (١/٢٦٦).

(٣) الآثار الواردة فى العقيدة (١/٤٥١).

فسبحاني أن أتخذ صاحبة ولا ولداً»[1]. ومضمون هذه النصوص هو المأثور عن عمر[2].

٣ـ الميزان: قال عمر بن عبد العزيز: أو ما رأيتم حالات الميت؟ وجهه مفقود، وذكره منسي، وبابه مهجور، كأن لم يخالط إخوان الحفاظ ولم يعمر الديار: واتقوا يومًا لا يخفى فيه مثقال ذرة في الموازين[3]. قال: . . أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي؛ فتخسر صفقتي، وتظهر عولتي، وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الغنى والفقر، والموازين منصوبة[4].

وعن بجدل الشامي عن أبيه -وكان صاحبًا لعمر بن عبد العزيز- قال: رأيت عمر ابن عبد العزيز يتلو هذه الآية﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] حتى ختمها فمال على أحد شقيه يريد أن يقع[5]. فهذه الآثار تدل على أن بعد القيام من القبور والذهاب إلى المحشر، ونزول الرب تبارك وتعالى ـ يليق بجلاله ـ لفصل القضاء، ينصب الميزان، وهو ميزان حقيقي توزن به أعمال العباد، وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة[6]، قال ابن حجر: قال أبو إسحاق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفّتان ويميل بالأعمال. وأنكرت المعتزلة الميزان وغيرهم وقالوا: هو عبارة عن العدل، فخالفوا الكتاب والسنة، لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال ليرى العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين[7]، وهذا الميزان دقيق لا يزيد ولا ينقص، قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

٤ـ الحوض: كتب عمر بن عبد العزيز إلى صاحب دمشق: أن سل أبا سلام عما سمع من ثوبان مولى رسول الله ﷺ في الحوض، فإن كان يثبته فاحمله على

(١) البخاري رقم (٣٠٩٣) .
(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٥٢).
(٣) سيرة عمر لابن الجوزي، ص (٢٥٥).
(٤) الحلية (٥/ ٢٩١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص (٢٣٤ـ ٢٤٤) .
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص (٢٤٨).
(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٥٧).
(٧) فتح الباري (١٣/ ٥٣٨) .

مركبة من البريد[1]. وفى رواية: بعث عمر بن عبد العزيز إلى أبى سلام الحبشى يحمل على البريد، فلما قدم عليه قال لقد شق علىَّ، قال عمر: ما أردنا ذلك، ولكنه بلغنى عنك حديث ثوبان فى الحوض، فأحببت أن أشافهك به فقال: سمعت ثوبان يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن حوضى من عدن إلى عمان البلقاء[2] ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وأكوابه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا، أول الناس ورودًا عليه فقراء المهاجرين»[3]. ولا شك أن الإيمان بالحوض هو عقيدة أهل السنة والجماعة استنادًا إلى النصوص الصريحة بذلك، وأدلة إثبات الحوض فى السنة بلغت حد التواتر.

٥ ـ الصراط: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أخ له: يا أخى إنك قد قطعت عظيم السفر وبقى أقله، فاذكر يا أخى المصادر والموارد، فقد أوحى إلى نبيك ﷺ فى القرآن أنك من أهل الورود ولم يخبر أنك من أهل الصدور والخروج، وإياك أن تغرك الدنيا، فإن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له[4]، وهذا الأثر الوارد عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يدل على الإيمان بالصراط، وذلك أنه بعد الخروج من عرصات القيامة فى اليوم العصيب يمر الناس على الصراط، وهو جسر ممدود على متن جهنم، أدق من الشعرة، وأحدُّ من السيف، يرده الأولون والآخرون من أتباع الرسل الموحدين وفيهم أهل الذنوب والمعاصى، وفيهم أهل النفاق، فتلقى عليهم الظلمة قبل الصراط، وفى هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين، ويتخلفون عنهم ويسبقهم المؤمنون ويُحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم، ويعطى كل مؤمن نوره بقدر عمله يضىء له الطريق، فيمرون على الصراط، فمنهم من يمر كالبرق الخاطف، وكالريح، ومنهم من يرمل رملاً حتى يمر الذى نوره على إبهام قدمه تَخِرّ يدُ وتعلق يد وتخر رجل وتصيب جوانبه النار[5]. وقد دل الكتاب والسنة على المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي

(١) البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة (١/ ٤٦٢).
(٢) الآثار الواردة (١/ ٤٦٣).
(٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٣٧).
(٤) المصدر نفسه، ص (٢٥٧).
(٥) شرح الطحاوية، ص (٤٧٠)، الآثار الواردة (١/ ٤٦٨).

الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّنَذَرُ الظَّالمينَ فِيهَا جثِيًّا﴾. وقال ﷺ: «والذى نفسى بيده، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة» قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ فقال: ألم تسمعيه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]. أشار إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله. فالمؤمنون يمرون فوق النار على الصراط ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيًا، فبين ﷺ أن الورود هو الورود على الصراط(١)، والحق أن الورود على النار ورودان: ورود الكفار أهل النار، فهذا ورود دخول لا شك فى ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]، أى بئس المدخل المدخول، والورود الثانى: ورود الموحدين وهو مرورهم على الصراط(٢)، وهو ما عناه عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى الأثر الماضى.

٦ـ الجنة والنار: بكى عمر بن عبد العزيز، فبكت فاطمة، فبكى أهل الدار، لا يدرى هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلى عنهم الصبر قالت فاطمة: بأبى أنت يا أمير المؤمنين، مم بكيت؟ قال: ذكرت يا فاطمة منصرف القوم من بين يدى الله، فريق فى الجنة وفريق فى السعير، ثم صرخ وغشى عليه(٣). وعن سفيان قال: كان عمر بن عبد العزيز يومًا ساكتًا وأصحابه يتحدثون فقالوا له: مالك لا تتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت مفكرًا فى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وفى أهل النار كيف يصطرخون فيها، ثم بكى(٤). وكتب إلى بعض الأجناد: واعلم أنه ليس يضر عبدًا صار إلى رضوان الله وإلى الجنة ما أصابه فى الدنيا من فقر وبلاء، وأنه لن ينفع عبدًا صار إلى سخط الله وإلى النار ما أصاب فى الدنيا من نعمة أو رخاء. وما يجد أهل ا[illegible]ه من مكروه أصابهم فى دنياهم، وما يجد أهل النار طعم لذة نعموا بها فى دني[illegible]هم، كل شىء من ذلك لم يكن(٥) وعن الفضل بن ربيع قال: سمعت فضيل بن عياض يقول: بلغنى أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا

---

(١) شرح الطحاوية، ص (٤٧١).

(٢) القيامة الكبرى للأشقر، ص (٢٧٨).

(٣) الرقة والبكاء، ص (٦٧).

(٤) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٥٤).

(٥) المصدر نفسه، ص (٢٥٠، ٢٥١)، الآثار الواردة (١/ ٤٧٣).

إليه فكتب إليه عمر: يا أخى اذكر طول سهر أهل النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء، فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبى بكتابك. لا أعود إلى ولاية أبدًا حتى ألقى الله تعالى[١].

ومعتقد عمر بن عبد العزيز فى الجنة والنار هو ما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قال تعالى، ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٥، ٧٦]. وقال ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»[٢].

٧ـ رؤية المؤمنين ربهم فى الجنة: كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أمراء الأجناد: أما بعد، فإنى أوصيك بتقوى الله والتمسك بأمره والمعاهدة على ما حملك الله من دينه، واستحفظك من كتابه، فإنه بتقوى الله نجا أولياؤه من سخطه، وبها تحقق لهم ولايته، وبها وافقوا[٣] أنبياءه، وبها نضرت وجوههم ونظروا إلى خالقهم[٤]. وهذا المعتقد الذى كان يعتقده عمر بن عبد العزيز فى رؤية الله تعالى فى الجنة من أعظم النعم بعد نعمة التوفيق والهداية، قال تعالى فى وصف المؤمنين فى ذلك اليوم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] وقال جل شأنه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وعن صهيب قال: «قيل لرسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة، الجنة وأهل النار، النار ينادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فقالوا: ألم تبيض وجوهنا وتثقل موازيننا وتجرنا من النار؟! قال: « فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»[٥].

---

(١) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٢٤، ١٢٥)، الآثار الواردة (١/ ٤٧٤).

(٢) مسلم رقم (٢٨٦٦).

(٣) فى الحلية وابن الجوزى والملاء: رافقوا بدل وافقوا.

(٤) الرد على الجهمية للدارمى، ص (١٠٣)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٤٧٩).

(٥) مسلم رقم ٢٩٧.

سابعًا: الاعتصام بالكتاب والسنة وسنة الخلفاء الراشدين:

١ـ اتباع الكتاب والسنة: لما ولى عمر بن عبد العزيز كتب: أما بعد، فإنى أوصيكم بتقوى الله ولزوم كتابه والاقتداء بسنة نبيه وهديه(١)، وليس لأحد فى كتاب الله، ولا فى سنة نبيه ﷺ أمر ولا رأى إلا إنفاذه والمجاهدة عليه(٢). . . فإن الذى فى نفسى وبقيتى فى أمر أمة محمد ﷺ أن تتبعوا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأن تجتنبوا ما مالت إليه الأهواء والزيغ البعيد، من عمل بغيرهما فلا كرامة ولا رفعة له فى الدنيا والأخرى، وليعلم من عسى أن يذكر له ذلك، ولعمرى لأن تموت نفسى فى أول نفس أحب إلىَّ من أن أحملهم على غير اتباع كتاب ربهم وسنة نبيهم، التى عاش عليها من عاش، وتوفاه الله عليها حين توفاه إلا أن يأتى على وأنا حريص على اتباعه، وإن أهون الناس على تلفًا وحزنًا لمن عسى أن يريد خلاف شىء من تلك السنة(٣). وقال عمر بن عبد العزيز: إن الله فرض فرائض وسنّ سننًا من أخذ بها لحق ومن تركها مُحق(٤). وقال: يا ليتنى عملت فيكم بكتاب الله وعملت به، فكلما عملت فيكم بسنة وقع منى عضو، حتى يكون آخر شىء منها خروج نفسى(٥)، وكتب إلى الخوارج: . . . فإنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ(٦). وقال: سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا، الأخذ بها، اعتصام بكتاب الله وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر فى أمر خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاّه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً(٧).

فهذه الآثار توضح اتباع عمر للكتاب والسنة ولزومهما، وبذل الجهد والطاقة فى تطبيقهما، وإن أدى ذلك إلى قطع الأعضاء، وإزهاق النفس، وما ذهب إليه عمر هو أصل الدين وأساسه قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٦٥)، الكتاب الجامع لسيرة عمر (١/ ٢٨٤) .
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٦٨)، الكتاب الجامع لسيرة عمر (١/ ٢٨٧) .
(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٧١)، الآثار الواردة (٢/ ٦٠١) .
(٤) محق: أهلكه وأباده، سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٣٩).
(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص(١٣٠)، الآثار الواردة (٢/ ٦٠٢) .
(٦) الآثار الواردة (٢/ ٦٠٢) .
(٧) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٤٠).

شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] وقال ﷺ: « يا أيها الناس، إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا كتاب الله وسنتى »(١).

٢ـ الاعتصام بسنة الخلفاء الراشدين: عن حاجب بن خليفة البرجمى قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب الناس وهو خليفة، فقال فى خطبته: ألا إن ما سن رسول الله ﷺ وصاحباه فهو دين نأخذ به وننتهى إليه، وما سن سواهما فإنا نرجئه(٢)، وكتب إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب: من عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله: أما بعد، فقد ابتليت بما ابتليت به من أمر هذه الأمة من غير مشاورة منى، ولا إرادة، يعلم الله، ذلك، فإذا أتاك كتابى هذا، فاكتب به سيرة عمر بن الخطاب فى أهل القبلة وأهل العهد، فإنى سائر بسيرته إن أعاننى على ذلك والسلام(٣)، وعن عون بن عبد الله قال: قال لى عمر بن عبد العزيز: أعدلان عندك عمر وابن عمر؟ قال: قلت: نعم، قال: فإنهما لم يكونا يكبران هذا التكبير(٤). وعن الزهرى، قال: قال رجل لعمر بن عبد العزيز: طلقت امرأتى وأنا سكران، قال الزهرى: فكان رأى عمر بن عبد العزيز أن يجلده ويفرق بينه وبين امرأته حتى حدثه أبان بن عثمان (عن أبيه): ليس على المجنون ولا السكران طلاق، فقال عمر: تأمرونى وهذا يحدثنى عن عثمان بن عفان؟ فجلده وردّ إليه امرأته(٥)، وقال عمر بن عبد العزيز: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، قوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر فى أمر خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين، ولاه الله ما تولّى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا(٦). إن عمر بن عبد العزيز تمسك بسنة رسول الله وخلفائه الراشدين، وأعاد للخلافة الراشدة معالمها وملامحها، وسار على هديها وعض على سننهم بالنواجذ ورجع إلى أقوالهم عند النزاع، وأخذ بها فى الحكم على أهل القبلة وأهل العهد، كما أخذ بها فى العبادات والمعاملات، وقد أولى الخليفة الأول

---

(١) موطأ مالك (٣/ ٩٣)، والحاكم (١/ ٩٣).

(٢) الحلية (٥/ ٢٩٨)، جامع العلوم والحكم، ص (٢٨٨). (٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٠٨).

(٤) مصنف عبد الرزاق (٢/ ٦٦)، الآثار الواردة (٢/ ٦٦).

(٥) مصنف عبد الرزاق (٤/ ٣١)، الآثار الواردة (٢/ ٦٣٣). (٦) سيرة عمر لابن عبد الحكيم، ص (٤٠).

والثانى أبا بكر وعمر جل اهتمامه، وعدّ الأخذ بسنتهما أخذًا بسنة رسول الله ﷺ، كما أخذ بسنة الخليفة الثالث فور سماعها وطبّق تلك السنة، واعتصم بسنة الخليفة الرابع فى معاملة الخوارج حيث ناظرهم وكتب إليهم، فلما تمادوا حاربهم، وحكم على أموالهم وذراريهم وأسراهم بقضاء الخليفة الرابع على بن أبى طالب رضى الله عنهم[(١)]، بل يرى عمر بن عبد العزيز أن من خرج عن سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين رضى الله عنهم فهو خارج عن سبيل المؤمنين، وهو من الفرقة الهالكة، وكل ما سنه الخلفاء الراشدون فإنه من سنته ﷺ؛ لأنهم إنما سنوه بأمره ولا يكون فى الدين واجب إلا ما أوجبه، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا مستحب إلا ما استحبه، ولا مكروه إلا ما كرهه، ولا مباح إلا ما أباحه. واتباع سنة الخلفاء الراشدين فى العقائد والأحكام هو ما عليه السلف الصالح وهو الذى دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]. وقال ﷺ: «فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»[(٢)]. وعن حذيفة رضى الله عنه قال: كنا عند النبى ﷺ جلوسًا فقال: «إنى لا أدرى ما قدر بقائى فيكم فاقتدوا باللذين من بعدى، وأشار إلى أبى بكر وعمر»[(٣)].

٣ـ التمسك بما تدل عليه الفطرة: عن جعفر بن رقان، قال: جاء رجل إلى عمر ابن عبد العزيز فسأله عن شىء من الأهواء فقال: الزم دين الصبى فى الكُتّاب والأعرابى، والْهُ عما سوى ذلك[(٤)]. وعمر بن عبد العزيز هنا يرى أن العباد مخلوقون على الدين القويم، وأن الانحراف عنه طارىء وحادث، وهذا ما دل عليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال ﷺ: «ما من

---

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٣٧) .

(٢) سنن الترمذى (٥/ ٤٤)، حديث حسن صحيح .

(٣) سنن الترمذى (٥/ ٦١٠)، صحيح سنن الترمذى للألبانى (٣/ ٢٠٠) .

(٤) الطبقات (٥/ ٣٧٤)، شرح اعتقاد أهل السنة رقم (٢٥٠) .

مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء[١]، هل تحسون فيها من جدعاء»[٢]، ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه: فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم[٣]. فالفطرة السليمة تقر بخالقها وتحبه وتتذلل له وتخلص له الدين وفيها قوة موجبة لذلك، وكذلك تقرّ بشرعه وتؤثر هذا الشرع على غيره، فهى تعرف هذا الشرع وتشعر به مجملاً ومفصلاً بعض التفصيل، فجاءت الرسل تذكرها بذلك وتنبهها عليه، وتفصله لها وتبينه، وتعرفها الأسباب المعارضة لموجب الفطرة المانعة من اقتضائها أثرها[٤].

ثامنًا: موقفه من الصحابة والخلاف بينهم:

عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه أنه قال: لقد أعجبنى قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، لأنه لو كان قولاً واحدًا كان الناس فى ضيق، وإنهم أئمة يقتدى بهم، ولو أخذ رجل بقول أحدهم كان فى سعة[٥]. قال أبو عمر رحمه الله، هذا فيما كان طريقه الاجتهاد[٦]، وسئل عمر بن عبد العزيز عن على وعثمان وصفين وما كان بينهم فقال: تلك دماء كف الله يدى عنها، وأنا أكره أن أغمس لسانى فيها[٧]. وعن محمد بن النضر قال: ذكروا اختلاف أصحاب محمد ﷺ عند عمر بن عبد العزيز فقال: أمر أخرج الله أيديكم منه فلا تعملوا ألسنتكم فيه[٨]. وعمر بن عبد العزيز كغيره من علماء السلف الصالح حريص على إبراز فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ولم لا يكون ذلك؟ وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] ومعتقد أهل السنة: بأن لا يُذكر أحد من صحابة الرسول ﷺ إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن

(١) جمعاء: سليمة من العيوب الأعضاء، كاملتها فلا جدع ولا كى.

(٢) جدعاء: أى مقطوعة الأطراف أو واحدها.

(٣) البخارى رقم (١٣٥٨).

(٤) شفاء العليل، ص (٦٢٩، ٦٣٠).

(٥) جامع بيان العلم (٢/ ٩٠١ - ٩٠٢)، الآثار الواردة (١/ ٤١٠).

(٦) الآثار الواردة (١/ ٤١٠).

(٧) الطبقات (٥/ ٣٩٤)، الآثار الواردة (١/ ٤١٢).

(٨) الطبقات (٥/ ٣٨٢)، الآثار الواردة (٥/ ٣٨٢).

المخارج، ويظن بهم أحسن المذاهب[1]، وقال ابن حجر: واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك، ولو عرف المحق منهم، لأنهم لم يقاتلوا فى تلك الحروب إلا عن اجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجرًا واحدًا، وأن المصيب يؤجر أجرين[2]، ومضمون الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز توضح معتقده فى الصحابة وهو معتقد أهل السنة والجماعة.

تاسعًا: موقفه من أهل البيت:

قال ابن القيم: إن العلماء اختلفوا فى تحديد المراد بأهل البيت على أربعة أقوال: فقيل هم الذين حرمت عليهم الصدقة وفيهم ثلاثة أقوال:

١ ـ أنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

٢ ـ أنهم بنو هاشم خاصة.

٣ ـ أنهم بنو هاشم ومن فوقهم إلى غالب.

والقول الثانى: أن آل النبى ﷺ هم ذريته وأزواجه خاصة.

والقول الثالث: أن آله أتباعه إلى يوم القيامة.

والقول الرابع: أن آله هم الأتقياء من أمته[3]. ثم رجح رحمه الله القول الأول وهو أن آله ﷺ هم الذين حرمت عليهم الصدقة[4]. هذا ويرى الشيعة أن آل النبى ﷺ هم على وفاطمة والحسن والحسين وذريتهما، وقولهم هذا مخالف للنصوص الصحيحة، ولا تؤيده اللغة ولا العرف، لأن لفظة أهل البيت وردت فى القرآن الكريم فى سياق الخطاب لأزواج النبى ﷺ قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقد تحدثت عن هذه الآية ورددت على أفهام الشيعة الإمامية لها فى كتابى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب. هذا وقد عرف عمر بن عبد العزيز حقوق أهل البيت المادية

---

(١) الثمر الدانى فى تقريب المعانى شرح رسالة أبى زيد، ص (٢٣). (٢) فتح البارى (١٣/ ٣٤).

(٣) جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام، ص (١٠٩).

(٤) المصدر نفسه، ص (١١٠ ـ ١١٩)، الآثار الواردة (١/ ٤٢٨).

والمعنوية، وأداها إليهم كافة مستوفاة كاملة بدون بخس ولا شطط[1]، وأزال عنهم المظالم التى وقعت عليهم وأحسن إليهم غاية الإحسان المعنوى والمادى، فعن جويرية بن أسماء قال: سمعت فاطمة بنت على بن أبى طالب ذكرت عمر بن عبد العزيز، فأكثرت الترحم عليه، وقالت: دخلت عليه وهو أمير المدينة يومئذ، فأخرج عنى كل خصى وحرسى، حتى لم يبق فى البيت غيرى وغيره ثم قال: يا بنت على، والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحب إلىَّ منكم، ولأنتم أحب إلىَّ من أهل بيتى[2]، وعن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبى طالب قال: أول مال قسمه عمر بن عبد العزيز لمال بعث به إلينا أهل البيت، فأعطى المرأة منا مثل ما يعطى الرجل، وأعطى الصبى مثل ما تعطى المرأة. قال: فأصابنا أهل البيت ثلاثة آلاف دينار، وكتب لنا: إنى إن بقيت لكم أعطيتكم جميع حقوقكم[3]، وعن حسين بن صالح قال: تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال قائلون: فلان وقال قائلون: فلان، فقال عمر بن عبد العزيز: أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب رضى الله عنه[4]، فعمر بن عبد العزيز كغيره من السلف الصالح كان قائمًا بأداء حقوق أهل بيت النبى ﷺ امتثالاً لما أمر به ﷺ: «... **وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى**» [5]، وقال ابن تيمية: وإن من أصول أهل السنة والجماعة أنهم يحبون أهل بيت النبى ﷺ ويتولونهم، ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ، وآل بيته ﷺ لهم من الحقوق ما يجب رعايتها، فإن الله جعل لهم حقًا فى الخمس والفىء وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله ﷺ[6]. والحقوق التى ذكرها ابن تيمية رحمه الله هى التى حرص عمر بن عبد العزيز رحمه الله على أدائها على الوجه المطلوب شرعًا، فرد على آل رسول الله ﷺ فدك كما قام برد خمس الخمس عليهم كما أطعمهم فى الفىء[7]، وقام رحمه الله بالاهتمام

---

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٢٩) .

(٢) الطبقات (٥/ ٣٨٨) .

(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٩٢) .

(٤) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٢٩٢) .

(٥) مسلم رقم (٢٤٠٨) .

(٦) الفتاوى (٣/ ٤٠٧).

(٧) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٤٣٣).

بحقوق أهل بيت النبى ﷺ المادية والمعنوية، حرصًا منه على اتباع ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه، وحبًا منه لاتباع السلف الصالح[1] رضوان الله عليهم. وأما ما تذكره كتب التاريخ أن ولاة بنى أمية قبل عمر بن عبد العزيز كانوا يشتمون علياً وهذا الأثر الذى ذكره ابن سعد لا يصح، قال ابن سعد: أخبرنا على بن محمد، عن لوط بن يحيى قال: كان الولاة من بنى أمية قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون علياً رضى الله عنه، فلما ولى هو ـ عمر بن عبد العزيز ـ أمسك عن ذلك فقال كثير عزة الخزاعى:

وليت فلم تشتم عليًا ولم تخف ... بريًا ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وإنما ... تبين آيات الهدى بالتكلم
فصدَّقت معروف الذى قلت ... بالذى فعلت فأضحى راضيًا كل مسلم[2]

فهذا الأثر واهٍ، فعلى بن محمد هو المدائنى فيه ضعف، وشيخه لوط بن يحيى واهٍ، قال عنه يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال الدارقطنى: إخبارى ضعيف، ووصفه صاحب الميزان: إخبارى تالف لا يوثق به[3]. وعامة رواته عن الضعفاء والهلكى والمجاهيل[4]. وقد اتهم الشيعة معاوية رضى الله عنه بحمل الناس على سب على رضى الله عنه ولعنه فوق منابر المساجد، فهذه الدعوة لا أساس لها من الصحة، والذى يقصم الظهر أن الباحثين قد التقطوا هذه الفرية على هوانها دون إخضاعها للنقد والتحليل، حتى صارت عند المتأخرين من المُسلَّمات التى لا مجال لمناقشتها علمًا بأنها لم تثبت قط فى رواية صحيحة، ولا يعول على ما جاء فى كتب الدميرى، واليعقوبى، وأبى الفرج الأصفهانى، علمًا بأن التاريخ الصحيح يؤكد خلاف ما ذكره هؤلاء[5]، ويؤكد احترام وتقدير معاوية لأمير المؤمنين على وأهل بيته الأطهار، فحكاية لعن على على منابر بنى أمية لا تتفق مع منطق الحوادث ولا طبيعة المتخاصمين، فإذا رجعنا إلى الكتب التاريخية المعاصرة لبنى أمية، فإننا لا نجد فيها ذكرًا لشىء من ذلك

(١) الآثار الواردة (١/ ٤٣٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٧).
(٣) الميزان (٣/ ٤١٩).
(٤) دفاعًا عن السلفية، ص (١٨٧).
(٥) الحسن والحسين، محمد رضا، ص (١٨) كلام، المحقق د. أحمد أبو الشباب.

أبدًا، وإنما نجده فى كتب المتأخرين الذين كتبوا تاريخهم فى عصر بنى العباس بقصد أن يسيئوا إلى سمعة بنى أمية فى نظر الجمهور الإسلامى، وقد كتب ذلك المسعودى فى مروج الذهب وغيره من كتّاب الشيعة، وقد تسربت تلك الأكذوبة إلى كتب تاريخ أهل السنة ولا يوجد فيها رواية صحيحة، فهذه دعوة مفتقرة إلى صحة النقل، وسلامة السند من الجرح، والمتن من الاعتراض، ومعلوم وزن هذه الدعوة عند المحققين والباحثين، ومعاوية رضى الله عنه بعيد عن مثل هذه التهم بما ثبت من فضله فى الدين، وكان محمود السيرة فى الأمة، أثنى عليه بعض الصحابة ومدحه خيار التابعين، وشهدوا له بالدين والعلم، والعدل والحلم، وسائر خصال الخير[١].

وقد ثبت هذا فى حق معاوية ـ رضى الله عنه ـ كما أنه من أبعد المحال على من كانت هذه سيرته، أن يحمل الناس على لعن على رضى الله عنه على المنابر، وهو من هو فى الفضل، ومن علم سيرة معاوية -رضى الله عنه- فى الملك وما اشتهر به من الحلم والصفح، وحسن السياسة للرعية ظهر له أن ذلك من أكبر الكذب عليه، فقد بلغ معاوية رضى الله عنه فى الحلم مضرب الأمثال، وقدوة الأجيال[٢]. وقد تحدثت عن هذه الفرية بنوع من التوسع فى كتابى خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على بن أبى طالب. وقد بينت فيه علاقة معاوية بأولاد على رضى الله عنه بعد استقلاله بالخلافة، وما كان بينهم من الألفة والمودة والاحتفاء والتكريم، كما أن المجتمع فى عمومه مقيد بأحكام الشريعة حريص على تنفيذها، ولذلك كانوا أبعد الناس عن الطعن واللعن والقول الفاحش والبذىء. وقد نهى رسول الله ﷺ عن سب الأموات المشركين، فكيف بمن يسب أولياء الله المصلحين، فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ مرفوعًا ـ: لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا[٣].

---

(١) الانتصار للصحب والآل للزحيلى، ص (٣٦٧) .

(٢) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على بن أبى طالب، ص (٣٠٣).

(٣) البخارى رقم (٦٥١٦) .

الفصل الرابع

موقف عمر بن عبد العزيز من الخوارج والشيعة والقدرية، والمرجئة والجهمية

أولاً: الخوارج:

برزت هذه الفرقة أثناء خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه وبالتحديد عام ٣٧هـ بعد معركة صفين، وقبول على رضى الله عنه تحكيم الحكمين، وقد تحدثت عن هذه الفرقة بشىء من التفصيل فى كتابى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، ومن أهم آرائهم الاعتقادية:

١ ـ تكفير على بن أبى طالب رضى الله عنه وعثمان بن عفان رضى الله عنه والحكمين رضى الله عنهما أبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص.

٢ ـ القول بالخروج على الإمام الجائر.

٣ ـ قولهم بتكفير مرتكب الكبيرة وتخليده فى النار(١).

هذه المبادىء الثلاثة هى جوهر اعتقاد الخوارج، وليس بينهم فى ذلك خلاف إلا خلافًا لبعضهم فى تطبيق هذه المبادىء(٢). يقول أبو الحسن الأشعرى فى حكاية ما أجمع عليه الخوارج من الآراء: أجمعت الخوارج على إكفار على بن أبى طالب رضى الله عنه أن حكَّم، وهم مختلفون هل كفره شرك أم لا؟

وأجمعوا على: أن كل كبيرة كفر إلا النجدات(٣)، فإنها لا تقول ذلك. وأجمعوا على أن الله سبحانه وتعالى يعذب أصحاب الكبائر عذابًا دائمًا إلا النجدات أصحاب نجدة(٤)، وقال المقدسى فى ذلك: وأصل مذهبهم: إكفار على ابن أبى طالب رضى الله عنه، والتبرؤ من عثمان بن عفان، والتكفير بالذنب، والخروج على الإمام الجائر(٥).

---

(١) وسطية أهل السنة بين الفرق، ص (٢٩١). (٢) المصدر نفسه، ص (٢٩١).

(٣) النجدات: أتباع نجدة بن عامر الحنفى المقتول ٦٩هـ، فرقة من فرق الخوارج.

(٤) مقالات الإسلاميين (١/ ١٦٧، ١٦٨).

(٥) البدء والتاريخ (٥/ ١٣٥)، وسطية أهل السنة فى الفرق، ص (٢٩٢).

استـمر الخـوارج فى حربهم للدولة الأمـوية، أحيانًا ينشطـون، وفى الغالب، تتغلب عليـهم الدولة بالقوة وتكسر شـوكتهم إلى أن جـاء عمر بن عبـد العزيز، فدخل معـهم فى محاورات ونقاشات، واسـتخدم معهم الـقوة عند اللزوم، وكان عمر بن عبد العزيز يذم الجدال المذموم ويناظر ويجادل بالتى هى أحسن، فقد قال: من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقل[1]. وقال: احذروا المراء فإنه لا تؤمن فـتنه، ولا تفـهم حكمـتـه[2]، وقـال: قـد أفلح من عـصم من المراء والغـضب والطمع[3]، فقد كـان رحمه الله ينهى عن المراء العقـيم ويحث على الجدال بالتى هى أحسن؛ وقـد كان لعمـر بن عبد الـعزيز مواقف مـشهورة وأقـوال مأثورة فى التعامل مع الخوارج ومناظرتهم ودحض شبهاتهم بالحجة وآرائهم بالدليل ،وإيضاح الحق لهم، ودليله حبًا منه للسنة واتباعًا للسلف الصالح رحمة الله عليهم[4].

١ ـ موقـفه من خروج الخـوارج عليه: عن هشام بن يحيى الغـسانى، عن أبيه أن عمر بن عـبد العزيز كتب إليـه فى الخوارج إن كان من رأى القوم أن يسـيحوا فى الأرض من غيـر فساد عـلى الأئمة، ولا على أحد من أهل الذمـة، ولا يتناولون أحدًا، ولا قطع سبـيل من سبل المسلمين، فليذهبوا حـيث شاءوا. وإن كان رأيهم القتـال فوالله لو أن أبكارى من ولدى خرجوا رغـبة عن جماعـة المسلمين لأرقت دماءهم ألتمس بذلـك وجه الله والدار الآخرة[5]. وجاء فى رواية: أقسم بالله لو كنتم أبكارى من أولادى ورغبتم عما فرشنا للعامة فيما ولينا لدفقت دماءكم ابتغى بذلك وجـه الله والدار الآخرة، فإنـه يقول: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِـرَةُ نَجْـعَلُهَـا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَـادًا وَالْعَاقِبَـةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [القصص: ٨٣]، فهذا النصح إن أحببتم، وإن تستغشونى فقديمًـا ما استغش الناصحون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[6]. يتبين من الآثار السابقة منهج عمر بن عبد العزيز فى التعامل مع

---

(١) ابن أبى الدنيا، ك الصمت وآداب اللسان، ص (١١٦)، الطبقات (٥/ ٣٧١).

(٢) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٢٩٣)، الحلية (٥/ ٣٢٥).

(٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٢٩١)، الآثار الواردة (٢/ ٦٧١).

(٤) الآثار الواردة عن عمر فى العقيدة (٢/ ٦٩٣).

(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٧٥)، سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٩٩ ، ١٠٠).

(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٩٥).

الخوارج، فمع خروجهم عليه -وهو الخليفة الحق- لم يحركهم، وإنما كتب إليهم وحذرهم من الخروج عن الجماعة الذين هم أهل الحق، لقد أمر الله -تبارك وتعالى- بالاجتماع ونهى عن التفرق، وأمر بلزوم الجماعة، ونهى عن الخروج عنها وجعل إجماع هذه الأمة حجة، فإذا اجتمعوا على أمير وجب طاعته وحرم الخروج عليه ما لم يأمر بمعصية ولم يظهر كفرًا بواحًا[1]، والآثار المروية عن عمر بن عبد العزيز هنا تبين منهج أهل السنة والجماعة فى التعامل مع الخوارج الذين هم أوائل الفرق ظهورًا فى الإسلام، فمع خروجهم عليه -وهو الخليفة الحق- لم يحركهم، ولم يرسل عليهم الحملة تلو الحملة، وإنما عاملهم معاملة أتاحت لهم الفرصة فى الرجوع إلى الحق؛ مستنًا بسنن أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى معاملة الخوارج حين خرجوا عليه[2].

٢ ـ مناظرته للخوارج: تبين موقف عمر بن عبد العزيز من الخوارج عمومًا فيما سبق، وفى هذا المبحث يتضح موقفه من الذين كتبوا إليه وكتب إليهم طالبًا المناظرة معهم، إذا كانوا مستعدين لذلك، وقد وجد من بعضهم استجابة، قال ابن عبد الحكم: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الخوارج: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى هذه العصابة، أما بعد: أوصيكم بتقوى الله فإنه ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. أما بعد: فقد بلغنى كتابكم والذى كتبتم فيه إلى يحيى بن يحيى، وسليمان بن داود الذى أتى إليهما، وإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الصف: ٧]، وقال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿**فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**﴾ [محمد: ٣٥]. وإنى أدعوكم إلى الله، وإلى الإسلام، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر إن

---

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٩٥).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٦٩٦، ٦٩٧).

شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأدعوكم أن تدعوا ما كانت تهراق عليه الدماء قبل يومكم هذا، بغير قوة ولا تشنيع، وأذكركم بالله أن تشبهوا علينا كتاب الله وسنة نبيه، ونحن ندعوكم إليهما. هذه نصيحة منا نصحنا لكم، فإن تقبلوها فذلك بغيتنا، وإن تردوها على من جاء بها فقديمًا ما استغش الناصحون، ثم لم نر ذلك وضع شيئًا من حق الله، قال العبد الصالح لقومه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف: ١٠٨][(١)].

وجاء في رواية: وكتب عمر كتابًا إلى الخوارج، فلما قرؤوه قالوا: نوجه رجلين يكلمانه فإن أجابنا فذاك، وإن أبى كان الله من ورائه، فأرسلوا مولى لبنى شيبان يقال له: عاصم ورجلاً من بنى يشكر من أنفسهم، فلما دخلا عليه قالا: السلام عليكم وجلسا، وقال لهما عمر: أخبرانى ما أخرجكما مخرجكما هذا؟ وأى شىء نقمتم علينا؟ قال عاصم وكان حبشيًا: ما نقمنا عليك فى سيرتك لتحرى العدل والإحسان، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضا من المسلمين ومشورة أم ابتززتهم إمرتهم؟، قال: ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم على مشيئتهم، وعهد إلىّ رجل عهدًا لم أسأله قط لا فى سر ولا علانية، فقمت به ولم ينكره علىّ أحد، ولم يكرهه غيركم، وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس، فأنزلونى ذلك الرجل، فإن خالفت الحق وزغت عنه فلا طاعة لى عليكم، قالا: بيننا وبينك أمر إن أعطيتناه فأنت منا ونحن منك، وإن منعتنا فلست منا ولسنا منك. قال عمر: وما هو؟ قالا: رأيتك خالفت أعمال أهل بيتك وسلكت غير طريقهم وسميتها مظالم، فإن زعمت إنك على هدى وهم على ضلال فابرأ منهم والعنهم، فهو الذى يجمع بيننا وبينك أو يفرق، قال: فتكلم عمر عند ذلك، فقال: إنى قد عرفت أو ظننت أنكم لم تخرجوا لطلب الدنيا، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها. وأنا سائلكم عن أمر؛ فبالله لتصدقانى عنه فيما بلغكم علمكما. قالا: نفعل. قال: أرأيتم أبا بكر وعمر أليسا من أسلافكم وممن

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم ص (٧٩ ، ٨٠)؛ وسيرة عمر لابن الجوزى، ص (٩٩)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/٧٠١) .

تتولون وتشهدون لهما بالنجاة؟ قالا: بلى. فقال: هل تعلمون أن العرب ارتدت بعد رسول الله ﷺ فقاتلهم أبا بكر، فسفك الدماء وسبى الذرارى وأخذ الأموال؟ قالا: قد كان ذاك. قال: فهل تعلمون أن عمر لما قام بعده رد تلك السبايا إلى عشائرهم؟ قالا: قد كان ذلك. قال: فهل برىء أبو بكر من عمر أو عمر من أبى بكر؟ قالا: لا قال: فهل تبرأون من واحد منهما؟ قالا: لا. قال: أخبرانى عن أهل النهروان أليسوا من أسلافكم وممن تتولون وتشهدون لهم بالنجاة؟ قالا: بلى، قال: فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا إليهم كفوا أيديهم فلم يخيفوا أمنًا، ولم يسفكوا دمًا، ولم يأخذوا مالاً؟ قالا: قد كان ذلك. قال: فهل تعلمون أن أهل البصرة حين خرجوا إليهم مع عبد الله بن وهب الراسبى(١)، واستعرضوا الناس فقتلوهم وعرضوا لعبد الله بن خباب(٢)، صاحب رسول الله فقتلوه وقتلوا جاريته، ثم صبحوا حيًا من العرب يقال لهم: بنو قطيعة فاستعرضوهم فقتلوا الرجال والنساء والولدان حتى جعلوا يلقون الأطفال فى قدور الإقط وهى تفور بهم؟ قالا: قد كان ذلك. قال: فهل برىء أهل الكوفة من أهل البصرة؟ أو أهل البصرة من أهل الكوفة؟ قالا: لا. قال: فهل تبرأون من طائفة منهما. قالا: لا. قال عمر: أخبرانى أرأيتم الدين واحدًا أم أثنين؟ قالا: بل واحد. قال: فهل يسعكم فيه شىء يعجز عنى؟ قالا: لا. قال: فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر وتولى كل واحد منهما صاحبه وقد اختلفت سيرتهما؟ أم كيف وسع أهل الكوفة أن تولوا أهل البصرة وأهل البصرة أهل الكوفة، وقد اختلفوا فى أعظم الأشياء: فى الدماء والفروج والأموال، ولا يسعنى بزعمكما إلا لعن أهل بيتى والبراءة منهم، فإن كان لعن أهل الذنوب فريضة مفروضة لابد منها فأخبرنى عنك أيها المتكلم متى عهدك بلعن فرعون، ويقال: بلعن هامان؟ قال: ما أذكر متى لعنته. قال: ويحك فيسعك ترك لعن فرعون، ولا يسعنى بزعمك إلا لعن أهل بيتى والبراءة منهم؟ ويحك، إنكم قوم جهال، أردتم أمرًا فأخطأتموه، فأنتم تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله ﷺ، وتردون عليهم ما قبل منهم، ويأمن عندكم من خاف عنده، ويخاف عندكم من أمن عنده. قال: ما نحن كذلك.

---

(١) الآثار الواردة (٢/٧٠٣).

(٢) المصدر نفسه (٢/٧٠٣).

قال: بلى تقرون بذلك الآن. هل علمتم أن رسول الله ﷺ بعث إلى الناس وهم عبدة أوثان فدعاهم إلى أن يخلعوا الأوثان، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن فعل ذلك حقن دمه وأمن عنده، وكان أسوة المسلمين، ومن أبى ذلك جاهده؟ قالا: بلى. قال: أفلستم أنتم اليوم تبرأون ممن يخلع الأوثان وممن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وتلعنونه وتقتلونه وتستحلون دمه، وتلقون من يأبى ذلك من سائر الأمم من اليهود والنصارى فتحرمون دمه ويأمن عندكم؟ فقال الحبشى: ما رأيت حجة أبين ولا أقرب مأخذاً من حجتك، أما أنا فأشهد أنك على الحق وأننى برىء ممن خالفك. وقال للشيبانى: فأنت ما تقول؟ قال: ما أحسن ما قلت وأحسن ما وصفت، ولكن أكره أن أفتات على المسلمين بأمر لا أدرى ما حجتهم فيه حتى أرجع إليهم، فلعل عندهم حجة لا أعرفها. قال: فأنت أعلم. قال: فأمر للحبشى بعطائه وأقام عنده خمس عشرة ليلة ثم مات، ولحق الشيبانى بقومه فقُتل معهم[1].

وجاء فى رواية: ودخل رجلان من الخوارج على عمر بن عبد العزيز فقالا: السلام عليك يا إنسان، فقال: وعليكما السلام يا إنسانان، قالا: طاعة الله أحق ما اتبعت. قال: من جهل ذلك ضل. قالا: الأموال لا تكون دولة بين الأغنياء. قال: قد حرموها. قالا: مال الله يقسم على أهله. قال: الله بين فى كتابه تفصيل ذلك. قالا: تقام الصلاة لوقتها. قال: هو من حقها. قالا: إقامة الصفوف فى الصلوات. قال: هو من تمام السنة. قالا: إنما بعثنا إليك. قال: بلغا ولا تهابا. قالا: ضع الحق بين الناس. قال: الله أمر به قبلكما. قالا: لا حكم إلا لله. قال: كلمة حق إن لم تبتغوا بها باطلاً. قالا: ائتمن الأمناء. قال: هم أعوانى. قالا: احذر الخيانة. قال: السارق محذور. قالا: فالخمر ولحم الخنزير. قال: أهل الشرك أحق به. قالا: فمن دخل فى الإسلام فقد أمن. قال: لولا الإسلام ما أمنا. قالا: أهل عهود رسول الله ﷺ قال: لهم عهودهم. قالا: لا تكلفهم فوق طاقاتهم. قال: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦]. قالا: ذكرنا بالقرآن. قال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾[البقرة: ٢٨١]. قالا: تردنا

---

(١) أنساب الأشراف (٨/ ٢١١ ـ ٢١٥)، الآثار الواردة (٢/ ٧٠٤).

على دواب البريد. قال: لاهو من مال الله لا نطيبه لكما. قالا: فليس معنا نفقة. قال: أنتما إذن ابنا سبيل عليّ نفقتكما[1]، وعن أرطأة بن المنذر قال: سمعت أبا عون يقول: دخل ناس من الحرورية على عمر بن عبد العزيز فذاكروه شيئًا، فأشار إليه بعض جلسائه أن يرعبهم، ويتغير عليهم، فلم يزل عمر بن عبد العزيز يرفق بهم حتى أخذ عليهم، ورضوا منه أن يرزقهم ويكسوهم ما بقى، فخرجوا على ذلك، فلما خرجوا ضرب عمر ركبة رجل يليه من أصحابه فقال: يا فلان إذا قدرت على دواء تشفى به صاحبك دون الكى فلا تكوينه أبدًا[2].

وجاء فى رواية: عندما خرج شوذب واسمه بسطام من بنى يشكر على عبد الحميد ابن عبد الرحمن بالعراق فى خلافة عمر بن عبد العزيز، وكان مخرجه بجوخى[3] فى ثمانين فارسًا، أكثرهم من ربيعة، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد ألا تحركهم إلا أن يسفكوا دمًا، أو يفسدوا فى الأرض، فإن فعلوا فحل بينهم وبين ذلك، وانظر رجلاً حازمًا فوجهه إليهم، ووجه معه جندًا. وأوصه بما أمرتك به، فعقد عبد الحميد لمحمد بن جرير بن عبد الله البجلى فى ألفين من أهل الكوفة، وأمره بما أمره به عمر، وكتب عمر إلى بسطام يدعوه ويسأله عن مخرجه، فقدم كتاب عمر عليه. وقد قدم عليه محمد بن جرير، فقام بإزائه لا يحركه ولا يهيجه، فكان فى كتاب عمر إليه: إنه بلغنى أنك خرجت غضبًا لله ولنبيه، ولست بأولى بذلك منى. فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرك، فلم يحرك بسطام شيئًا، وكتب إلى عمر: قد أنصفت، وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك. قال أبو عبيدة: معمر بن المثنى: الرجلان اللذان بعثهما شوذب إلى عمر مخدوج مولى بنى شيبان، والآخر من بنى يشكر ـ قال: فيقال: أرسل نفرًا فيهما هذان، فأرسل إليهم عمر: أن اختاروا رجلين فاختاروهما، فدخلا عليه فناظراه، فقالا له: أخبرنا عن يزيد لم تقره خليفة بعدك؟ قال: صيره غيرى، قالا: أفرأيت لو وليت مالاً لغيرك، ثم وكلته إلى غير مأمون عليه، أتراك كنت أديت

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٤٧)، الآثار الواردة (٢/ ٦٧٧).

(٢) سيرة عمرة لابن الجوزى، ص (٨١)، الآثار الواردة (٢/ ٧٠٥).

(٣) جُوخى: بضم والكسر وقد يفتح: نهر بالجانب الشرقى من بغداد.

الأمانة إلى من ائتمن[1]، وتذكر الروايات تخمينًا: أن بنى مـروان خافوا أن يخرج عمر ما عندهم وما فى أيديهم من الأمـوال، وأن يخلع يزيد بن عبد الملك، فدسوا عليه من سـقاه سمًا، فلم يلبث أن مـات فى اليوم الذى تقرر أن يعطى فيـه جوابه للمتـفاوضين[2]. يتضح من الآثار الـسابقة أن عـمر بن عبـد العزيز سلك مـعهم المسلك الصحيح الذى تبعه سلفنا الصالح كابن عباس وأمير المؤمنين على رضى الله عنهمـا، ويبدو أن عمـر قد طمع فى رجوع هؤلاء الخـوارج، ولذلك لم يترك لهم شبهة إلا كسرها وبين زيفها وكشف عوارها[3]، ولم يجادلهم فى الحق الذى معهم ولكنه طلب مهلة إلا أنه مات قـبل انتهائها، وعندما استخـدم خوارج العراق القوة ضد واليه عبد الحميد، وتمكن الخـوارج من دحر جيش الوالى، أسرع عمر بن عبد العزيز فأرسل إلى الخـوارج مسلمة بن عبد الملـك على رأس جيش من أهل الشام، وكتب إلى عبد الحميد: قد بلغنى ما فعله جيشك، جيش السوء، وقد بعثت مسلمة فخل بينه وبينهم، وتقدم مسلمة على رأس قواته إلى حيث عسكر الخوارج، ودارت معركة بين الطرفين انتهت بانتصار جيش الخلافة[4]. إن اضطرار عمر إلى استخدام القـوة إزاء فئـة من الخوارج، لـم يدفعـه أبدًا إلى تطبـيق أسلوب الشدة تجـاه كل الخوارج، فما دام خصمه مستعدًا للحوار، فلا داعى أبدًا لإراقة الدماء[5].

٣ ـ السبب المفضى لقتال الخوارج:لم يأمر عمر بن عبـد العزيز بقتال الخوارج لما اختلفوا معـه فى الرأى، ولا عندما عارضوه وسبوه، بل صـبر عليهم لعل الله أن يهـديهم إلى الصواب، ثم لما وصلوا إلى مـرحلة خطيـرة وهى أخذ المال وإخـافة السبيل وسفك الدماء عند ذلك أمر بقتالهم[6].

٤ ـ رد متـاع الخوارج إلى أهليـهم:لم يَسْبِ عمـر بن عبد العزيز نسـاء الخوارج وذراريهم، ولـم يستحل أمـوالهم، بل أمر برد متاعهم إلى أهليهم، فـقد كتب إلى

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٦٠) .

(٢) المصدر نفسه (٧/ ٤٦٠)، ملامح الانقلاب الإسلامى، ص (٩٧).

(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (٢/ ٧١١) .

(٤) الطبقات (٥/ ٣٥٨)، ملامح الانقلاب الإسلامى، ص (٩٤).

(٥) ملامح الانقلاب الإسلامى، ص (٩٤).

(٦) فقه عمر بن عبد العزيز، د. محمد شقير (٢/ ٤٦٩) .

عـامله فى الخوارج: فـإن أظفرك الله بهـم، وأدالك عليهم فـرد ما أصـبت من متاعـهم إلى أهليهم[1]، وهذا رأى على بن أبى طالب فيـهم فى عدم سبى ذرية ونساء الخوارج، وعدم استحلال أموالهم[2].

٥ ـ حبس أسرى الخوارج حتى يحدثوا خيرًا: فلما قاتلهم، فقتل منهم من قتل، وأسر منهم من أسر، أمر عـمر بن عبد العزيز بسجنهم حـتى يحدثوا خيرًا، من الرجوع إلى الحق والتخلى عن أفكارهم الضالة[3]، وقد مات عمر بن عبد العزيز وفى حبسه منهم عدة[4].

فهذا منهج وفقه عمر بن عبد العزيز فى التعامل مع المعارضين من الخوارج.

ثانيًا: الشيعة:

تذكـر فى الاصطلاح كاسم لكـل من فضل عليًـا رضى الله عنه على الخلفـاء الراشدين قـبله رضى الله عنهم جمـيعًا، ورأى أهل بـيته أحق بالخـلافة[5]، وقد تحدثت عن الشـيعة بالتـفصيل فى كـتابى عن أميـر المؤمنين على رضى الله عنه. والشيعـة فرق عديدة منهم الغلاة الذين خرجوا عن الإسـلام وهم يدعونه ويدعون التشيع، ومنهم دون ذلك ومن أهم فرقهم: الكيسانية، والسبئية والإمامية وغيرها. وكان لعمر بن عبد العزيز أقوال فى الشيعـة الغلاة، فقد قال عمر بن عبد العزيز: إنى لأعرف صـلاح، بنى هاشم وفسادهم بحب كُثـير[6]، فمن أحبـه منهم فهو فاسد، ومن أبغضه فهو صالح، لأنه كان خشبيًا يؤمن بالرجعة[7]، وجاء عمر بن عبد العـزيز كتاب من عامله على الكوفة يخـبره بسوء طاعة أهلها، فـرد عمر: لا تطلب طاعة من خذل عليًا رضى الله عنه وكان إمامًا مرضيًا[8]، وعن إسحاق بن طلحة بن أشعث قـال: بعثنى عمر بن عـبد العزيز إلى العراق فـقال: أقرئهم ولا تستـقرئهم، وحدثهم ولا تسمع منهم، وعـلِّمهم ولا تتعلم منهم. وكان عـمر بن

---

(١)، (٢) فقه عمر، د. محمد شقير(٢/ ٤٧١).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ٤٧٣).

(٤) الطبقات (٥/ ٣٥٨ ، ٣٥٩) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٧٣).

(٥) مقالات الإسلاميين، ص (٦٥)، الآثار الواردة (٢/ ٧٢٧).

(٦) تاريخ الإسلام نقلاً عن الآثار الواردة (٢/ ٧٢٨).

(٧) المصدر نفسه (٢/ ٧٢٨).

(٨) تاريخ دمشق نقلاً عن الآثار الواردة (٢/ ٧٢٩).

عبد العزيز على معرفة بعقيدة كثير الشاعر، ويؤيدها ما يروى أن كثير عزة له أبيات يثبت فيها عقيدته الفاسدة فى الغلو فى أهل البيت مثل قوله:

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء[1]

قال الذهبى: قال الزبير بن بكار عن كثير: كان شيعيًا يقول بتناسخ الأرواح، ويقرأ ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] قال: وكان خشبيًا يؤمن بالرجعة يعنى رجعة على رضى الله عنه إلى الدنيا[2]. ولم يهتم عمر بالرد على ما كان يراه كثير وغيره من الشيعة الغلاة كما اهتم بالرد على القدرية والخوارج، وحذر عمر بن عبد العزيز من مخالطة ومجالسة أصحاب البدع والأهواء[3]، ومن أشهر آراء الشيعة الغلاة:

- القول بوجوب إمامة على رضى الله عنه، وتقديمه وتفضيله على سائر الصحابة وأن الرسول نص على إمامته.
- القول بعصمة الأنبياء والأئمة وجوبًا عن الكبائر والصغائر.
- القول بالتولى والتبرى قولاً وفعلاً، أى تولى على رضى الله عنه، والتبرى من أصحاب رسول الله ﷺ، ولاسيما الخلفاء الثلاثة رضى الله عنهم[4]، ومن أراد الرد على هذه المعتقدات فليراجع كتابى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه.

ثالثًا: القدرية فى عهد عمر بن عبد العزيز:

١- **تعريف القدرية فى الاصطلاح:** للقدرية إطلاقان، خاص وعام.

---

(١) الفرق بين الفرق نقلاً عن الآثار الواردة (٢/ ٧٣٤).

(٢) تاريخ الإسلام نقلاً عن الآثار الواردة (٢/ ٧٣٤)، والخشبية فرقة من الشيعة سموا بذلك لقولهم: إنا لا نقاتل بالسيف إلا مع إمام معصوم، فقاتلوا بالخشب، منهاج السنة (١/ ٣٦).

(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (٢/ ٧٣٣، ٧٣٤).

(٤) وسطية أهل الشيعة بين الفرق، ص (٢٩٣، ٢٩٤).

أ- فالقدرية بالمعنى الخاص: هم المنكرون للقدر: أى المكذبون بتقدير الله تعالى لأفعال العباد أو بعضها أى: الذين قالوا: لا قدر (من الله) والأمر أنف أى مستأنف ليس لله فيه تقدير سابق، كما سيأتى بيانه بإذن الله.

ب- القدرية بالمعنى العام: هم الخائضون فى علم الله تعالى وكتابته ومشيئته وتقديره وخلقه بغير علم، وبخلاف مقتضى النصوص وفهم السلف[1].

٢- نشأة القول بالقدر فى الإسلام:

عن جابر بن سمرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث أخاف على أمتي: الاستسقاء بالأنوار، وحيف السلطان، وتكذيب بالقدر»[2]، كما حذر النبى ﷺ من المراء والجدل فى الدين عمومًا وفى القدر على جهة الخصوص، وعن ضرب آيات الله والأحاديث الصحيحة بعضها ببعض، وعن إثارة الشبهات والمعارضات فى نصوص القدر، من ذلك ما رواه أحمد فى المسند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ذات يوم والناس يتكلمون فى القدر قال: فكأنما تفقأ فى وجهه حبّ الرمان من الغضب قال: فقال لهم: «مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم»[3].

تتابع الفرق ومقالاتها فى القرن الأول إلى ظهور القدرية:

بعد ظهور الفرق الأولى من الخوارج والشيعة سنة (٣٧-٤٠هـ) بقى الحال على هذا إلى ما بعد سنة (٦٢هـ)، حيث بزغ نجم القدرية النصرانية والمجوسية حتى جاء بها بعد معبد الجهنى ثم توالت المقولات على منوالها تترى، أو كما قال ابن تيمية: فالبدع تكون فى أولها شبرًا ثم تكثر فى الأتباع حتى تصير أذراعًا وأميالاً وفراسخ[4].

أ- ظهور القدرية الأولى: وتتمثل فى مقولات معبد الجهنى (ت: ٨٠هـ) وأتباعه، ثم غيلان الدمشقى وأتباعه (١٠٥هـ) وتتلخص بأن الله تعالى (بزعمهم) لم يقدِّر أفعال العباد ولم يكتبها، وأن الأمر أنف (أى مستأنف) لم يكن فى علم الله

(١) القدرية والمرجئة، د. ناصر العقل، ص (١٩).
(٢) مسند أحمد (٥/ ٩٠) صححه الألبانى فى سلسلة الصحيحة رقم (١١٢٧).
(٣) مسند أحمد (٢/ ١٧٨، ١٩٦) قال صاحب الزوائد: هذا إسناد رجاله ثقات.
(٤) الفتاوى (٨/ ٤٢٥).

ولا تقديره السابق، وكانت بدايات كلامهم فى هذا بعد سنة ٦٣هـ وهو تاريخ نشأة القدرية الأولى، إذن فالقدرية الأولى هم: الذين أنكروا علم الله السابق، وزعموا أنه تعالى لم يقدر أفعال العباد سلفًا ولم يعلمها ولم يكتبها فى اللوح المحفوظ، وأن الأمر أنف (أى مستأنف) ليس بتقدير سابق من الله تعالى، مما استقل العباد بفعلها، وهذه مقولة غالية فى القدر حيث تنكر العلم والكتابة وتقدير عموم أفعال المكلفين؛ خيرها وشرّها فيما يظهرْ، هذا أول أمرهم، فلما أنكر الأئمة هذا القول صار جمهور القدرية يقرون بالعلم المتقدم والكتاب السابق، لكن ينكرون عموم مشيئة الله وقدرته وخلقه لأفعال العباد، فأنكروا أن يكون الله خالقًا لأفعال العباد أو بعضها، وقالوا: إن الله لا يخلق الشر، هذا ما استقرت عليه القدرية الثانية وعلى رأسهم المعتزلة[1].

وكانت مقالات القدرية الأولى تتخلص فى قولين.

- إن الأمر أنف «أى مستأنف» ويعنون بذلك أفعال المكلفين[2]، فيزعمون أن الله تعالى لم يقدرها ولم يعلمها إلا أثناء حدوثها من المكلف ويفسره الثانى.

- قولهم: إن الله تعالى لم يقدر الكتابة (أى فى اللوح المحفوظ) ولا الأعمال[3] فى السابق.

ب- رؤوس القدرية الأولى:

- معبد الجهنى (ت: ٨٠هـ): ساق ابن حجر فى تهذيب التهذيب أقوال بعض أهل الجرح والتعديل فيه فقال: وقال أبو حاتم: كان صدوقًا فى الحديث، وكان أول من تكلم فى القدر بالبصرة، وكان رأسًا فى القدر، قدم المدينة فأفسد بها ناسًا[4].

وقال الدارقطنى: حديثه صالح ومذهبه ردئ[5]، وقال محمد بن شعيب بن شابور عن الأوزاعى: أول من نطق فى القدر رجل من أهل العراق يقال له: سوسن، وكان نصرانيًا، فأسلم ثم تنصر، فأخذ عنه معبد الجهنى، وأخذ غيلان

(١) القدرية والمرجئة، ناصر العقل، ص (٢٥).
(٢) الفتاوى (٧/ ٣٨٥).
(٣) المصدر السابق نقلاً عن القدرية والمرجئة، ص (٣٠).
(٤) تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٢٥).
(٥) تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٢٥)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٦).

عن معبد[1]. وكان مسلم بن يسار يقعد على هذه السارية فقال: إن معبدًا يقول بقول النصارى

- **غيلان الدمشقي المقتول (١٠٥هـ):** وهو الرجل الثاني بعد معبد الجهني من رؤوس بدعة القدرية، وقد ظهرت مقولته بالشام وافتتن بها خلق[2]، ولم يقتصر غيلان على مقولات معبد، بل تكلم في الصفات فنفى بعض الصفات، كالاستواء[3]، ونسب إليه كذلك: القول بأن الإيمان هو المعرفة، وأن الأعمال لا تدخل في مسمى الإيمان، والقول بخلق القران[4]، وهي أصول الجعد بن درهم بعده، ثم أصول الجهمية والمعتزلة، حيث وضعوا بها القواعد والأصول وناظروا فيها وتوسعوا في هذه البدع[5]، ويقال: إن أول من أنكر استواء الله على عرشه وأوله بالاستيلاء هو غيلان الدمشقي (قتل ١٠٥هـ) أو الجعد بن درهم (قتل ١٢٤هـ)، وقيل: الجهم بن صفوان (قتل ١٢٨هـ). وإنكار الاستواء ينسجم مع قاعدة الجعد الخبيثة في التعطيل التي أنكر بها الكلام والخلة، والأرجح أن أول من حفظ عنه أنه قال بأن الله ـ تعالى- ليس على العرش حقيقة: الجعد، ثم أخذها عنه الجهم وأظهرها[6]، وإنكار الاستواء وتأويله هو الشرارة الأولى لأهل الأهواء، والتي فيها خاضوا في صفات الله ـ تعالى ـ نفيًا وتعطيلاً وتأويلاً، ذلك أن الاستواء مرتبط بالعلو والفوقية، فالرؤية، ثم صفات الله الفعلية، ومنها تجرؤوا على بقية الصفات الخبرية كاليد والعين والوجه وهلم جرا[7].

٣- موقف عمر بن عبد العزيز من غيلان الدمشقي:

عن عمرو بن مهاجر قال: بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان بن مسلم يقول في القدر، فبعث إليه فحجبه أيامًا، ثم أدخله عليه فقال: غيلان، ما هذا الذي بلغني

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٦). (٢) القدرية والمرجئة، ناصر العقل، ص (٣٢).

(٣) دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص (٢٥١).

(٤) المصدر نفسه، ص (٢٥٠). (٥) المصدر نفسه، ص (٢٥١).

(٦) الفتاوى (٥/ ٢٠)، دراسات في الأهواء والفرق، ص (٢٥١).

(٧) دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص (٢٥١).

عنك؟ قال عمرو بن مهاجر: فأشرت إليه أن لا يقول شيئًا، قال: فقال: نعم يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١ ـ ٣]. قال: اقرأ آخر السورة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠، ٣١] ثم قال: ما تقول يا غيلان؟ قال: أقول: قد كنت أعمى فبصرتنى، وأصم فأسمعتنى، وضالاً فهديتنى[١]. وفى رواية: دعا عمر بن عبد العزيز غيلان فقال: يا غيلان، بلغنى أنك تتكلم فى القدر، فقال: يا أمير المؤمنين إنهم يكذبون علىَّ؟ فقال: يا غيلان اقرأ أول «يس» فقرأ ﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ حتى قول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١ - ١٠]. فقال غيلان: يا أمير المؤمنين، والله لكأنى لم أقرأها قط قبل اليوم، أشهدك يا أمير المؤمنين أنى تائب مما كنت أقول، فقال عمر: اللهم إن كان صادقًا فثبته وإن كان كاذبًا فاجعله آية للمؤمنين[٢]. وجاءت روايات كثيرة فى محاورة عمر بن عبد العزيز لغيلان الثقفى، وكان له حديث طويل فى معتقد أهل السنة فى مسألة الإيمان بالقدر، وقد ناقش عمر بن عبد العزيز القدرية وسألهم عن علم الله، فإذا أقروا به خصموا، وإن جحدوا كفروا، فقال لغيلان الدمشقى: ما تقول فى العلم. قال: قد نفد العلم. قال: فأنت مخصوم، اذهب الآن فقل ما شئت، ويحك يا غيلان إنك إن أقررت بالعلم خصمت وإن جحدته كفرت، إن تقر به فتخصم خير لك من أن تجحده فتكفر[٣].

ولعل عمر بن عبد العزيز أول من نهج هذا النهج فى سؤال القدرية عن العلم، ثم صار هذا المنهج منهجًا لأهل السنة بعده، وقد استدل رحمه الله فى ردوده على غيلان بآيات صريحة فى الرد على المكذبين بالقدر -كما جاء فى بعض الروايات-

---

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٧٥٠).

(٢) الإبانة (٢/ ٢٣٥)، الآثار الواردة (٢/ ٧٤٩).

(٣) السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (٢/ ٤٢٩).

وهى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ - ١٦٠]. قال ابن حجر رحمه الله فى تفسير هذه الآيات: يقول تعالى: فإنكم أيها المشركون بالله وما تعبدون من الآلهة والأوثان، ما أنتم عليه بفاتنين، أى بمضلين أحدًا إلا من سبق فى علمى أنه صال الجحيم(١). وقد بين عمر فى خطبه ورسائله أن الله تبارك وتعالى هو الهادى وهو المضل، وهذا ما جاء فى الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩] وغيرها من الآيات، وقد كانت القدرية تنكر أن يكون الله تعالى هو الهادى وهو الفاتن. وإنما العبد هو الذى يهدى نفسه إذا شاء، ويضلها إذا شاء فلعل رسائل عمر وخطبه فى الجمع من الردود على هؤلاء المبتدعة وسواء قصدهم عمر بخطبه أو ألقاها بدون قصد الرد عليهم، تبقى ردودًا قوية على كل من انحرف فى باب القدر عن منهج الكتاب والسنة، وقد بين عمر بن عبد العزيز أن أعمال العباد مخلوقة لله تعالى، مقدرة له، مكتوبة على عباده، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. وقال ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»(٢). وقد بين عمر بن عبد العزيز - كما جاء فى خطبه - أن العبد إذا أذنب فعليه أن يتوب ويستغفر الله تعالى ولا يحتج على الله بالقدر ولا يقول: أى ذنب لى وقد قدر علىَّ هذا الذنب، بل يعلم أنه هو المذنب العاصى الفاعل للذنب، وإن كان ذلك كله بقضاء الله وقدره ومشيئته، إذ لا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته وخلقه، كما رد عمر على القدرية القائلين بأن العبد له مشيئة مستقلة يستطيع بها رد علم الله فبيَّن أن العبد له قدرة ومشيئة ولكنها تابعة لمشيئة الله تعالى(٣).

٤ - بيان مراتب القدر:

إن الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تدل بمجموعها على الإيمان بالقدر، كما تدل على الإيمان بمراتب القدر الأربع التى اتفق السلف الصالح -رحمهم الله تعالى- ومن سار على نهجهم على أنه لا يتم الإيمان بالقدر، إلا بالإيمان بها كلها. وهى: العلم، والكتابة والمشيئة والخلق، وكان القدرية

---

(١) تفسير الطبرى (٢٣/١٠٩). (٢) مسلم رقم (٢٦٥٥).

(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/٧٦٩، ٧٧٠).

الموجودون فى زمن عمر بن عبد العزيز ينكرون العلم والكتابة، وهؤلاء هم الذين تبرأ منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب بقوله: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم، وأنهم برآء منى[1].

ومن كلام عمر بن عبد العزيز في بيان مراتب القدر رده على الرجل الذى كتب إليه فجاء فى رسالته: . . كتبت تسأل عن الإقرار بالقدر فعلى الخبير -بإذن الله- وقعت، وما أعلم ما أحدث الناس من محدثة ولا ابتدعوا من بدعة هى أبين أثرًا ولا أثبت أمرًا من الإقرار بالقدر، لقد كان ذكره فى الجاهلية الجهلاء يتكلمون به فى كلامهم وفى شعرهم يعزون به أنفسهم على ما فاتهم، ثم لم يزده الإسلام بعد إلا شدة، ولقد ذكره رسول الله ﷺ فى غير حديث ولا حديثين، وقد سمعه منه المسلمون فتكلموا به فى حياته، وبعد وفاته يقينًا وتسليمًا لربهم، وتضعيفًا لأنفسهم أن يكون شىء لم يحط به علمه، ولم يحصه كتابه ولم يمض فيه قدره، وأنه مع ذلك لفى محكم كتابه، منه اقتبسوه ومنه تعلموه، ولئن قلتم: لم أنزل الله آية كذا ولم قال كذا، لقد قرأوا منه ما قرأتم، وعلموا من تأويله ما جهلتم، وقالوا بعد ذلك كله بكتاب وقدر وكتب الشقاوة وما يقدر يكن وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا نملك لأنفسنا ضرًا ولا نفعًا، ثم رغبوا بعد ذلك ورهبوا[2].

ومن خلال رسائل وخطب عمر بن عبد العزيز يتضح معتقد عمر بن عبد العزيز فى القدر وفى بيانه لمراتبه، فأول مراتبه:

أ ـ العلم: والمقصود أن الله تبارك وتعالى قد علم ما العباد عاملون، وإلى ما هم صائرون قبل أن يخلقهم بعلمه القديم الذى هو صفة من صفات ذاته، وأنه يعلم أهل الجنة وأهل النار، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩].

ومن السنة قوله ﷺ لرجل سأله بقوله: يا رسول الله، أَعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ قال: فقال: «نعم». قال: فيل: ففيم يعمل العاملون؟ قال: «كل مُيَسَّرٌ لما خلق له»[3].

---

(١) مسلم، ك الإيمان، باب القدر (١/ ٣٦، ٣٧).

(٢) الإبانة لابن بطة (٢/ ٢٣١-٢٣٣)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٥١٠).

(٣) مسلم رقم (٢٦٤٩).

ب ـ مرتبة الكتابة: خطب عمر بن عبد العـزيز فقال: أيها الناس من عمل منكم خيرًا فليحمـد الله تعالى، ومن أساء فليستغفر الله، ثم إن عاد فليسـتغفر الله فإنه لابد لأقوام أن يعملـوا أعمالاً وضعهـا الله فى رقابهم وكتبـها عليهم[(١)]. وخطب يومًا فقال: إن الدنيا ليست بدار قرار، دار كتب الله عليها الفناء وكتب على أهلها منها الظعن[(٢)]. فهذا هو المأثور عن عمر من كتـابة الله مقادير الخلائق قبل خلقهم وإحصـائه كل ذلك وعلمه جـزئيات كل شيء[(٢)]. قال تعـالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، وقال رسول الله ﷺ: «كتب الله مـقادير الخلائق قبل أن يخلق السـماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[(٣)].

جـ- المشيـئة: والمقصود بهـا: أن ما شاء الله كان ومـا لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون فى السماوات والأرض إلا بمشيئته سبحانه وتعالى، فلا يكون فى ملكه إلا ما يريد، وقد حـرص عمر بن عبد العزيـز على توضيح هذه المرتبة والرد على من أنكرها، ففى رسالته إلى عامله يقول: ومـا يقدر يكن، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وكان يقـول: لو أراد الله أن لا يعصى ما خلق إبليس[(٤)]، وناظر غيلان الدمشقى وأفحمـه حين بيَّن له خطأه فى الاحتجاج بأوائل الآيات من سورة الإنسان، فطلب منه أن يـقرأ آخر السورة وقـال له: ويحك أما تسـمع الله يقول: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٠]. وقـال تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩] وقـال رسول الله ﷺ: «قلوب العبـاد بين أصبعـين من أصابع الرحـمن كقلب واحد يصـرفها كـيف يشاء. ثم قال: يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»[(٥)].

د- الخلق: المقصود بهـا: أن الله تعالى هو خالق الخلق وخـالق كل شيء، فهو الذى خلق الكون وأوجده، فـهو الخالق وما سواه مـربوب مخلوق[(٦)]، ولعمر بن

(١) الآثار الواردة (١/ ٥١٩) نقلا عن الشريعة الآجرى.
(٢) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٢٤٤).
(٢) الآثار الواردة (١/ ٥١٩).
(٣) مسلم رقم (٢٦٥٣).
(٤) الآثار الواردة (١/ ٥٢٤).
(٥) مسلم رقم (٢٦٥٤).
(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٥٢٥).

عبد العزيز فى تقرير هذه المرتبة أبلغ البيان، فقد كتب فى قوله تعالى: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. قال: الذين لا يختلفون خلقهم لله للرحمة[1]. فهذه الآية تضمن خلق العباد وأعمالهم[2]، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ...﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. وكتب إلى عدى بن أرطأة: أما بعد: فإن استعمالك سعد بن مسعود على عمان من الخطايا التى قدر الله عليك وقدر أن تبتلى بها[3].

وهذا الذى قرره عمر بن عبد العزيز دلّ عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وقال رسول الله ﷺ: «كل شىء بقدر حتى العجز والكيس»[4].

٥ ـ الفرق بين القضاء والقدر فى الاصطلاح:

قيل المراد بالقدر: التقدير، وبالقضاء: الخلق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]. أى خلقهن فى القضاء والقدر أمرين متلازمين، لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس، وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه[5]. وقيل: إن القضاء هو العلم السابق الذى حكم الله به فى الأزل، والقدر هو وقوع الخلق على وزن الأمر المقضى السابق[6]، وقال ابن حجر: وقالوا ـ أى العلماء-: القضاء هو الحكم الكلى الإجمالى فى الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله[7]. وقيل: إذا اجتمعا افترقا، بحيث يصبح لكل واحد منهما مدلول بحسب ما مر فى القولين السابقين، وإذا افترقا اجتمعا، بحيث إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر[8]، قياسًا على ما جاء فى التفريق بين الإيمان والإسلام، والفقير والمسكين ونحو ذلك. ولعل هذا التعريف توفيق بين من يرى التفرقة بين القضاء والقدر، وبين من

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٧٤). (٢)، (٣) مصنف عبد الرازق (١١/ ١٢٢).
(٤) مسلم رقم (٢٦٥٥). (٥) النهاية لابن الأثير (٤/ ٧٨).
(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٩٤). (٧) فتح البارى (١١/ ٤٨٦).
(٨) القضاء والقدر لمحمد بن إبراهيم الحمد، ص (٢٩)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٩٤).

لا يرى ذلك. والذى يظهر أنه ليس هناك فرق واضح بيـن القضاء والقدر[1]، ولا فائدة من هذا الخـلاف، لأنه قد وقع الاتفاق على أن أحدهمـا يطلق على الآخر، وعند ذكرهما معًا فلا مشاحة من تعريف أحدهما بما يدل على الآخر[2].

٦ ـ الرضا بالقضاء والقدر:

قال عـمر بن عبـد العزيز: ما أصـبح لى اليوم فى الأمـور هوى إلا فى مواقع قضاء الله فيها[3]، وكان يدعو بهذا الدعاء: اللهم رضنى بقضائك، وبارك لى فى قدرك، حتى لا أحب تعجـيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت. وكـان عمر يقول: ما برح بى هذا الدعاء حتى لقد أصـبحت ومالى فى شىء من الأمور هوى إلا فى موضع القـضاء[4]. وقال حـين دفن ابنه عبـد الملك: رضينا بقضـاء الله وسلمنا لأمره، والحمـد لله رب العالمين[5]. ولما عزى فى ابنه عبـد الملك قال: وأنا أعوذ بالله أن يكون لى مـحبـة فى شىء من الأمور تخـالف محـبة الله، فـإن ذلك لا يصلح لى فى بلائه عندى وإحسانه إلى[6].

تحث الآثار الواردة عن عـمـر بن عـبـد العـزيز فى هذا المبـحث على الرضـا بالقضـاء، والمقصود بالقـضاء الذى قدره الله علـى عبده من المصـائب التى ليست ذنوبًا، فإن الصبر على المصائب واجب، وأما الرضا بها فهو مشروع. لكن هل هو واجب أم مستحب؟ على قولين لأصحاب أحمد وغـيرهما، أصحهما أنه مستحب ليس بواجب[7]. ولا شك أن الرضا بالقضاء من تمام الإيمـان بالقضاء والقدر وهو دليل على الثقة بما عند الله تعالى، فلا يندم على ما فات، ولا يفرح بما هو آت مما قدره الله تعالى له، فهو يرضى به على وفق قضاء الله له[8].

رابعًا: المرجئة:

نسبة إلى الإرجاء، وهو تأخير العمل عن الإيمان[9].

---

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٩٤) .

(٢) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، ص (٤٤).

(٣) الطبقات (٥/ ٣٧٢)، الآثار الواردة (١/ ٥٣٥). (٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٩٧).

(٥) الآثار الواردة (١/ ٥٣٦). (٦) الحلية (٥/ ٣٥٧, ٣٥٨)، الآثار الواردة (١/ ٥٣٧).

(٧) مجموع الفتاوى (٨/ ١٩١). (٨) الآثار الواردة (١/ ٥٣٨) .

(٩) الفرق بين الفرق للبغدادى، ص (٢٠٢)، وسطية أهل السنة، ص (٢٩٤).

والإرجاء على معنيين:

أحدهما: بمعنى التأخيـر فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الشعراء: ٣٦] أى: أمهله وأخره. والثانى: إعطاء الرجاء[١].

والمرجئة فى الاصطلاح: فقد عرفهم الإمام أحـمد بقوله: هم الذين يزعمون أن الإيمان مجـرد النطق باللسان، وأن الناس لا يتفاضلون فـى الإيمان، وأن إيمانهم وإيمان الملائكة والأنبـياء صلوات الله وسلامه عليهـم واحد، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وأن الإيمـان ليس فيه اسـتثناء، وأن من آمن بلسـانه ولم يعمل فـهو مؤمن حقًا[٢].

والمرجئة الخالصة: هم الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، ومن هؤلاء جـهم وأصحابه[٣]، وأول من تكلم فى الإرجاء -الذى هو تأخير الأعمال عـن الإيمان- غيلان الدمشقى، كما يقـول الشهرستانى[٤] وأما الإرجاء المنسوب إلى أبى مـحمد الحسن بن محمد المعـروف بابن الحنفية فليس هو الإرجـاء فى الإيمـان، وإنما هو إرجـاء أمر المقـاتلين من الصـحـابة إلى الله عـز وجل[٥]، وقـال ابن سعـد فى ترجمـته: وهـو أول من تكلم فى الإرجاء ويذكـر كذلك أن زاذان ومـيسرة دخلا عليـه فلاماه على الكتـاب الذى وضع فى الإرجاء فقال لزاذان: يا أبا عمـر لوددت أنى كنت مت ولم أكتبه[٦]، فهذا الكتاب إنما فيه إرجاء أمر المشتـركين فى الفتنة التى حدثت بعد خلافـة أبى بكر وعمر إلى الله عز وجل[٧]، وقد ذكـر ابن حجر: أنـه اطلع على هذا الكتاب الذى ألفـه الحسن بن محمد وقال: المراد بالإرجاء الذى تكلم الحسن بن مـحمد فيه غير الإرجاء -الذى عيبه أهل السنة- المتعلق بالإيمان[٨]، وأهم أقوالهم التى خالفوا فيها أهل السنة:

- قولهم بتأخير الأعمال عن مسمى الإيمان.

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى (١/ ١٣٩). (٢) موقف أهل السنة من أهل الأهواء والبدع (١/ ١٥٢).

(٣) وسطية أهل السنة بين الفرق، ص (٢٩٤). (٤) الملل والنحل (١/ ١٣٩).

(٥) وسطية أهل السنة بين الفرق، ص (٢٩٥).

(٦) الطبقات (٥/ ٣٢٨)، قضية الثواب والعقاب، د. السميرى، ص (٣٠).

(٧) قضية الثواب والعقاب للسميرى، ص (٣٠).

(٨) تهذيب التهذيب (٢/ ٣٢٠)، قضية الثواب والعقاب، ص (٣٠).

- وقول الخالصة منهم: أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة[1].

وقد جاءت عن عمر بن عبد العزيز آثار خاصة تدل على زيادة الإيمان وإدخال الأعمال فيه. وهذه الآثار رد على المرجئة ولاسيما، أن أهل العلم قد ذكروا هذه الآثار في معرض ردودهم على المرجئة. كما ورد عنه ـ رحمه الله تعالى ـ التحذير من البدع كلها ولا بدعة أظهر من بدعة الإرجاء[2]، وها هى الآثار الواردة عنه فى هذا المبحث، فقد مرّ معنا قوله: إن للإسلام حدودًا وشرائع وسننًا، فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن مت فما أنا على صحبتكم بحريص[3]. وقال: لا عذر لأحد بعد السنة فى ضلالة ركبها يحسب أنها هدى[4]. وقال: فلو كانت كل بدعة يميتها الله على يدى وكل سنة ينعشها الله على يدى ببضعة من لحمى حتى يأتى آخر ذلك على نفسى، كان فى الله يسيرًا[5].

يتبين مما سبق أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى كان حريصًا على رد البدع كلها. حتى ولو أدى ذلك إلى أن يضحى بأعضائه كلها، وقد بين فى تلك الآثار القول الصحيح فى الإيمان وأنه يشمل العبادات كلها، وأولى عناية خاصة بُشعبه، ووعد بأنه إن عاش فسيحمل رعيته عليها، ففى هذا المأثور عنه بيان للقول الصحيح فى الإيمان، وقد وضحت مفهومه للإيمان عند الحديث عن اهتمامه بعقائد أهل السنة، كما أن فيه الرد على بدعة الإرجاء لأن إحقاق الحق إبطال للباطل، وهذا المأثور عنه هو الحق الثابت عنه فى مسألة الإيمان[6]. وأما ما رواه ابن سعد فى الطبقات أن عمر بن عبد العزيز لما تولى الخلافة جاءه راحلاً إليه عون بن عبد الله وموسى بن أبى كثير وعمر بن حمزة، وفى بعض المراجع عمر بن ذر فكلموه فى الإرجاء وناظروه، فزعموا أنه وافقهم ولم يخالفهم فى شىء منه[7]، فهذا لا يثبت عنه لما يلى:

---

(١) وسطية أهل السنة بين الفرق، ص (٢٩٥).

(٢) الآثار الواردة (٢/ ٨١٣).

(٣) سيرة عمر لابن الحكم، ص (٤٠)، الآثار الواردة (٢/ ٨١٣).

(٤) الآثار الواردة (٢/ ٨١٤).

(٥) الطبقات (٥/ ٣٤٣).

(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٨١٤).

(٧) الطبقات (٦/ ٣٣٩)، سير أعلام النبلاء (٥/ ١٠٤).

- لأن ابن سعد رواه بدون سند، فهو إذًا منقطع.

- ولأنه جاء فيه بصيغة التمريض (زعموا).

- وأيضًا إن مثل هذا الزعم والادعاء لا يعول عليه، لأن رواته متهمون بالإرجاء[١].

هذا وعلى فرض تسليم تلك الرواية فإن عون بن عبد الله قد تاب عن الإرجاء. وقد روى ذلك اللالكائى بسنده عن نوفل الهذلى عن أبيه قال: كان عون ابن عبد الله بن مسعود من آدب أهل المدينة وأفقههم وكان مرجئًا ثم رجع فأنشد يقول:

لأول ما نفارق غير شك	نفارق ما يقول المرجئونا
وقالوا مؤمن من أهل جور	وليس المؤمنون بجائرينا
وقالوا مؤمن دمه حلال	وقد حرمت دماء المؤمنينا[٢]

فثبت أن عون بن عبد الله -رحمه الله- قد رجع عن القول بالإرجاء، ولعل قوله بالإرجاء كان قبل اتصاله بعمر -رحمه الله تعالى- اتصالاً وثيقًا وكونه من المقربين عنده[٣].

خامسًا: الجهمية:

تنتسب الجهمية إلى الجهم بن صفوان من أهل خراسان ومولى لبنى راسب، تتلمذ على الجعد بن درهم، وكان كاتبًا للحارث بن سريح[٤]، الذى أثار الفتن ضد الدولة الأموية فى خراسان، وكان جهم يقرأ سيرته ويدعو إلى توليته[٥]، ويحرص الناس على الخروج معه. وفى سنة ١٢٨هـ وقعت معركة بين جيش أمير خراسان ـ نصر بن سيار ـ وجيش الحارث بن سريح، وكان جهم بن صفوان فى

(١) الآثار الواردة (٢/ ٨١٥). (٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ١٠٧٧).

(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (٢/ ٨١٦).

(٤) حقيقة البدعة وأحكامها (١/ ١١٥).

(٥) الكامل فى التاريخ نقلاً عن حقيقة البدعة (١/ ١١٥).

جيش الحارث، فطعنه رجل فى فـمه فقتله، وقيل: بل أسر وأوقف بين يدى سلم ابن أحوز[1] فأمر بقتله[2]، وأهم أصول الجهمية:

١- تبنى الجـهم آراء الجـعـد بن درهم، والتى هى نفى صـفات الله عـز وجل، والقول بخلق القرآن ثم زاد عليها بدعًا أخرى.

٢- القـول بالجـبـر، حـيث زعم أن الإنسان لا يقـدر على شىء، ولا يوصف بالاستطاعة وإنما هو مجبر على أفعاله.

٣- القول بأن الإيمـان هو المعرفة، حيث زعم أن الإيمان هو المعـرفة بالله تعالى فقط، وأن الكفر هو الجهل به فقط.

٤- القول بفناء الجنة والنار، حيث زعم أنهما تفنيان بعد دخـول أهلهما فيهما، إذ لا يتصور على حسب زعمه حركات لا تتناهى.

٥- القـول بأن علم الله حـادث، حيـث زعم أنه لا يجوز أن يعلم الشىء قـبل خلقه[3]. فنفى الصفـات أخذها الجهم من الجعـد ومن الفلاسفة، والسـمنية[4]، وذلك أن الجهم كان فـصيح اللسان، ولم يكن له علم ولا مجـالسة لأهل العلم، فكلم السمنية فـقالوا له: صف لنا ربك عز وجل الذى تعبـده، فدخل البيت ولم يخـرج، ثم خرج إليـهم بعد أيام فـقال: هو هذا الهـواء مع كل شىء، وفى كل شىء، ولا يخلو منه شىء. وروى الإمـام أحمـد يرحـمه الله مناظرة وقـعت بين الجهم والسـمنية فى إثبات الله عز وجل انتـهى فيها الجـهم إلى أن شبه الله فـيها بالروح التى لا ترى ولا تحس ولا تسمع[5]. ويقول ابن تيمية: إن الجعد بن درهم قيل إنه من أهل حران وكـان فيهم خلق كثـير من الصابئة والفلاسـفة... ومذهب النفاة مـن هؤلاء فى الرب: إنه ليس له إلا صفـات سلبيـة أو إضافيـة أو مركـبة منها... فـيكون الجعد قد أخـذها من الصابئة والفلاسـفة[6]، وكان الجهـم قد أخذ

(١) البداية والنهاية نقلاً عن حقيقة البدعة وأحكامها (١/ ١١٥).

(٢) البداية والنهاية نقلاً عن حقيقة البدعة (١/ ١١٦).

(٣) تناقض أهل الأهواء والبدع فى العقيدة (١/ ١٣١).

(٤) السمنيـة: قوم من الزنادقة الهنود، لهم فلسـفة خاصـة ومدرسة فكرية ضـالة. ظاهرة الإرجاء فى الفكر الإسلامى (٢/ ٣٩٢).

(٥) الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد، ص (٤٤، ٤٥).

(٦) الفتاوى (٥/ ٢١، ٢٢)، تناقض أهل الأهواء والبدع (١/ ١٣١).

بمعتقدات الجعد[(1)]. وأما القول بالجبر فقد قاله المشركون من العرب قبله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]. فيخبر الله تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك محتجين بالقدر، فمضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهًا لما فعلناه لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكننا منه[(2)]، وأما القول بأن الإيمان هو المعرفة فقد قالت بهذا القول المرجئة قبله، وأما القول بفناء الجنة والنار فمصدره الإسماعيلية[(3)] والباطنية وأهل الكلام واليهود، يقول ابن أبى العز -يرحمه الله- عن الجهم بن صفوان: وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة وليس له سلف قط لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين ولا من أهل السنة... وهذا قاله لأصله الفاسد الذى اعتقده وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث، وهو عمدة أهل الكلام المذموم[(4)].

وأهل الكلام المذموم عامتهم لا يرون قطيعة شىء من دلالة الكتاب والسنة، دلالتها كلها عندهم ظنية، فالمتكلمون قد أخذوا علومهم ومصطلحاتهم من الفلاسفة والمناطقة[(5)]، الذين يرجعون فى أصولهم إلى المجوس والنصارى واليهود. وأما القولُ بأن علم الله حادث فقد اقتبسه الجهم من معبد، ومعبد أخذه من سوسن النصرانى، فدل ذلك على مدى تأثر كبار الفرق وأخذه من الأمم الهالكة، فما بالك بمن جاء بعدهم[(6)]. وما جاء من الآثار عن عمر بن عبد العزيز تعتبر ردودًا عامة على الجهمية، وقد أوردها علماء السلف ضمن ردودهم عليهم كالإمام أحمد والدارمى، وغيرهما من علماء السلف. فعن جعفر بن برقان، قال: جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فسأله عن بعض الأهواء فقال: انظر دين الإعرابى، والغلام فى الكتاب فاتبعه والْهُ عما سوى ذلك[(7)]. وقال: سن رسول

---

(١) تناقض أهل الأهواء والبدع (١/ ١٣١).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٦٢٦).
(٣) الإسماعيلية: منسوبون إلى محمد بن إسماعيل وهو ابن جعفر الصادق، يقولون: بالتفسير الباطنى، وإن الله عز وجل اختص بالعلم على بن أبى طالب: ويقولون: بكفر من خالف عليًا. الفرق بين الفرق، ص (٤٢)، تناقض أهل الأهواء والبدع فى العقيدة (١/ ١٣٢).
(٤) شرح العقيدة الطحاوية، ص (٤٢٠).
(٥) تناقض أهل الأهواء والبدع (١/ ١٣٣).
(٦) المصدر نفسه (١/ ١٣٣).
(٧) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (٢/ ٨١٩).

الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر فى أمر خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً[(١)]. قال عبد الله بن عبد الحكم: سمعت مالكًا يقول: وأعجبنى عزم عمر فى ذلك[(٢)]. وقال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقل[(٣)].

وهذه الآثار عن عمر بن عبد العزيز أوردها علماء السلف فى ردهم على الجهمية، ولا شك أنها تعتبر ردًا على جميع المبتدعة، وذلك فى أمره رحمه الله بالتمسك بما تدل عليه الفطرة من إثبات ما للخالق من صفات الكمال ونعوت الجلال، كإثبات الفوقية والعلو، وغير ذلك مما تدل عليه الفطرة السليمة. وكذلك أمره بالنهى عن الخصومات فى الدين بغير علم، ولم يقع جهم فيما وقع فيه إلا بسبب الخصومات فيما لا علم له به، فضل وأضل.

وكان السلف الصالح يستدلون بما أثر عن عمر بن عبد العزيز فى الأخذ بسنن رسول الله ﷺ، وسنن الخلفاء الراشدين من بعده فى ردهم على الجهمية مثلما فعله ابن تيمية فى الفتوى الحموية حيث ذكر أن أبا القاسم الأزجى روى بإسناده عن طرف بن عبد الله، قال: سمعت مالك بن أنس إذا ذكر عنده من يدفع أحاديث الصفات يقول: قال عمر بن عبد العزيز، ويذكر الأثر: سن رسول الله وولاة الأمر من بعده.. وقال الشاطبى متحدثًا عن هذا الأثر: إنه كلام مختصر جمع أصولاً حسنة من السنة، منها قطع مادة الابتداع جملة. ومنها المدح لمتبع السنة وذم لمن خالفها، ومنها أن سنة ولاة الأمر وعملهم تفسير لكتاب الله وسنة رسوله. فقد جمع كلام عمر أصولاً حسنة وفوائد مهمة[(٤)]، وقد أورد الإمام أحمد فى كتابه «الرد على الجهمية» أثر عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقل[(٥)]، وقد أخذت المعتزلة من الجهمية نفى صفات الله

(١) الآثار الواردة (٢/ ٨٢٠). (٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم ص (٤٠).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٤٢٥).

(٤) الاعتصام نقلاً عن الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٨٢٢).

(٥) الرد على الجهمية للإمام أحمد، ص (٦٩).

والقول بخلق القرآن، وهذا الاتفاق بين الجهمية والمعتزلة على نفى صفات الله والقول بخلق القرآن جعل كثيرًا من محققى علماء المسلمين يسمون المعتزلة جهمية، ولهذا لا بد من الحذر عند إطلاق أسماء الفرق بعضها على بعض، لأنه لا يكاد توجد فرقة إلا وتشترك مع أخرى فى جانب من الاعتقاد، فلو تجوزنا فى إطلاق اسم هذه الفرقة على من شاركها لحصل الالتباس وما استقام المنهج أبدًا، إذن لا بد من إطلاق اسم الفرقة على المسمى الصحيح بحيث لا يستعار لغيرها البتة، وهذا من الناحية العلمية أدق وأسلم[1].

سادسًا: المعتزلة:

اسم يطلق على تلك الفرقة التى ظهرت فى الإسلام فى أوائل القرن الثانى على يد واصل بن عطاء[2]، وسلكت منهجًا عقليًا صرفًا فى بحث العقائد، وقررت أن المعارف كلها عقلية حصولاً، ووجوبًا، قبل الشرع وبعده، وهم أرباب الكلام، وأصحاب الجدل[3].

١- نشأة المعتزلة وسبب التسمية: دخل رجل على الحسن البصرى فقال: يا إمام الدين، لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون مصير أصحاب الكبائر لأمر الله تعالى، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادًا؟ ففكر الحسن فى ذلك، وقبل أن يجيب قال واصل: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقًا، ولا كافر مطلقًا، بل هو فى منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، ثم قام لفوره، واعتزل حلقة شيخه إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فسمى هو وأصحابه معتزلة[4]، وهذا القول يكاد يجمع عليه مؤرخو الفرق[5]،

(١) قضية الثواب والعقاب بين مدارس الإسلاميين، ص (٣٤).

(٢) أبو حذيفة واصل بن عطاء البصرى، الغزّال المتكلم، كان من أجلاد المعتزله، سمع الحسن البصرى، له من التصانيف كتاب: أصناف المرجئة، وكتاب: معانى القرآن، وهو من الطبقة الرابعة من طبقات المعتزلة ت:١٣١هـ .

(٣) التنبيه والرد للملطى، ص (٥٠)، تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة، عبد اللطيف الحفطى.

(٤) الفرق بين الفرق، ص (١١٨). (٥) آراء المعتزلة الأصولية، د.على الضويحى، ص (٧١).

ولا علاقة بتسمية المعتزلة بالصحابة الكرام لا من قريب ولا بعيد، فالصحابة الذين اعتزلوا الفتنة بين على ومعاوية، وفى الجمل رضى الله عنهم، لم يسموا معتزلة بالمعنى الاصطلاحى الذى يفهم من مدلول هذه الكلمة، وإنما بالمعنى اللغوى، يؤيد ذلك أن المعتزلة الذين نحن بصدد الحديث عنهم إنما سموا بذلك لاعتزالهم مذهب أهل السنة والجماعة، وأصحاب رسول الله ﷺ هم أئمة أهل السنة والجماعة، فكيف يُجعلون سلفًا للمعتزلة الذين اقتفوا أثر العقل دون الشرع؟ وبذلك يعلم خطأ من جعل أصحاب رسول الله سلفًا لهؤلاء المعتزلة، فإن المعتزلة جعلوا الاعتزال دينًا لهم يتعبدون الله تعالى على أساس تعاليمه، وأما أولئك الصحابة فاعتزلوا الفتنة طلبًا للسلامة من الإثم وصونًا للدماء[(١)]. وقد تميز المعتزلة عن أهل السنة والجماعة بمدرسة منهجية فكرية خاصة، الهيمنة فيها للعقل وحده بلا منازع، وتركوا التمسك بالنصوص الشرعية، التى فيها محض الهدى والعصمة من الانحراف والضلال[(٢)].

٢- فرق المعتزلة: لمّا كانت القاعدة الرئيسية التى اعتمد عليها المعتزلة هى العقل، به يثبتون وبه ينفون، وبسبب انغماس المعتزلة فى الفلسفة اليونانية القائمة على الجدل والخصومة دبَّ الخلاف بين رجال هذه الفرقة، وتشعبت آراؤهم، وتفرقوا إلى اثنتين وعشرين فرقة منها: الواصلية والعمروية والهذلية والنظامية... الخ. ولكل فرقة من هذه الفرقة بدع خاصة بها، وكلهم يجتمعون على الأصول الخمسة فى الجملة، لكنهم يختلفون فى جزئيات داخل هذه الأصول، ولا عجب فى ذلك ما دام العقل هو المحكِّم عندهم، ولكل اهتماماته المختلفة عن الآخر[(٣)].

٣- دور المعتزلة فى إحياء عقائد الفرق التى سبقتها: أخذت المعتزلة عن ثلاث فرق سابقة عليها، وأحيت بدورها تلك العقائد، ولكن بشكل آخر، فأخذت عن الخوارج، وعن القدرية الغلاة، وعن الجهمية[(٤)].

*** ما أخذته من الخوارج:**

أ- حكم مرتكب الكبيرة فى الآخرة: يقول البغدادى: ثم إن واصلاً وعمرًا، وافقا الخوارج فى تأييد عقاب صاحب الكبيرة فى النار مع قولهما بأنه موحِّد، وليس

(١) آراء المعتزلة الأصولية، ص (٧٢).
(٢) المصدر نفسه، ص (٧٦).
(٣) تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة، ص (١٨).
(٤) المصدر نفسه، ص (١٩).

بمشرك ولا كافر[١]. من هذا النص يظهر لنا أن المعتزلة أحيت عقيدة الخوارج فى صاحب الكبيرة فى الآخرة، ولكن لم تحكم عليه بالكفر فى الدنيا[٢].

ب- الخروج على أئمة الجور: إن مما أجمعت عليه الخوارج: وجوب الخروج على الإمام الجائر بالقوة والسلاح لإزالة الظلم والبغى، وإقامة العدل والحق كما يقولون[٣]، وصرفوا نصوص الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى منازعة الأئمة والخروج عليهم وقتال المخالفين[٤]. وقد أخذت المعتزلة هذا المبدأ عن الخوارج وأحيوه نظريًا تحت أصل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، يقول أبو الحسن الأشعرى: أجمعت المعتزلة إلاّ الأصم على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع الإمكان والقدرة باللسان، واليد، والسيف، كيف قدروا على ذلك[٥]. وقال فى موطن آخر: وأوجبوا الخروج على السلطان مع الإمكان والقدرة[٦].

ج ـ قضية التأويل[٧]: الخوارج هم أول من فتح باب التأويل الباطل فى تاريخ الأمة، فأعملوا التأويل فى نصوص الحكم بغير ما أنزل الله، ونصوص الوعيد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ثم جاءت الفرق بعدها فورثت هذا المنهج وطبقته فى الاستدلال على بدعها التى أحدثتها، ومن تلك الفرق: المعتزلة التى أعملت التأويل فى نصوص الصفات لتقرر التعطيل، بينما لم يكن استعماله فى نصوص الصفات عند الخوارج[٨]. وقال ابن تيمية: ولم يعرف فيهم ـ الخوارج ـ الكلام وتأويل الصفات إلا بعد ظهور المعتزلة[٩]. واستخدم المعتزلة التأويل فى نصوص القدر، ولم يكن هذا عند الخوارج أيضًا وهكذا.

فالخلاصة: أن المعتزلة ورثت منهج التأويل من الخوارج، وعضّت عليه بالنواجذ، وأصبح عندهما قاعدة للتعامل مع نصوص الكتاب والسنة.

---

(١) الفرق بين الفرق، ص (١١٩)، تأثير المعتزلة، ص (٢٠).

(٢) تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة، ص (٢٠).

(٣) مقالات الإسلاميين (١/ ٢٠٤)، الملل والنحل (١/ ١١٥).

(٤) الخوارج أول الفرق فى تاريخ الإسلام، ناصر العقل، ص (٣٧).

(٥) مقالات الإسلاميين (١/ ٣٣٧)، تأثير المعتزلة، ص (٢١).

(٦) مقالات الإسلاميين (٢/ ١٥٧)، تأثير المعتزلة، ص (٢١).

(٧) التأويل البدعى: صرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه، وما يخالف ظاهره من غير قرينة.

(٨) تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة، ص (٢٢).

(٩) المصدر نفسه، ص (٢٢).

* ما أخذته عن القدرية: أخذ المعتزلة القول بنفى القدر وأحيته، ولكن ليس بشكله الغالى الذى يتضمن نفى علم الله تعالى، وهو الذى كان عليه القدرية الأوائل، فإن هذا القول قد تلاشى وسقط لسببين:

- قلة عدد القائلين بالقدر على هذا النحو.

- وقوف الصحابة الذين أدركوا هذه المقالة وعلماء التابعين ضد هذه المقولة بحزم، تارة بالبراءة من أهلها، كما فعل ابن عمر رضى الله عنه، فقد قال لمن جاء بخبرهم: فأخبرهم إنى برىء منهم، وإنهم برآء منى[(١)]، أو بإهانتهم واحتقارهم، كما فعل طاووس بن كيسان مع معبد الجهنى حين رآه فى المطاف، حيث التفت إلى الناس وقال: هذا معبد فأهينوه[(٢)]، أو بقتلهم وقطع دابر فتنتهم بعد تكفيرهم كما فعل بغيلان الدمشقى حين أصر على هذه العقيدة الفاسدة[(٣)].

لكن المعتزلة أحيت هذه العقيدة بطريقة خفضت فيها من غلو السابقين، فأثبتت لله تعالى العلم والكتابة، وأنكرت مرتبتى الإرادة والخلق، حيث قرروا أن العباد هم الخالقون بأفعالهم، وأنهم يفعلونها بمحض مشيئتهم دون مشيئة الله تعالى[(٤)]. ولهذا لم يكفرهم العلماء كما كفروا القدرية الغلاة السابقين، قال ابن تيمية: وأما القدرية الذين ينفون الكتابة والعلم فكفروهم، ولم يكفروا من أثبت العلم ولم يثبت خلق الأفعال[(٥)].

* ما أخذته المعتزلة من الجهمية: مهد التعاصر والتزامن بين الفرقتين والاتصالات الشخصية التى كانت بين جهم وبعض أصحاب واصل لأخذ المعتزلة من الجهمية عقيدتهم فى التوحيد والتى تضمنت:

أ- نفى الصفات: يقول ابن تيمية: ثم أن أصل هذه المقالة ـ مقالة التعطيل للصفات ـ إنما هو مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين.. فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة فى الإسلام هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان، وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه[(٦)]. ثم إن المعتزلة ورثت هذه البدعة من

(١) مسلم، شرح النووى، ك الإيمان (١/١٥٦).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/٦٣٧).

(٣) تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة، ص (٢٤).

(٤) القضاء والقدر فى ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس، ص (١١٧).

(٥) الفتاوى نقلاً عن تأثير المعتزلة، ص (٢٤).

(٦) الفتوى الحموية الكبرى، تحقيق شريف هزاع، ص (٤٧، ٤٨).

الجهمية وأحيتها، ولكن بشكل خفضت فيه من غلو الجهمية، فإن الجهمية كانت تنفى عن الله الأسماء والصفات[1]، كما ذكر ابن تيمية: أن الجهم زاد نفى الأسماء على نفى الصفات[2]، أما المعتزلة فإنهم يثبتون الأسماء وينفون الصفات[3].

ب- القول بخلق القرآن، ونفى رؤية الله تعالى مطلقًا: قال ابن تيمية فى المعتزلة: وتوحيدهم هو توحيد الجهمية الذى مضمونه نفى الصفات وغير ذلك، قالوا: إن الله لا يُرى، وأن القرآن مخلوق[4].

فهذه جملة ما أخذه المعتزلة عن الفرق السابقة عليها وهم الخوارج والقدرية والجهمية، وقد ظهر دورهم فى إحيائها وقد غير المعتزلة فى كثير منها حتى تخف الوطأة عليها، كما أنها جمعت لتلك العقائد الأدلة العقلية الفلسفية، ثم جاءت الفرق فأخذت تلك العقائد بصورتها عن المعتزلة واستدلت بأدلة المعتزلة عليها[5].

٤ ـ أصول المعتزلة الخمسة: اتفق جميع المعتزلة فيما بينهم على أصول خمسة عقدية، جعلوها أساسًا مهمًا لمذهبهم الاعتزالى، وهذه الأصول هى: التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[6]. ومصطلح الأصول الخمسة لم يظهر عند واصل بن عطاء، وإنما أخذ عن تلاميذه واكتمل عند أبى الهذيل العلاف، والذى وصلت به الفرقة إلى ذروة الاعتزال، واكتملت على يديه موضوعاته، وقد كتب فى الأصول الخمسة بعض فصول كتبه، ثم توالت الكتب التى تحمل هذا المصطلح على يد جعفر بن حرب، والقاضى عبد الجبار وغيرهما من رجال المعتزلة[7]، ومع بداية الدولة العباسية نشطت حركة المعتزلة، وبدأوا يرسلون الرسل فى الآفاق للدعوة إلى مذهبهم ومعتقدهم، وقد حظى مذهبهم بتأييد بعض الخلفاء العباسيين، وخاصة فى عهد المأمون، ونترك مناقشة أصول الاعتزال وموقف أهل السنة منها عند حديثنا عن الدولة العباسية بإذن الله تعالى.

---

(١) تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة، ص (٢٥).

(٢) تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة، ص (٢٥) نقلاً عن الفتاوى.

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٥).

(٤) المصدر نفسه، ص (٢٦) نقلاً عن الفتاوى.

(٥) المصدر نفسه، ص (٢٦).

(٦) المصدر نفسه، ص (٢٦)، آراء المعتزلة الأصولية، ص (٧٩).

(٧) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، د. النشار (١/ ٤١٧)، تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة، ص (٧٢).

الفصل الخامس

حياته الاجتماعية والعلمية والدعوية

أولاً: الحياة الاجتماعية:

* اهتمامه بأولاده وأسرته:

أشرف عمر بن عبد العزيز على تربية وتعليم أولاده بنفسه، ولم تشغله مسئولياته عن تنشئتهم التنشئة الصالحة، المستمدة من تعاليم الدين الإسلامى، ونستشف ذلك من خلال رسائله لهم، ولمن أوكل إليه تأديبهم:

١- ربطهم بالقرآن الكريم: ربط عمر بن عبد العزيز أولاده بالقرآن الكريم، وكان يأذن لهم يوم الجمعة بالدخول عليه قبل أن يأذن للناس ليتدارس معهم القرآن الكريم: فإذا قال: إيها،[(١)] قرأ الأكبر منه ثم إذا قال: إيها، قرأ الذى يليه حتى يقرأ طائفة منهم[(٢)].

٢- تعهدهم بالنصيحة: فقد أرسل فى العام الذى استخلف فيه وصية إلى ابنه عبد الملك، وهو إذ ذاك فى المدينة يقول فيما قال فيها: . . . فمن كان راغبًا فى الجنة وهاربًا من النار - يقصد عبد الملك وإخوته - فالآن التوبة مقبولة، والذنب مغفور، قبل نفاد الأجل، وانقضاء العمل، وفراغ من الله للمنقلبين ليدنيهم بأعمالهم فى موضع لا تقبل فيه الفدية، ولا تنفع فيه المعذرة، تبرز فيه الخفيات، وتبطل فيه الشفاعات، يردُه الناس بأعمالهم، ويصدرون عنه أشتاتًا إلى منازلهم، فطوبى يومئذ لمن أطاع الله، وويل يومئذ لمن عصى الله[(٣)].

وفى موضع آخر من هذه الوصية يحث ولده على ذكر الله وشكره عز وجل، ومراقبته فى القول والعمل، فيقول: . . فاذكر فضل الله عليك وعلى أبيك، وإن استطعت أن تكثر تحريك لسانك بذكر الله تحميدًا، وتسبيحًا، وتهليلاً فافعل، فإن

---

(١) قوله: (إيها) إشارة البدء فى القراءة وكذلك الذى يليه.

(٢) سياسة عمر بن عبد العزيز فى رد المظالم، ص (٥٢).

(٣) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٩٨).

أحسن ما وصلت به حديثًا حسنًا حمد الله وشكره، وإن أحسن ما قطعت به حديثًا سيئًا حمد لله وذكره[1].

٣ـ الحث على التسامح وحسن الظن: كان رحمه الله يحثهم على التسامح وحسن الظن فى الناس، فإن بعض الظن إثم، فيروى أنه قال مرة لابنه عبد العزيز: إذا سمعت كلمة من امرئ مسلم، فلا تحملها على شىء من الشر.

٤ـ الأسلوب اللين والمحاورة العاقلة: كان رحمه الله يتعامل معهم بالأسلوب اللين، دون أن ينصرف إلى التدليل، الذى يفسد الأبناء ويحاورهم محاورة العقلاء ويستخدم أسلوب الإقناع والمنطق فى التفاهم معهم، وتلبية طلباتهم[2]، فيروى أن ابنه عبد الله استكساه ذات مرة وهو خليفة، فأرسله إلى الخيار بن رباح البصرى وقال له: خذ مما عنده لى من ثياب. فلم تعجبه فعاد إلى أبيه وقال: يا أبتاه استكسيتك، فأرسلتنى إلى الخيار بن رباح، فأخرج لى ثيابًا ليست من ثيابى ولا من ثياب قومى، فقال: ذاك ما لنا عند الرجل فانصرف عبد الله. فما كان من عمر رضى الله عنه الأب المربى، إلا أن اتخذ موقفًا وسطًا مقنعًا، فجمع بين إجابة طلب ولده، وأنه لا يتوافر كل مطلوب أو مرغوب دائمًا: فناداه قبل أن ينصرف وقال له مخيرًا إياه: هل لك أن أسلفك من عطائك مائة درهم؟ قال: نعم يا أبتاه، فأسلفه مائة درهم، فلما خرج عطاؤه حُوسب بها فأخذت منه[3].

ومما يروى أيضًا فى حسن إجابته لأولاده وإقناعهم، أن ابنة له بعثت إليه بلؤلؤة وقالت له: إن رأيت أن تبعث لى بأخت لها، حتى أجعلها فى أذنى، فلم يرد عليها بالإجابة ولا بالرفض، وإنما الأمر مرتبط بصبرها على الجمر، إذ أرسل لها بجمرتين وقال لها: إن استطعت أن تجعلى هاتين الجمرتين فى أذنيك بعثت إليك بأخت لها[4]، فكان جوابًا مقنعًا لها[5].

٥ ـ حرصه على العدل بينهم: وما يذكر من حسن معاملته رحمه الله لأولاده، حرصه على العدل بينهم مع كثرتهم، حتى لا يحقد أحدهم على الآخر أو

---

(١) سيرة ومناقب عمر، ص (٢٩٨).

(٢) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص (١٠١).

(٣) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى، ص (٣١٢). (٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم ص (١٣٤).

(٥) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٠١).

يبغضه، فقد تحرى رحمه الله العدل حتى إيثاره لابن الحارثية أن ينام معه، إذ تركه خشية أن يكون جوراً[(١)]، وفى هذا الصدد يروى عن عبد العزيز ابن عمر بن عبد العزيز قـوله: كان عمـر بن عبد العـزيز له ابن من امرأة من بلحـارث بن كعب، وكان يحبه وينام فى بيته، قال: فتعرضت له ذات ليلة، فقال: أعبد العزيز؟ قلت: نعم. قال: شرٌ مـا جاء بك؟ ادخل، فجلست عند شـاذكونته[(٢)]، وهو يصلى. . فأتانى فقال: مـا لك؟ فقلت: ليس أحد أعلم بولد الرجل منه، وإنك تصنع بابن الحارثيـة ما لا تصنع بنا، فلست آمن أن يقـال: ما هذا إلا من شيء تراه عنده ولا تراه عندنا. فقال: أعلمك هذا أحد؟ فقلت: لا. قال: فأعد عليّ. فأعدت عليه. فقال: ارجع إلى بيتك. فرجعت، فكنت أنا وإبراهيم وعاصم وعبد الله ـ وهم من إخوانه ـ نبيت جميعًا، فإذا نحن بفـراش يحمل وتبعه ابن الحارثية ـ وهو أخوهم ـ فقلنا: ما شأنك؟ قال: شأنى ما صنعت بى، قال: كأنه خشى أن يكون جوراً[(٣)].

٦ـ تنمية الأخلاق الفاضلة عندهم: كان يحرص على تنمية الأخلاق الفاضلة عند أولاده، ويتحين الفرص لتحقيق ذلك ما استطاع، ففى سياق رسالته رحمه الله إلى ولده عبد الملك، وهو فى المدينة ينهاه عن التفاخر والمباهاة فى الكلام، والإعجاب بالنفس، والغرور والتعالى على الناس، فيقول له: . . وإياك أن تفخر بقولك، وأن تعجب بنفسك، أو يخـيل إليك إن ما رزقته لكرامة لـك على ربك، وفضيلة على من لم يرزق مثل غناك[(٤)].

٧ ـ تربية أولاده على الزهد والاقتصاد فى المعيشة: تتجلى شخصية عمر رحمه الله التربوية بقـدرته على جعل أولاده يتقبلون التـحول من فترة النعيـم إلى فترة الزهد والتقشف، وأن يقنعهم بالعيش كعامة الناس، بدلاً من حياة الترف والرفاهية، فمن أول إجراءاته ما جاء فى سياق رسالته التربوية لابنه عبد الملك وهو فى المدينة والتى جاء فيهـا: . . فإن ابتلاك الله بغنى فاقتـصد فى غناك، وضع لله نفسك، وأد إلى الله فرائض حقه من مالك ـ يقصد الزكاة والصدقة وعدم الإسراف ـ وقل كما قال العبد الصالح: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِه

(١) النموذج الإدارى السمتخلص، ص (١٠٢). (٢) الشاذكونة: هى ثياب غلاظ مضربة تعمل باليمن.
(٣) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٥٢، ٥٣).
(٤) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص(٣١٤).

وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]. وكانت هذه الرسالة عقب توليه الخلافة مباشرة، فى حين لا تزال فترة النعيم والرفاهية قائمة، إذ اتبع أسلوبًا تربويًا رائعًا فى ذلك، حيث أخذ الأمر بالتدرج، فأشعره بأن الغنى وكثرة المال ابتلاء من الله عز وجل، ثم أمره بالاقتصاد فيما هو فيه من الغنى، ثم قرن الأمر بالتواضع لله، وأخيرًا أكد على ضرورة أداء حق الله، من زكاة الأموال والصدقات وامتثال أمر الله عز وجل(١).

- وفى موقف آخر، إذ بلغه رحمه الله إن ابنًا له اتخذ خاتمًا، واشترى لهذا الخاتم فصًا بألف درهم، فكتب إليه عمر: أما بعد: فقد بلغنى أنك اشتريت فصاً بألف درهم، فبعه، وأشبع ألف جائع، واتخذ خاتمًا من حديد صينى، واكتب عليه: رحم الله امرأ عرف قدر نفسه(٢).

ونلاحظ أن عمر ربط أمره ببيع الفص بوجود جائعين وحاجتهم للإشباع ليكون ذلك أجدى لإدراك مغزى الأمر، والتحرى فى إنفاق الأموال مستقبلاً، وليكن أمر الفقراء والمساكين نصب أعين أبنائه دائمًا(٣)، وذات يوم طلب أحد أبناء عمر بن عبد العزيز إلى أبيه أن يزوجه، وأن يُصدق عنه من بيت المال ـ وقد كان لابنه ذلك امرأة ـ فغضب رضى الله عنه لذلك، وكتب يقول: لقد أتانى كتابك تسألنى أن أجمع لك بين الضرائر من بيت المال، وأبناء المسلمين لا يجد أحدهم امرأة يستعف بها، فلا أعرفن ما كتبت بمثل هذا.. ثم كتب إليه أن انظر إلى ما قبلك من نحاسنا ومتاعنا فبعه، واستعن بثمنه على ما بدا لك(٤).

ولم يقتصر الأمر على الذكور من أولاده، بل شمل الذكور والإناث ومما يدل على ذلك أن ابنة لعمر بن عبد العزيز يقال لها «أمينة» مرت به يومًا، فدعاها عمر: يا أمينة، فلم تجبه فأمر بها، فقال: ما منعك أن تجيبى؟ فقالت: إنى عارية ـ أى ملابسها ليست حسنة ـ فقال: يا مزاحم: انظر إلى تلك الفرش التى فتقناها، فاقطع لها منها قميصًا(٥). هذا عن كساء بنات عمر، أما عن طعامهن، فيروى ابن

---

(١) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص (١٠٦).

(٢) سيرة عمر ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٩٨).

(٣) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٠٦).

(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٠٦).

(٥) حلية الأولياء (٥/ ٢٦١)، النموذج الإدارى، ص (١٠٨).

عبد الحكم أن عمر: كان يصلى العتمة[1]، ثم يدخل على بناته فيسلم عليهن، فدخل عليهن ذات ليلة فلما أحسسنّه وضعن أيديهن على أفواههن ثم تبادرن الباب، فقال للحاضنة: ما شأنهن؟ فقالت: إنه لم يكن عندهن شيء يتعشينه إلا عدس وبصل، فكرهن أن تشم ذلك من أفواههن فبكى عمر. ثم قال لهن: يا بناتى ما ينفعكن أن تَعَشَّيْنَ الألوان، ويمر بأبيكن على النار، فبكين حتى علت أصواتهن ثم انصرفن.[2] وكان عمر بدأ الانتقال بأهل بيته من فترة الرفاه والتنعم إلى فترة القناعة والزهد فى الدنيا، بأن وضع حلى ومجوهرات زوجه فاطمة بنت عبد الملك فى بيت المال، إذ قال لها: اختارى، إما أن تردى حليّك إلى بيت المال، وإما أن تأذنى لى فى فراقك، فإنى أكره أن أكون أنا وأنت وهو فى بيت واحد. قالت: لا بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه إن كان لى[3].

*- اهتمامه بتعليم أولاده:

أولى عمر رحمه الله تعليم وتأديب أولاده جانبًا من الاهتمام، إذ اتبع إجراءات تعليمية جعل منها منهجًا جديرًا يلبى حاجات الناشئ المسلم،ليكون موحد الذات والأهداف، غير منقسم على نفسه بين القول والعمل، أو بين الواقع والمثال[4]، حيث تتضح معالم ذلك المنهج فى رسالته رضى الله عنه إلى معلمهم ومؤدبهم مولاه سهل بن صدقة، إذ قرر اختياره وتكليفه بمهام تعليم وتأديب أولاده، ثم حدد الطريقة المثلى للتأديب[5]، فقد قال: من عبد الله عمر، أمير المؤمنين، إلى سهل مولاه، أما بعد: فإنى اخترتك على علم منىّ بك لتأديب ولدى، فصرفتهم إليك من غيرك من موالىّ وذوى الخاصة بى، فحدثهم بالجفاء، فهو أمعن لإقدامهم، وترك الصحبة، فإن عادتها تكسب الغفلة، وقلة الضحك، فإن كثرته يميت القلب، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهى التى بدؤها من الشيطان، وعاقبتها سخط الرحمن، فإنه بلغنى عن الثقات من أهل العلم، أن

(١) العتمة: هى الثلث الأول من الليل، والعتمة: وقت صلاة العشاء.
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٤٨، ٤٩).
(٣) الطبقات (٥/ ٣٣٠)، النموذج الإدارى، ص (١٠٩).
(٤) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١١٠).
(٥) المصدر نفسه، ص (١١٠).

حضور المعازف[1] واستماع الأغانى، واللهج[2] بها ينبت النفاق فى القلب، كما ينبت العُشْبَ الماء، ولعمرى لتوقى ذلك بترك حضور تلك المواطن، أيسر على ذى الذهن من الثبوت على النفاق فى قلبه، وهو حين يفارقها لا يعتقد مما سمعت أذناه على شيء مما ينتفع به، وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يثبت فى قراءته، فإذا فرغ، تناول قوسه ونبله وخرج إلى الغرض[3] حافيًا، فرمى سبعة أرشاق[4]، ثم انصرف إلى القائلة[5]، فإن ابن مسعود رضى الله عنه كان يقول: يا بَنى قيلوا، فإن الشياطين لا تقيل[6].

ونلاحظ على هذه التوجيهات الأمور الآتية:

١ـ اختيار المعلم والمؤدب الصالح: فالمعلم أو المربى يعد حجر الزاوية فى عملية التعليم، فقد اختار معلم أولاده من خاصته ومواليه، وعلى علم به وثقة فيه، ولم يكتف عمر بمولاه سهل لتأديبهم وتعليمهم بل عهد بتأديبهم أيضًا إلى أستاذه ومؤدبه الأول صالح بن كيسان[7]. ولم يقف حرص عمر رحمه الله على تعليم أولاده وأدبهم عند هذا الحد، بل اختار من كبار علماء عصره من يختبر عقل أولاده وأدبهم، فقد كلف ميمون بن مهران أن يأتى ابنه عبد الملك فيستشيره وينظر إلى عقله. قال ميمون: فأتيناه ـ يعنى عبد الملك بن عمر ـ فاستأذنت عليه فقعدت عنده ساعة، فأعجبت به[8].

٢ـ تحديد المنهج التعليمى: حدد عمر بن عبد العزيز المنهج التعليمى والمقررات الدراسية التى يريد لأولاده أن يتعلموها، حيث يتكون من القرآن الكريم وعلومه، وبقية العلم من العلوم الأخرى، والتدريب على الجهاد والقتال والصبر عليه، وكذلك التمرين على الرماية ودقة الإصابة، وممارسة الرياضة البدنية بالسير إلى

(١) المعازف: هى الملاهى والآلات مما يضرب. العازف: اللاعب والمغنى.

(٢) اللهج بالشيء: الولوع به والاعتماد عليه.

(٣) الغرض: هو الهدف الذى ينصب فيرمى فيه، والجمع أغراض.

(٤) الرشق: هو الرمى بالسهم والنبل، والرشق: هو الشوط من الرمى.

(٥) القائلة: هى الظهيرة أو نصف النهار، والقيلولة: الاستراحة عند نصف النهار.

(٦) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى، ص (٢٩٦، ٢٩٧).

(٧) تذكرة الحفاظ (١/١٤٨).

(٨) سيرة ومناقب عمر بن العزيز لابن الجوزى، ص (٣٠٢).

الأهداف حفاة ليعتادوا على ذلك، مع ما يحتويه المنهج من أوقات للراحة، أما حجم المقرر اليومى فجزء واحد من القرآن الكريم بتثبت ووعى بالإضافة إلى ما يتناسب مع ذلك الجزء من علوم الدين الأخرى، وكذلك الرمى بسبعة أرشاق مع ما يتطلبه ذلك من السير إلى الأغراض والسير بينها، فكان منهجًا ذا أهداف سامية، إذ يجمع بين الدين والدنيا، ويراوح بين البدن والروح، والقول والعمل[١] تلك أهداف ارتدت عنها خائبة، جلّ برامج التعليم والتربية الحديثة[٢].

٣- **تحديد طريقة التأديب والتعليم**: لم يقف عمر بن عبد العزيز عند اختيار معلم أولاده، وتحديد مواد المنهج التعليمى، بل امتد الأمر إلى رسم الطريقة التى ينبغى لمؤدب أولاده اتباعها، وكيفية التنفيذ ودقة الأداء وإتقان العمل، ففى سياق رسالته -رحمه الله- طلب إلى سهل أن يلتزم الجد فى قوله لهم، فذلك أمعن لإقدامهم وأحرز لانتباههم، وطلب إليه كمؤدب لهم أن يترك صحبتهم، فإن عادتها تكسب الغفلة، ولتبقى مكانته عندهم، فليس للمعلم أن يتخذ من تلاميذه أصدقاء وأصحابًا له يودعهم أسراره، ويشاركهم وقته وحياته، فقد لا تعجبهم مواقفه، فيكون ذلك، أدعى للاستهانة به، وعدم الاستجابة لما يطلب منهم[٣]. وربما يؤدى ذلك إلى عدم الاكتراث بالمعلم، والغفلة عما يقوله من العلم، كما طلب عمر إلى مؤدب أولاده أن يكون فى أدبه لهم ما يصرفهم عن الملاهى وحضور المعازف وسماع الغناء، لما لها من الأثر السيىء فى حياة المسلم، ويلاحظ أن عمر لا يصدر أمرًا، أو يحدد طريقة أو أسلوبًا حتى يوضح ما دفعه لذلك، وما فائدته وجدواه[٤].

٤- **تحديد أوقات وأولويات التعليم**: ومما اشتمل عليه المنهج الذى حدده عمر بن عبد العزيز فى رسالته لمؤدب أولاده ما يسمى بإدارة الوقت، إذ حدد برنامجًا يوميًا يبدأ الأولاد ومؤدبهم فى تنفيذه من الصباح الباكر؛ بجزء من القرآن الكريم، فكان البدء بالقرآن فى الفترة الصباحية، لما فيها من صفاء ذهن التلميذ، بعد أخذه قسطًا من الراحة فى ليلته، فجعل أولوية القرآن الكريم فى وقت صفاء الذهن

---

(١) النموذج الإدارى، ص (١١٣).
(٢)، (٣) المصدر نفسه، ص (١١٤).
(٤) المصدر نفسه، ص (١١٧).

والاستعداد الجيد للمتعلم، كما ربط الانتقال إلى المادة الأخرى من البرنامج اليومى بالتثبت والإتقان، ثم جاء توقيت الخروج بين الأغراض وممارسة متطلبات الرماية، ويكون الخروج للرمى بعد العلم، وهم فى شوق إليه، فيتحقق لهم بذلك أعلى درجات الكفاءة والإتقان، ويأتى فى ختام البرنامج اليومى فترة القيلولة، تلك الفترة الضرورية لراحة البدن والنفس والعقل[١].

٥- مراعاة المؤثرات التعليمية: راعى عمر بن عبد العزيز كل ما له ارتباط بالعلم، وما له تأثير على الفهم وحسن التلقى، وما يزيد من إدراك العقل من قريب أو بعيد، فكان أول أمر اهتم به وبتأثيره على علم أولاده وأخلاقهم وأدبهم هو: معلمهم وجدوى علمه، واقتداؤهم بأدبه وخُلقه، والأمر الثانى: مراعاة ما قد يسببه اللين وعدم التزام الجد فى القول، وإكثار الضحك، والهزل واللعب أحيانًا، من التباطؤ فى أداء متطلبات التعليم، من إقدام وعلوٍّ همه، وفهم وإدراك بالكفاءة المطلوبة، والثالث: ما ينجم عن تيار المجون والملاهى والغناء، وحضور المعازف، من ضياع وقت أولى أن يكون للعلم، وتبلد الإحساس العلمى، ورابعها: مراعاة النواحى النفسية للناشئين، وما قد يصيبهم من الملل، وتأثير ذلك على المستوى المطلوب من الفهم، وضرورة الترويح عن النفس ساعة بعد ساعة، وجعل وقت للراحة بين الحين والآخر، وأخيرًا الاهتمام بالمردود الإيجابى للرياضة وممارسة الرماية والسير بين الأغراض على الجسم وصحته، والعقل وسلامته، والذهن وصفائه[٢].

* من نتائج منهج عمر بن عبد العزيز فى تربية أولاده.. ابنه عبد الملك:

من نتائج منهج عمر فى تربية أولاده ذلك النموذج الربانى المتمثل فى ابنه عبد الملك، ويعتبر عبد الملك نموذجًا للشباب الذى عاش فى رغد العيش، وسعة الرزق، ورفاهية الحياة، فحياته مثال لكثير من أبناء المسلمين الذين كانوا على شاكلته، وإليك شيئًا من مواقفه:

١ـ عبادته وبكاؤه: عن عاصم بن أبى بكر بن عبد العزيز بن مروان وهو ابن أخى عمر بن عبد العزيز قال: وفدت إلى سليمان بن عبد الملك، ومعنا عمر بن

---

(١) النموذج الإدارى، ص (١١٨).
(٢) المصدر نفسه، ص (١١٩).

عبد العزيز، فنزلت على ابنه عبد الملك وهو عزب، فكنت معه فى بيت، فصلينا العشاء، وأوى كل رجل منا إلى فراشه، ثم قام عبد الملك إلى المصباح فأطفأه، ثم قام يصلِّى، حتى ذهب بى النوم، فاستيقظت، فإذا هو فى هذه الآية: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ....﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]. فبكى، ثم يرجع إليها، فإذا فرغ منها فعل مثل ذلك، حتى قلت: سيقتله البُكاءُ، فلما رأيت ذلك قلت: لا إله إلا الله والحمد لله كالمستيقظ من النوم، لأقطع ذلك عليه، فلما سمعنى سكت فلم أسمع له حِسّاً[١] رحمه الله.

٢ـ علمه وفقهه وفهمه: جمع عمر بن عبد العزيز الناس واستشارهم فى رد مظالم الحجّاج، فكان كلما استشار رجلاً قال له: يا أمير المؤمنين، ذاك أمر كان فى غير سلطانك ولا ولايتك، فكان كلما قال له رجل ذلك أقامه، حتى خلص بابنه عبد الملك، فقال له ابنه عبد الملك: يا أَبَهْ ما من رجل استطاع أن يردّ مظالم الحجَّاج إن لم يردها أن يشركه فيها. فقال عمر: لولا أنك ابنى، لقلت أنك أفقه الناس، وهذا الذى قاله عبد الملك، ومدحه عليه أبوه، هو الصواب، فإن الإمام إذا قدر على رد مظالم من قبله من الولاة وجب عليه، وهو ذلك بحسب الاستطاعة[٢].

وقد كان عمر بن عبد العزيز وابنه عبد الملك من العلماء الذين جمعوا بين العلم بالله الذى يقتضى خشيته ومحبته والتبتل إليه، وبين العلم بالله الذى يقتضى معرفة الحلال والحرام والفتاوى والأحكام[٣].

٣ـ تذكيره والده بالموت: مات ابن لعمر بن عبد العزيز، فجاء عمر فقعد عند رأسه، وكشف الثوب عن وجهه فجعل ينظر إليه ويستدمع، فجاء عبد الملك ابنه فقال: أشغلك يا أمير المؤمنين ما أقبل من الموت إليك؟ بل هو فى شغل عما حل لديك، فكأن قد لحقت به وساويته تحت التراب بوجهك. فبكى عمر ثم قال: رحمك الله يا بنى، فوالله، إنك لعظيم البركة ما علمتك على أبيك نافع الموعظة

---

(١) مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلى (٢/ ٤٧٩).

(٢)، (٣) المصدر نفسه (٢/ ٤٨١).

لمن وعظت، وايم الله، إن كان الذى رأيت من جزعى على أخيك، ولكن لما علمت أن ملك الموت دخل دارى فراعنى دخوله، فكان الذى رأيت، ثم أمر بجهازه[1].

٤- صلابته في الدين وقوته فى تنفيذ الحق:قال ميمون بن مهران قال: بعث إلىَّ عمر بن عبد العزيز وإلى مكحول وإلى أبى قلابة فقال: ما ترون فى هذه الأموال التى أخذت من الناس ظلمًا؟ فقال مكحول يومئذ قولاً ضعيفًا، فكرهه، فقال: أرى أن تستأنف فنظر إلىَّ عمر كالمستغيث بى، فقلت: يا أمير المؤمنين، ابعث إلى عبد الملك، فأحضره. فإنه ليس بدون من رأيت. فلما دخل عليه قال: يا عبد الملك، ما ترى فى هذه الأموال التى أخذت من الناس ظلمًا، وقد حضروا يطلبونها وقد عرفنا مواضعها؟ قال: أرى أن تردّها، فإن لم تفعل كنت شريكًا لمن أخذها[2].

٥- مرضه وموته رحمه الله:دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه فى وجعه - من الطاعون - فقال: يا بنى، كيف تجدك؟ قال: أجدنى فى الحق. قال: يا بنى، إن تكن فى ميزانى أحبُّ إلىَّ من أن أكون فى ميزانك. فقال ابنه: وأنا يا أبه لئن أكون ما تحب أحب إلىّ من أن يكون ما أُحب[3]. وحين دفن ابنه خطب على قبره فقال: رحمك الله يا بنى، فلقد كنت براً بأبيك، وما زلت منذ وهبك الله لى مسروراً، ولا والله ما كنت أشدَّ سروراً ولا أرجى لحظى من الله فيك، منذ وضعتك فى الموضع الذى صيرك الله إليه، فرحمك الله وغفر ذنبك، وجزاك الله بأحسن عملك وتجاوز عن سيئه، ورحم كلَّ شافع يشفع لك بخير من شاهد وغائب، رضينا بقضاء الله وسلّمنا لأمره، والحمد الله رب العالمين. ثم انصرف[4].

ثم كتب إلى نائبه على الكوفة كتابًا ينهى أن يناح على ابنه، كما كانت عادة الناس حينئذ فى النياحة على الملوك وأولادهم، ذلك الكتاب كان فيه: أن عبد الملك ابن أمير المؤمنين كان عبدًا من عباد الله، أحسن الله إليه فى نفسه، وأحسن إلى أبيه فيه، أعاشه الله ما أحبّ أن يعيشه، ثم قبضه إليه حين أحب أن يقبضه، وهو فيما علمت بالموت مرتبط، نرجو فيه من الله رجاء حسنًا، فأعوذ بالله أن تكون لى محبة فى شىء من الأمور تخالف محبة الله، فإن خلاف ذلك لا يصح فى بلائه عندى وإحسانه إلىَّ ونعمته علىَّ، ثم قال: أحببت أن أكتب إليك بذلك

(١) مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلى (٢/٤٨٧).
(٢) المصدر نفسه (٢/٤٨٨).
(٣)، (٤) المصدر نفسه (٢/٤٩٥).

وأعلمكه من قضاء الله، فلا أعلم من ينوح عليه فى شىء من قبلك، ولا اجتمع على ذلك أحد من الناس، ولا رخصت فيه لقريب ولا بعيد، واكفنى فى ذلك بكفاية الله، ولا ألومنَّك فيه ـ إن شاء الله ـ والسلام عليك[1].

وجاء فى رواية: لما هلك عبد الملك بن عمر قال أبوه: يا بنى، لقد كنت كما قال الله عز وجل: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، وإنى لأرجو أن تكون اليوم من الباقيات الصالحات التى هى خير ثوابًا وخير أملاً. والله ما يسرنى أنى دعوتك فأجبتنى[2].

وقد توفى عبد الملك بن عمر وكان عمره تسع عشرة سنة[3]. وكان عمر بن عبد العزيز يثنى على ولده وقال لابنه ذات يوم: يا عبد الملك إنى أخبرك خبرًا: لا والله ما رأيت فتى ماشيًا قط أنسك منك نسكًا، ولا أفقه فقهًا، ولا أقرأ منك، ولا أبعد فى صبوة فى صغير ولا كبير[4]. وقال عمر بن عبد العزيز والله لولا أن يكون بى زينة من أمر عبد الملك ما يُزين فى عين الوالد من ولده لرأيت أنه أهل للخلافة[5]، وجاء فى رواية: إن عبد الملك لما توفى جعل أبوه يثنى عليه عند قبره، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، لو بقى كنت تعهد إليه؟ قال: لا، قال: لم وأنت تثنى عليه؟ قال: أخاف أن يكون زُيِّن فى عينى منه ما يُزيِّن فى عين الوالد من ولده[6]، وقال ميمون بن مهران: ما رأيت ثلاثة فى بيت خيرًا من عمر بن العزيز، وابنه عبد الملك، ومولاه مزاحم[7].

هذا من نتائج المنهج التربوى والعلمى الذى سار عليه عمر فى تربية أولاده.

* حياته مع الناس:

١ـ اهتمامه بإصلاح المجتمع:

كان اهتمامه بإصلاح المجتمع كبيرًا، وعمل على إزالة ما يتفشى فيه من المنكرات، وقد كتب فى ذلك إلى أحد ولاته كتابًا طويلاً بليغًا، نورد بعض فقراته للأهمية وعظيم الفائدة، وفيه يقول:

---

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (٢/ ٤٩٦).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٤٩٦). (٣) المصدر نفسه (٢/ ٤٩٨).

(٤)، (٥)، (٦)، (٧) المصدر نفسه (٢/ ٤٩٩).

أما بعد؛ فإنه لم يظهر المنكر فى قوم قط ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم إلا أصابهم الله بعذاب من عنده أو بأيدى من يشاء من عباده، ولا يزال الناس معصومين من العقوبات والنِّقمات ما قمع فيهم أهل الباطل، واستخفى فيهم بالمحارم، فلا يظهر من أحد منهم محرمً إلا انتقموا ممن فعله، فإذا ظهرت فيهم المحارم فلم ينههم أهل الصلاح نزلت العقوبات من السماء إلى الأرض على أهل المعاصى والمداهنين لهم، ولعل أهل الادهان أن يهلكوا معهم وإن كانوا مخالفين لهم، فإنى لم أسمع الله تبارك وتعالى فيما نزَّل من كتابه عند مَثُلَة أهلك بها أحدًا نجَّى أحدًا من أولئك، إلا أن يكونوا الناهين عن المنكر، ويسلط الله على أهل تلك المحارم إن هو لم يُصبهم من عنده أو بأيدى من يشاء من عباده من الخوف والذل والنِّقم، فإنه ربما انتقم بالفاجر من الفاجر، وبالظالم من الظالم، ثم صار كلا الفريقين بأعمالهما إلى النار، فنعوذ بالله أن يجعلنا ظالمين، أو أن يجعلنا مداهنين للظالمين. وإنه قد بلغنى أنه قد كثر الفجور فيكم وأمن الفسَّاق فى مدائنكم، وجاهروا من المحارم بأمر لا يحب الله تعالى من فعله، ولا يرضى المداهنة فيه، كان لا يُظهر مثلَه علانية قوم يرجون لله وقارًا ويخافون منه غيرًا، وهم الأعزون الأكثرون من أهل الفجور، وليس بذلك مضى أمر سلفكم، ولا بذلك تمت نعمة الله تعالى عليهم، بل كانوا كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ١٩]، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]

ولعمرى إن من الجهاد فى سبيل الله الغلظة على أهل محارم الله تعالى بالأيدى والألسن والمجاهدة لهم فيه، وإن كانوا الآباء، وإنما سبيل الله طاعته. ولقد بلغنى أنه بطأ بكثير من الناس عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر اتقاء التلاوم أن يقال: فلان حسن الخلق قليل التكلفُّ، مقبل على نفسه، وما يجعل الله أولئك أحاسنكم أخلاقًا، بل أولئك أسوأكم أخلاقًا، وما أقبل على نفسه من كان كذلك، بل أدبر عنها، ولا سلم من الكلفة لها بل وقع فيها، إذ رضى لنفسه من الحال غير ما أمر الله أن يكون عليه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[1].

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٦٠).

ففى هذا الكتاب المهم يبين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى سنة الله جل وعلا التى لا تتخلف، وهى أن أىَّ مجتمع يجاهر فيه أهل الفساد بمعاصيهم، ثم لا ينهاهم أهل الصلاح ولا ينكرون عليهم فلا بد أن يصيبهم الله تعالى بإحدى ثلاث أن يصيبهم الله بعذاب من عنده، أو أن يصيبهم بعذاب على أيدى من يشاء من عباده، وقد يكون هؤلاء من الظلمة الجبارين فينتقم الله بهم من العصاة الفجار، أو يصيبهم الله بالخوف والجوع والذل وأنواع النِّقم والمصائب.

ويبين عمر فى هذا الكتاب أن السكوت عن أهل المعاصى المجاهرين ليس من عمل الصحابة رضى الله عنهم، بل قد وصفهم الله تعالى بالشدة والغلظة على المخالفين المجاهرين بالمعاصى، ويذكر أن من الجهاد فى سبيل الله تعالى الغلظة على منتهكى محارم الله والإنكار عليهم بالأيدى والألسن، وإن كانوا من أقرب الأقارب، وهذا التوسع فى معنى الجهاد له أدلته الشرعية مثل قول الله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩]. وإنما يكون جهاد المنافقين بالإنكار عليهم والشدة فى معاملتهم[(١)]. ويصحح عمر فى هذا الكتاب مفهومًا خاطئًا عند بعض الناس، وهو وصفهم القاعد عن إنكار المنكر بأنه حسن الخلق قليل التكلف مقبل على نفسه، حيث يبين أن هذا سيئ الخلق، حيث يتعامل مع المخالفين بالسلبية وعدم المبالاة مع أنهم بحاجة إلى الشفقة والرحمة، وإنما يظهر ذلك بمحاولة إصلاحهم، ويرد على قولهم بأنه قليل التكلف مقبل على نفسه بأنه لم يقبل على نفسه بمحاولة إنقاذها من النار ورفع درجتها فى الجنة، بل أقبل على هلكتها، حيث إن السكوت عن الإنكار معصية يحاسب عليها مرتكبها، وقد توردة إلى النار، وإذا كان فى مفهوم الناس أن الساكت قليل التكلف، فإنه قد تكلف أمرًا عظيمًا حيث خالف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بما وجب عليه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[(٢)]. وكانت كُتب عمر بن عبد العزيز كلها فى إصلاح المجتمع كما جاء فى خبر إبراهيم ابن جعفر عن أبيه قال: ما كان يقدم على أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كتاب من عمر إلا فيه رد مظلمة أو إحياء سنة أو إطفاء بدعة أو قَسْم أو تقدير عطاء أو خير، حتى خرج من الدنيا[(٣)].

---

(١) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/ ١٣٠).
(٢) المصدر نفسه (١٥، ١٦/ ١٣٠).
(٣) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٤٢).

٢ـ تذكيره الناس بالآخرة:

خطب عمر بن عبد العزيز ذات يوم فقال: إنى لم أجمعكم لأمر أحدثته، ولكنى نظرت فى أمر معادكم وما أنتم إليه صائرون، فوجدت المصدِّق به أحمق، والمكذب به هالكًا ثم نزل(١). وهذه خطبة بليغة على قصرها، فإنها تذكرة حية بمصير الإنسان بعد الموت، فالذى يؤمن بالبعث بعد الموت وما قبله من عذاب القبر ونعيمه وما بعد ذلك من الحساب والمصير إلى النعيم الدائم أو إلى الشقاء الدائم، ثم لا يعد العدة الكافية لذلك اليوم، يعتبر حقًا أحمق، حيث لم يستعمل عقله فى الإعداد لمستقبله بعد الموت مع إيمانه بما سيكون فيه(٢)، وقد بيّن عمر فى بعض خطبه أن الإنسان خلق للأبد ولكنه من دار إلى دار، قال عمر: إنما خلقتم للأبد، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون(٣). وقال فى إحدى خطبه: يا أيها الناس، لا تغرنكم الدنيا والمهلة فيها، فعن قليل عنها تنقلون، وإلى غيرها ترحلون، فالله الله عباد الله فى أنفسكم، فبادروا بها الفوت قبل حلول الموت، ولا يطل بكم الأمد، فتقسو قلوبكم فتكونوا كقوم دعوا إلى حظهم فقصروا عنه بعد المهلة، فندموا على ما قصروا عند الآخرة(٤)، وقد تحدث عمر بن عبد العزيز عن الموت والآخرة والاستعداد للقاء الله كثيراً فى خطبه ومواعظه رحمه الله.

٣ـ تصحيح المفاهيم الخاطئة:

قال عمر فى إحدى خطبه: أما بعد، أيها الناس فلا يطولن عليكم الأمد، ولا يبعدن عليكم يوم القيامة، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته، لا يستعتب من شيء، ولا يزيد فى حسن، ألا لا سلامة لامرئ فى خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الله، ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصيًا، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم، ألا وإنى أعالج أمرًا لا يعين عليه إلا الله، قد فنى عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمى، وهاجر عليه الأعرابى، حتى حسبوه دينًا لا يرون الحق غيره، ثم قال: إنه لحبيب علىّ أن أوفر أموالكم

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٤٢).
(٢) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/١١٨).
(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/٤٤٨).
(٤) المصدر نفسه (٢/٤٤٩).

وأعراضكم إلا بحقها، ولا قوة إلا بالله[1]. ففى هذه الخطبة يُذكر عمر بن عبد العزيز المسلمين بقرب يوم القيامة، فإن من وافته منيته قامت قيامته، فلينظر إلى الموت الذى قد يفاجئه فى أية لحظة، وحينها لا يستطيع أن يعتذر من أعماله السيئة التى سوّد بها صحيفته، ولا يستطيع أن يستزيد من عمل صالح بيضّ به صحيفته، ويندم حينما لا ينفع الندم على ما فاته فى حياته، يوم أن كان قادرًا على التوبة النصوح والتزود بالعمل الصالح، ثم يبين أن السلامة كل السلامة فى اتباع سنة رسول الله ﷺ، وهذا بيان لأحد عنصرى قبول العمل الصالح وهما الإخلاص لله تعالى ومتابعة السنة، وهو بهذا يعالج واقعًا لا ينقص العمل فيه الإخلاص وإنما ينقصه اتباع السنة، حيث فشت البدع بعد انقراض عهد الصحابة رضى الله عنهم، وفساد بعض الولاة الذين يحاربون بعض السنن التى لا تتفق مع أهوائهم. ثم بين أحد العواصم التى تعصم من انتشار البدع وفساد أمور الأمة حيث قال: ولا طاعة لمخلوق فى معصية الله. فإذا كان بعض الولاة قد تسوّل لهم نفوسهم الأمارة بالسوء، أو مجاملة الآخرين بأن يأمروا الناس بمعصية الله، أو يمهدوا السبل لذلك، فإنه لا طاعة لهم، وبهذا ينقطع سبب مهم من أسباب سريان تلك المخالفات وهو: ما لولاة الأمر من طاعة على الأمة، فإذا تحددت هذه الطاعة بطاعة الله تعالى لم يكن لهوى النفوس تأثير على انتشار الفساد فى المجتمع، وتصبح الكلمة لأهل الإصلاح.

ثم يبين أن ما جرى عليه العرف من اعتبار الهارب من إمامه الظالم عاصيًا ليس له اعتبار فى النظر الشرعى، لأن تصرفه هذا هو أحد الأسباب التى يتخذها للخلاص من الظلم، وأولى من يوصف بالمعصية من وقع منه الظلم، وكون عمر يبين هذا وهو فى أعلى موقع من المسئولية ـ كخليفة ـ دليلاً على تجرده من حظ النفس، ومن العصبية للقرابة، وإخلاصه لله تعالى.

ثم يصف الواقع الاجتماعى الذى اختلطت فيه العادات بالدين، والبدع بالسنن، ونشأ عليه أفراد المجتمع، وتربّى على توجيهه من أسلم من العجم، ومن هاجر من الأعراب حتى حسبوه هو الدين، وحينما يختلط العرف الاجتماعى فيتسرب إلى العرف الإسلامى بعض الأعراف الجاهلية، فإن ذلك يؤثر على تربية أفراد المجتمع

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٤٣).

وتشربه قلوبهم، لأن الأعراف الجاهلية تميل إلى تلبية أهواء النفوس وإن كانت منحرفة جائرة، فيصعب بعد ذلك على المصلحين أن يخلّصوا العرف الاجتماعى الإسلامى من تلك الأخلاط المتسرّبة المتراكمة على مر الزمن، لأن كل انحراف له أنصاره ومؤيدوه، وليس كل أفراد المجتمع يفهمون الأمور على حقيقتها، وحينما يقوم المصلحون بمحاولة التنقية يقوم دعاة السوء بتشويه إصلاحهم، ودعوة الناس إلى البقاء على الموروثات، لأن كونها موروثات يعطيها فى نظر بعض الناس شيئًا من القداسة، ولكن حينما ينبع الإصلاح من أعلى قمة فى المسئولية -كما هو الحال فى عهد عمر بن عبد العزيز- فإن نتائج الإصلاح تكون كبيرة وسريعة المفعول، لأن معه ما خولّه الله تعالى من طاعة الرعية ما دام فى طاعة الله تعالى إلى جانب قوة السلطان المعهودة[1].

٤- إنكاره العصبية القبلية:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الضحاك بن عبد الرحمن، وكان مما جاء فى كتابه: إن ما هاجنى على كتابى هذا أمر ذكر لى عن رجال من أهل البادية، ورجال أمروا حديثًا، ظاهر جفاؤهم، قليل علمهم بأمر الله، اغتروا فيه بالله غرة عظيمة، ونسوا فيه بلاءه نسيانًا عظيمًا، وغيروا فيه نعمه تغييرًا لم يكن يصلح لهم أن يبلغوه، وذكر لى أن رجالاً من أولئك يتحاربون إلى مُضر وإلى اليمن، يزعمون أن لهم ولاية على من سواهم، وسبحان الله وبحمده ما أبعدهم من شكر نعمة، وأقربهم من كل مهلكة ومذلة وصُغُر، قاتلهم الله، أية منزلة نزلوا، ومن أى أمان خرجوا، أو بأى أمر لصقوا، ولكن قد عرفت أن الشقى بنيسته يشقى، وأن النار لم تخلق باطلاً. أو لم يسمعوا إلى قول الله فى كتابه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقوله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]. وقد ذكر لى مع ذلك أن رجالاً يتداعون إلى الحلف، لا حلف فى الإسلام قال: وما كان من حلف فى الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة، فكان يرجو أحد من الفريقين حفظ حلفه الفاجر الآثم الذى فيه معصية الله ومعصية رسوله، وقد ترك الإسلام حين

(١) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/ ١٢١).

انخلع منه، وأنا أحذر كل من سمع كتابى هذا ومن بلغه أن يتخذ غير الإسلام حصنًا، أو دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وليجة، أحذرهم تحذيرًا بعد تحذير، وأذكرهم تذكيرًا بعد تذكير، وأشهد عليهم الذى آخذ بناصية كل دابّة، والذى هو أقرب إلى كل عبد من حبل الوريد، وإنى لم آلُكم بالذى كتبت به إليكم نصحًا، مع أنى لو أعلم أن أحدًا من الناس يحرّك شيئًا ليُخذله به أو ليدفع عنه، أحرص ـ والله المستعان ـ على مذلته من كان: رجلاً أو عشيرة أو قبيلة أو أكثر من ذلك، فادع إلى نصيحتى وما تقدمت إليكم به، فإنه هو الرشد ليس له خفاء، ثم ليكن أهل البر وأهل الإيمان عونًا بألسنتهم، وإن كثيرًا من الناس لا يعلمون. نسأل الله أن يخلف فيما بيننا بخير خلافة فى ديننا وأُلفتنا وذات بيننا. والسلام[(١)].

فى هذا الكتاب يعالج أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز انحرافًا خطيرًا طرأ على المجتمع الإسلامى آنذاك، وهو أن طائفة من المسلمين الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، ولم تعمر أفكارهم بالعلم الشرعى، فقد اتخذوا لأنفسهم علاقات من روابط الجاهلية التى تقوم على القبائل والعشائر، فيعطى الواحد منهم ولاءه لقبيلته سواء بالحق أو بالباطل، وسواء بالعدل أو بالظلم، ويجعل من قبيلته قضية يهتم لها ويدافع عنها ويدعو لها، حتى أصبحوا بها إخوة فى الله متحابين بعد أن كانوا أعداء متحاربين، وسادوا بجماعتهم العالم. وقد استفحلت هذه القضية حتى أصبح بعض المجاهدين يتحاربون بينهم بدعوى قبلية، مما سبب تأخرًا فى تقدم الجهاد، وجرأ أصحاب البلاد المفتوحة على الانتقاض على المسلمين مرة بعد مرة، ووصلت الحال فى بعض البلاد إلى أنه كلما تولى رجل له قبيلة فى تلك البلاد قرب أفراد قبيلته وقواهم وتقوى بهم، فتحدث الفتنة وتثور القبائل الأخرى، وما ذاك إلا بسبب طرح رابطة الإسلام التى هى نعمة كبرى على المسلمين، واتخاذ الروابط الجاهلية بديلاً عنها[(٢)].

٥ـ رفضه للقيام بين يديه:

لما ولى عمر بن عبد العزيز قام الناس بين يديه، فقال: يا معشر المسلمين، إن تقوموا نقم وإن تقعدوا نقعد، فإنما يقوم الناس لرب العالمين، وإن الله فرض

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، ص (١٠٣ ـ ١٠٦).

(٢) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/ ١٢٤).

فرائض، وسن سننًا، من أخـذ بها لحق ومن تركهـا مُحِق[1]. أراد عمر أن يقضى على العادات الموروثة التى أشبه بها الولاة آنذاك الأكـاسرة والقياصرة، فكان له عزم صارم على العـودة بالأمة إلى منهج الخلفـاء الراشدين، وعمـر هنا يحجِّم دافـعين قويين يدفـعانه إلى مجـاراة عشيرتـه فى مظاهرهم. . أولهما: طمـوح النفس نحو الظهور وفرض السلطة والهيبة فى قلوب الناس، وثانيهـما: رغبة عشيرته الملحة فى الإبقاء على هذه المظاهر، وتشنيعـهم عليه فى مخالفة ما كان عـليه أسلافه، ولكنه تغلب على هذين الدافـعـين بحزم وإيـمان قـوى، وكان الدافـع الذى يدفعـه إلى التـواضع ورفض المظاهر الدنيوية هو خـوفه من اللـه تعالى ورغـبته فـيمـا عنده، وطموح فكره نحو الآخـرة وتجاوز المستقبل الدنيوى، وكان هذا الـدافع أقوى بكثير من الجواذب الأرضيـة، فنجح فى إلجام نفسه عن هواها وإسكـات أصحاب المظاهر الخادعة، وتصحيح مفاهيم المجتـمع فيما يجب أن تكون عليه الولاة والعلاقة بينهم وبين الرعية.

وفى قوله: إن الله فرض فرائض، بيـان لأسباب السعـادة والشقاوة الحقيـقية فى الدنيا والآخرة، فمن طبقها لحق بركب المتقين فى الدنيا، وأكرم به من رفقة صالحة! وسيق يوم القيامة إلى رضوان الله تعالى والجنة وأكرم به من مآل وعاقبة![2].

٦ـ تقديره أهل الفضل:

ذكر الحافظ ابن كثير أن ولد قتادة بن النعمان وفد على عمر بن عبد العزيز فقال له: من أنت؟ فقال مرتجلاً:

أنا ابن الذى سـالت على الخدِّ عـينه ... فـرُدَّت بكفِّ المصطـفى أحـسن الرَّدِّ

فـعـادت كـمـا كـانت لأول أمـرها ... فـيا حُـسْنَها عـينًا ويـا حُسْنَ مـا رَدِّ

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تلك المكـارم لا قـعـبـان من لبن ... شـيـبًـا بماء فـعـادا بعـد أبـوالا

ثم وصله وأحسن جائزته رضى الله عنه[3]. ففى هذا الخبر مـوقف لأمير عمر ابن عبد العزيز رحمه الله تعالى فى إكرام ولد قـتادة بن النعمان لما وفد عليه حينما

(١) تاريخ دمشق نقلاً عن التاريخ الإسلامى (١٥/ ١١٤).
(٢) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/ ١١٥).
(٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٩٦)، التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/ ٢٢).

عرف نفسه بما حدث لأبيه -رضى الله عنه- فى هذا الخبر على يد رسول الله ﷺ، وهذا يدل على تفوق عمر بن عبد العزيز فى المجال الأخلاقى، وذلك بتقدير أهل الفضل، والتقدم فى خدمة الإسلام والمسلمين، فإن ما حدث لقتادة رضى الله عنه من اقتلاع عينه بتلك الصورة شاهد على إيغاله فى القتال، وتعرضه للمهالك، كما أنه شرف له أن تمثلت فيه تلك المعجزة النبوية[1].

ومن تقديره لأهل الفضل ما قام به لزياد مولى ابن عياش، فقد قدم عليه زياد مولى ابن عياش، وأصحاب له، فأتى الباب وبه جماعة من الناس فأذن له دونهم، فدخل عليه فنسى أن يسلم عليه بالخلافة، ثم ذكر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال له عمر: والأُولى لم تضرنى، ثم نزل عمر عن موضع كان عليه إلى الأرض وقال: إنى أعظم أن أكون فى موضع أعلو فيه على زياد، فلما قضى زياد ما يريد خرج، فأمر عمر خازن بيت المال أن يفتحه لزياد ومن معه يأخذون منه حاجتهم، فنظر إليه خازن بيت المال فاقتحمته عينه أن يكون يُفتح لمثله بيت المال ويسلَّطُ عليه ـ وهو به غير عارف ـ ففعل الخازن ما أمر به، فدخل زياد فأخذ لنفسه ولأصحابه بضعًا وثمانين درهمًا أو بضعًا وتسعين درهمًا، فلما رأى ذلك الخازن قال: أمير المؤمنين أعلم بمن يسلط على بيت المال[2].

ففى هذا الخبر صور من تواضع عمر بن عبد العزيز رحمه الله وتقديره للعلماء الربانيين، فهو أولاً لم يبال بلقب الخلافة، وهو أعلى لقب عند المسلمين، والمناصب لها فتنة يقع فى حبائلها من اغتروا بالجاه والمنزلة الدنيوية، أما أقوياء الإيمان فإن شخصيتهم لا تتغير بعد المنصب، بل يظلون على ما هم عليه من التواضع، وربما زادوا تواضعًا فى مقابلة احترام الناس لهم. ثم هو ثانيًا نزل من مكانه حتى لا يعلو ذلك العالم الربانى زياد بن أبى زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة، وكون ذلك العالم من الموالى لا ينزل من قدره، فإن العبرة بالعلم والتقوى لا بشرف النسب، وموقف كريم لهذا العالم الربانى حيث لم يأخذ من بيت المال إلا ذلك القدر الزهيد، مع أنه قد مكن منه، وهذا مثال رفيع من أمثلة الزهد والورع، حينما تكون النفوس كبيرة والعقول راجحة فإنها تعف عن متاع

---

(١) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/ ٢٣).

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٥٣)، التاريخ الإسلامى (١٥/ ٢٤).

الدنيا الذى يتنافس عليه الصغار، وتطمح ببصرها نحو نعيم الآخرة الخالد الذى يتنافس فيه الكبار[١].

٧ـ المرء بأصغريه؛ قلبه ولسانه:

كان بين وفد المهنئين لعمر بالخلافة من أهل الحجاز غلام صغير، وكان الوفد قد اختار الغلام ليتكلم عنهم، وهو أصغرهم، فلما بدأ بالكلام قال له عمر: مهلاً يا غلام ليتكلم من هو أسن منك، فقال الغلام: مهلاً يا أمير المؤمنين، المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا منح الله العبد لسانًا لافظًا وقلبًا حافظًا، فقد استجاد له الحلية[٢]، يا أمير المؤمنين لو كان التقدم بالسن لكان فى الأمة من هو أسن منك ـ أى أحق بمجلسك هذا ممن هو أكبر منك سنًا[٣] ـ. فقال عمر: تحدث يا غلام، قال: نعم يا أمير المؤمنين، نحن وفود التهنئة لا وفود المرزئة[٤]، قدمنا إليك من بلدنا، نحمد الله الذى منَّ بك علينا، لم يخرجنا إليك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقد أتانا منك إلى بلدنا، وأما الرهبة فقد أمّننا الله بعدلك من جورك[٥]. فأعجب عمر بفصاحة الغلام وعلمه، وسداد رأيه، فما كان من عمر إلا أن شجعه على ذلك، وزاده ثقة بنفسه وجرأة ليكون هذا الحادث موقفًا تربويًا يتعلم فيه الغلام فى حضرة خليفة المسلمين، فطلب منه الموعظة فقال: عظنا يا غلام وأوجز، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، إن أناسًا من الناس غرهم حلم الله عنهم، وطول أملهم، وحسن ثناء الناس عليهم، فلا يغرنك حلم الله عنك، وطول أملك، وحسن ثناء الناس عليك فتزل قدمك. ثم نظر عمر فى سن الغلام فإذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة، فأنشأ يقول:

تعلم فليس المرء يولد عالمًا ... وليس أخو علم كمن بات جاهل

وإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافل[٦]

---

(١) التاريخ الإسلامى (١٥/ ٢٤). (٢) استجاد له الحلية: استحق أن يتكلم.

(٣) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص (٧٩).

(٤) الارتزاء: انتقاص الشىء، والمرزئة: الرزيئة وهى المصيبة.

(٥) مروج الذهب (٣/ ١٩٧).

(٦) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص (٩٨).

٨ ـ امرأة مصرية مسكينة تشتكى لعمر:

كان عمر يتابع أمور المسلمين ويفتح الأبواب على مصراعيها لسماع أخبارهم؛ فقد كان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحدًا من الناس -إذا خرج- كتابًا إلا حمله، فخرج بريد من مصر فدفعت إليه فرتونة السوداء مولاة ذى أصبح كتابًا تذكر فيه أن لها حائطًا قصيرًا، وأنه يُقتحم عليها فيسرق دجاجها، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذى أصبح، بلغنى كتابك وما ذكرت من قصر حائطك وأنه يدخل عليك فيُسرق دجاجك، فقد كتبت كتابًا إلى أيوب بن شرحبيل ـ وكان أيوب عامله على صلاة مصر وحربها ـ آمره بأن يبنى لك ذلك، يحصنه لك مما تخافين إن شاء الله، وكتب إلى أيوب بن شرحبيل: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل، أما بعد: فإن فرتونة مولاة ذى أصبح كتبت تذكر قصر حائطها، وأنه يسرق منه دجاجها، وتسأل تحصينه لها، فإذا جاءك كتابى هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها، فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنه حتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها، وإذا هى سوداء مسكينة، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين وحصنه لها(١).

٩ـ اهتمامه بفداء الأسرى:

كتب إلى الأسارى بالقسطنطينية: أما بعد، فإنكم تعدون أنفسكم أسارى، معاذ الله بل أنتم الحبساء فى سبيل الله، واعلموا أننى لست أقسم شيئًا بين رعيتى إلا خصصت أهليكم بأوفر نصيب وأطيبه، وأنى قد بعثت إليكم خمسة دنانير، ولولا إنى خشيت إن زدتكم أن يحبسه طاغية الروم عنكم لزدتكم، وقد بعثت إليكم فلان بن فلان يفادى صغيركم وكبيركم، ذكركم وأنثاكم، حركم ومملوككم بما سئل به، فأبشروا ثم أبشروا، والسلام عليكم(٢).

وفى هذا الكتاب يتجلى سمو أخلاق عمر وعظم شعوره بالمسئولية كنموذج راق لحاكم مسلم يخاف الله فيراعيه، ويتقى الله فى حقوق رعيته بمنتهى الإخلاص والأمانة، حيث واسى أسرى المسلمين لدى الروم، حيث شبههم بالمرابطين الذين

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٦٣، ١٦٤)، التاريخ الإسلامى (١٥/ ٧٧).

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٦٣، ١٦٤).

حبسوا أنفسهم فى سبيل الله تعالى، فهم بهذا ينالون أجر المرابطين. وإلى جانب هذه المواساة المعنوية فإنه قد واساهم بالمال الذى أمدهم به، وأزاح الهمّ عنهم، وبما أخبرهم به من كفالة أسرهم فى حال غيبتهم، كما أنه وعدهم جميعًا بمفاداتهم لفك أسرهم، وهذه معاملة كريمة يستحقها هؤلاء الأسرى الذين خرجوا بأنفسهم لحماية الإسلام ونصره(١).

١٠- قضاء ديون الغارمين:

كتب إلى عماله: أن اقضوا عن الغارمين فكُتب إليه: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم، وله الفرس، وله الأثاث فى بيته، فكتب عمر: لابد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث فى بيته، ومع ذلك فهو غارم، فاقضوا عنه ما عليه من الدين(٢)، ففى هذا الخبر يأمر أمير المؤمنين عمر بقضاء الديون عن الغارمين، وإن كانوا يملكون المسكن والأثاث والخادم والفرس، وهو مظهر عظيم من مظاهر الرحمة والمواساة، والاهتمام بشئون الرعية، وهكذا يتصرف الأئمة العادلون بأموال الأمة، حيث يغنون بها فقيرها، ويجبرون به كسيرها، ويفكون بها أسيرها، ويقضون به عن معسرها، ويسدون به خلة معوزها(٣).

١١- خبر الأسير الأعمى عند الروم:

أرسل عمر بن عبد العزيز إلى صاحب الروم رسولاً، فأتاه وخرج من عنده يدور، فمر بموضع فسمع فيه رجلاً يقرأ القرآن ويطحن، فأتاه فسلم عليه فلم يرد عليه السلام - مرتين أو ثلاثًا - ثم سلم عليه فقال له: وأنى بالسلام فى هذا البلد، فاعلمه أنه رسول عمر إلى صاحب الروم، قال له: ما شأنك؟ فقال: إنى أسرت فى موضع كذا وكذا، فأتى بى إلى صاحب الروم، فعرض علىَّ النصرانية فأبيت، وقال لى: إن لم تفعل سملت عينيك، فاخترت دينى على بصرى، فسمل عينى وصيرنى إلى هذا الموضع، يرسل إلىَّ كل يوم بحنطة أطحنها وبخبزة آكلها، فسار الرسول إلى عمر بن عبد العزيز فأخبره خبر الرجل، قال: فما فرغت من الخبر

---

(١) التاريخ الإسلامى (١٥/ ٧٧).
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص(١٦٣، ١٦٤).
(٣) التاريخ الإسلامى (١٥/ ٧٧).

حتى رأيت دموع عمر قد بلّت ما بين يديه، ثم أمر فكتب إلى صاحب الروم: أما بعد، فقد بلغنى خبر فلان بن فلان فوصف له صفته، وأنا أقسم بالله لئن لم ترسله إلى لأبعثنَّ إليك من الجنود جنودًا يكون أولها عندك وآخرها عندى. ولما رجع إليه الرسول قال: ما أسرع ما رجعت! فدفع إليه كتاب عمر بن عبد العزيز، فلما قرأه قال: ما كنا لنحمل الرجل الصالح على هذا، بل نبعث إليه به. قال: فأقمت أنتظر متى يخرج به، فأتيته ذات يومٍ فإذا هو قاعد قد نزل عن سريره أعرف فى وجهه الكآبة، فقال: تدرى لم فعلت هذا؟ فقلت: لا ـ وقد أنكرت ما رأيت ـ فقال: إنه قد أتانى من بعض أطرافى أن الرجل الصالح قد مات، ولذلك فعلت ما فعلت، ثم قال: إن الرجل الصالح إذا كان بين القوم السوء لم يترك بينهم إلا قليلاً حتى يخرج من بين أظهرهم. فقلت له: أتأذن لى أن أنصرف، وأيست من بعثه الرجل معى، فقال: ما كنا لنجيبه إلى ما أمر فى حياته ثم نرجع فيه بعد مماته، فأرسل معه الرجل(١).

١٢ـ المرأة العراقية التى فرض لبناتها من بيت المال:

قدمت امرأة من العراق على عمر بن عبد العزيز فلما صارت إلى بابه قالت: هل على أمير المؤمنين حاجب؟ فقالوا: لا، فلجى إن أحببت، فدخلت المرأة على فاطمة وهى جالسة فى بيتها، وفى يدها قطن تعالجه، فسلمت فردت عليها السلام وقالت لها: ادخلى، فلما جلست المرأة رفعت بصرها ولم تر شيئًا له بال، فقالت: إنما جئت لأعمر بيتى من هذا البيت الخرب، فقالت لها فاطمة: إنما خرب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك، قال: فأقبل عمر حتى دخل الدار، فمال إلى بئر فى ناحية الدار فانتزع منها دلاء فصبها على طين كان بحضرة البيت ـ وهو يكثر النظر إلى فاطمة ـ فقالت لها المرأة: استترى من هذا الطيّان، فإنى أراه يديم النظر إليك، فقالت: ليس هو بطيان، هو أمير المؤمنين. قال: ثم أقبل عمر فسلم ودخل بيته، فمال إلى مصلى كان له فى البيت يصلى فيه، فسأل فاطمة عن المرأة، فقالت: هى هذه، فأخذ مكتلاً له فيه شىء من عنب فجعل يتخير لها خيره يناولها إياه ثم أقبل عليها وقال: ما حاجتك؟ فقالت: امرأة من أهل العراق لى خمس

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٦٨).

بنات كُسْلٌ كسْدٌ، فجئتك أبتغى حسن نظرك لهنَّ، فجعل يقول: كسل كسد، ويبكى، فأخذ الدواة والقرطاس فكتب إلى والى العراق، فقال: سمى كبراهنّ، فسمتها، ففرض لها، فقالت المرأة: الحمد لله، ثم سأل عن الثانية والثالثة والرابعة، والمرأة تحمد الله فيفرض لها، فلما فرض للأربعة استفزها الفرح فدعت له فجزته خيرًا، فرفع يده وقال: كنا نفرض لهنّ حيث كنت تولين الحمد أهله، فمرى هؤلاء الأربع يفضنّ على هذه الخامسة. فخرجت بالكتاب حتى أتت به العراق، فدفعته إلى والى العراق، فلما ذهبت إليه بالكتاب بكى واشتد بكاؤه، وقال: رحم الله صاحب هذا الكتاب، فقالت: أمات؟ قال: نعم، فصاحت وولولت، فقال: لا بأس عليك، ما كنت لأرد كتابه فى شيء، فقضى حاجتها وفرض لبناتها[١].

١٣ـ إحياؤه سنة العطاء:

قال عمر بن عبد العزيز: إنه لا يحل لكم أن تأخذوا لموتاكم، فارفعوهم إلينا واكتبوا لنا كل منفوس[٢] نفرض له[٣]. وفى رواية أخرجها ابن سعد من خبر أبى بكر بن حزم قال: كنا نخرج ديوان أهل السجون فيخرجون إلى أعطياتهم بكتاب عمر بن عبد العزيز، وكتب إلىّ: من كان غائبًا قريب الغيبة فأعط أهل ديوانه، ومن كان منقطع الغيبة، فاعزل عطاءه إلى أن يقدم أو يأتى نعيه، أو يوكل عندك بوكالة ببينة على حياته فادفعه إلى وكيله[٤].

وبهذا أحيا عمر بن عبد العزيز سنة العطاء الإسلامى التى كانت فى عهد الخلفاء الراشدين وعهد معاوية رضى الله عنهم، ثم اندثرت بعد ذلك واقتصر العطاء على بعض وجهاء الأمة، وكان بنو أمية يأخذون من ذلك الشيء الكثير على مراتبهم، فلما قسم عمر بن عبد العزيز ذلك على الأمة شمل جميع أفرادهم، وهذا من أبرز مواقفه وإصلاحاته التجديدية[٥].

١٤ـ إغناؤه المحتاجين عن المسألة:

قدم على عمر بن عبد العزيز بعض أهل المدينة فجعل يسأله عن أهل المدينة: فقال: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون فى مكان كذا وكذا؟ قال: قد قاموا

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٦٩).

(٢) أى مولود فى حال نفاس أمه.

(٣) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٤٦).

(٤) المصدر نفسه (٥/ ٣٤٨).

(٥) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/ ١٣٨).

منه يا أمير المؤمنين، قال: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون فى مكان كذا وكذا؟ قال: قد قاموا منه وأغناهم الله. قال: وكان من أولئك المساكين من يبيع الخبط للمسافرين(١)، فالتمس ذلك منهم بعد، فقالوا: قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر بن عبد العزيز(٢). وهذا من نتائج المنهج العادل الذى سلكه عمر بن عبد العزيز فى توزيع أموال المسلمين، حيث حُرِمَت القلة المتمكنة من الإسراف، وأصبح ما يصرف لفرد ممن هذه الفئة يصرف لعشرات المسلمين، فوصل المال العام إلى فئات ممن لم يكن يصل إليها قبل، فاستغنوا به عن بعض الأعمال الشاقة التى كانت تُدِرُّ عليهم مبالغ زهيدة(٣).

١٥ـ دفع المهور من بيت المال:

اهتمّ عمر بن عبد العزيز بأداء مهور الزواج من بيت المال لمن لم يستطع توفير ذلك، فقال أبو العلاء: قُرِئَ كتاب عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى مسجد الكوفة وأنا أسمع: من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله، ومن تزوج امرأة لا يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله(٤). وهذا قرار مهم فى إصلاح المجتمع، لأن صلاحه يتوقف على تحصين أبنائه بالزواج وظفرهم بالسعادة الزوجية، وقد يكون المهر عائقًا لبعض الفقراء دون الزواج، خصوصًا فى حال غلاء المهور، فإذا كانت الدولة توفر ذلك لمن لا يستطيع ذلك فإنها تسهم فى تكوين المجتمع الصالح وحفظه من أسباب الفساد والاضطراب(٥).

١٦- جهوده فى التقريب بين طبقات المجتمع:

قال يونس بن أبى شبيب: شهدت عمر بن عبد العزيز فى بعض الأعياد وقد جاء أشراف الناس حتى حفُّوا بالمنبر، وبينهم وبين الناس فرجة، فلما جاء عمر صعد المنبر وسلم عليهم، فلما رأى الفرجة أومأ إلى الناس: أن تقدموا فتقدموا حتى اختلطوا بهم(٦). لقد دأب الولاة من بعد عهد أمير المؤمنين معاوية رضى الله

(١) الخبط: نوع من ورق الشجر تأكله الإبل.
(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ١٥١).
(٣) التاريخ الإسلامى (١٥/ ١٣٨).
(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٧٤).
(٥) التاريخ الإسلامى (١٥/ ١٣٩).
(٦) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٨٧).

عنه على رفع طبقات من الناس وتمييزهم على غيرهم بالعطاء والمجالس وغير ذلك، وسرى ذلك فى الأمة حتى أصيب بعض أفرادها بالضعف وأصبحوا يرون أنهم ليسوا أهلاً للجلوس مع أفراد الطبقات المميزة الذين أصبح الناس يطلقون عليهم اسم «الأشراف»، ولقد بلغ الضعف بعامة المجتمع إلى عدم التجاسر على الاقتراب من أفراد الطبقة الخاصة حتى فى المساجد التى من المفترض فيها أن يتنافس المصلون على القرب من الإمام، لما فى ذلك من زيادة الثواب، فلما تولى الخلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز كان من أجلِّ اهتماماته أن يقارب بين فئات المجتمع، فذلك بأن يضع من سمعة الطبقات العالية، وأن يزيل كبرياءهم، وأن يرفع من شأن الطبقات المستضعفة، وأن يقوى معنوياتهم، ويزيل شعورهم بالضعف، فكان من جهوده فى ذلك المساواة بينهم فى العطاء ولا شك أن المال له أهمية كبرى فى الرفع من شأن الناس وخفضهم، وفى هذا الخبر تبين لنا اهتمامه فى هذا المجال بالإشارة إلى عموم الناس ليقتربوا من الخواص، ويختلطوا بهم، حتى تزول تلك الفجوة بين المسلمين التى خلفها ظلم الولاة وسوء إدارتهم[1].

١٧- شعوره الكبير بالمسئولية تجاه أفراد المجتمع:

قالت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر: . . إن عمر -رحمة الله عليه- كان قد فَرَّغ للمسلمين نفسه، ولأمورهم ذهنه، وكان إذا أمسى مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه وصل يومه بليلته، إلى أن أمسى مساء وقد فرغ من حوائج يومه، فدعا بسراجه الذى كان من ماله، فصلى ركعتين ثم أقعى واضعًا رأسه على يديه، تسيل دموعه على خديه، يشهق الشهقة يكاد ينصدع قلبه لها، وتخرج لها نفسه، حتى برق الصبح فأصبح صائمًا، فدنوت منه فقلت: يا أمير المؤمنين أليس كان منك ما كان؟ قال: أجل، فعليك بشأنك وخلِّينى وشأنى، قالت: فقلت إنى أرجو أن أتَّعظ، قال: إذًا أخبرك، إنى نظرت فوجدتُنى قد وليت أمر هذه الأمة؛ أسودها وأحمرها، ثم ذكرت الفقير الجائع، والغريب الضائع، والأسير المقهور، وذا المال القليل والعيال الكثير، وأشباه ذلك فى أقاصى البلاد وأطراف الأرض، فعلمت أن الله سائلى عنهم، وأن رسول الله ﷺ حجيجى فيهم، فخفت أن لا يقبل الله

---

(١) التاريخ الإسلامى (١٥/ ١٤٠).

تعالى منى معذرة فيهم، ولا تقـوم لى مع رسول الله ﷺ حجة، فرحمت والله يا فاطمة نفسى رحمة دمعت لهـا عينى، ووجع لها قلبى، فأنا كلما ازددت لها ذكرًا ازددت منها خوفًا، فاتّعظى إن شئت أو ذَرِى[1].

وهذا تقدير بالغ من عمر رحمه الله للمسئولية التى تحملها، حيث تذكر ضعفاء المسلمين وأصحاب الحاجات، بالرغم مما يبـذله من جهد متواصل فى التعرف على أحوال الأمة، ولـكن لما كان هذا الأمر غيـر محصور خـشى أن يكون قد لقى من المسلمين من لم تُرفع إليه حاجته، فيكون مسئولاً عنه. وفى تذكره للحساب والجنة والنار دليل على عمـق إيمانه بالغيب حـتى أصبح أمامـه كالمشاهد، فـأصبح ذلك دافعًا له إلى العدل والـرحمة، والمبالغة فى تفقد أحـوال الأمة. وفى بكائه الشديد دلالة على عظمة خـوفه من الله عز وجل، وقد عـصمه الله تعالى بـهذا الخوف، فارتفع بفكره وسلوكـه عن المغريات، وقوى أمـام جميع التحـديات، فكلما عظم عليـه خطب مجابهـة الناس تذكر النـار والحساب فـهان عليـه كل خطب عظيم، وصغر فى نظره كل أمر جسيم[2].

١٨ ـ فى الإنفاق على الذمى إذا كبر ولم يكن له مال:

الإسلام دين العدالة والسـماحة والاهتمام بالضعـيف، والإسلام يهتم بكل من يعيش على أرضه ولو كان على غير دين الإسلام، وعمر بن عبد العزيز يُجَسِّد هذه القيم الرفيعـة بتطبيقه أحكام هذا الدين، فيقـرر أن الذمى إذا كبر ولـم يكن له مال ولا حـميم ينفق عليـه، فإن نفقـته فى بيت مـال المسلمين[3]، فقد روى ابن سعد: قال عمر بن بهرام الصرّاف: قرئ كتاب عمر بن عبد العزيز علينا، بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمـر أمير المؤمنين إلى عدى بن أرطأة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين، سلام عليكم، فـإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو، أما بعـد: فانظر أهل الذمـة فارفق بهم، وإذا كـبر الـرجل منهم وليس له مال فـأنفق عليه، فإن كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه[4].

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٧٠)، التاريخ الإسلامى (١٥/١٠٧).
(٢) التاريخ الإسلامى (١٥/١٠٨).
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٣٥٣).
(٤) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٨٠).

١٩ـ أكله مع أهل الكتاب:

كان عمر بن عبد العزيز يجعل كل يوم من ماله درهمًا فى طعام المسلمين ثم يأكل معهم، وكان ينزل بأهل الذمة فيقدمون له من الحلبة المنبوتة والبقول وأشباه ذلك مما كانوا يضعون من طعامهم فيعطيهم أكثر من ذلك ويأكل معهم، فإن أبوا أن يقبلوا ذلك منه لم يأكل منه[١].

٢٠- عمر والشعراء:

لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد الشعراء إليه فأقاموا ببابه أيامًا لا يؤذن لهم، فبينما هم كذلك وقد أزمعوا على الرحيل إذ مر بهم رجاء بن حيوة ـ وكان من خطباء أهل الشام ـ فلما رآه جرير داخلاً على عمر أنشأ يقول:

يا أيها الرجل المرخى عمامته ... هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

قال: فدخل ولم يذكر من أمرهم شيئًا، ثم مرّ بهم عدى بن أرطأة، فقال له جرير:

يا أيها الرجل المرخى مطيته ... هذا زمانك إنى قد مضى زمنى

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه ... أنّى لدى الباب كالمصفود فى قرن

لا تنس حاجتنا لقّيت مغفرة ... قد طال مكثى عن أهلى وعن وطنى

فدخل عدى على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة، وأقوالهم نافذة، قال: ويحك يا عدى، مالى وللشعراء، قال: أعز الله أمير المؤمنين، إن رسول الله ﷺ أسوة، قال: كيف؟ قال: امتدحه العباس بن مرداس السلمى فأعطاه حلة قطع بها لسانه، قال: أوتروى من قوله شيئًا؟ قال: نعم، فأنشده يقول:

رأيتك يا خير البرية كلها ... نشرت كتابًا جاء بالحق معلما

شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا ... عن الحق لما أصبح الحق مظلما

ونورت بالتبيان أمرًا مدلسًا ... وأطفأت بالقرآن نارًا تضرما

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ٣١٥ ـ ٣١٦)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٣٥٦).

قال: ويحك يا عدى، من بالباب منهم، فذكر له أسماء الشعراء، عمر بن عبد الله بن ربيعة، والفرزدق، والأخطل، وجرير، فرد الجميع إلا جرير فسمح له بالدخول، فدخل جرير وهو يقول:

إن الذى بعث النبى محمداً ... جعل الخلافة للإمام العادل
وسع الخلائق عدله ووفاؤه ... حتى ارعوى فأقام ميل المائل
إنى لأرجو منك خيراً عاجلاً ... والنفس مولعة بحب العاجل

فلما مثل بين يديه قال: ويحك يا جرير، اتق الله ولا تقل إلا حقًا[1]، فأنشأ جرير يقول:

أأذكر الجهد والبلوى التى نزلت ... أم قد كفانى بما بُلِّغْتَ من خبرى
كم باليمامة من شعثاءَ أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنَّظَرِ
ممن يعدُّكَ تكفى فقد والدِه ... كالفَرخ فى العش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعوة ملهوف كأنَّ به ... خبلاً من الجِنِّ أو مساً من البشر
خليفة الله ماذا تأمرون بنا ... لسنا إليكم ولا فى دار منتظر
ما زلت بعدك فى هم يُؤرقنى ... قد طال فى الحىِّ إصعادى ومنحدرى
لا ينفع الحاضر المجهود بادينا ... ولا يعود لنا بادٍ على حضر
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة إذ كانت له قدراً ... كما أتى ربَّهُ موسى على قدر
هذى الأرامل قد قضَّيت حاجتها ... فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر
الخير ما دمت حياً لا يفارقنا ... بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فقال: يا جرير ما أرى لك فيما ها هنا حقًا، قال: بلى يا أمير المؤمنين أنا ابن سبيل ومنقطع. فأعطاه من صلب ماله مائة درهم. . . ثم خرج، فقال له الشعراء: ما وراءك؟ قال: ما يسوؤكم، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطى الفقراء ويمنع الشعراء، وإنى عنه لراضٍ، ثم أنشأ يقول:

---

(١) المنتظم (٧/ ٣٧).

رأيت رُقَى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطانى من الجن راقيا[١]

وهذا منهج جديد فى عهد الدولة الأموية للتعامل مع الشعراء، فقد كان الشعراء يمدحون الملوك والأمراء طلبًا لرفدهم، ويدخلون فى قصائدهم المبالغات والكذب، إلى أن تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، فقصدوه، فكان موقفه من الشعراء كما تبين من الخبر المذكور، فقطع تلك العادة التى تفسد بنية المجتمع وتشجع على سيادة الأخلاق السيئة من الكذب والتغرير والنفاق، فقطع تلك العادة السيئة ولم تعد إلى الظهور إلا بعد وفاته[٢]. ولقد اعترف جرير بأن الشياطين كانوا من وراء الشعراء فى استفزاز الأمراء الممدوحين، وأن عمر بن عبد العزيز قد تميز بحصانته من أولئك الشياطين[٣].

٢١ـ تأثره بشعر الزهد وعلاقته بسابق البربرى:

قرّب عمر بن عبد العزيز من الشعراء من التزم شعر الزهد وذكر الموت والخوف من الآخرة، ويبدو أن أقرب الشعراء لقلب عمر هو سابق البربرى[٤]، فكان يعظ عمر وينشده الشعر، فيتأثر عمر ويبكى. وذات يوم دخل سابق البربرى وهو ينشد شعرًا فانتهى فى شعره إلى هذه الأبيات:

فكم من صحيح بات للموت آمنًا أتته المنايا بغتة بعدما هَجع

فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتة فرارًا ولا منه بقوّته امتنع

فأصبح تبكيه النساء مُقَنَّعًا ولا يسمع الداعى وإن صوته رفع

وقُرّبَ من لحدٍ فصارَ مقيله وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع

قال الراوى: ميمون بن مهران: فلم يزل عمر يبكى ويضطرب حتى غشى عليه فقمنا، فانصرفنا عنه[٥].

وقد قال سابق البربرى قصيدة طويلة فيها مواعظ وحكم، تأثر بها عمر بن عبد العزيز تأثرًا بالغًا، وهى:

---

(١) المنتظم (٧/ ٩٩). (٢)، (٣) التاريخ الإسلامى (١٥/ ١٧٤).

(٤) شاعر من الزهاد له كلام فى الحكمة والرقائق، وهو من موالى بنى أمية، والبربرى لقب له، ولم يكن من البربر. سكن الرقة، وكان يفد على عمر بن عبد العزيز، الأعلام (٣/ ٦٩).

(٥) الكتاب الجامع لسيرة عمر (٢/ ٦١٢)، سيرة عمر بن عبد العزيز، عفت وصال حمزة، ص (١٨٤).

بسم الذى أنزلت من عنده السُّوَرُ والحمد لله أما بعد يا عمرُ
إن كنت تعلم ما تأتى وما تذر فكن على حذر قد ينفع الحذرُ
واصبر على القدر المجلوب وارض به وإن أتاك بما لا تشتهى القدرُ
فما صفا لامرئٍ عيش يُسَرُّ به إلا سيتبع يومًا صفوه كدرُ
واستخبر الناس عما أنت جاهله إذا عميت فقد يجلو العمى الخبرُ
قد يرعوى المرء يومًا بعد هفوته وتحكم الجاهلَ الأيام والعبرُ
من يطلب الجور لا يظفر بحاجته وطالب الحق قد يُهدى له الظَّفرُ
وفى الهدى عبرٌ تشفى القلوبُ بها كالغيث ينضر عن وسميه[1] الشجرُ
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ولا البصير كأعمى ماله بَصرُ
والرُّشد نافلة تُهدى لصاحبها والغيُّ يكره منه الوِرْدُ والصَّدرُ[2]
وقد يوبق[3] المرءَ أمرٌ وهو يحقره والشيءُ يا نفسُ ينمى وهو يُحتَصرُ
لا يشبع النفس شىء حين تحرزه ولا يزال لها فى غيره وطر
ولا تزال، وإن كانت لها سعة كما تُغيِّرُ لون اللمة الغِير[4]
وكل شىء له حال تغيره لها إلى الشىء لم تظفر به نظر
والذكرُ فيه حياة للقلوب كما يحيى البلاد إذا ما ماتت المطر
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يُجلّى سوادَ الظلمةِ القَمَرُ
لا ينفع الذكر قلبًا قاسيًا أبدًا وهل يلين لقول الواعظ الحجر؟
والموت جسرٌ لمن يمشى على قدم إلى الأمور التى تخشى وتُنتظَرُ
فهم يمرّون أفواجًا وتجمعُهم دار إليها يصير البدو والحَضَرُ

---

(١) الوسمى: المطر فى أول الربيع.

(٢) الورد: الماء الذى يورد، والقوم يردون الماء، الصّدر: الرجوع عن الماء.

(٣) يوبق: يُهلك من وبق.

(٤) الغِير: تغير الأحداث.

من كان فـى معقل للحِرز[1] أسلمه		أو كان فـى خمر لم ينجه خَـمَرُ
حتى متى أنـا فـى الدنيا أخو كَلَفٍ		فـى الخير منى لَذَّاتِهـا صَعَـرُ[2]
ولا أرى أثـرًا للذكرِ فـى جـسدى		والماء فى الحجـر القـاسى لـه أثَرُ
لـو كان يسـهر عيـنى ذكـر آخرتى		كـمـا يُؤرِقنى لـلعـاجـل الشَّـهَـرُ
إذًا لداويت قـلبًا قـد أضرّ بـه		طول السقـام ووهن العظم ينجـبرُ
ما يلبثُ الشيءُ أن يبلى إذا اختلفت		يومًا على نقضه الروحات والبكَرُ[3]
والمرءُ يصـعد ريعـان الشبـاب بـه		وكـل مـصعدة يـومًا ستنـحدر[4]
وكـل بيـت خـراب بعـد جِـدَّته		ومن وراء الشـبـاب الموت والكِبَـرُ
بينا يُرى الغُصن لَدْنًا[5] فـى أرومته		ريان أضـحى خُطامًا جـوفه نَخِـرُ
وكم من جميع أَشَتَّ الدهر شملَهُمُ		وكـل شـمل جمـيع سـوف ينتثِـرُ
وربَّ أصيد سامى الطرف معتصب		بالتـاج نيـرانـه للـحرب تسـتـعـر
يظـل مفـترِشَ الديباج محتجبًا		عليـه تبنى قـباب الـملكِ والحَجـرُ
قـد غـادرته المنايا وهـو مسـتلب		مُـجَدَّل تـرب الخدين منـعفِـر[6]
أبعـد آدم ترجـون البـقـاء وهـل		تبـقى فـروع لأصل حين ينـعقـر
لهم بيـوت بمستن السيـول وهـل		يبـقـى على الماء بيت أُسُّـه مَـدَرُ
إلى الفناءِ -وإن طالت سلامتهم-		مـصيـر كل بنى أنثـى وإن كثـروا
إنَّ الأمور إذا استقبلتَها اشتبهت[7]		وفـى تدبرهـا التبـيـان والـعِـبَـرُ
والمرء مـا عاش فى الدنيـا له أملٌ		إذا انقـضى سـفر منهـا أتى سفـر

(١) الحِرز: المكان المنيع يُلجأ إليه.
(٢) صَعَر: صعر خده: أماله كبرًا.
(٣) الروحات والبكر: روحة من الرواح، ويقابله الصباح البكر: أول النهار.
(٤) أى بعد كل صعود نزول؛ ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع.
(٥) لدنا: طريًا لينًا.
(٦) مُجَدَّلُ: جَدَّل: صرع، وفى حديث عليّ رضى الله عنه: يعز عليَّ أبا محمد أن أراك مجدّلاً تحت النجوم.
(٧) اشتبهت: اشتبه: اختلط الأمر عليه.

لها حلاوةُ عيشٍ غيرُ دائمة ... وفى العواقب منها المرُّ والصَّبرُ
إذا انقضت زمر آجالها نزلت ... على منازلها من بعدها زُمر[1]
وليس يزجرُكُم ما توعظون به ... والبُهْمُ يزجرها الراعى فتنزجر[2]
أصبحتم جَزَرًا للموت يقبضكم ... كما البهائم فى الدُّنيا لها جزر
لا تبطروا واهجروا الدُّنيا فإن لها ... غِبًا وخيمًا، وكفر النعمة البطر
ثم اقتدوا بالأُلى كانوا لكم غُرَرا ... وليس من أمة إلا لها غُرَرُ[3]
حتى تكونوا على منهاج أولكم ... وتصبروا عن هوى الدنيا كما صبروا
مالى أرى الناس والدنيا مولية ... وكل حبل عليها سوف ينبتر[4]
لا يشعرون بما فى دينهم نَقَصوا ... جهلاً وإن نقصوا دنياهم شعروا[5]

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يتمثل بالشعر كثيراً، ومن تلك الأبيات التى ترنّم بها:

ولا خير فى عيش امرئ لم يكن له ... من الله فى دار القرار نصيب[6]

ومن ذلك أيضًا:

تُسَرُّ بما يَبْلى[7] وتفرح بالمنى ... كما اغتر باللذات فى النوم حالم
نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلُك نوم والرَّدَى لك لازم
وسعيك فيما سوف تكره غِبَّه ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائم[8]

وذات يوم نظر عمر بن عبد العزيز، وهو فى جنازة إلى قوم قد تلثَّموا من الغبار والشمس، وانحازوا إلى الظلِّ، فبكى وأنشد:

(١) الزمر: مفردها زمرة، وهى الفوج والجماعة.
(٢) انزجر: انقاد ـ أى أن الحيوانات تنقاد لراعيها إذا دعاها .
(٣) الغُرر: جمع غُرّة، وغرة القوم: شريفهم وسيدهم .
(٤) ينبتر: انبتر: انقطع .
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز، عفت وصال، ص (١٨٧)، الكتاب الجامع لسيرة عمر (١/ ٨١) .
(٦) البداية والنهاية (١٢/ ٧٠٧) .
(٧) يبلى: يفنى.
(٨) البداية والنهاية (١٢/ ٧٠٧) .

من كان حين تصيب الشمسُ جبهته | أو الغبارُ يخاف الشَّينَ والشعثا
ويألف الظلَّ كى تبقى بشاشته | فسوف يسكن يومًا راغمًا جدَثا
فى قعر مُظلمةٍ غبراء موحشةٍ | يطيل فى قعرها تحت الثَّرى لُبْثا
تجهَّزى بجهاز تبلُغين به | يا نفس قبل الرّدى لم تُخلقى عبثا[1]

٢٢ـ بين الشاعر دكين بن رجاء وعمر بن عبد العزيز:

قال دكين: امتدحت عمر بن عبد العزيز، وهو والى المدينة، فأمر لى بخمس عشرة ناقة كرائم صعاب[2]، فكرهت أن أرمى بها الفجاج فتنتشر علىَّ، ولم تطب نفسى ببيعها، فقدمت علينا رفقة من مُضر، فسألتهم الصحبة، فقالوا: إن خرجت فى ليلتك، فقلت: إنّى لم أودِّع الأمير، ولا بدَّ من وداعه، قالوا: إنّه لا يحتجب عن طارق ليل، فأتيته، فاستأذنت عليه، فأذن لى، فدخلت وعنده شيخان أعرفهما، فودّعته. فقال لى: يا دكين، إنَّ لى نفسًا توّاقة، فإن أنا صرت إلى أكثر ممّا أنا فيه، فبعَيْنٍ ما أرَيَنَّك، فقلت: أشهد لى عليك بذلك، فقال: أُشهد الله به، قلت: ومن خلقه؟ قال: هذين الشخصين، فأقبلت على أحدهما فقلت: من أنت أعرفُك؟ قال: سالم بن عبد الله، قلت: لقد استسمنت الشاهد، وقلت للآخر: من أنت؟ قال: أبو يحيى مولى الأمير[3]، فخرجت بهنَّ إلى بلدى، فرمى الله فى أذنابهنَّ بالبركة حتى اعتقدت منهنَّ الإبل والغلمان، فإنى لبصحراء فلج[4]، إذ ناعٍ ينعى سليمان بن عبد الملك، قلت: فمن القائم بعده؟ قال: عمر بن عبد العزيز، فتوجهت نحوه، فلقينى جرير بالطريق جائيًا من عنده، فقلت: يا أبا حزرة من أين؟ فقال: من عند من يعطى الفقراء ويمنع الشعراء، ولكن عوِّل عليه فى مال ابن السبيل، فانطلقت فإذا هو فى عرصة داره[5] قد أحاط به الناس، فلم يمكنِّى الرِّجْل إليه، فناديت:

يا عمر الخيرات والمكارم | وعُمر الدَّسائع العظائم[6]

---

(١) البداية والنهاية (١٢/٦٠٧) .
(٢) الصعاب: جمع صعبة، وهى نقيض الذلول.
(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢/ ٦١١) .
(٤) فلج: موضع فى الصحراء.
(٥) عرصة الدار: وسطها .
(٦) الدسائع: العطايا والرغائب الواسعة .

إنِّى امـــــرؤ مـن قطـنَ بن دارم   أطـلــب دَيْــنــى مـن أخ مـكــارم
إذ نـنــتــجـى والله غــيــر نــائم   فى ظلــمـــة الليـل وليل عـــاتم
عند أبى يحيى وعند سالم(١)

فقام أبو يحيى فقال: يا أميـر المؤمنين، لهذا البدوى عندى شهادة عليك، قال: أعرفها: ادنُ منِّى يا دُكين، أنا كما ذكرت لك، إنَّ نفسى لم تنل أمرًا إلا تاقت إلى ما هو فوقـه، وقد نلت غاية الدنيا، فنفسى تتـوق إلى الآخرة، والله ما رزأت من أموال الناس شيئًا فأعطيك منه، ومـا عندى إلا ألفا درهم، أعطيك أحدهما، فأمر لى بألف، فوالله ما رأيت ألفًا كان أعظم بركة منه(٢). ودكين هو القائل:

إذا المرء لم يدنس من اللُّؤم عِرضُهُ   فكــل رداء يرتديه جـــمــيـــل
وإن هو لم يُضْرِع عن اللُّؤم نَفْسَهُ   فليس إلى حسن الثَّناء سـبـيل(٣)

* من معالم عمر بن عبد العزيز فى التغيير الاجتماعى:

ومن خلال حياة عمر بن عبد العزيز الاجتماعية يمكننا معرفة معالم منهجه فى التغيير الاجتماعى والتى من أهمها:

١ ـ **القدوة**: حيث ضرب من نفسه مثالاً رائعًا فى الزهد والورع ومحاسبة النفس والأهل والعشيرة وإقامة الشرع على نفسه ومن حوله.

٢ ـ **التدرج والمرحلية**: حيث أخذ بسنة التدرج فى الإصـلاح الإجتماعى، وإماتة البدع وإحياء السنن، كما مرّ معنا.

٣ ـ **فهم النفوس البشرية**: ولهذا كـان يتبع مع الناس أسلوب الحكـمة والموعظة الحسنة، ويرّغب ويرهب، ويعطى شيئًا من الدنيا لتهدئة النفوس، ثم أخذها للحق وإقامة العدل وإزالة الظلم.

٤ـ **ترتيب الأولويات**: فقد قدم رد المظالم على غيرها من الأعمال، ولهذا انتهج سيـاسة واضـحة فـى رد المظالم، بدأ بنفسـه، ثم أهله وعشـيرته، وعـزل الولاة

(١) ننتجى: نتناجى.

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢/ ٦١٢).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ٦١٢).

الظلمة، وعين الأخيار من أهل الكفاءة والأمانة والعلم، لإقامة العدل وتطبيق الشرع.. إلخ.

٥ ـ وضوح الرؤية فى خطواته الإصلاحية: حيث جدّد مفهوم الشورى وبيعة الحاكم وحق الأمة فى الاختيار، عمل على توكيل الأمناء على الولايات، نشره للعدل فى كافة الدولة، إحياؤه للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حرصه على سلامة معتقد الأمة الصحيح ومحاربته للمعتقدات الفاسدة، اهتمامه بالعلماء وتوظيفه لخدمة الإسلام من خلال الدعوة والعلم والتعليم والتزكية،... إلخ من الأعمال فى مجال الاقتصاد، والسياسة والاجتماع حيث كان يملك رؤية إصلاحية تجديدية شاملة، كما سوف يتضح من خلال هذا الكتاب.

٦ـ التقيد بالقرآن الكريم والسنة النبوية: وهدى الخلفاء الراشدين فى رؤيته الإصلاحية، وبذلك يمكننا القول بأن وضوح الرؤية انبثق من خلال ثوابت راسخة متمثلة فى المرجعية الشرعية للرؤية الإصلاحية الشاملة التى قام بها عمر بن عبد العزيز، والتى من جوانبها الحياة الاجتماعية.

ثانيًا: عمر بن عبد العزيز والعلماء:

كانت أيام سليمان بن عبد الملك بداية لمشاركة العلماء فى مسئوليات الدولة، وقربهم من مصدر القرار السياسى وتأثيرهم فيه، فلما جاء عهد عمر بن عبد العزيز أصبحت مشاركة العلماء فى إدارة شئون الدولة قوية فعالة، وشاملة متنوعة، فعلى رأس الدولة عمر وهو يعد من أبرز العلماء وكبار الفقهاء وساس الدولة كعالم وليس كملك، وتوسعت دائرة مشاركة العلماء فى عهده فبدأت تؤثر فى مركز اتخاذ القرار فى العاصمة حيث أحاط عمر نفسه بجملة من العلماء للإشارة عليه ومعاونته، وأبعد من سواهم، فأصبحوا فرسان الحلبة وحدهم، فساهموا فى صياغة سياسة الدولة صياغة شرعية خالصة، وامتدت مشاركتهم فى المسئولية إلى بقية مرافق الدولة، فأسندت إليهم مختلف المناصب والأعمال، ولا يعدو القول الحقيقة إذا قلنا: إن الدولة فى عهد عمر بن عبد العزيز كانت دولة العلماء، فهى نموذج لما ينبغى أن تكون عليه الدولة الإسلامية، اتحدت فيها السلطة

التشريعية مع السلطة التنفيذية على أحسن حال[1]، وقد اتسعت مشاركة العلماء فى عهد عمر بن عبد العزيز بشكل لم يسبق له مثيل فى الدولة الأموية، ويرجع السبب فى ذلك إلى أمور، أهمها: حرص عمر على تقريب العلماء وجعلهم بطانته ووزراءه وأعوانه، ويتعلق السبب الآخر بالعلماء حيث لم ير أحد من العلماء لنفسه أى مبرر فى البعد عن عمر والمشاركة فى أعماله، فمن كان منهم يرى اعتزال الخلفاء والأمراء من منطلق أن على العلماء أن يصونوا العلم وألا يذهبوا للسلاطين ابتداء بل على السلاطين أن يقدروا العلم والعلماء ويسعوا إليهم، من كان يرى ذلك فقد تحقق له شرطه حيث كان عمر يقصد العلماء ويبعث إليهم، ومن كان يرى اعتزال الخلفاء والأمراء خوفًا على دينه من مخالطتهم، لم يعد لهذا المحذور وجود حيث إن مجالس عمر ومخالطته تعين المرء على دينه، لهذا قدم العلماء على عمر ورأوا أن من الواجب عليهم تحمل عبء المسئولية الملقاة على عاتقه، ولم يعد لمعتذر عذر، بل أقبلوا عليه[2]، وقالوا كما ذكر ابن عساكر: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله[3]. فهذا ميمون بن مهران الذى يقول: لا تدخل على سلطان وإن قلت: آمره بطاعة، والذى يقول: لا تعرف الأمير ولا تعرف من يعرفه ومع هذا لا يجد لنفسه بدًا من العمل عند عمر بن عبد العزيز ومشاركته[4]. وتتجلى مشاركة العلماء فى عهد عمر فى عدة مظاهر أهمها:

١- قربهم من الخليفة وشد أزره للسير فى منهجه الإصلاحى:

أسهم العلماء فى مساعدة عمر بن عبد العزيز فى السير فى منهجه الإصلاحى، حيث أيدوه فيما اتخذه من قرارات إصلاحية، كما كان لبعضهم أثر فى اتخاذ عمر لبعض تلك القرارات. فمن ذلك ما أثر عن العالم العامل عراك بن مالك[5]، فقد ذكر ابن عمه أنه كان من أشد أصحاب عمر بن عبد العزيز على بنى مروان فى انتزاع ما حازوا من الفىء والمظالم من أيديهم، وقد تعرض بسبب هذا الموقف

---

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١١٤).
(٢) المصدر نفسه، صـ (١٩٦).
(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٩٧).
(٤) البداية والنهاية نقلاً عن أثر العلماء، ص(١٩٧).
(٥) عراك بن مالك الغفارى المدنى، أحد العلماء العاملين.

لغضب بنى أمية فيما بعد فنفاه يزيد بن عبد الملك بعد، توليه الخلافة إلى دهلك[1]. وكان عراك بن مالك الغفارى شيخًا كبيرًا ومحدثًا وهو تابعى ثقة من خيار التابعين، وكان زاهدًا عابدًا، وقد انتفع به أهل تلك الجزيرة التى نفى إليها[2]، وكان هذا التابعى الجليل يسرد الصوم، وقال فيه عمر بن عبد العزيز: ما أعلم أحدًا أكثر صلاة من عراك بن مالك، وقد مات فى منفاه رحمه الله فى إمرة يزيد بن عبد الملك عام ١٠٤هـ[3]، وكان ميمون بن مهران من المقربين من عمر بن عبد العزيز، فقد روى ابنه عمر بن ميمون بن مهران عن أبيه قال: ما زلت ألطف فى أمر الأمة أنا وعمر بن عبد العزيز حتى قلت له: ما شأن هذه الطوامير التى تكتب فيها بالقلم الجليل، وهى من بيت المال، فكتب إلى الآفاق لتركه فكانت كتبه نحو شبر[4]. وميمون بن مهران قال عنه الذهبى: الإمام الحجة عالم الجزيرة ومفتيها[5]، وقال عنه عمر بن عبد العزيز: إذا ذهب هذا وضرباؤه، صار الناس بعده رجراجة[6]، وكان يكبر عمر بن عبد العزيز بعشرين سنة[7]، وكان ميمون بن مهران من علماء السلف، وممن له مواقف وأقوال فى نصرة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فمن أقواله: لا تجالسوا أهل القدر، ولا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، ولا تَعَلَّموا النجوم[8]. وكتب ذات يوم إلى عمر بن عبد العزيز: إنى شيخ كبير رقيق، كلَّفتنى أن أقضى بين الناس، وكان على الخراج والقضاء بالجزيرة، فكتب إليه: إنى لم أُكَلِّفك ما يُعنِّيك اجْبِ الطَّيِّبَ من الخراج، واقض بما استبان لك، فإذا لُبِس عليك شئ، ارفعه إلىّ، فإن الناس لو كان إذا كبُر عليهم أمرٌ تركوه لم يقم دين ولا دنيا[9]. ومن أقوال ميمون بن مهران: لا يكون الرجل تقيًا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه، وحتى يعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه[10].

(١) جزيرة فى بحر اليمن ضيقة حرجة، كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها، سير أعلام النبلاء (٥/ ٦٤).

(٢) انتشار الإسلام فى القرن الإفريقى خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ص (٣٨، ٣٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ٦٤).

(٤) المصدر نفسه (٥/ ١٣٣).

(٥) المصدر نفسه (٥/ ٧١).

(٦) رجراجة: رعاع الناس وجهالهم.

(٧) سير أعلام النبلاء (٥/ ٧٢).

(٨) المصدر نفسه (٥/ ٧٣).

(٩)، (١٠) المصدر نفسه (٥/ ٧٤).

وقال: ثلاثة تُؤدَّى إلى البرِّ والفاجر: الأمانة، والعهد، وصلة الرحم[١]. وقال رجل لميمون بن مهران: يا أبا أيوب، ما يزال الناس بخير ما أبقاك الله لهم، قال: أقبل على شأنك، ما يزال الناس بخير ما اتقوا ربهم[٢]، وقال: من أساء سراً، فليتب سراً، ومن أساء علانية، فليتب علانية، فإن الناس يعيرون ولا يغفرون، والله يغفر ولا يعيّر[٣]. وعن جعفر بن برقان: قال لى ميمون بن مهران: يا جعفر قل فى وجهى ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره[٤]، وعن أبى المليح قال: قال ميمون: إذا أتى رجل باب سلطان، فاحتجب عنه، فليأت بيوت الرحمن، فليصلى ركعتين، وليسأل حاجته[٥]، وعن ميمون بن مهران قال: ثلاث لا تبلون نفسك بهنَّ: لا تدخل على السلطان، وإن قلت: آمره بطاعة الله، ولا تصغين بسمعك إلى هوى، فإنك لا تدرى ما يعلق بقلبك منه، ولا تدخل على امرأة ولو قلت: أعلمها كتاب الله[٦]. وقال: ما نال رجل من جسيم الخير - نبى ولا غيره - إلا بالصبر[٧]. وتوفى ميمون رحمه الله سنة سبع عشرة ومائة[٨]، وقيل: سنة ست عشرة ومائة[٩].

٢ـ تعهدهم عمر بالنصح والتذكير بالمسئولية:

يعتبر عمر بن عبد العزيز أكثر خليفة وجهت إليه النصائح والتوجيهات فى عهد بنى أمية، فقد شهد أكبر عدد من الرسائل بين الخليفة والعلماء، ولو استعرضنا أولئك العلماء الذين وجهوا النصح والتذكير لعمر، وما كتبوه من رسائل لطال بنا الحديث، ولكن نذكر منهم على سبيل المثال، سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن كعب القرظى، وأبا حازم سلمة بن دينار، والقاسم بن مخيمرة، وحسن البصرى وغيرهم، وكانت نصائح العلماء تتضمن عدداً من التوجيهات التى لها صلة بمنهج عمر السياسى، مما يؤكد أن عمر بن عبد العزيز استقى منهجه من المنهل الذى نبعت منه هذه التوجيهات[١٠]، فمما جاء فى موعظة محمد بن كعب القرظى: . . يا أمير المؤمنين افتح الأبواب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، ورد الظالم[١١]،

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٧٤).
(٢- ٦) المصدر نفسه (٥/ ٧٥).
(٧) المصدر نفسه (٥/ ٧٧).
(٨) المصدر نفسه (٥/ ٧٨).
(٩) المصدر نفسه (٥/ ٧٨).
(١٠)، (١١) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (١٩٩).

وبمثل هذا المعنى جاءت موعظة القاسم بن مخيمرة حيث قال لعمر: .. بلغنا أن من ولى على الناس فاحتجب عن فاقتهم وحاجتهم احتجب الله عن فاقته وحاجته يوم يلقاه. قال عمر: فما تقول؟ ثم أطرق طويلاً وبرز للناس[1]، وجاء فى إحدى رسائل الحسن البصرى لعمر: ... أما بعد، يا أمير المؤمنين فكن للمثل أخًا وللكبير ابنًا وللصغير أبًا، وعاقب كل واحد منهم بذنبه على قدر جسمه، ولا تضربن لغضبك سوطًا واحدًا فتدخل النار[2]، وقد كان عمر كما سلف يحرص على تطبيق مثل هذا التوجيه ويأمر عماله بذلك[3]، ومما جاء فى رسالة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ المليئة بالتوجيهات: .. فإنه قد كان قبلك رجال عملوا، وأحيوا ما أحيوا، وأتوا ما أتوا حتى ولد فى ذلك رجال ونشؤوا فيه، وظنوا أنها السنة فسدوا على الناس أبواب الرخاء، فلم يسدوا منها بابًا إلا فتح الله عليهم باب بلاء، فإن استطعت ـ ولا قوة إلا بالله ـ أن تفتح على الناس أبواب الرخاء فافعل، فإنك لن تفتح بابًا إلا سد الله الكريم عنك باب بلاء، ولا يمنعك من نزع عامل أن تقول: لا أحد يكفينى عمله، فإنك إذا كنت تنزع لله وتستعمل لله أتاح الله لك أعوانًا فأتاك بهم. وجاء فيها أيضًا: .. فمن بعثت من عمالك إلى العراق فانهه نهيًا شديدًا بالعقوبة عن أخذ الأموال وسفك الدماء إلا بحقها. المال، المال يا عمر، والدم. الدم فإنه لا نجاة لك من هول جهنم من عامل بلغك ظلمه ثم لم تغيره[4].

وهذه التوجيهات هى عين سياسة عمر فى السعى لإغناء رعيته وانتقائه لعماله ومحاسبته لهم[5].

٣ـ مشاركتهم فى تولى مختلف مناصب الدولة وأعمالها:

لم تقتصر مشاركة العلماء لعمر بن عبد العزيز على الإشارة عليه وتقديم النصح له، بل تعدت ذلك إلى تولى عدد من المناصب فى مختلف الأقاليم وأهم هذه المناصب وأكثرها أثرًا فى سياسة الدولة: الإمارة على الأقاليم، وبيت المال[6]،

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزى، ص (١١٣).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٠٣).

(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٩٩).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص (١٠٣).

(٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٩٩).

(٦) المصدر نفسه، ص (٢٠٠).

وحين نتتبع ولاة عمر على الأقاليم نجد أن جلهم من العلماء فمن ذلك: الإمام الثقة والأمير العادل عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب على ولاية الكوفة[1]، والعالم القدير أبو بكر بن عمر بن حزم على المدينة[2]، والإمام الكبير إسماعيل بن أبى المهاجر على إفريقية[3]، والفقيه المحدث عدى بن عدى الكندى على الجزيرة الفراتية وأرمينية وأذربيجان[4]، والإمام القاضى عبادة بن نسى على الأردن[5]، والثقة الصالح عروة بن عطية السعدى على اليمن[6]، والقاضى الفاضل سالم بن وابصة العبدى على الرقة[7]، وأما بيت المال فقد تولى العمل فيه عدد من العلماء ومنهم: العالم الجليل ميمون بن مهران على خراج الجزيرة[8]، والثقة الصالح صالح بن جبير الصدائى على الخراج[9]، والعالم وهب بن منبه على بيت مال اليمن، وأبو زناد، وتولى عمر بن ميمون البريد لعمر بن عبد العزيز[10].
ولا شك أنه كان لهذه المشاركة الواسعة من العلماء بتوليهم الإمارة، وبيوت الأموال فى مختلف الأقاليم الأثر الكبير فى ضبط شئون الدولة الإدارية والمالية، وما ترتب على ذلك من آثار حسنة فى الحياة السياسية فى عهد عمر بن عبد العزيز[11].

ثالثًا: المدارس العلمية فى عهد عمر بن عبد العزيز والدولة الأموية:

تحدثت فى كتابى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن المدارس العلمية، واتخاذه من عاصمة الدولة مدرسة يتخرج منها العلماء والدعاة والولاة والقضاة، فنشطت المدارس العلمية فى مكة والمدينة والبصرة والكوفة والشام ومصر وغيرها، وأشرف الصحابة الكرام على تعليم وتربية الناس فيها، واستطاعت تلك المدارس أن تخرج كوادر علمية وفقهية ودعوية متميزة، ساندت المؤسسة العسكرية التى قامت بفتح العراق وإيران والشام ومصر وبلاد المغرب، واستطاع علماء الصحابة الذين تفرغوا لدعوة الناس وتربيتهم أن ينشئوا جيلاً من العارفين للدين الإسلامى

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٩) .
(٢) المعرفة والتاريخ (١/ ٦٤٥) .
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢١٣).
(٤) مختصر تاريخ دمشق (١٦/ ٣٢) .
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٢٣) .
(٦) تهذيب التهذيب (٦/ ١٨٦) .
(٧) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٢٠١).
(٨) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٧٨).
(٩ - ١١) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٢٠٢).

من أبناء المناطق المفتوحة، وقد استطاعوا أن يتغلبوا على مشكلة إعاقة الحاجز اللغوى، بل تعلم الكثير من الأعاجم لغة الإسلام، وأصبح كثير من رواد حركة العلم بعد عصر الصحابة من العجم، لقد أثرت المدارس العلمية والفقهية فى المناطق المفتوحة، وشكلت جيلاً من التابعين نقلوا إلى الأمة علم الصحابة وأصبحوا من ضمن سلسلة السند التى نقلت للأمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويرجع الفضل - بعد الله - فى نقل ما تلقاه الصحابة، من علم من الرسول بالدرجة الأولى بعد الله إلى مؤسسى المدارس العلمية بمكة والمدينة والبصرة والكوفة وغيرها من الأقطار[1]. وقد استمرت مدارس التابعين فى النشاط العلمى فى عهد الدولة الأموية وكثير من العلماء الذين تخرجوا من تلك المدارس أعانوا عمر بن عبد العزيز على مشروعه الإصلاحى التجديدى الراشدى المنضبط بمنهاج النبوة، ومن أهم تلك المدارس:

١ـ مدرسة الشام:

تأسست فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأشهر مؤسسيها من الصحابة، معاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وعباد بن الصامت رضى الله عنهم، وحمل التابعون الراية العلمية والتربوية والدعوية بعد الصحابة ومن أشهرهم:

أ ـ الإمام الفقيه أبو إدريس الخولانى، عائذ بن عبد الله: قاضى دمشق وعالمها، روى عن أبى الدرداء، وأبى هريرة وابن عباس وخلق غيرهم، كان أبو إدريس عالم الشام بعد أبى الدرداء قال: أدركت أبى الدرداء ووعيت عنه، وعبادة بن الصامت وشداد بن أوس ووعيت عنهما[2]. كان أبو إدريس ثقة من أهل الفقه فى الدين وعلم الحلال والحرام، وكان من أحسن الناس تلاوة للقرآن، فعن يزيد بن عبيدة أنه رأى أبا إدريس فى زمن عبد الملك بن مروان، وحلق المسجد بدمشق يقرؤون القرآن، يدرسون جميعًا، وأبو إدريس جالس إلى بعض العمد، فكلما مرت حلقة بآية سجدة بعثوا إليه يقرأ بها، وأنصتوا له وسجد بهم جميعًا... حتى إذا فرغوا من قراءتهم قام أبو إدريس يقص[2]. وعن يزيد بن أبى مالك، قال: كنا

(١) الدور السياسى للصفوة، ص (٤٦٢، ٤٦٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٧٥).
(٣) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٤).

نجلس إلى أبى إدريس الخولانى فيحدثنا، فحدث يومًا عن بعض مغازى رسول الله ﷺ حتى استوعب الغزاة، فقال له رجل من ناحية المجلس: أحضرت هذه الغزوة؟ فقال: لا، وقال الرجل: قد حضرتها مع رسول الله، ولأنت أحفظ لها منى[(١)]، وقد عزل عبد الملك بن مروان بلال بن أبى الدرداء عن القضاء، وولى أبا إدريس[(٢)]. ثم إن عبد الملك عزل أبا إدريس عن القصص، وأقره على القضاء، فقال أبو إدريس: عزلتمونى عن رغبتى وتركتمونى فى رهبتى[(٣)]. توفى عام ٨٠هـ[(٤)].

ب ـ **الفقيه قبيصة بن ذؤيب الدمشقى:** روى عن عمر بن الخطاب، وأبى الدرداء وعبد الرحمن بن عوف وخلق غيرهم. كان قبيصة من علماء التابعين ثقة مأمونًا كثير الحديث، قال الشعبى: كان أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت[(٥)]، قال عنه مكحول: ما رأيت أحدًا أعلم من قبيصة[(٦)]، وعن ابن شهاب، قال: كان قبيصة ابن ذؤيب من علماء هذه الأمة[(٧)]، توفى سنة ٨٦ هـ وقيل: ٨٧ هـ، وقيل: ٨٨هـ[(٨)]. وقد توسعت فى ترجمته عند حديثى عن عبد الملك.

ج ـ **رجاء بن حيوة الفلسطينى:** من أجلة التابعين وشيخ أهل الشام، حدث عن معاذ بن جبل وأبى الدرداء وعباد بن الصامت وطائفة[(٩)]، كان شاميًا ثقة فاضلاً كثير العلم[(١٠)]، ويروى عن رجاء بن حيوة أنه قال: من لم يؤاخ إلا من لا عيب فيه قلَّ صديقه، ومن لم يرض من صديقه بالإخلاص له دام سخطه، ومن عاتب إخوانه على كل ذنب كثر عدوُّه[(١١)]. كان رجاء كبير المنزلة عند سليمان بن عبد الملك وعند عمر بن عبد العزيز، وأجرى الله على يديه الخيرات، ثم إنَّه بعد ذلك أُخِّر، فأقبل على شأنه[(١٢)]، توفى سنة ١١٢هـ[(١٣)].

د ـ **مكحول الشامى الدمشقى:** عالم أهل الشام، عداده فى أواسط التابعين من أقران الزهرى، سمع من وواثاية بن الأسقع، وواثلة آخر من مات من الصحابة

(١ - ٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٧٥).

(٤) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٦).

(٥ - ٨) المصدر نفسه (٤/ ٢٨٣).

(٩) المصدر نفسه (٤/ ٥٥٩).

(١٠) الفتوى: نشأتها وتطورها، د. حسين الملاح، ص (٨٥).

(١١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٥٨).

(١٢) المصدر نفسه (٤/ ٥٦٠).

(١٣) المصدر نفسه (٤/ ٥٦١).

بدمشق[١]، وتوفى عام ٨٥ هـ وله ثمان وتسعون سنة[٢]، قال عنه الزهرى: العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة. والشعبى بالكوفة، والحسن بالبصرة، ومكحول بالشام[٣]. وكان مكحول أفقه أهل الشام، ولم يكن فى زمنه أبصر بالفتيا منه[٤]. توفى ١١٢هـ وقيل: ١١٣هـ وقيل: غير ذلك[٥].

هـ ـ عمر بن عبد العزيز: ومن علماء المدرسة الشامية والمدينة وذلك بعد انتقاله إلى الشام وقيامه بأعباء الخلافة، وكان معروفًا بالفقه بصيرًا بالسنة، يرجع إليه القضاة فى الأمور التى يختلفون فيها[٦]. وقد بدأت بالمدرسة الشامية لأنها ترعرعت فى عاصمة الخلافة الأموية.

و ـ بلال بن سعد السكونى: الإمام الربانى الواعظ أبو عمرو الدمشقى شيخ أهل دمشق كان لأبيه صحبة، كان بليغ الموعظة، حسن القصص، نافعًا للعامة، وكان لأهل الشام كالحسن البصرى بالعراق وكان قارئ أهل الشام جهير الصوت[٧] يقول الأوزاعى: لم أسمع واعظًا قط أبلغ من بلال بن سعد[٨]، ومن مواعظه العميقة: يا أهل التُقى إنكم لم تُخلقوا للفناء، وإنما تُنقلون من دار إلى دار، كما نُقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود فى جنة أو نار[٩]. ومن أقواله: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر من عصيت[١٠]. وقال الأوزاعى سمعته يقول: والله لكفى بنا ذنبًا أن الله يزهدنا فى الدنيا ونحن نرغب فيها[١١]. وقد توفى سنة نيف وعشرة ومائة.

٢ـ المدرسة المدنية:

لما انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى كانت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية وموطن الخلافة، وفيها تفتق عقل الصحابة فى استخراج أحكام إسلامية، تصلح لما جد من شئون فى المجتمعات الإسلامية، بعد الفتوح التى كثرت، وفى عهد عمر

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٨٦).
(٣) المصدر نفسه (٥/ ١٥٨).
(٤) المصدر نفسه (٥/ ١٥٩).
(٥) المصدر نفسه (٥/ ١٥٩، ١٦٠).
(٦) الدعوة إلى الله فى العصر العباسى الأول (١/ ٥٤).
(٧) سير أعلام النبلاء (٥/ ٩٠، ٩١).
(٨-١٠) المصدر نفسه (٥/ ٩١).
(١١) المصدر نفسه (٥/ ٩٢).

ابن الخطاب بلغ فقهاء الصحابة المفتون (١٣٠) مائة وثلاثين صحابيًا، وكان المكثرون منهم سبعة: عمر، وعلى، وعبد الله بن مسعود، وعائشة، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر[١]، وورث علماء التابعين الفقه والعلم والتربية والدعوة، وأما أشهر علماء التابعين: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعمرة بنت عبد الرحمن بن سعد الأنصارية، والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، وسليمان بن يسار، ونافع مولى ابن عمر[٢]، وقد تحدثت عن دور فقهاء وعلماء التابعين بالمدينة فى نشأة عمر بن عبد العزيز.

٣ـ المدرسة المكية:

احتلت هذه المدرسة المكانة فى قلوب المؤمنين، الساكنين والثائبين إلى بلد الله الحرام، الحجاج والعمار والزوار، بل أخذت مكة بألباب كل مؤمن رآها أو تمنى أن يراها، ولقد كان العلم بمكة يسيرًا زمن الصحابة، ثم كثر فى أواخر عصرهم وكذلك فى أيام التابعين، وزمن أصحابهم، كابن أبى نجيح، وابن جريج[٣]، إلا أن مكة اختصت زمن التابعين بحبر الأمة وترجمان القران ابن عباس رضى الله عنهما، الذى صرف جل همه، وغاية وسعه إلى علم التفسير، وربى أصحابه على ذلك، فنبغ منهم أئمة كان لهم قصب السبق بين تلاميذ المدارس فى التفسير، وقد ذكر العلماء مجموعة من الأسباب أدت إلى تفوق المدرسةِ المكية فى هذا العلم، وأهم هذه الأسباب والأساس فيها إمامة ابن عباس رضى الله عنهما وأستاذيته لها[٤]، ومن أشهر علماء التابعين فى المدرسة المكية:

أـ مجاهد بن جبر المكى: أخذ الفقه والتفسير عن ابن عباس وغيره من الصحابة، كان فقيهًا عالمًا ثقة من أوعية العلم[٥]، وعن مجاهد قال: عرضت القرآن ثلاث عرضات على ابن عباس، أَقِفُه عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف كانت[٦]، وقال قتادة: أعلم من بقى بالتفسير مجاهد[٧]، وقال مجاهد: صحبت ابن عمر

(١) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى (٢/ ٤٥).
(٢) الفتوى، د. حسين الملاح، ص (٨١، ٨٢).
(٣) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى (٢/ ٤٨).
(٤) تفسير التابعين، د. محمد الخضرى(١/ ٣٧١).
(٥) الفتوى، د. حسين الملاح، ص (٨٠).
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥١).
(٧) المصدر نفسه (٤/ ٤٥١).

وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمنى[1]، وقدم مجاهد على سليمان بن عبد الملك ثم على عمر بن عبد العزيز، وشهد وفاته. وعن مجاهد قال: قال لى عمر بن عبد العزيز فى مرض وفاته: يا مجاهد ما يقول الناس فىّ؟ قلت: يقولون: مسحور، قال: ما أنا بمسحور، ثم دعا غلامًا له فقال: ويحك، ما حملك على أن سقيتنى السُّمَّ؟ قال: ألف دينار أُعطيتها وأن أُعتق، قال: هاتها، فجاء بها، فألقاها فى بيت المال، وقال: اذهب حيث لا يراك أحد[2]، وقال مجاهد: ما أدرى أى النعمتين أعظم، أن هدانى للإسلام، أو عافانى من هذه الأهواء[3]. قال الذهبى معلقًا على قول مجاهد: مثل الرّفض والقدر والتجهّم[4]. وعن عبد الوهاب بن مجاهد، قال: كنت عند أبى فجاء ولده يعقوب فقال: يا أبتاه، إن لنا أصحابًا يزعمون أن إيمان أهل السماء وأهل الأرض واحد. فقال: يا بنى ما هؤلاء بأصحابى، لا يجعل الله من هو منغمس فى الخطايا كمن لا ذنب له[5]، ومات مجاهد سنة اثنتين ومائة وهو ساجد[6]، وكان عمره ثلاثًا وثمانين سنة[7].

ب ـ عكرمة مولى ابن عباس: كان مكيًا تابعيًا ثقة من أعلم التابعين، روى عن ابن عباس، وعائشة، وأبى هريرة، وابن عمر، وابن عمرو، وعقبة بن عامر، وعلى ابن أبى طالب[8]، قال: طلبت العلم أربعين سنة، وكنت أفتى بالباب وابن عباس بالدار، وعن عكرمة أن ابن عباس رضى الله عنه قال له: انطلق فأفتِ الناس وأنا لك عون، قلت: لو أن هؤلاء الناس ومثلهم مرتين لأفتيتهم. قال ابن عباس: انطلق فأفتهم فمن جاءك يسألك عما يعنيه فأفته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تُفته، فإنك تطرح عنك ثلثى مؤونة الناس[9]، وكان عكرمة كثير الأسفار ونزل على عبد الرحمن الحسّاس الغافقى، وصار إلى إفريقية[10]، وقد اتهم عكرمة بالصفرية -فرقة من فرق الخوارج- ولم تثبت هذه التهمة بسند صحيح وإنما بصيغة يقال[11]، وقد

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٢).
(٢) المصدر نفسه (٤/ ٤٥٣).
(٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه (٤/ ٤٥٥).
(٦) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٧)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٥).
(٧) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٦).
(٨) المصدر نفسه (٥/ ١٣).
(٩)، (١٠) المصدر نفسه (٥/ ١٥)
(١١) براءة السلف مما نسب إليهم من انحراف فى الاعتقاد، ص (٣٩).

دافع علماء الجرح والتعديل عن عكرمة، كأبى حاتم الرازى، وابن حبان، والعجلى، وابن منده وابن عبد البر، ونقل ذلك ابن حجر فى مقدمة الفتح وقال: لا تثبت عنه بدعة[1]. وقال البخارى: ليس أحد من أصحابنا إلا هو يحتج بعكرمة[2]، توفى سنة ١٠٥هـ[3].

ج ـ **عطاء بن أبى رباح**: مفتى الحرم وأحد الفقهاء الأئمة، روى عن ابن عباس وأبى هريرة، وأم سلمة، وعائشة، ورافع بن خديج، وزيد بن أرقم، وابن الزبير، وابن عمرو، وابن عمر، وجابر، ومعاوية، وأبى سعيد، وعدة من الصحابة[4]. وكان ثقة فقيهًا عالمًا كثير الحديث، انتهت إليه فتوى أهل مكة. قال عنه ابن عباس: يا أهل مكة تجتمعون علىَّ وعندكم عطاء، ولسعة علمه وجلالة قدره كانوا فى عهد بنى أمية يأمرون فى الحج مناديًا يصيح: لا يفتى الناس إلا عطاء بن أبى رباح. توفى سنة ١١٥هـ[5]. هؤلاء بعض علماء التابعين من المدرسة المكية الذين نهضوا بعبء الدعوة والتعليم وإتمام البناء العلمى[6].

٤ـ المدرسة البصرية:

وهى منافسة للكوفة فى كل الفنون، وقد نزلها من الصحابة جمع كثير، منهم أبو موسى الأشعرى، وعمران بن حصين، وأنس بن مالك وغيرهم، ويعتبر أنس ابن مالك رضى الله عنه شيخ السادة من علماء التابعين، أمثال الحسن البصرى، وسليمان التيمى، وثابت البنانى، وربيعة بن أبى عبد الرحمن، وإبراهيم بن أبى ميسرة، ومحمد بن سيرين، وقتادة وغيرهم[7]. ومن أشهر علماء المدرسة البصرية:

أ ـ **محمد بن سيرين البصرى**: كان مولى أنس بن مالك، سمع من ابن عباس، وابن عمر، وأبى هريرة وخلق سواهم[8]، وعن حبيب بن الشهيد قال: كنت عند

---

(١) مقدمة الفتح، ص (٤٢٨).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣١).
(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٤).
(٤) المصدر نفسه (٥/ ٧٩).
(٥) الفتوى، د. حسين الملاح، ص (٨١)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٧٨).
(٦) الدعوة إلى الله فى العصر العباسى الأول (١/ ٤١).
(٧) تفسير التابعين (١/ ٢٣٩)، عمر بن الخطاب للصَّلاَّبى، ص (٢٦٠).
(٨) سير أعلام النبلاء (٤/ ٦٠٦).

عمرو بن دينار فقال: والله ما رأيت مثل طاووس، فقال أيوب السختياني -وكان جالسًا- والله لو رأى محمد بن سيرين لم يقله[١]، وقال عثمان البتى: لم يكن بالبصرة أعلم بالقضاء من ابن سيرين[٢]. وكان الحسن البصرى يقدمه على غيره، فعن ثابت البُنانى، قال: كان الحسن متواريًا من الحجّاج فماتت بنت له، فبادرت إليه رجاء أن يقول لى صلّ عليها، فبكى حتى ارتفع نحيبه، ثم قال لى: اذهب إلى محمد بن سيرين، فقل له ليُصل عليها، فعرف حين جاء الحقائق، أنه لا يعدل بابن سيرين أحدًا[٣].

وكان محمد بن سيرين يصوم يومًا ويفطر يومًا[٤]، وكان قد أشتهر بتفسير الأحلام وهو أشهر من يعرف فى هذا الباب، قال عنه الذهبى: قد جاء عن ابن سيرين فى التعبير عجائب، وكان له فى ذلك تأييد إلهى[٥]. وكان يلبس الثياب الثمينة والطيالس والعمائم[٦]، وكان صاحب ضحك ومزاح[٧]، وكان بارًا بأمه، قالت حفصة بنت سيرين: كانت والدة محمد حجازية وكان يعجبها الصبغ، وكان محمد إذا اشترى لها ثوبًا اشترى ألين ما يجد، فإذا كان عيد، صبغ لها ثيابًا، وما رأيته رافعًا صوته عليها، كان إذا كلمها كالمصغى إليها[٨]، وعن ابن عون: أن محمدًا كان إذا كان عند أمه لو رآه رجل لا يعرفه ظن أن به مرضًا من خفض كلامه عندها[٩]. وقال ابن عون: كانوا إذا ذكروا عند محمد رجلاً بسيئة ذكره هو بأحسن ما يعلم. وجاءه ناس فقالوا: إنا نلنا منك فاجعلنا فى حلّ، قال: لا أُحلّ لكم شيئًا حرّمه الله[١٠]. توفى ابن سيرين بعد الحسن البصرى بمئة يوم، سنة عشر ومئة[١١].

ب ـ قتادة بن دعامة السدوسى: كان من أوعية العلم، روى عن بعض الصحابة وكبار التابعين، وكان ثقة حجة فى الحديث[١٢]، قال عنه أحمد بن حنبل: كان قتادة عالمًا بالتفسير وباختلاف العلماء، ثم وصفه بالفقه والحفظ وقال: قلما تجد من يتقدمه[١٣]. وقال: كان قتادة أحفظ أهل البصرة لا يسمع شيئًا إلا حفظه،

---

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٦٠٨) .
(٣) المصدر نفسه (٤/ ٦١٠) .
(٤) المصدر نفسه (٤/ ٦١٥) .
(٥) المصدر نفسه (٤/ ٦١٨) .
(٦) المصدر نفسه (٤/ ٦١٩) . .
(٧) المصدر نفسه (٤/ ٦١٣)
(٨) المصدر نفسه (٤/ ٦١٩)
(٩)، (١٠) المصدر نفسه (٤/ ٦٢٠) .
(١١) المصدر نفسه (٤/ ٦٢١) .
(١٢) الفتوى، د. حسين الملاح، ص (٨٤) .
(١٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٧٦) .

قرئ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها[1]. قال سلام بن مطيع: كان قتادة يختم القرآن فى سبع، وإذا جاء رمضان ختم فى كل ثلاث[2]. قال عنه الذهبى: حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين[3]، كان رأسًا فى العربية والغريب وأيام العرب وأنسابها[4]، وكان من تلاميذ الحسن البصرى، وجالسه اثنتى عشرة سنة، وصلى معه الصبح ثلاث سنين[5]، توفى سنة ثمانى عشرة ومائة[6].

٥ـ المدرسة الكوفية:

نزل الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة، وسبعون من أهل بدر رضى الله عنهم أجمعين، وقد اهتم عمر بالكوفة ووجه عبد الله بن مسعود، واجتهد ابن مسعود فى إيجاد جيل يحمل دعوة الله فهمًا وعلمًا وكان له الأثر البالغ فى نفوس الملازمين له، أو من جاء بعدهم، وقد اشتهر مجموعة من تلاميذ ابن مسعود بالفقه والعلم والزهد والتقوى منهم: علقمة بن قيس، مسروق بن الأجدع، عبيدة السلمانى، الأسود بن يزيد، ومرة الجعفى[7] وغيرهم، ومن أشهر علماء التابعين فى المدرسة الكوفية:

أ ـ عامر بن شرحبيل الشعبى: كان علامة عصره ومن أفقههم، روى عن عائشة وابن عمر وسعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن عمر، وجمهرة غيره حتى قيل إنه أدرك خمسمائة من الصحابة[8]، لذلك كان صاحب آثار، كثير العلم والفقه. قال محمد بن سيرين: لقد رأيته يستفتى والصحابة متوافرون بالكوفة، ورغم هذا العلم الواسع فقد كان ينقبض عند الفتوى، وكثيرًا ما يقول: لا أدرى، لأنه كان يعتبرها نصف العلم[9]، وقد قال الشعبى: إنا لسنا بالفقهاء، ولكنّا سمعنا الحديث فرويناه، ولكن الفقهاء من إذا علم عمل[10]، ومن نكاته اللاذعة، ما رواه الأعمش قال: أتى رجل الشعبىَّ، فقال: ما اسم امرأة أبليس؟ قال: ذاك عرس ما شهدته[11]، توفى سنة أربع ومائة، وقيل: ست ومائة، وقيل: خمس ومائة[12].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٧٧) .

(٢) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٦).

(٣) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٠) .

(٤) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٧).

(٥)، (٦) المصدر نفسه (٤/ ٢٨٣) .

(٧) فصل الخطاب فى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ص (٢٦٤).

(٨) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٩٨) .

(٩) الفتوى، د. الملاح، ص (٨٣) .

(١٠) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٠٣) .

(١١) المصدر نفسه (٤/ ٣١٢) .

(١٢) المصدر نفسه (٤/ ٣١٨) .

ب ـ حمّاد بن أبى سلمة: فقيه أهل العراق، روى عن أنس بن مالك، وتتلمذ على يدى إبراهيم النخعى وهو أنبل أصحابه وأفقههم وأقيسهم وأبصرهم بالمناظرة[١]. وكان أحد العلماء الأذكياء والكرام الأسخياء، له ثروة وحشمة وتجمُّل[٢]، وكان أفقه أهل الكوفة علىّ وابن مسعود، وأفقه أصحابها علقمة، وكان أفقه أصحابه إبراهيم، وأفقه أصحاب إبراهيم حماد، وأفقه أصحاب حماد أبا حنيفة، وأفقه أصحابه أبا يوسف، وانتشر أصحاب أبى يوسف فى الآفاق، وأفقههم محمد، وأفقه أصحاب محمد أبو عبد الله الشافعى[٣] رحمهم الله تعالى. وقد توفى حماد سنة عشرين ومائة[٤].

٦ـ المدرسة اليمنية:

من أشهر علمائها من الصحابة الذين ساهموا فى دخول الإسلام فيها معاذ بن جبل، على بن أبى طالب، وأبو موسى الأشعرى وغيرهم، ومن أراد التوسع فليراجع الرسالة العلمية للدكتور عبد الله الحميرى، الحديث والمحدثون فى اليمن فى عصر الصحابة، ومن أشهر علماء التابعين فى المدرسة اليمنية:

أ ـ طاووس بن كيسان: فقيه أهل اليمن وقدوتهم، وأعلمهم بالحلال والحرام من سادات التابعين، روى عن ثلة من الصحابة الكرام، كزيد بن ثابت وأبى هريرة، وزيد بن أرقم، وابن عباس وهو معدود من كبراء أصحابه[٥]. وروى عن معاذ مرسلاً[٦]. كان من أبناء الفرس الذين جهزهم كسرى لأخذ اليمن له[٧]، كان فقيهًا جليلاً، بركة لأهل اليمن[٨]. أدرك خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ[٩]. قال له عمر بن عبد العزيز فى عهد سليمان: ارفع حاجتك إلى أمير المؤمنين. قال: ما لى إليه حاجة، فكأن عمر عجب من ذلك[١٠]. ومن أقواله: لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج[١١]. وقال: البخل أن يبخل الرجل بما فى يديه، والشح أن

(١) الفتوى، د. الملاح ص (٨٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣١).
(٣)، (٤) المصدر نفسه (٤/ ٢٣٦).
(٥)، (٦) المصدر نفسه (٥/ ٣٩).
(٧) المصدر نفسه (٥/ ٣٨).
(٨) الفتوى.. نشأتها وتطورها، أصولها وتطبيقاتها، ص (٨٥).
(٩) سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٣).
(١٠) المصدر نفسه (٥/ ٤١).
(١١) المصدر نفسه (٥/ ٤٢).

يحب أن يكون له ما فى أيدى الناس[١]. وقال عنه قيس بن سعد الطاووس: فينا مثل ابن سيرين فيكم. وقال ابن المدينى: كان سفيان لا يعدل من أصحاب ابن عباس بطاووس أحدًا[٢]. وكان -رحمه الله- معتزلاً للأمراء والسلاطين إلا إذا أكره على عمل لهم، وإذا طلب أداء نصيحة فإنه لا يجامل أحدًا ويصدع بالحق، توفى بمكة سنة ست ومائة للهجرة[٣].

ب ـ وهب بن منبه: أبو عبد الله وهب بن منبه، من أبناء فارس كان ينزل ذمار[٤]. وكان ممن قرأ الكتب ولزم العبادة وواظب على العلم وتجرد للزهادة[٥]. وقال عنه الذهبى: الإمام العلامة، الإخبارى القصصى. وقال العجلى: تابعى ثقة كان على قضاء صنعاء، وذكره الشيرازى فى فقهاء التابعين باليمن[٦]. وكان صاحب حكمة وفطنة، وكان له أثر فى محاربة الخوارج فى اليمن وتحذير الناس من آرائهم[٧]، وإليك حواره مع أبى شَمَّر الخولانى لما دخل على وهب بن منبه برفقة داود بن قيس، وتكلم داود لوهب وقال عن صاحبه أبى شمّر الخولانى: إنه من أهل القرآن والصلاح، والله أعلم بسريرته، فأخبرنى أنه عرض له نفر من أهل حروراء ـ يعنى الخوارج ـ فقالوا له: زكاتك التى تؤديها إلى الأمراء لا تجزئ عنك، لأنهم لا يضعونها فى موضعها، فأدها إلينا، ورأيت يا أبا عبد الله أن كلامك أشفى له من كلامى، فقال: يا ذا خولان أتريد أن تكون بعد الكبر حروريًا تشهد على من هو خير منك بالضلالة؟ فماذا أنت قائل لله غدًا حين يقفك الله؟ ومن شهدت عليه، فالله يشهد له بالإيمان، وأنت تشهد عليه بالكفر، والله يشهد له بالهدى وأنت تشهد عليه بالضلالة، فأين تقع إذا خالف رأيك أمر الله وشهادتك شهادة الله؟ أخبرنى يا ذا خولان ماذا يقولون لك؟ فتكلم عن ذلك، وقال لوهب: إنهم يأمروننى أن لا أتصدق إلا على من يرى رأيهم ولا أستغفر إلا له، فقال: صدقت، هذه محنتهم الكاذبة، فأما قولهم فى الصدقة، فإنه قد بلغنى

(١) سير أعلام النبلاء (٥/٤٨).

(٢) الطبقات (٥/٥٤١)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٦٦٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/٤٩).

(٤) ذمار: مدينة باليمن على مرحلتين من صنعاء.

(٥) علماء الأمصار للبستى، ص (١٢٣).

(٦) طبقات الفقهاء، ص (٦٦).

(٧) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٦٦٧).

أن رسول الله ﷺ ذكر أن امرأة من أهل اليمن دخلت النار فى هرة ربطتها[1]، أفإنسان مما يعبد الله ويوحده ولا يشرك به أحب إلى الله أن يطعمه من جوع أو هرة؟ والله يقول: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. وأما قولهم: لا يستغفر إلا لمن يرى رأيهم أهم خير أم الملائكة، والله يقول: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] فوالله ما فعلت الملائكة ذلك حتى أمروا به ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]. وجاء ميسرًا ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]، واستمر معه فى الحوار والنقاش إلى أن قال ذو خولان: فما تأمرنى؟ قال: انظر زكاتك فأدها إلى من ولاه الله أمر هذه الأمة، وجمعهم عليهم، فإن الملك من الله وحده وبيده، يؤتيه من يشاء، فإذا أديتها إلى والى الأمر برئت منها، وإن كان فضل فصل به أرحامك ومواليك وجيرانك والضيف، فقال: أشهد إنى نزلت عن رأى الحرورية[2]. توفى وهب -رحمه الله- سنة عشر ومائة فى خلافة هشام بن عبد الملك[3]، وقيل: إن يوسف ابن عمر والى اليمن ضربه حتى قتله[4]، ولعل ذلك بسبب موقف وهب من جور يوسف بن عمر المشهور بعنفه وظلمه[5].

٧ـ المدرسة المصرية:

تكونت فى مصر مدرسة كان شيوخها من الصحابة الذين رحلوا إليها أيام الفتح، ونزلوا فى موضع الفسطاط والإسكندرية، ومن هؤلاء عمرو بن العاص، عبد الله ابن عمرو بن العاص، الزبير بن العوام، وكان من أكثر الصحابة تأثيرًا فى مصر عقبة بن عامر رضى الله عنه[6]، وغير ذلك من الصحابة يرجع إليهم الفضل فى دعوة الناس وتوجيههم نحو دينهم[7]، وجاءت طبقة التابعين، وكان منهم أئمة ودعاة، ومن هؤلاء:

---

(١) مسلم رقم (٢٢٤٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٥٥)، الحرورية: الخوارج.

(٣) المصدر نفسه (٤/ ٥٥٦)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٦٦٧).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٥٦).

(٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٦٦٧).

(٦) عمر بن الخطاب للصلابى، ص (٢٧٠).

(٧) الدعوة إلى الله فى العصر العباسى الأول (١/ ٥٧).

يزيد بن أبى حبيب: الإمام الحجـة، مفتى الديار المصريـة، أبو رجاء الأزدى كان من جلة العلماء العاملين، ارتفع بالتـقوى مع كونه مولى أسود[1]. قال عنه الليث ابن سعد: يزيد بن أبى حبيب سيدنا وعالمنا[2]. توفى سنة ثمان وعشرين ومائة[3].

٨ ـ مدرسة شمال إفريقيا:

دخل القادة الفاتحون شـمال إفريقيا وكان على رأسهم عمـرو بن العاص ثم عبد الله بن سـعـد بن أبى السرح رضى الـله عنهم، ثم تابع مـعاوية بـن حديج فـتح إفريقية، وولى معاوية بن أبى سفيان على مـصر وإفريقية، وجاء بعده عقبة بن نافع الفهرى فاختط مدينة القيروان، وسـار فى الناس سيرة حسنة، وكان من خيار الولاة والدعاة، الذين جاهدوا ودعوا بالسيف والكلمة، ثم قـام على إفريقية ولاة صالحون ساروا على النهج نفسه[4]. وفى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز بعث إسماعيل ابن أبى المهاجـر واليًا على إفريقـية سنة مائة، فكان داعيـة إلى الإسلام بلسانه وأعـماله وأخلاقـه، فأحـبه الناس، وأحـبوا دينه، وحـرص على دعوة البربـر إلى الإسلام، فاسـتجـابوا لدعـوته، وأسلموا على يديه، واهتـم إسمـاعيل بتـعليم الناس أحكام الشريعة، وتفقيـههم فى الحلال والحرام، وكان عمر بن عبد العـزيز بعث معه عشرة من التـابعين من أهل العلم والفـضل، وأهل إفريقـية يومـئذ من الجهل بـحيث لا يعرفون أن الخمر حرام، حتى وصل هؤلاء فعلَّموا الناس الحلال والحرام[5]، وسيأتى الحديث عن الفقهاء العشرة فى محله بإذن الله: ومن خلال ما سبق من الحديث عن المدارس العلمية يظهـر أهمية توريث العلم والخبرات الدعـوية عند السلف، وامتداد ذلك يشمل أقاليم الدولة الإسلامية، ونستفيد أيضًـا أهمية تفريغ مجموعة من أذكياء الأمة للتعلم والتعليم والإفتاء والإرشاد والوعظ ونشره بين الناس.

رابعًا: منهج التابعين فى تفسير القرآن الكريم:

سلك التابعون منهاجًا واضحًا فى تفـسير القرآن الكريم، فكانوا يفسرون القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة، والقرآن بأقوال الصحابة، واللغة العربية، والاجتهاد وقوة الاستنباط.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣١). (٢)، (٣) المصدر نفسه (٦/ ٣٢).

(٤) البيان المغرب للمراكشى (١/ ١٩)، الدعوة إلى الله (١/ ٦١).

(٥) البيان المغرب (١/ ٤٨)، الدعوة إلى الله فى العصر العباسى الأول (١/ ٦٢).

١ - تفسير القرآن بالقرآن: تعددت طرق التابعين فى تفسير القرآن بالقرآن، ومن هذه الطرق:

أ - نظائر القرآن الكريم: كتفسير الآية بآية أخرى تحمل الموضوع نفسه، وإن اختلف اللفظ، وقد أكثر التابعون من ذلك، ومن ذلك ما ورد عن مجاهد فى تفسير الكلمات فى قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة:٣٧]. قال: قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] حتى فرغ منها[١]. وجاء عن عكرمة، والحسن فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]. قال: وكان رسول الله ﷺ إذا صلى يجهر بصلاته، فآذى ذلك المشركين بمكة حتى أخفى صلاته هو وأصحابه، فلذلك قال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾. وقال فى الأعراف: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وفى تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]. قال قتادة: وذلك أنهم قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]. وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]. فقيل لهم: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢] [البقرة: ٩٤].

ب - الأشباه: والمراد بالأشباه تفسير الآية بما يشبهها من الآيات، كتفسير الآية بالآيات التى تحمل بعض معناها مع تقارب اللفظ[٣]، فمن ذلك ما ورد عن مجاهد فى تفسير النفس بالغير، فإنه قال فى تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]. قال لهم خيرًا، ألا ترى أنه يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. يقول: بعضكم بعضًا و﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]. قال: يسلم بعضكم على بعض[٤]. ففسر مجاهد هنا

(١) تفسير الطبرى (١/ ٥٤٥)، زاد المسير (١/ ٦٩).

(٢) فتح القدير (١/ ١١٦)، تفسير التابعين (٢/ ٦١٤).

(٣) تفسير التابعين (٢/ ٦١٥).

(٤) تفسير الطبرى (١٨/ ٩٦)، تفسير التابعين (٢/ ٦١٥).

النفس بالغير، واستدل بورود ذلك فى آيات متشابهة فى القرآن تدل على هذا الجزء من المعنى[1].

ج ـ الدلالة على التفسير بالسياق: وفى هذا النوع يلحظ المفسّر منهم سياق الآية فيربطها بما قبلها، أو بما بعدها، سواء كان ذلك فى الآية نفسها، أو فى مجموعة من الآيات[2]، مثل تفسير قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]. قال مجاهد فى تفسيرها: هى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾[3] [الأنعام: ٨٢].

د ـ بيان المجمل: وفى هذا الطريق يقوم المفسر بالنظر فى آيات القرآن التى فيها إجمال، وينظر فى الآيات الأخرى التى يمكن أن تكون بيانًا لهذا الإجمال، كحمل المجمل على المبين، ومن ذلك ما ورد عن مجاهد فى تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] قال: من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم ما ذكر حتى يتم خلقه[4]. فأشار بقوله إلى الآيات التى فيها ذكر ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

هـ ـ تفسير العام بالخاص: وفى هذا يعمد المفسر، منهم إلى آية ظاهرها العموم، فيحملها على معنى آخر ذكرت فردًا من أفراد العموم[5]، كقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]. قال الحسن البصرى: الكافر، ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧] قال: من الكفار[6]. وفى رواية عنه قال: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ يعنى الكفار، لا يعنى بذلك أهل الصلاة[7]. فالآية الأولى جاء فيها العموم فى لفظة «من» ليعم المؤمن والكافر، فجاء الحسن فبين أنها

---

(١) تفسير التابعين (٢/ ٦١٦).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٦١٧).

(٣) تفسير الطبرى (١١/ ٥٠٥).

(٤) تفسير الطبرى (٢٩/ ٢٦)، الدر المنثور (٨/ ٢٩١).

(٥) تفسير التابعين (٢/ ٦٢١).

(٦) تفسير الطبرى (٩/ ٢٣٧)، زاد المسير (٢/ ٢١٠).

(٧) تفسير الطبرى (٩/ ٢٣٨).

خاصة بالكافر مستدلاً بأسلوب الحصر فى الآية الثانية[1]. وأصرح من ذلك ما جاء عنه فى تفسير الآية نفسها أنه قال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] إنما ذلك لمن أراد الله هوانه، فأما من أراد كرامته، فإنه من أهل الجنة ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[2] [الأحقاف: ١٦].

و ـ التفسير باللازم: المراد بالتفسير باللازم أن المفسر لا يذكر صراحة تفسيراً للآية التى هو بصددها، بل يذكر شيئًا من لوازم ذلك، ويربطه بآية أخرى، فمن ذلك ما جاء عن سعيد بن جبير فى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فقد قال: لو أعطيها أحد لأعطيها يعقوب، ألم تسمع: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[3] [يوسف: ٨٤]. إنه لم يكن يعرف ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وإلا لقالها، بدلاً من تأسفه على ذهاب يوسف[4].

ز ـ توضيح المبهم: ومن طرق التفسير التى اتبعها التابعون ـ أيضًا ـ إيضاح مبهم آية بآية أخرى لإزالة الإبهام[5]، ومن ذلك ما قام به عكرمة من رفع الإبهام الواقع فى لفظة «الحين»، استدل بالآية التى تبين أن المراد منه سنة، فعنه أنه قال: أرسل إلىّ عمر بن عبد العزيز فقال: يا مولى ابن عباس: إنى حلفت أن لا أفعل كذا وكذا حينًا، فما الحين الذى تعرف به؟ قلت: إن من الحين حينًا لا يدرك، ومن الحين حين يدرك، وأما الحين الذى لا يدرك فقول الله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]. والله ما يدرى كم أتى له إلى أن خلق، وأما الذى يدرك فقوله: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥]. فهو ما بين العام إلى العام المقبل، فقال: أصبت يا مولى ابن عباس، ما أحسن ما قلت[6].

ح ـ بيان معنى (لفظ)، أو إيضاح مشكل: وقد كثر هذا النوع فى تفسير التابعين، فصاروا يتناولون آيات القرآن بالتفسير بآيات أخرى تبين هذا المعنى، وتلكم

---

(١) تفسير التابعين (٢/ ٦٢٣).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٦٢٣).
(٣) تفسير الطبرى (٣/ ٢٢٤).
(٤) تفسير التابعين (٢/ ٦٢٣).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ٦٢٤).
(٦) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٨١).

الألفاظ[1]، ومثال ذلك كتفسير الحسن البصرى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: ٦]. قال: النفختان، أما الأولى فتميت الأحياء، وأما الثانية فتحيى الموتى، ثم تلا الحسن: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[2] [الزمر: ٦٨]. والأمثلة كثيرة على تفسير التابعين للقرآن بالقرآن، ومن أراد المزيد فليراجع تفسير التابعين[3].

٢ـ تفسير القرآن بالسنة: لا شك أن السنة مبينة للقرآن موضحة له، قال الشاطبى: وهى راجعة فى معناها إلى الكتاب، فهى تفصيل مجمله وبيان مشكله، وبسط مختصره[4]، وذلك لأن النبى ﷺ هو أعلم بكلام الله، وأكثر قدرة على فهم نصوص الآيات من غيره، مع ما أوحاه الله تعالى من المعانى، فهو ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣]، وقال ﷺ: «ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه»[5]. يقول ابن تيمية: فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب أن أصح الطرق فى ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن... إلى أن يقول: فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤][6]. وقد اتفق العلماء على أن الأخذ بالسنة واجب والعمل بها حتم، وتحكيمها فرض، بل جاء عن مكحول التابعى أنه قال: القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن[7]. وقد كثر عن التابعين النقول التى تدل على شدة

---

(١) تفسير الطبرى (٢/ ٦٢٦).

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣١)، تفسير التابعين (٢/ ٦٢٧).

(٣) تفسير التابعين (٢/ ٦٠٨ - ٦٢٧).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٦٢٨)، الموافقات (٤/ ١٢).

(٥) سنن أبى داود رقم (٤٦٠٤).

(٦) الفتاوى (١٣/ ٣٦٣).

(٧) تفسير التابعين (٢/ ٦٢٩)، تفسير القرطبى (١/ ٣٠).

متابعتهم للسنة، قال ربيعة للزهرى: إذا سُئلت عن مسألة فكيف تضع؟ قال: أحدث فيها بما جاء عن النبى ﷺ، فإن لم يكن عند النبى ﷺ فعن أصحابه، فإن لم يكن عن أصحابه اجتهدت رأيى[1]، ومما يدل على عظيم احتفائهم وعنايتهم بالمروى عنه ﷺ أنه قل أن نجدهم يخالفون ما صح عنه ﷺ من تفسيره، وفيما يلى بعض الأمثلة الدالة على ذلك:

أ ـ فمن هذا ما جاء عنه ﷺ فى تفسير قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦]. قال ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلال»[2]. وبذلك فسرها مجاهد[3]، وسعيد بن جبير[4] وغيرهما. قال ابن حاتم: لا أعلم خلافًا بين المفسرين فى تفسير ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ باليهود، و﴿الضَّالِّينَ﴾ بالنصارى[5].

ب ـ ومنه أيضًا ما صح عنه ﷺ فى بيان قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. قال ﷺ: «هو سواد الليل وبياض النهار»[6]، ولم يخالف فى ذلك أحد من التابعين، وبه قال الحسن[7]، وقتادة[8].

ج ـ من ذلك ما جاء عنه ﷺ فى تفسير معنى الظلم الذى ورد فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. قال ﷺ حين شق ذلك على أصحابه فقالوا: أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال: «ليس بذلك، ألم تسمعوا قول لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»[9]. وهذا هو المنقول عن التابعين، قال به: إبراهيم النخعى، وقتادة، ومجاهد، وسعيد بن جبير[10].

د ـ ومنه ما جاء عنه ﷺ فى تفسير للسبع المثانى فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]. قال ﷺ لأبى سعيد بن المعلى: «ألا

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٧٥)، تفسير التابعين (٢/ ٦٣٧).

(٢) موارد الظمآن فى زوائد ابن حبان رقم (٢٢٤). (٣) تفسير الطبرى (١/ ١٨٨).

(٤) الدر المنثور (١/ ٤١).

(٥) تفسير ابن أبى حاتم رقم (٢٢)، تفسير التابعين (٢/ ٦٣٨).

(٦) البخارى، ك التفسير، الفتح (٨/ ١٨٢). (٧)، (٨) تفسير الطبرى (٣/ ٥١٠).

(٩) البخارى، ك التفسير، الفتح (٨/ ٢٩٤). (١٠) تفسير التابعين (٢/ ٦٣٩).

أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟ فذهب النبى ﷺ ليخرج، فذكرته، فقال: الحمد لله رب العالمين، هى السبع المثانى، والقرآن العظيم الذى أوتيته»[1]. وهذا التفسير هو المروى عن سعيد بن جبير والحسن، ومجاهد، وقتادة[2].

هـ ـ ومن ذلك بيانه ﷺ لمعنى: **الأمة الوسط**، التى وردت فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. ففى الحديث عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: «عَدُولاً»[3]، وبهذا التفسير قال: مجاهد، وعطاء وقتادة[4]. هذه بعض الأمثلة التى اعتمدها التابعون فى تفسير القرآن الكريم بالسنة النبوية.

٣- تفسير القرآن بأقوال الصحابة: إن التابعين ما علموا كيفية التلقى من الكتاب والسنة وكذلك الاجتهاد، ونحو ذلك إلا بسبب تربيتهم على أيدى الصحابة وخبرتهم بمناهجهم الاستدلالية، وتعلمهم طرق الاستنباط وتلقيهم الرواية النبوية، ورؤيتهم التطبيق العملى لذلك كله. ولقد استوعب التابعون رسالة الصحابة وعرفوا فضلهم، فها هو مجاهد يقول: العلماء أصحاب محمد ﷺ[5]، وكان التابعون يقدمون قول الصحابى على قولهم، يقول الشعبى: إذا اختلف الناس فى شىء فانظر كيف صنع عمر، فإن عمر لم يكن يصنع شيئًا حتى يشاور، فقال أشعث ـ: راوى الأثر ـ فذكرت ذلك لابن سيرين فقال: إذا رأيت الرجل يخبرك أنه أعلم من عمر فاحذره[6]، وكان منهج التابعين فى الأخذ عن الصحابة يدور حول:

أ ـ إذا كان تفسير الصحابى يرفعه للنبى ﷺ، فهذا هو المطلب الرئيس، والغاية القصوى، وليس بعده قول، وكذلك ما كان من تفسير الصحابى، وهو وارد فى سبب النزول بالصيغة الصريحة[7]، وكذلك فيما لا مجال للرأى فيه، فهذا يقفون

(١) البخارى، ك التفسير، الفتح (٨/ ٣٨١).
(٢) تفسير التابعين (٢/ ٦٤١).
(٣) مجمع الزوائد (٦/ ٣١٦)، رواه أحمد (٣/ ٩) صحيح.
(٤) تفسير التابعين (٢/ ٦٤١).
(٥) إعلام الموقعين (١/ ١٥)، تفسير التابعين (٢/ ٦٥١).
(٦) الحلية (٤/ ٣٢٠)، تفسير التابعين (٢/ ٦٥٣).
(٧) أى سبب نزول كذا هو كذا وكذا، أو حدث كذا ونزل كذا.

عنده لا يجاوزونه، لأن الصحابى شاهد التنزيل، ومثال ذلك ما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. فقد قال فيها ابن عباس رضى الله عنهما: إن لملك الموت أعوانًا من الملائكة، رواه عنه إبراهيم(١). ولذا جاءت الرواية من تفسير إبراهيم نفسه بالاقتصار على قول ابن عباس ولم يزد عليه شيئًا، فقال: أعوان ملك الموت(٢)، وكذا جاء عن قتادة، ومجاهد والربيع(٣).

ب - وإذا كان التفسير الوارد عن الصحابى من باب الاجتهاد، وكان جاريًا على مقتضى اللغة، فإنهم فى الغالب لا يخالفونه، فإن الصحابة أهل اللسان والبيان والفهم، ولأجل ذلك اعتمد مجاهد تفسير ابن عباس دون غيره عندما تعرض لتفسير قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]. فقد قال ابن عباس: المستقر بالأرض والمستودع عند الرحمن(٤). وجاءت رواية عن ابن عباس: أن المستقر فى الرحم، والمستودع فى الصلب(٥)، موافقة للرواية الثانية، وهكذا كان حال ابن جبير فى تفسير الآية(٦).

ج - إذا تعارضت الأقوال المنقولة فى الصحابة، فإن التابعين يسلكون مسلك الترجيح بينها، والترجيح قد يكون باللغة، أو بالحديث، أو بقول صحابى آخر يجمع بين الأقوال، فمن الأول ما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]. جاء عن ابن عباس فى تفسيرها أن دلوكها غروبها(٧)، وجاء عنه أن دلوكها: زيغها بعد نصف النهار(٨)، وجاء عن ابن مسعود أن دلوكها غروبها(٩)، وجاء عنه أيضًا أن دلوكها ميلها يعنى: الزوال(١٠). فاختار قتادة أن دلوكها زوالها، ففسرها به(١١)، مع أنه نقل القول بغروبها عن ابن مسعود(١٢)، ولعل سبب هذا الاختيار هو أن اللغة تدل على أن الدلوك هو الميل، فيكون المراد

(١) تفسير الطبرى (١١/ ٤١٠)، زاد المسير (٣/ ٥٥).
(٢) تفسير الطبرى (١١/ ٤١٠).
(٣)، (٤) تفسير التابعين (٢/ ٦٥٨).
(٥) تفسير الطبرى (١١/ ٥٧٠)، زاد المسير (٣/ ٩٢).
(٦) تفسير الطبرى (١١/ ٥٧٠).
(٧) المصدر نفسه (١٥/ ١٣٤).
(٨) فتح القدير (٣/ ٢٥٤).
(٩) زاد المسير (٥/ ٧٢).
(١٠) فتح القدير (٣/ ٢٥٤).
(١١)، (١٢) زاد المسير (٥/ ٧٢).

صلاة الظهر، ورجحه ابن جرير، وناقش الأول[1]، وقد يكون الترجيح لأثر مرفوع، ومنه ما جاء عن قتادة وهو يحدث عن سعيد بن المسيب، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين فى الصلاة الوسطى، وشبك بين أصابعه[2]، فرجح الحسن أنها صلاة العصر[3]، متابعًا فى ذلك عددًا من الصحابة رضى الله عنهم، والمرجح هنا هو الأثر المرفوع الذى رواه الحسن عن سمرة أن النبى ﷺ قال: «**الصلاة الوسطى صلاة العصر**»[4]. وقد يكون الترجيح بقول صحابى آخر يقدِّم به عموم الآية على ما ورد فى خصوصها، ويجمع به بين الأقوال، فمن ذلك تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]. فقد جاء تفسير الكوثر عن جمع من الصحابة أنه نهر فى الجنة[5]، وعن ابن عباس أنه الخير الكثير الذى أعطاه الله إياه[6]، وتابعه على ذلك سعيد بن جبير، فقال أبو بشر لسعيد: إنا كنا نسمع أنه نهر فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه[7]، فهنا رجح ابن جبير العموم فى الآية مستندًا لقول ابن عباس، ولم يذهب إلى خصوص الأثر الوارد فى ذلك، أما إذا لم يكن ثمة مروى عن الصحابة فى ذلك، فعندئذ يدخل منهم من يدخل فى باب الاجتهاد[8]. وقد أدت الرواية عن الصحابة والاعتماد عليها فى التفسير، إلى ظهور نتائج وآثار ترتبت على ذلك منها، حفظ أخبار الصحابة ومعرفة دقيق أحوالهم والتمييز بينهم، والالتزام بمناهجهم والإفادة منها، وتبنى أقوالهم[9].

٤ـ اللغة العربية: لقد تنوعت مشارب التابعين فى اعتمادهم على اللغة وجعلها مصدرًا من مصادر التفسير، وذلك لعدة أسباب منها، معرفة لغة العرب ومعرفة عادات العرب وأخبارهم، والإلمام بأشعار العرب، ومعرفة فقه اللغة من الاشتقاق، والإيجاز والحذف، والتقديم والتأخير، وغير ذلك من الأسباب[10].

٥ـ الاجتهاد: ظهرت اجتهادات التابعين فى التفسير، حتى إبان عهد الصحابة، وشملت إجتهاداتهم مواطن كثيرة، غالبها مما سكت عنه الصحابة ومن أهمها:

---

(١) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٦، ١٣٧).

(٢) زاد المسير (١/ ٢٨٢).

(٣) تفسير التابعين (٢/ ٦٦١).

(٤) تفسير الطبرى (٥/ ١٩٤) رقم (٥٤٣٨).

(٥) زاد المسير (٩/ ٢٤٨).

(٦) الدر المنثور (٨/ ٦٤٩).

(٧) زاد المسير (٩/ ٢٤٨).

(٨) تفسير التابعين (٢/ ٦٦١).

(٩) المصدر نفسه (٢/ ٦٧٢ - ٦٧٧)

(١٠) المصدر نفسه (٢/ ٦٨٩ - ٧٠٧).

أ ـ بيان المراد من النص، وذلك إذا كان النص خفى الدلالة بسبب إجمال فى اللفظ أو التركيب.

ب ـ استنباط بعض الأحكام من النصوص القرآنية.

ج ـ بيان الفروق بين ما تشابه من الكلمات، والمعانى، والتفسير بين النظائر.

د ـ العناية الفائقة بدقائق من علم الكتاب العزيز، كمباحث عد الآيات، والكلمات فى القرآن الكريم[1] وغيرها، وقد كان لاجتهاد التابعين فى تفسير الآيات مميزات منها:

- تنوع عبارات الاجتهاد وتعددها.
- الإيجاز غير المخل.
- عمق التأمل ودقة التفسير.
- قوة الاستنباط.

خامسًا: جهود عمر بن عبد العزيز والتابعين فى خدمة السنة:

نهى رسول الله ﷺ عن كتابة غير القرآن فى أول الأمر، مخافة اختلاط غير القرآن به، واشتغال الناس عن كتاب ربهم بغيره، ثم جاء بعد ذلك الإذن النبوى بالكتابة والإباحة المطلقة لتدوين الحديث الشريف، فنسخ الأمر، وصار الأمر إلى الجواز[2]. وقد ثبت أن كثيرًا من الصحابة قد أباحوا تدوين الحديث وكتبوه لأنفسهم، وكتب طلابهم بين أيديهم، وأصبحوا يتواصلون بكتابة الحديث وحفظه[3]. وقام الجهابذة من أهل العلم، والغيورين من المسلمين بجهود جبارة لتدوين السنة المطهرة وجمع الحديث النبوى، وتنقيته من شوائب الوضع، وبذلوا فى ذلك مهجهم وأوقاتهم، فأسهروا ليلهم، وضربوا فى الأرض نهارهم، وأصّلوا لذلك أصولاً، وقعّدوا قواعد، حتى أثمرت تلك الجهود المباركة هذه الدواوين العظيمة، التى يعكف المسلمون على قراءتها وحفظها والعمل بها، والفضل كل الفضل لله، ثم لأولئك البررة الذين كانوا السبب فى جمعها، وليس لهم مكافأة

---

(١) تفسير التابعين (٢/ ٧١١).
(٢) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٧٤).
(٣) المصدر نفسه، ص (٧٥).

أعظم من أجر الله الجزيل لهم يوم القيامة إن شاء الله تعالى[١]، ولعل طلائع التدوين الرسمى للحديث النبوى، الذى قامت به جهة مسئولة فى الدولة الإسلامية، كان على يدى عبد العزيز بن مروان ـ والد عمر ـ عندما كان أميرًا على مصر كما مرّ معنا، بيد أن التدوين الذى آتى ثماره هو ما قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وقد تجلى ذلك فى إرشاداته لكتابة العلم وتدوين الحديث، وأوامره للخاصة والعامة بذلك، فمن إرشاداته قوله: أيها الناس قيدوا العلم بالشكر، وقيدوا العلم بالكتابة[٢]، لكن أمير المؤمنين عمر لم يكتف بهذا الإرشاد العام والحض على حفظ العلم بكتابته، بل سعى ـ بحكمه خليفة المسلمين ـ إلى إصدار أوامره إلى بعض الأئمة العلماء بجمع سنن وأحاديث رسول الله ﷺ، وقد حمله على ذلك ما رآه عند كثير من التابعين فى إباحة كتابة الحديث، وهم قد حملوا علمًا كثيرًا، فخشى عمر على ضياعه، خاصة أنه ليس دائمًا يتوافر الحفظة الواعون لنقله، دونما احتياج إلى كتابة الكتب والرجوع إليها للاستذكار. وثمة سبب آخر يضاهى سابقه فى الأهمية، وهو فشوّ الوضع ودسّ الأحاديث المكذوبة، وخلطها بالصحيح من كلام النبى ﷺ بسبب الخلافات المذهبية والسياسية، وإلى هذا يشير كلام الإمام الزهرى: لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها لا نعرفها، ما كتبت حديثًا ولا أذنت فى كتابه[٣]. ورأى الزهرى هذا كان رأى كثير من أئمة ذلك العصر، حيث خافوا على الحديث النبوى من الضياع، واختلاطه بالمكذوب، مما حفز العلماء على حفظ السنة بتدوينها، وجاء رأى السلطة العليا ممثلاً بالخليفة الورع العالم المجتهد أمير المؤمنين عمر، فاتخذ خطوة حاسمة بتدوين سنن رسول الله ﷺ وجعل من مسئوليات الدولة حفظ السنة المطهرة[٤]. وإليك خطواته ومجهوداته فى هذا الشأن:

١ـ كتب إلى الإمام الثبت أمير المدينة وأعلم أهل زمانه بالقضاء، أبى بكر بن حزم، يأمره بذلك، ففى صحيح البخارى: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر ابن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، إن خفت دروس العلم

(١) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٧٥) . (٢) المصدر نفسه، ص (٧٦) .
(٣) المصدر نفسه، ص (٧٧) .
(٤) أصول الحديث، محمد عجّاج الخطيب، ص (١٧٦ - ١٨٦) .

وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبى ﷺ، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم ما لم يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًا[١]، وروى ابن سعد عن عبد الله بن دينار قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، أو سنّة ماضية، أو حديث عمرة بنت عبد الرحمن، فاكتبه، فإنى خفت دروس العلم وذهاب أهله[٢].

٢ـ كذلك وجه كتابًا بهذا الشأن إلى الإمام الحجة ابن شهاب الزهرى، فقد ذكر ابن عبد البر عن ابن شهاب قال: أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن، فكتبناها دفترًا دفترًا، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا[٣]، وروى أبو عبيد أن عمر أمر ابن شهاب أن يكتب له السنّة فى مصارف الزكاة الثمانية، فلبى الزهرى أمره، وكتب له كتابًا مطولاً يوضح ذلك بالتفصيل[٤]. ومن هنا قال ابن حجر: وأول من دوَّن الحديث ابن شهاب الزهرى على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كثر التدوين ثم التصنيف، وحصل بذلك خير كثير، فلله الحمد[٥].

٣ـ بل إن عمر وجه أوامره إلى أهل المدينة جميعًا يأمرهم ويحثهم على جمع حديث رسول الله ﷺ، يشارك فى هذا كل من لديه علم، ولو كان بضعة أحاديث، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة: أن انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه، فإنى قد خفت دروس العلم وذهاب أهله[٦].

٤ ـ ولم يقف عمر عند ذلك، بل عمَّمَ أوامره إلى جميع الأمصار فى الدولة الإسلامية، ليقوم كل عالم بجمع وتدوين ما عنده من حديث رسول الله ﷺ، وما سمعه من أصحابه الكرام[٧]، وروى: انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه واحفظوه، فإنى أخاف دروس العلم وذهاب العلماء[٨].

وقد اهتم عمر رضى الله عنه باللغة العربية؛ فشجع أهل البلاد المفتوحة على تعلمّها وإتقانها، وكان يغدق عليهم ـ لذلك ـ العطايا، كما أنه يعاقب من يلحن

---

(١) فتح البارى (١/ ١٩٤، ١٩٥) . (٢) الطبقات، أصول الدين، ص (١٧٧ ـ ١٧٩) .
(٣) جامع بيان العلم (١/ ٩١، ٩٢) . (٤) الأموال، ص (٢٣١ ، ٢٣٢) .
(٥) فتح البارى (١/ ٢٠٨)، أصول الحديث، ص (١٧٨ - ١٨٠) .
(٦) سنن الدارمى (١/ ١٣٧) . (٧) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٧٩) .
(٨) فتح البارى (١/ ١٩٥)، أصول الحديث، ص (١٧٨) .

بالعربية وينقص من عطائه، لما يعلم من أهمية العربية فى فهم كتاب الله والسنة النبوية الشريفة[1].

* **منهج عمر بن عبد العزيز وطريقته فى التدوين:**

اتبع عمر فى جمع الحديث النبوى وتدوينه منهجًا سديدًا قويمًا، وسلك فيه شروطًا صارمة، ووضع له أبعادًا هادفة مفيدة. ويتجلى ذلك فى أربعة أمور:

١- **حسن اختياره للقائمين بهذا الأمر:** فأبو بكر بن حزم هو أحد أوعية العلم ومن أعلام عصره، قال فيه الإمام مالك: ما رأيت مثل ابن حزم أعظم مروءة ولا أتمَّ حالاً، ولا رأيت من أوتى مثل ما أوتى؛ ولاية المدينة، والقضاء، والموسم. وقال: كان رجل صدق، كثير الحديث. وقال ابن سعد: كان ثقة عالمًا، كبير الحديث، توفى ١٢٠هـ[2]. وأما الزهرى، فهو العالم العَلَم، حافظ زمانه، وشهرته ملأت الآفاق، قال فيه الليث بن سعد: ما رأيت عالمًا قط أجمع من ابن شهاب، يحدث فى الترغيب والترهيب، فتقول: لا يحسن إلا هذا، وإن حدَّث عن العرب والأنساب، قلت: لا يحسن إلا هذا. وإن حدّث عن القرآن والسنة، كان حديثه. وقال عمر بن عبد العزيز: عليكم بابن شهاب، فإنه ما بقى أحد أعلم بسنة ماضية منه[3].

٢- **أنه طلب ممن يدوّن له السنة جمع الأحاديث مطلقًا وتدوينها**، وتتبع أناس مخصوصين لما امتازوا بتدوين أحاديث معينة لأهميتها: فقد أمر ابن حزم بتدوين حديث عمْرَة بنت عبد الرحمن لأنها من أثبت الناس بأم المؤمنين عائشة، والسيدة عائشة هى أعلم الناس بأحوال سيدنا رسول الله ﷺ وشئونه الخاصة داخل بيته ومع أهله[4]، وعمرة هذه هى: عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زُرارة الأنصارية النّجارية المدنية الفقيهة، تربية عائشة وتلميذتها، وجدّها سعد من قدماء الصحابة، وهو أخو النقيب الكبير أسعد بن زرارة، ذكرها ابن المدينى فضخَّم

(١) عمر بن عبد العزيز للشرقاوى، ص (١٧٨) .
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/٣١٣ ، ٣١٤) .
(٣) سير أعلام النبلاء (٥/٣٢٨)، عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٨٠) .
(٤) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٨١) .

أمرها وقال: عمرة إحدى الثقات العلماء بعائشة، الأثبات فيها[١]. وقال الزهرى: أتيتها فـوجدتها بحرًا لا يُنْزَف[٢]. توفيت عام ٩٨هـ، وقيل ١٠٦هـ[٣]. وذكرت إحدى الروايات أنه أمر ابن حزم بجـمع تدوين حديث عمر بن الخطاب. وذلك لما يقصده ابن عبـد العزيز من تتبع سيرة الفاروق وأقـضيته وسياسـته فى الصدقات، وكتبه إلى عماله فيهـا، وقد طلب ذلك أيضًا من سالم بن عبد الله بن عمر. وكل ذلك واضح من النهج الذى سلكه عمر بن عبد العزيز فى الاقتداء بجده رضى الله عنهما[٤]. كذلك كتب إلى آل عمرو بن حـزم أن ينسخوا له كتاب النبى ﷺ لهم فى الصدقات، كى يسير عليه فى خلافته وفى تسيير أمور رعيته[٥].

٣ـ أنه ألزم من يدوّن السنة النبوية أن يميز الصحيح من السقيم، ويتحرى الثابت من الحديث، وذلك واضح فى رواية الدارمى حيث يقول عـمر لابن حزم: اكتب إلىَّ بما ثبت عندك من الحـديث عن رسول الله ﷺ وبحـديث عـمر[٦]. وعند الإمام أحـمـد فى العلل: اكـتب إلىَّ من الحـديث بمـا ثبت عنـدك من رسـول الله ﷺ وحديث عَمْـرَة. وهذه نقطة عظيمة الأهمية فى تأسـيس منهج التدوين على أسس راسخة، ثابتة صحيحة، قويمة مستقيمة[٧].

٤ـ تثبته من صحـة الحديث والتحديث: فعمر من كـبار العلماء، وليس بأقل شأنًا فى العلم ممن أمـرهم بالتدوين، لذلك قام بمـشاركة العلمـاء فى مناقشـة بعض ما جـمعـوه، زيادة فى التثـبت[٨]، من ذلك مـا رواه أبو الزناد عـبد الله بن ذكـوان القرشى قال: رأيت عمر بن عبد العزيز جمع الفقهاء، فجمعوا له أشياء من السنن، فإذا جاء الشىء الذى ليس العمل عليه قال: هذه زيادة ليس العمل عليها[٩].

* **ثمرة هذا التدوين:** لقد آتت هذه الجـهود الباكرة المباركـة بعض أكلها، وتمثل ذلك بتلك الدفاتر التى جمعـها الإمام الزهرى، فأمر عمر بن عبد الـعزيز بنسخها

---

(١) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٨١) تهذيب التهذيب (١٢/٤٦٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٥٠٨)، نساء لها تاريخ، ص (١٥٥).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/٥٠٨).
(٤) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٨١).
(٥) سير أعلام النبلاء، ص (٨١).
(٦) نقلاً عن مقدمة المسند، ص (٢٠ - ٢٣).
(٧) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٨٢).
(٨) المصدر نفسه، ص (٨٢).
(٩) أصول الحديث، ص (٨٢).

عدة نسخ، ثم أرسل إلى كل بلد فى دولتـه الكبيرة دفترًا منها، ويلاحظ أن كـثيرًا من العلماء جمع لنفـسه مسموعاته، ليـعود إليها كلما وجد فى نفـسه الحاجة إلى إتقـان حفظهـا، أما التـدوين الرسمى الذى تـولّته الدولة، وعـممت ثمـرته على الأمصـار، فكان بأمر عمر بـن عبد العزيز، ومن الثـمرات الطيبـة ـ أيضًا ـ ذلك المنهج السديد الذى اتبـعه أمير المؤمنـين عمر، بوضع الأسس والنقاط الهـامة أثناء التـدوين، فكانت نواة لمنهج واسع مـتكامل جـاء بعـده، وهذا كله ناتج من دقـة فهمه، وغزارة علمه، ونفاذ بصـيرته، وقبل ذلك وبعده توفيق الله تعالى له، ولئن كان عـمر بن الخطاب قد أشـار على الصديق بجمع القـرآن، ففعل، فكان لهـما الفضل الكبـير على الأمـة. ثم جاء عثـمان فجـمع الناس على مصـحف واحد، وحرف واحد، ولهجة واحدة هى لهجة قريش، فإن الله سبحانه قد ادّخر لعمر بن عـبد العـزيز ـ نحـسب ذلك ولا نزكى على الله أحـدًا ـ تلك المنقـبـة العظيمـة، والمكرمة الجليلة، فى إصدار أوامر الخلافة بجمع الـسنة وتنقيحها وتدوينها، وجعل من مهام الدولة حماية السنة التى هى المصـدر الثانى للتشريع. وهذا من توفيق الله للعظماء، وكبار المصلحين، عندما تخلص سرائرهم لله يوفقهم الله للحق ويدلهم على الخيرات، ويسدّد خطواتهم، ويهيئ لهم من أمرهـم رشدًا[١].

قال الشاعر الليبى أحمد رفيق المهدوى:

فـإذا أحب اللـه باطن عـبـده ... ظهـرت عليـه مـواهب الفـتّـاح

وإذا صـفت للـه نيـة مـصلح ... مـال الـعبـاد عليـه بالأرواح[٢]

ويعتبر «التـدوين الرسمى» بحق أحد الأعمال العظيمـة والإنجازات الكبيرة التى تحققت فى عهد عمر بن عبد العزيز[٣] رحمه الله.

* جهود التابعين فى خدمة السنة النبوية الشريفة:

تحمل التابعون الحديث النبوى عن الصحابة وضبطوا الإسناد مع الدقة والإتقان، وأصبح الحديث أمانة فى أعناقهم عليهم، أن يجتهدوا فى تبليغها وإيصالها إلى من

(١) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٨٣).

(٢) الثمار الزكية للحركة السنوسية، ص (١٩٨).

(٣) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٨٣).

وراءهم لاسيما وقد ظهر فى عصرهم بسبب الخلافات السياسية والكلامية، وبسبب الزندقة المتمثلة فى التظاهر بالإسلام مع كراهيته، دينًا، ودولة، وبسبب التعصب للجنس، واللغة والقبيلة، والبلد، وبسبب التكسب والارتزاق عن طريق القصاص والوعظ، وبسبب الجهل من بعض الزهاد والعباد، وغير ذلك من الأسباب، ظهر الكذب والوضع فى الحديث، فانبرى هؤلاء يؤدون الأمانة ويقومون بواجبهم فى مواجهة الكذابين والوضاعين، وكانت لهم فى ذلك جهود ضخمة مشكورة[(١)].. يمكن تلخيصها فى الآتى:

١ـ الالتزام بالإسناد ومطالبة الغيربة:

أ ـ قال ابن سيرين: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة، فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم[(٢)].

ب ـ جاء عن عتبة بن أبى الحكم: أنه كان عند إسحاق بن أبى فروة وعنده الزهرى، قال: فجعل ابن أبى فروة يقول: قال رسول الله ﷺ:... فقال له الزهرى: قاتلك الله يا ابن أبى فروة، ما أجرأك على الله، لا تسند حديثك، تحدثنا بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة[(٣)].

٢ـ عقد الحلقات العلمية: يقول ابن سيرين: قدمت الكوفة، وللشعبى حلقة علمية عظيمة، والصحابة يومئذ كثير[(٤)]. وعن ابن شهاب قال: كان يقص لنا سعيد بن جبير كل يوم مرتين: بعد الفجر، وبعد العصر[(٥)].

٣ـ الحرص على أداء الحديث على وجهه: يعنى روايته بلفظه، فإن لم يتيسر ذلك رووه بالمعنى مراعين شروطه وضوابطه المعروفة[(٦)]. فعن ابن عون قال: كان

---

(١) التابعون وجهودهم فى خدمة الحديث النبوى للشايجى صـ٥٤، هذه الرسالة مع صغر حجمها ولكنها قيمة.

(٢) مسلم فى مقدمته، باب بيان الإسناد من الدين (١/ ١٥).

(٣) معرفة علوم الحديث للحاكم، ص (٦).

(٤) تاريخ الإسلام، ص (١٢٦)، حوادث (١٠٤هـ).

(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٣٦).

(٦) التابعون وجهودهم فى خدمة الحديث النبوى، ص (٥٨).

إبراهيم، والشعبى، والحسن، يأتون بالحديث على المعانى، وكان القاسم، وابن سيرين، ورجاء يعيدون الحديث على حروفه[1]. وقال ليث بن أبى سليم: كان طاووس يعد الحديث حرفًا حرفًا[2]، وقال جرير بن حازم: سمعت الحسن يحدث بالحديث: الأصل واحد، والكلام مختلق[3].

٤ ـ وضع معايير علمية لمعرفة حال الرواة تجريحًا وتعديلاً:

ـ مثل مقابلة روايات الضابطين ببعضها، كقول ابن شهاب الزهرى: إذا حدثنى عَمْرَة ثم حدثنى عروة صدق عندى حديث عمرة حديث عروة، فلما تبحرتهما إذا عروة بحر لا ينزف[4].

ـ أو مقابلة حديث الراوى بحديث نفسه، ولكن على فترات متباعدة: كما جاء أن هشام بن عبد الملك أراد التأكد من حفظ الزهرى، فاختبره بنفسه حيث سأله أن يملى على بعض ولده فدعا بكتاب، فأملى عليه أربعمائة حديث، ثم إن هشامًا قال له بعد شهر أو نحوه، يا أبا بكر إن ذلك الكتاب ضاع، فدعا بكتاب فأملاها عليه، ثم قابله هشام بالكتاب الأول فما غادر حرفًا[5].

ـ أو بقلب الأسانيد والمتون: كما جاء عن حماد بن سلمة قال: كنت أسمع أن القصاص لا يحفظون الحديث، فكنت أقلب الأحاديث على ثابت: أجعل أنسًا لابن أبى ليلى وبالعكس أشوشها عليه فيجئ بها على الاستواء[6].

ـ ومن معرفة المبتدع بإعراضه عن السنة إلى القرآن: عن أبى قلابة قال: إذا حدثت الرجل بالسنة فقال: دعنا من هذا، وهات كتاب الله، فاعلم أنه ضال[7].

ـ ومن ضرورة حفظ القرآن قبل الاشتغال بالحديث: عن حفص بن غياث قال: أتيت الأعمش فقلت: حدثنى، قال: أتحفظ القرآن؟ قلت: لا، قال: اذهب، فاحفظ القرآن، ثمّ هلمّ أحدثك، قال: فذهبت فحفظت القرآن، ثم جئته فاستقرأنى، فقرأته، فحدثنى.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٥٩).
(٢) المصدر نفسه (٥/ ٤٦٥).
(٣) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع (٢/ ٢١).
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٣٦).
(٥) السنة ومكانتها فى التشريع ص (٢٠٩).
(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٢٢).
(٧) المصدر نفسه (٤/ ٧٤٢).

٥ ـ إجابة المستفتين، والقضاء بين الناس:

كان من جهود التابعين فى خدمة السنة: إجابة المستفتين، والقضاء به بين الناس، فهذا علقمة بن قيس النخعى يتفقه به أئمة، كإبراهيم، والشعبى، ويتصدى للإمامة والفتيا بعد على وابن مسعود، وكان يشبه بابن مسعود فى هديه، وسمته وكان طلبته يسألونه ويفقهون به، والصحابة متوافرون[١]. وعن أبى الزناد قال: كان الفقهاء السبعة الذين يسألون بالمدينة، وينتهى إلى قولهم: سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعروة، والقاسم، وعبيد الله بن عبد الله، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار[٢]. ولا شك أن إجابة المستفتين والقضاء بين الناس ما كان لهما أن يظهرا على أرض الواقع مع الدعة والراحة والنوم، وإنما تتطلبان جهداً ووقتًا ونفقة للإعداد والتحضير، ثم الأداء[٣].

٦- بيان حال الرواة لمعرفة من يحتج بحديثه ومن لا يحتج[٤]: كان من جهود التابعين فى خدمة الحديث النبوى أداء بيان حال الرواة لمعرفة من يحتج بحديثه ومن لا يحتج.

أ ـ عن محمد بن سيرين قال: أدركت أهل الكوفة وهم يقدمون خمسة: من بدأ بالحارث الأعور ثنى بعبيدة السلمانى، ومن بدأ بعبيدة ثنى بالحارث، ثم علقمة، ثم مسروق، ثم شريح[٥].

ب ـ وعن قتادة قال: إذا اجتمع لى أربعة لم ألتفت إلى غيرهم، ولم أبال من خالفهم: الحسن، وابن المسيب، وإبراهيم، وعطاء.. هؤلاء أئمة الأمصار[٦].

هذه هى أهم الجهود التى بذلوها فى خدمة الحديث النبوى ومن أراد التوسع فليراجع السنة قبل التدوين[٧] للدكتور محمد عجاج الخطيب، والتابعون وجهودهم فى خدمة الحديث النبوى.

---

(١) المحدث الفاصل: باب أوصاف الطالب وآدابه، ص (٢٠٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٣٨).

(٣)، (٤) التابعون وجهودهم فى خدمة الحديث النبوى، ص (٦٤).

(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٩١). (٦) المصدر نفسه (٥/ ٨٣).

(٧) السنة قبل التدوين، ص (١٤٤ - ١٩٩).

سادسًا: منهج التزكية والسلوك عند التابعين (مدرسة الحسن البصرى مثالاً):

* الحسن البصرى فى عهد عمر بن عبد العزيز والدولة الأموية:

يعتبر الحسن البصرى من المعاصرين لعـمر بن عبد العزيز، كما أنه كان له تأثير واضح فى الحياة الدينية والاجتماعية فى عهد الدولة الأموية، والحسن البصرى هو أبو سعيد الحسن بن يسار -مولى زيد بن ثابت رضى الله عنه- من كبار التابعين، وإمام أهل البصرة، وحبر الأمة وقتها. وأمه «خيرة» مولاة أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها.

ولد عام ٢١هـ فى المدينة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، ويقال الحسن أرضعته أم سلمة -رضى الله عنها- حيث كانت أمه ـ خيرة ـ تخرج لشراء بعض الحاجيات، فيبكى الطفل فتأخذه أم سلمة بين يديها، وتضعه فى حجرها، وتلقمه ثديها، فيدر الثدى لبنًا، فيرضع الحسن، وبذلك تكون أمه من الرضاعة، وقد كانت فصاحته وعلمه من هذه البركة. ومن البديهى أن يتعرف الطفل الصغير على بيوت أمهات المؤمنين وينهل من معينهن، ويتأدب بأدبهن ويتخلق بأخلاقهن، ومن جهة أخرى تتلمذ على كبار الصحابة فى مسجد رسول الله ﷺ، كأبى موسى الأشعرى، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله ابن عباس، وجابر بن عبد الله رضى الله عنهم أجمعين، وانتقل مع أبويه فيما بعد إلى «البصرة» وإليها ينسب فيقال الحسن البصرى، وكان عمره وقتها أربع عشرة سنة، فلزم مسجد البصرة ينهل من معين علمائها وخاصة حلقة حبر الأمة وعالمها عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما، وما هو إلا قليل حتى التف الناس حوله، وقصدوه من كل حدب وصوب، وكما قيل فيه كان قوله كفعله، لا يقول ما لا يفعل. سريرته كعلانيته، إذا أمر بمعروف كان أعمل الناس به، وإذا نهى عن منكر كان أنزل الناس له، مستغنيًا عما فى أيدى الناس، زاهدًا به، والناس محتاجون إليه بما عنده[1].

١ـ أسباب تأثيره فى قلوب الناس: جمع الله فيه من الفضائل والمواهب ما استطاع به أن يؤثِّر فى قلوب الناس، ويرفع به قيمة الدين وأهل الدين فى

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٣ - ٥٨٨)، حياة الحسن البصرى د. روضة الحصرى، الحسن البصرى إمام عصره وعلامة زمانه، مرزوق على إبراهيم، الحسن البصرى، مصطفى سعيد الخن، الزهد للحسن البصرى، د. محمد عبد الرحيم محمد.

المجتمع، فقد كان واسع العلم، غزير المادة فى التفسير والحديث، ولم يكن لأحد فى ذلك العصر أن ينشر دعوته ويقوم بالإصلاح، إلا إذا كان متوفراً على هذين العلمين. وقد أدرك الصحابة وعاصر كثيراً منهم، ويظهر من حياته ومواعظه أنه درس هذا العصر دراسة عميقة، وأدرك روحه وعرف كيف تطور المجتمع الإسلامى، ومن أين انحرف، وكان واسع الاطلاع، دقيق الملاحظة للحياة، ومختلف الطبقات وعوائدها وأخلاقها وعِللها وأدوائها، كطبيب مارس العلاج مدة[1]، وكان مع ذلك غاية فى الفصاحة وحلاوة المنطق والتأثير فى مستمعيه، يقول أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصرى، والحجاج بن يوسف، والحسن أفصح منه[2]، وكان آية فى اتساع المعلومات ووفور العلم، قال الربيع بن أنس: اختلفت إلى الحسن عشر سنين، وما من يوم إلا أسمع منه ما لم أسمع قبله. وقال محمد بن سعد: كان الحسن جامعًا عالمًا رفيعًا فقيهًا، ثقة مأمونًا، عابداً ناسكًا، كثير العلم، فصيحًا، جميلاً وسيمًا، وقدم مكة فأجلس على سرير، واجتمع الناس إليه، وقالوا: لم نرَ مثل هذا قط، وقد وصفه ثابت بن قُرة -كما نقل عنه أبو حيان التوحيدى- فقال: كان من ذرارى النجوم علمًا وتقوى، وزهداً وورعًا، وعفة ورقَّة، وفقهًا ومعرفة، يجمع مجلسه ضروبًا من الناس، هذا يأخذ عنه الحديث، وهذا يلقفُ منه التأويل[3]، وهذا يسمع منه الحلال والحرام، وهذا يحكى به الفتيا، وهذا يتعلم الحكم والقضاء، وهذا يسمع الوعظ، وهو فى جميع ذلك كالبحر اللَّجاج تدفقًا، وكالسِّراج الوهاج تألقًا، ولا تُنسَى مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، عند الأمراء وأشباه الأمراء، بالكلام الفصل واللفظ الجزل[4]، وفوق ذلك كله -وهو سر تأثيره فى القلوب، وسحره فى النفوس، وخضوع الناس له- وكان صاحب عاطفة قوية، وروح ملتهبة، وكان من كبار المخلصين، وكان الذى يقوله يخرج من القلب فيدخل فى القلب، وكان إذا ذكر الصحابة أو وصف الآخرة، أدمع العيون وحرك القلوب[5]، قال عنه مطر

---

(١) رجال الفكرة والدعوة (١/ ٦٧).

(٢) نظرات فى التصوف الإسلامى، د. محمد القهوجى، ص (٢٢١).

(٣) التأويل: التفسير.

(٤) رجال الفكر والدعوة (١/ ٦٨).

(٥) المصدر نفسه (١/ ٦٨).

الوراق: لما ظهر الحسن جاء كأنَّما كان فى الآخـرة، فهو يخبر عمَّا عاين[١]. وقال عوف: ما رأيت رجلاً أعلم بطريق الجنة من الحسن[٢]. فقد كان يتذوق الإيمان، ويتكلم عن عـاطفة ووجـدان، لذلك كانت حلقـته فى البـصرة أوسع الحلـقات، وانجـذب الناس إليـه انجـذاب الحـديد إلى المغناطـيس ـ وذلك شـأن أهل القلوب والإخلاص فى كل زمان ـ وكـان من أعظم ما امتاز به هو أنَّ كلامه كـان أشبه ما سمع الناس بكلام النبـوة، وقال الغزالى فى إحياء علوم الدين: ولقـد كان الحسن البصـرىُّ رحمـه الله أشبـه الناس كلامًـا بكلام الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسلام، وأقربهم هديًا من الصحابة رضى الله عنهم، اتفقت الكلمة فى حقه على ذلك[٣]، ونتيجة المواهب العظيمة والفضائل الكثيرة، كان صاحب شخصية قوية جذابة حبيبة إلى النفوس، وكان الناس مأخوذين بسحرها، خـاضعين لعظمتها، حتى قال ثابت ابن قرّة الحكيم الحرّانى: إن الحـسن من أفراد الأمة المحمدية التـى تتباهى بهم على الأمم الأخرى[٤].

وكان من أعظم أسبـاب تأثير الحسن البصرى فى المجـتمع، ونفوذه فى القلوب والعقول، أنه ضرب على الوتر الحساس، ونزل أعماق المجتمع، ووصف أمراضه، وانتقـده انتقاد الحكيم الرفـيق، والناصح الشفيق، لقـد كان عصـره يغُصُّ بالدعاة والوعاظ، ولكنَّ المجتمع لم يتأثر لأحد كتأثره بالحسن، لأنه كان يَمسُّ قلبه وينزل فى صـميم الحـياة، ويعـارض التـيار، لأنه كـان ينعى على الإخـلاد إلى الحيـاة والانهمـاك فى الشهـوات، وقد انتشـر هذا المرض فى الحياة، فكـان يذكر بالموت ويستحـضر الآخرة، والمترفـون يتناسون ذلك، ويُعلِّلون نفوسـهم بالأمانى الكذابة والأحلام اللذيذة، ويتضايقون بذكر ما يكدِّر عليـهم الحياة، ويُعكر صفو عيشهم، فكان دائمًا فى صـراع مع الجاهليـة، والجاهلية لا تخـضع إلا لمن صارعـها، ولا تعتـرف إلا بوجود الرجل الذى يحاربهـا. وكان الحسن البـصرى هو ذاك الرجل، فعظم تـأثيره وكثـر التائبـون والمُقْلعون عن المعـاصى والحيـاة الجاهلية الـتى كانوا يعيـشونها، وانـطلقت موجة الإصـلاح قوية مؤثرة، لأن الحـسن لم يقتـصر على مواعظ وخطب كـان يُلقيهـا، بل كان يُعنى بتربـية من يتصل به ويجـالسه. فكان

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٥٧٣) .

(٢) المصدر نفسه (٤/٥٧٥) .

(٣) رجال الفكر والدعوة (١/٦٨) .

(٤) المصدر نفسه (١/٦٨).

جامعًا بين الدعوة والإرشاد، وبين التربية العملية والتزكية الخُلقية والروحية، فاهتدى به خلائق لا يحصيهم إلا الله، وذاقوا حلاوة الإيمان وتحلوا بحقيقة الإسلام[1].

٢ـ ملامح التصوف السنى عند الحسن البصرى:

يعتبر الحسن البصرى من علماء السلوك النادرين، وممن اهتموا بأمراض النفوس وعلاجها، وإحياء القلوب وإمدادها بالإيمان والمعانى الربانية السامية، وكان رحمه الله سليم العقيدة، متقيدًا بالكتاب والسنة فى تعليمه وتربيته، ولا شك أن الأساس فى التصوف السنى هو الالتزام بالكتاب والسنة وفق منهج السلف الصالح فى العقيدة والعبادة والسلوك والمعاملة، وسنرى ذلك من خلال سيرة الحسن، ومن الأمور التى اهتم بها الحسن رحمه الله:

أ ـ قسوة القلب ومواته وإحياؤه:

قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبى! قال: أدنه من الذكر[2]، وقال: إن القلوب تموت وتحيا، فإذا ماتت فاحملوها على الفرائض، فإذا هى أحييت فأتبعوها بالتطوع[3]، إن قسوة القلب ذمها المولى عز وجل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، ثم بين وجه كونها أشد قسوة، بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]. وقال رسول الله ﷺ: «ولا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى»[4]. وأما أسباب القسوة فكثيرة منها: كثرة الكلام بغير ذكر الله، نقض العهد مع الله ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، ومنها كثرة الضحك، ومنها كثرة الأكل لاسيما من الحرام، ومنها كثرة الذنوب[5]، وغيرها، وقد ذكر الكثير منها الحسن البصرى فى كلامه. وأما مزيلات القسوة فمتعددة منها:

---

(١) رجال الفكر والدعوة (١/ ٧٥).

(٢) الزهد للحسن البصرى، ص (١٢٣).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٢٤).

(٤) سنن الترمذى رقم (٢٤١١)، حسن غريب.

(٥) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (١/ ٢٦١، ٢٦٢).

- كثرة ذكر الله يتواطأ عليه القلب واللسان: قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، قال رسول الله ﷺ: «إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد، قيل: فما جلاؤها يا رسول الله؟ قال: «تلاوة كتاب الله وكثرة ذكره»[١].

وكان الحسن البصرى رحمه الله يقول: أيها الناس أنى أعظكم ولست بخيركم ولا أصلحكم، وإنى لكثير الإسراف على نفسى، غير محكم لها، ولا حاملها على الواجب فى طاعة ربها، ولو كان المؤمن لا يعظ أخاه إلا بعد إحكام أمر نفسه لعدم الواعظون، وقل المذكرون، ولما وجد من يدعو إلى الله جل ثناؤه، ويرغب فى طاعته وينهى عن معصيته، ولكن فى اجتماع أهل البصائر ومذاكرة المؤمنين بعضهم بعضًا حياة لقلوب المتقين، وإذكار من الغفلة، وأمن من النسيان، فالزموا -عافاكم الله- مجالس الذكر، فرب كلمة مسموعة، ومحتقر نافع، اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون[٢].

وكان يقول: سبحان من أذاق قلوب العارفين من حلاوة الانقطاع إليه، ولذة الخدمة له، ما علق هممهم بذكره وشغل قلوبهم عن غيره، فلا شيء ألذ عندهم من مناجاته، ولا أقر إلى أعينهم من خدمته، ولا أخف على ألسنتهم من ذكره سبحانه وتعالى مما يقول الظالمون علوًا كبيرًا[٣]، وكان يقول: تفقد الحلاوة فى ثلاثة أشياء: فى الصلاة والقراءة والذكر، فإن وجدت ذلك فامض وأبشر، وإلا فاعلم أن بابك مغلق فعالج فتحه[٤]، ومن أفضل الذكر العمل بالقرآن وتلاوته، وكان الحسن البصرى يقول: من أحب أن يعلم ما هو فيه، فليعرض عمله على القرآن، ليتبين الخسران من الرجحان[٥]، وكان يقول رحم الله عبدًا عرض نفسه على كتاب الله، فإن وافق أمره حمد الله وسأله المزيد، وإن خالف استعتب ورجع من قريب[٦]، وكان يقول: أيها الناس إن هذا القرآن شفاء للمؤمنين، وإمام للمتقين، فمن اهتدى به هُدى، ومن صرف عنه شقى وابتلى[٧]، وكان يقول: قراء القرآن ثلاثة نفر: قوم اتخذوه بضاعة يطلبون به ما عند الناس، وقوم أجادوا حروفه وضيعوا

---

(١) البيهقى فى الشعب رقم (٢/ ١٤)، العلل المتناهية لابن الجوزى (٢/ ٨٣٢) الحديث فيه ضعف .
(٢) الزهد للحسن البصرى، ص (٧٩).
(٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (٧٩).
(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (١٤٢).
(٧) المصدر نفسه، ص (١٤٧).

حدوده، استدروا به أموال الولاة واستطالوا به على الناس ـ وقد كثر هذا الجنس من حملة القرآن ـ فلا كثر الله جمعهم، ولا أبعد غيرهم، وقوم قرءوا القرآن فتدبروا آياته وتداووا به[1]، وأما قيام الليل فكان يقول فيه: إذا لم تقدر على قيام الليل ولا صيام النهار فاعلم أنك محروم، قد كبلتك الخطايا والذنوب[2]. وقال له رجل: يا أبا سعيد، أعيانى قيام الليل فما أطيقه؟ فقال: يا ابن أخى، استغفر الله وتب إليه، فإنها علامة سوء[3]، وقال: إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل[4].

ـ كثرة ذكر الموت: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات»[5]. وقال الحسن البصرى: فضح الموت الدنيا، فلم يترك فيها لذى لب فرحًا[6]. وعن صالح بن رسم قال: سمعت الحسن يقول: رحم الله رجلاً لم يغره كثرة ما يرى من كثرة الناس؛ ابن آدم إنك تموت وحدك وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك وتحاسب وحدك، ابن آدم وأنت المعنىُّ وإياك يراد[7]. وقال الحسن: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا رأى ذلك فى عمله، ولا طال أمل عبد قط إلا أساء العمل[8]. وقيل: رأى الحسن شيخًا فى جنازة فلما فرغ من الدفن، قال له الحسن: يا شيخ، أسألك بربك: أتظن أن هذا الميت يود أن يرد إلى الدنيا فيتزيد من عمله الصالح، ويستغفر الله من ذنوبه السالفة، فقال الشيخ: اللهم نعم، فقال الحسن: فما بالنا لا نكون كهذا الميت، ثم انصرف وهو يقول: أى موعظة، ما أنفعها لو كان بالقلوب حياة؟ ولكن لا حياة لمن تنادى[9]. وقال: حقيق على من عرف أن الموت مورده والقيامة موعده، والوقوف بين يدى الجبار مشهده أن تطول فى الدنيا حسرته، وفى العمل الصالح رغبته[10]. وكان يقول: ما رأيت يقينًا لا شك فيه أصبح شكًا لا يقين فيه من يقيننا بالموت وعملنا لغيره[11]. وكان يقول: عباد الله، إن الله سبحانه لم يجعل لأعمالكم أجلاً دون الموت، فعليكم بالمداومة، فإنه جل ثناؤه يقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[الحجر: ٩٩]. وكان يقول: ابن آدم إنك تموت وحدك، وتحاسب وحدك، ابن آدم، لو أن الناس كلهم أطاعوا الله وعصيت أنت

---

(١) الزهد للحسن البصرى، ص (١٤٨). (٢)، (٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (١٤٦).

(٥) سنن الترمذى رقم (٢٣٠٧)، سنن ابن ماجة رقم (٤٢٥٨).

(٦) الزهد للحسن البصرى، ص(٢٠). (٧)، (٨)، (٩) المصدر نفسه، ص (٢١).

(١٠)، (١١) المصدر نفسه، ص (٢٢).

لم تنفعك طاعتهم، ولو عصوا الله وأطعت أنت لم تضرك معصيتهم، ابن آدم، ذنبك، ذنبك، فإنما هو لحمك ودمك، فإن سلمت من ذنبك سلم لك لحمك ودمك، وإن تكن الأخرى فإنما هى نار لا تطفأ، وجسم لا يبلى، ونفس لا تموت[١]. وكان يقول: لولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه: الموت والمرض والفقر، وإنه بعد ذلك لوثاب[٢]. وكان الحسن إذا تلا هذه الآية: ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣] قال: من قال ذا؟ قال: من خلقها وهو أعلم بها[٣]. وقال: إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الاشتغال، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل، إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب[٤].

ـ زيارة القبور بالتفكر فى حال أهلها: قال رسول الله ﷺ: «زوروا القبور، فإنها تذكِّر الموت»[٥]، وفى رواية: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكر الآخرة»[٦]، وكان الحسن البصرى كثير الزيارة للقبور، فلما ماتت النوار بنت أعين ابن ضبعية المجاشعى امرأة الفرزدق، وكانت قد أوصت أن يصلى عليها الحسن البصرى، فشهدها أعيان أهل البصرة مع الحسن، والحسن على بغلته، والفرزدق على بعيره، فسار فقال الحسن للفرزدق: ماذا يقول الناس؟ قال: يقولون: شهد هذه الجنازة اليوم خير الناس يعنونك، وشر الناس يعنونى، فقال له: يا أبا فراس، لست بخير الناس، ولست أنت بشر الناس، ثم قال الحسن: ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة، فلما صلى عليها الحسن مالوا إلى قبرها، فأنشأ الفرزدق يقول:

أخاف وراء القبر إن لم يعافنى ... أشد من القبر التهابًا وأضيقا
إذا جاءنى يوم القيامة قائد ... عنيف وسوّاق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد دار من مشى ... إلى النار مغلولا القلادة أزرقا
يساق إلى نار الجحيم مسربلا ... سرابيل قطران لباسًا مخرقا
إذا شربوا فيها الصديد رأيتهم ... يذوبون من حرّ الصديد تمزقا

(٢) الزهد للحسن البصرى، ص (٢٣).
(٢) المصدر نفسه، ص (٢٤).
(٣) المصدر نفسه، ص (٢٥).
(٤) المصدر رقم، ص (٢٦).
(٥) مسلم رقم (٩٧٦).
(٦) مسلم (٢/ ٦٧٢)، سنن الترمذى (١٨٦٩).

قال: فبكى الحسن حتى بلّ الثرى، ثم التزم الفرزدق وقال: لقد كنت من أبغض الناس إلىّ، وإنك اليوم من أحب الناس إلىّ[1]. وكان الحسن يتعظ بالمقابر ويتدبر فى أحوالها، فعن عوانة قال: قال الحسن: قدم علينا بشر بن مروان ـ أخو عبد الملك بن مروان الخليفة ـ أمير المصرين، وأشب الناس، وأقام عندنا أربعين يومًا، ثم طعن فى قدميه فمات، وأخرجناه إلى قبره، فلما صرنا إلى الجبان فإذا نحن بأربعة سودان يحملون صاحبًا لهم إلى قبره، فوضعنا السرير فصلينا عليه، ووضعوا صاحبهم فصلوا عليه، ثم حملنا بشرًا إلى قبره، وحملوا صاحبهم إلى قبره، ودفنا بشرًا ودفنوا صاحبهم ثم انصرفوا وانصرفنا، ثم التفت التفاتة فلم أعرف قبر بشر من قبر الحبشى، فلم أر شيئًا قط كان أعجب منه[2]. وقد ذكر العلماء أمورًا أخرى تزيل قسوة القلوب كالإحسان إلى اليتامى والمساكين، والنظر فى ديار الهالكين والاعتبار بمنازل الغابرين[3].

ب ـ حثه على الإخلاص، وطاعة الله وإصلاح ذات البين والتفكر:

ـ الإخلاص: إن لإخلاص العمل تأثيرًا عظيمًا فى مكارم الأخلاق، فهو يمد قلب صاحبه بقوةً، تجعله ينهض للمكارم ابتغاء وجه الله، غير منتظر من أحد جزاءً ولا شكورًا، يشرح صدره للحلم والعفو ومعالى الأخلاق امتثالاً لأمر الله، وطلبًا لرضاه والفوز بنعيم الآخرة، فهو إن أبغض فبغضه لله وإن أحب فحبه لله وهكذا فى شأنه كله[4]، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. فكان الحسن يقول: من تزين للناس بما لا يعلمه الله منه شانه ذلك[5]. وكان يقول: روى عن بعض الصالحين أنه كان يقول: أفضل الزهد إخفاء الزهد[6]، وقد وعظ يومًا، فتنفس رجل الصعداء، فقال: يا ابن أخى ما عساك أردت بما صنعت؟ إن كنت صادقًا فقد شهرت نفسك، وإن كنت كاذبًا فقد أهلكتها. ولقد كان الناس

---

(١) الحسن البصرى د. مصطفى الحن، ص (٣٤٥) نقلاً عن البداية والنهاية.

(٢) البيان والتبيين (٣/١٤٧)، الحسن البصرى د. مصطفى الحن، ص (٣٤٩).

(٣) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (١/ ٢٦٤ - ٢٧٠).

(٤) الأخلاق بين الطبع والتطبع، ص (٢١). (٥) حياة الحسن البصرى، روضة الحصرى، ص (١٧٠).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٧٠).

يجتهدون فى الخفاء وما يسمع لأحدهم صوت، ولقد كان الرجل ممن كان قبلكم يستكمل القرآن فلا يشعر به جاره، ولقد كان الآخر يتفقه فى الدين ولا يطلع عليه صديقه، ولقد قيل لبعضهم: ما أقل التفاتك فى صلاتك وأحسن خشوعك؟ فقال: يا ابن أخى وما يدريك أين كان قلبى؟[١]، وكان يقول: نظر رجاء بن حيوة إلى رجل يتناعس بعد الصبح، فقال: انتبه عافاك الله، لا يظن ظان أن ذلك عن سهر وصلاة فيحبط عملك[٢]. وقال الحسن: ولقد حُدثت أن رجلاً مر برجل يقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٦، ٩٧]. فقال: والله لأعبدن الله عبادة أُذْكَر بها فى الدنيا، فلزم الصلاة واعتكف على الصيام حتى كان لا يفطر، ولا يرى إلا مصليًا وذاكرًا، وكلما مر على قوم قالوا: ألا ترون هذا المرائى، ما أكثر رياءه، فأقبل على نفسه وقال: ثكلتك أمك، لا أراك تذكرين إلا بشر، ولا أراك أُصبت إلا بفساد نيتك وفساد معتقدك، وأنك لم تردى الله بعملك، ثم بقى على عمله لم يزد عليه شيئًا إلا إن نيته انقلبت[٣]، فتغير الحال ووضع الله له القبول، ولا يمر بقوم إلا قالوا: يرحم الله هذا، ثم يقولون: الآن الآن.

وكان الحسن يقول: أخلصوا لله أعمالكم[٤]، وكان يقول: ابن آدم تلبس لُبسة العابدين، وتفعل أفعال الفاسقين، وتخبت إخبات المريدين، وتنظر نظر المغترين، ويحك! ما هذه خصال المخلصين، إنك تقوم يوم القيامة بين يدى من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور[٥]، وكان يقول: روى أن سعيد بن جبير رأى رجلاً متماوتًا فى العبادة فقال: يا ابن أخى إن الإسلام حىّ فأحيه، ولا تمته أماتك الله ولا أحياك، وكان يقول: من ذم نفسه فى الملأ فقد مدحها وبئس ما صنع[٦].

ـ الحث على طاعة الله:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى

(١) الزهد للحسن البصرى، ص (١٥٩)

(٢) المصدر نفسه، ص (١٥٩).

(٣) انقلبت: صارت على الضد مما كانت عليه أى حسنت.

(٤) الزهد للحسن البصرى، ص (١٦٠).

(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (١٦٠).

اللَّه ذَلكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْه تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْه أُنيبُ﴾ [الشورى: ١٠]. وكان الحسن يقول فى قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ [المؤمنون: ٦٠] قال: يعطون ما أعطوا ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قال: يعملون ما عملوا من أعمال البر وهم يخشون أن لا ينجيهم من عذاب ربهم عز وجل(١). وعنه أنه قال: إذا نظر إليك الشيطان فرآك مداومًا فى طاعة الله فبغاك وبغاك - أى طلبك مرة بعد مرة - فرآك مداومًا وملَّكَ ورفضك، وإذا كنت مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك(٢) وعن الحسن قال: قال هرم بن حيان: ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها(٣).

ومن القصص التى حدثت للحسن لما ولى عمر بن هبيرة العراق، أرسل إلى الحسن وإلى الشعبى فأمر لهما ببيت وكانا فيه شهرًا - أو نحوه - ثم إن الخادم غدا ذات يوم، فقال: إن الأمير داخل عليكما، فجاء عمر يتوكأ على عصا له، فسلم ثم جلس معظمًا لهما، فقال: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك ينفذ كتابًا أعرف أن فى انقاذه الهلكة فإن أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله عز وجل، فهل تريان لى فى متابعتى إياه فرجًا؟ فتكلم الشعبى فانحط فى حبل ابن هبيرة، فقال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ فقال: أيها الأمير، قد قال الشعبى ما قد سمعت، قال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ فقال: أقول: يا عمر بن هبيرة يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصى الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، يا عمر بن هبيرة، إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولا يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله عز وجل، يا عمر بن هبيرة، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل فى طاعة يزيد بن عبد الملك نظرة تمقت فيغلق بها باب المغفرة دونك، يا عمر بن هبيرة، لقد أدركت ناسًا من صدر هذه الأمة كانوا والله على الدنيا وهى مقبلة أشد إدبارًا من إقبالكم عليها وهى مدبرة، يا عمر بن هبيرة إنى أخوفك مقامًا خوفكه الله تعالى فقال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤] يا عمر بن هبيرة إن تك مع الله تعالى فى طاعته كفاك بائقة يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصى الله، وكلك الله إليه، قال: فبكى عمر وقام بعبرته، فلما كان من

(١) الزهد للحسن البصرى، ص (٧٤).
(٢)، (٣) المصدر نفسه، ص (٧٥).

الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما، وكثر منه ما للحسن، وكان فى جائزته للشعبى بعض الإقتار، فخرج الشعبى إلى المسجد، فقال: يا أيها الناس من استطاع منكم أن يؤثر الله تعالى على خلقه فليفعل، فوالذى نفسى بيده ما علم الحسن منه شيئًا فجهلته، ولكن أردت وجه ابن هبيرة، فأقصانى الله منه[1]. وقال الحسن: لا تخالفوا الله عن أمره، فإن خلافًا عن أمره عمران دار قد قضى الله عليها بالخراب[2]. وقال الحسن فى قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥] قال: المتوجه بقلبه وعمله إلى الله عز وجل[3]. وكان يقول: رحم الله امرأً كان قويًا فأعمل قوته فى طاعة الله، أو كان ضعيفًا فكف عن معاصى الله[4].

- الاعتبار والتفكر:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وقال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. فالتأمل والتفكر فى الكون والنفس وآيات الله المنظورة داع قوى للإيمان، لما فى هذه الموجودات من عظمة الله الخالق الدالة على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها: من الحسن والانتظام والإحكام الذى يحير الألباب، الدال على علم سعة الله، وشمول حكمته، وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التى لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله، وجوده وبره، وذلك يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها، وشكره واللهج بذكره، وإخلاص الدين له، وهذا هو روح الإيمان وسره[5]، فعبادة التفكر والاعتبار دعا إليهما الحسن البصرى وحث الناس عليها، فقال رحمه الله: إن من أفضل العمل الورع والتفكر[6]، وقال: من عرف ربه أحبه، ومن أبصر الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل، وإذا فكر حزن[7]. وكان يقول: رحم الله امرأً نظر ففكر، وفكر فاعتبر، واعتبر فأبصر وأبصر فصبر، لقد أبصر أقوام ثم لم يصبروا، فذهب الجزع بقلوبهم، فلم يدركوا ما طلبوا ولا رجعوا إلى ما فارقوا، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران

---

(١) الزهد، الحسن البصرى، ص (٧٦). (٢) المصدر نفسه، ص (٧٦).

(٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (٧٧).

(٥) شجرة الإيمان للسعدى، ص (٤٩)، الوسطية فى القرآن، ص (٢٣٩).

(٦) الزهد، الحسن البصرى، ص (٨٢). (٧) المصدر نفسه، ص (٨٣).

المبين[1]، وقال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة[2]، وكان يقول: الفكرة مرآة تريك حسناتك من سيئاتك، فمن اعتمد عليها أفلح ومن أغفلها افتضح[3].

ـ العلم والعلماء: وكان يقول: الفهم وعاء العلم، والعلم دليل العمل، والعمل قائد الخير، والهوى مركب المعاصى، والمال داء المتكبرين، والدنيا سوق الآخرة، والويل كل الويل لمن قوى بنعم الله على معاصيه[4]، وقال: قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك فى تخشعه وهديه، وفى لسانه وبصره وبره[5].

ج ـ النهى عن طول الأمل وذم الكبر:

ـ النهى عن طول الأمل: قال الحسن: إن المؤمن فى الدنيا غريب لا يجزع ذلها ولا ينافس أهلها فى عزها، الناس منه فى راحة، ونفسه منه فى شغل، طوبى لعبدٍ كسب طيبًا، وقدم الفضل ليوم فقره وفاقته، وجهوا هذا الفضل حيث وجهه الله، ولا تلقوه هاهنا فيما يضركم[6]. وكان يقول: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل[7]، ومن درر كلامه قوله: يا ابن آدم إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك[8].

ـ النهى عن الكبر: قال الحسن: يا ابن آدم، كيف تتكبر وأنت من سبيل البول مرتين[9]، وقيل: رأى الحسن نعيم بن رضوان يمشى مشية المتكبر فقال: انظروا إلى هذا، ليس فيه عضو إلا ولله تعالى فيه نعمة وللشيطان لعنة[10].

٣ ـ من تلاميذ الحسن البصرى الذين اشتهروا بعلم السلوك:

كان الحسن البصرى من علماء أهل السنة، واهتم رحمه الله بعلم السلوك، وكان له مجلس خاص فى منزله لا يكاد يتكلم فيه إلا فى معانى الزهد والنسك[11]، وقد تأثر بمدرسة الحسن البصرى مجموعة خيرة لكوكبة نيرة، ونجوم ساطعة من علماء أهل السنة، منهم:

---

(١) ، (٢) الزهد للحسن البصرى، ص (٨٣).
(٣) المصدر نفسه، ص (٨٣).
(٤)، (٥) المصدر نفسه، ص (٩٢).
(٦) المصدر نفسه، ص (٨١).
(٧) المصدر نفسه، ص (٨٢).
(٨) المصدر نفسه، ص (٨١).
(٩)، (١٠) المصدر نفسه، ص (٩٠).
(١١) سير أعلام النبلاء (٤/٥٧٩)

أ ـ أيوب السختياني: هو الإمام الحافظ سيد العلماء، أبو بكر بن أبي تميمة كيسان[1]، كان ثقة ثبتًا في الحديث، جامعًا عدلاً، ورعًا، كثير العلم[2]، وكان إذا سُئل عن شيء ليس عنده فيه شيء قال: أسأل أهل العلم، وكان كثيرًا ما يقول: لا أدري. حتى قال حماد بن زيد: ما رأيت أحدًا أكثر من قول: لا أدري من أيوب ويونس، وكان يحب ستر زهده ويقول: لأن يستر الرجل زهده خير له من أن يظهره[3]، وحج أيوب أربعين حجة، وكان عبيد الله بن عمر يرتاح قلبه في موسم الحج بلقاء أقوام نوَّر الله قلوبهم بالإيمان، منهم أيوب، وكان صديقًا ليزيد ابن الوليد بن عبد الملك، فلما تولى يزيد الخلافة قال أيوب: اللهم أنسه ذكرى[5]، وكان شديد التبسم في وجوه الناس[6].

* من مواقف وكلمات أيوب:

ـ تعظيمه لأهل السنة: قال أيوب: إنه ليبلغني موت الرجل من أهل السنة فكأنما يسقط عضو من أعضائي[7].

ـ موقفه من أهل الأهواء والبدع: قال: ما ازداد صاحب بدعة اجتهاداً إلا ازداد من الله بعداً[8]. وعن أيوب قال: قال أبو قلابة: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإني لا آمن من أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون[9]. قال أيوب: وكان والله من الفقهاء ذوي الألباب[10].

ـ محبته للقاء إخوانه في الله: قال: إنه يزيدني في حب الموسم وحضوره أن ألقى إخوانًا لي فيه لا ألقاهم في غيره[11].

ـ عبادته: كان من العباد المشهورين بحسن العبادة وكثرتها، وكان شديد الحرص على إخفائها عن الناس وتصفيتها وإخلاصها لرب الناس[12]، وكان من سادات

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٥) .
(٢) الطبقات (٧/ ٢٤٦) .
(٣) تاريخ التصوف الإسلامي، د. بدوي، ص (١٨٩).
(٤) الحلية (٣/ ٤) .
(٥) الحلية (٣/ ٦) .
(٦) تاريخ التصوف الإسلامي، ص (١٨٩).
(٧)، (٨) الحلية (٣/ ٩) .
(٩) الإمام أيوب السختياني، د. سليمان العربي، ص (٤٧).
(١٠) البدع والنهي عنها لابن وضاح، ص (٤٨).
(١١) الإمام أيوب السختياني، ص (٤٨).
(١٢) المصدر نفسه، ص (٥٠).

أهل البصرة، وعبّاد أتباع التابعين وفقهائهم، ممن اشتهر بالفضل والعلم والنسك[(١)]، وكان كثير الحج والعمرة -رحمه الله- لوصية رسول الله بذلك: «تابعوا بين الحج والعمرة»[(٢)]، وحج أيوب أربعين[(٣)]، وكان يقوم الليل يخفى ذاك، فإذا كان قبل الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة[(٤)].

ـ الزهد: قال أيوب: الزهد فى الدنيا ثلاثة أشياء، أحبها إلى الله وأعلاها عند الله وأعظمها عند الله تعالى، الزهد فى عبادة من عبد دون الله من كل ملك وصنم وحجر ووثن، ثم الزهد فيما حرم الله تعالى من الأخذ والإعطاء، ثم يقبل علينا فيقول: زهدكم هذا يا معشر القراء فهو أخسه عند الله، الزهد فى حلال الله عز وجل[(٥)].

ـ شهادة الحسن البصرى فيه: قال فيه الحسن: هذا سيد الفتيان[(٦)]، قال: أيوب سيد شباب أهل البصرة[(٧)]، وأما شهادة أيوب فى شيخه الحسن فقد قال: كان الحسن يتكلم بكلام كأنه الدر، فتكلم قومٌ من بعده بكلام يخرج من أفواههم كأنه القيء[(٨)]. وقال: جالست الحسن أربع سنين فما سألته هيبة له[(٩)].

ـ وفاته: بعد عمر قضاه فى عبادة الله تعلمًا وتعليمًا وتربية وخشية لله، وتمسكًا بالسنة وتعظيمًا بأهلها، وقمعًا لأهل البدع والأهواء وإخلاص العلم والعمل لله، توفى فى مرض الطاعون بالبصرة عام ١٣١هـ[(١٠)]، وروى أبو نعيم بسنده إلى حماد بن زيد قال: غدا على ميمون أبو حمزة يوم الجمعة قبل الصلاة، وقال: إنى رأيت البارحة أبا بكر وعمر فى النوم فقلت لهما: ما جاء بكما؟ قالا: جئنا نصلى على أيوب السختيانى، قال: ولم يكن علم بموته، فقلت له: قد مات أيوب البارحة[(١١)].

---

(١) مشاهير علماء الأمصار، ص (١٥٠) رقم (١١٨٣).

(٢) مسند أحمد رقم (١٦٧) الحديث صحيح بشواهد.

(٣) حلية الأولياء (٣/ ٥).

(٤) المعرفة والتاريخ(٢/ ٢٤١)، الإمام أيوب السختيانى، ص (٥٢).

(٥) حلية الأولياء (٣/ ٧) .

(٦) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٤٧)، الإمام أيوب، ص (٧٥).

(٧) حلية الأولياء (٣/ ٣)، الإمام أيوب، ص (٧٥).

(٨) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٧٧).

(٩) حلية الأولياء (٣/ ١١)، الإمام أيوب، ص (٧٥).

(١٠) الوافى بالوفيات (١٠/ ٥٤، ٥٥)، الإمام أيوب، ص (٩٦).

(١١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٣).

ب ـ مالك بن دينار: علم العلماء الأبرار، معدود من ثقات التابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف، كان من ذلك بلغته[1].

من مواقفه وأقواله:

ـ عدم تأثره بالمدح والذم: قال: مذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم ولم أكره ذمهم؛ لأن حامدهم مفرط، وذامهم مفرط، وقال: إذا تعلم العالم العلم للعمل كسره، وإذا تعلمه لغير العمل زاده فخراً[2].

ـ حزن القلب: قال: إذا لم يكن فى القلب حزن خرب. وقال: من تباعد من زهرة الدنيا، فذاك الغالب هواه[3].

ـ جاء يسرق فسرقناه: قيل: دخل عليه لص، فما وجد ما يأخذ، فناداه مالك: لم تجد شيئًا من الدنيا، فترغب فى شىء من الآخرة؟ قال: نعم. قال: توضأ، وصل ركعتين، ففعل ثم جلس وخرج إلى المسجد، فسُئل: من ذا؟ قال: جاء ليسرق فسرقناه[4].

ـ أطيب شىء من الدنيا معرفة الله: قال: خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شىء فيها، قيل: وما هو؟ قال: معرفة الله.

ـ محبة أنس بن مالك له: قال مالك بن دينار: أتينا أنسًا أنا وثابت ويزيد الرقاشى، فنظر إلينا فقال: ما أشبهكم بأصحاب محمد ﷺ، لأنتم أحب إلىَّ من عدة ولدى إلا أن يكون فى الفضل مثلكم، إنى لأدعو لكم فى الأسحار[5].

– مصدر كسبه: كان ينسخ المصحف فى أربعة أشهر، فيدع أجرته عند البقال فيأكله، وكان أدم مالك بن دينار فى كل سنة بفلسين ملح[6].

ـ وفاته: توفى سنة ١٢٧هـ[7] وقيل: ١٣٠هـ. فمالك بن دينار من علماء أهل السنة ولا ينظر لمن ألصق به آثاراً واهية نسبها إليه، وزعم أنه خلط الروحية الإسلامية بعناصر غير إسلامية وكتابية على وجه التخصيص[8]. بل الثابت من

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٦٢).
(٢) المصدر نفسه (٥/ ٣٦٢).
(٣)، (٤) المصدر نفسه (٥/ ٣٦٣).
(٥)، (٦)، (٧) المصدر نفسه (٥/ ٣٦٤).
(٨) تاريخ التصوف الإسلامى، ص (٢٠٧).

سيرته بأنه من أعلام السلوك ومن تلاميذ الحسن البصرى، وأنس بن مالك، والأحنف بن قيس، وسعيد بن جبير، ومحمد بن سيرين، والقاسم بن محمد[١] وغيرهم من علماء أهل السنة.

ج ـ محمد بن واسع: الإمام الربانى، القدوة[٢]، ترجمت له فى حديثى عن الفتوحات فى عهد عبد الملك، وكان من ضمن جيش قتيبة بن مسلم، وقد أقام مدة فى خراسان[٣]. قال عنه مالك بن دينار: القراء ثلاثة: فقارىء للرحمن، وقارىء للدنيا، وقارىء للملوك، ومحمد بن واسع عندى من قراء الرحمن[٤]، وكان الحسن البصرى يسميه زين القراء[٥]، ومن أقواله: إذا أقبل العبد بقلبه على الله أقبل الله بقلوب العباد عليه. وقال: يكفى من الدعاء مع الورع يسير العمل[٦].

هؤلاء هم أشهر تلاميذ الحسن البصرى فى علم السلوك والذين كان لهم تأثير كبير فى حياة الناس، واليوم نحن فى أشد الحاجة لإحياء هذا العلم الذى أصبح نادراً، وتصدر له بعض المحسوبين على العلم من أصحاب العقائد الفاسدة والتصورات السقيمة والأفكار المنحرفة، فالأمة فى حاجة ماسة لمنهج تربوى سنى تُستلهم أصوله وفروعه من كتاب الله وسنة رسوله وهدى الصحابة الكرام ومن سار على نهجهم من العلماء الراسخين، لكى تقف أمام الهجمة المادية، والطغيان الشهوانى، الذى يبث فى وسائل الإعلام العالمية والإقليمية والقُطرية، كما أن من عوامل نهوض الأمة كبح شهواتها، وتطهير نفوسها من أمراضها، وإحياء القلوب بالمعانى الرفيعة والأعمال القلبية، كالرجاء والخوف والإخلاص والإنابة لله رب العالمين.

٤ ـ براءة الحسن البصرى من الاعتزال:

يزعم المعتزلة أن الحسن البصرى قال بالقدر على مذهبهم، وإنه منهم، فيروون عن داود بن أبى هند أنه قال: سمعت الحسن يقول: كل شىء بقضاء وقدر إلا المعاصى[٧]. ويوردون رسائل أرسلها إلى عبد الملك بن مروان وفيها قوله بالقدر

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٦٢). (٢) المصدر نفسه (٦/ ١١٩).

(٣) تاريخ التصوف الإسلامى، ص (٢١٧)، الحلية (٢/ ٣٥٣).

(٤) الحلية (٢/ ٣٤٥)، تاريخ التصوف الإسلامى، ص (٢١٤).

(٥) تاريخ التصوف الإسلامى، ص (٢١٤). (٦) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢١).

(٧) المنية والأمل لابن المرتضى، ص (١٢)، القضاء والقدر، د. المحمود، ص (١٨٥).

على مذهب المعتزلة، ويقولون: إن رسائله مشهورة[١]. وقد تحمس الشيخ محمد أبو زهرة ليثبت أن الحسن البصرى كان يقول بالقدر على مذهب المعتزلة[٢]، والرد على هذه الدعاوى الخالية من الحجج والبراهين والأدلة كتالى:

أـ أن المعتزلة أنفسهم لا يقطعون بنسبة الحسن إليهم، ولذا نرى ابن المرتضى لما ذكر الحسن وقوله فى القدر قال: «فإن قلت: فقد روى أيوب، أتيت الحسن، فكلمته فى القدر فكف عن ذلك، قلت: فقد روى أنه خوفه بالسلطان فكف عن الخوض فيه[٣]. وهل يخاف الحسن السلطان وهو الرجل الذى يجهر بالحق دائمًا.

ب ـ أما بالنسبة للرسالة المنسوبة إليه، فيقول عنها الشهرستانى: ورأيت رسالة نسبت إلى الحسن البصرى كتبها إلى عبد الملك بن مروان، وقد سأله بالقول بالقدر والجبر فأجابه فيها بما يوافق مذهب القدرية، واستدل فيها بآيات من القرآن الكريم ودلائل من العقل، ولعلها لواصل بن عطاء، فما كان الحسن ممن يخالف السلف فى أن القدر خيره وشره من الله ـ تعالى ـ، فإن هذه الكلمات المجمع عليها عندهم[٤]. وهذه الرسالة لم تصح نسبتها إلى الحسن، والمعتزلة ينسبون إلى الحسن أقوالاً بروايات منقطعة، فالمرتضى حين ذكر أهل العدل والتوحيد عد منهم الحسن البصرى وترجم له ترجمة طويلة، ولما أراد أن يثبت أنه من أهل العدل قال: فمن تصريحه بالعدل، ما رواه على بن الجعد قال: سمعت الحسن يقول: من زعم أن المعاصى من الله عز وجل جاء يوم القيامة مسودًا وجهه وقرأ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]. وعلى بن الجعد الذى يقول: سمعت الحسن لم يسمع منه ولم يلقه[٥]، فهذه رواية منقطعة[٦].

ج ـ وابن قتيبة يذكر عن الحسن البصرى أنه تكلم فى شىء من القدر، ثم رجع عنه، ولكنه يذكر بعد ذلك مباشرة أن عطاء بن يسار ومعبدًا الجهنى كانا يأتيان الحسن، فيسألانه ويقولان: يا أبا سعيد، إن الملوك يسفكون دماء المسلمين،

---

(١) القضاء والقدر فى ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس، ص (١٨٦).
(٢) تاريخ الجدل، ص (٣٢١، ٣٢٢).
(٣) المنية والأمل، ص (١٥).
(٤) القضاء والقدر فى ضوء الكتاب والسنة، ص (١٨٦).
(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (١٨٧).

ويأخذون الأموال، ويفعلون ويفعلون، ويقولون: إنما تجرى أعمالنا على قدر الله، فقال: كذب أعداء الله[1]، قال ابن قتيبة: فتعلق عليه بمثل هذا وأشباهه[2]. ويشبه هذا ما يروى عن الحسن أنه قال ـ وهو محق فى قوله ـ: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى العرب وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله ويقولون: إن الله سبحانه قد شاء ما نحن فيه وحملنا عليه وأمرنا به، فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨][3]. فهل كلام الحسن ـ رحمه الله ـ فى الروايتين دل على أنه قدرى؟ إن الجواب على ذلك واضح بداهة، لأنه يرد على الذين يحتجون بالقدر على كفرهم ومعاصيهم، ولا شك أن هذا الاحتجاج باطل وكلام الحسن حق[4]. وقد أشار ابن تيمية إلى أنه قال: قد اتهم بمذهب القدر غير واحد، ولم يكونوا قدرية، بل كانوا لا يقبلون الاحتجاج على المعاصى بالقدر، كما قيل للإمام أحمد: كان بن أبى ذؤيب قدريًا، فقال: الناس كل من شدد عليهم بالمعاصى قالوا: هذا قدرى. وقد قيل: لهذا السبب نسب إلى الحسن القدر[5].

د ـ وهناك روايات تنفى هذا الزعم، فعن عمر مولى غفرة قال: كان أهل القدر ينتحلون على الحسن بن أبى الحسن، وكان قوله مخالفًا لهم، كان يقول: يا ابن آدم، لا ترض أحداً بسخط الله، ولا تطيعنّ أحداً فى معصية الله، ولا تحمدن أحداً على فضل الله، ولا تلومن أحداً فيما لم يؤتك الله، إن الله خلق الخلق والخلائق، فمضوا على ما خلقهم عليه، فمن كان يظن أنه مزداد بحرصه فى رزقه فليزدد بحرصه فى عمره، أو يغير لونه، أو يزيد فى أركانه أو بنانه[6].

هـ ـ ومعلوم أن المعتزلة أجمعوا على أصولهم الخمسة، والحسن البصرى يعتبر القول بالمنزلة بين المنزلتين بدعة تخرج صاحبها عن عقيدة الجماعة، ولذلك اعتزل واصل ابن عطاء حلقة الحسن لما خالفه فى هذا الأصل، فكيف مع هذا يعتبر الحسن من علمائهم المنتسبين إليهم؟[5].

---

(١)، (٢) القضاء والقدر فى ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس، ص (١٨٧).

(٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (١٨٨).

(٥) منهاج السنة (١/ ٣٦٢) القضاء والقدر، ص (١٨٨).

(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/ ١٧٥).

و ـ وقد اشتهر عن بعض المعتزلة القدرية أنهم يكذبون على الحسن البصرى ، فقد ذكر عبد الله بن أحمد فى كتاب السنة عدة روايات تدل على ذلك، فمن ذلك ما رواه عن حميد قال: قدم الحسن مكة، فقال فقهاء مكة -الحسن بن مسلم وعبد الله بن عبيد-: لو كلمت الحسن فأخلانا يومًا. فكلمت الحسن فقلت: يا أبا سعيد إخوانك يحبون أن تجلس لهم يومًا، قال: نعم ونعمة عين، فواعدهم يومًا فجاءوا فاجتمعوا، وتكلم الحسن، وما رأيته قبل ذلك اليوم ولا بعده أبلغ منه ذلك اليوم، فسألوه عن صحيفة طويلة فلم يخطئ فيها شيئًا إلا فى مسألة، فقال له رجل: يا أبا سعيد، من خلق الشيطان؟ قال: سبحان الله، سبحان الله، وهل من خالق غير الله، ثم قال: إن الله خلق الشيطان وخلق الشر والخير، فقال رجل منهم: قاتلهم الله يكذبون على الشيخ(١). وقال حميد لمن نقل عن عمرو بن عبيد حديثًا رواه الحسن: لا تأخذ عن هذا فإنه يكذب على الحسن(٢). وروى عبد الله بن أحمد عن حماد بن زيد قال: قيل لأيوب: إن عمرًا «أى عمرو بن عبيد» روى عن الحسن أنه قال: لا يجلد السكران من النبيذ، قال: كذب، أنا سمعت الحسن يقول: يجلد السكران من النبيذ(٣).

فهذه الروايات وغيرها، تدل على أن دعوى أن الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ كان قدريًا، أو كان يقول بقولهم ليست صحيحة(٤). وإنما غرض المعتزلة هو التشرف بانتسابه إليهم، وإلا فكيف عدّوه منهم(٥)، والمعتزلة ذكروا مع الحسن غيره، بل وعدّوا من الطبقة الأولى من طبقاتهم الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة(٦). وواضح إن إدراج هؤلاء ضمن المعتزلة إنما قصد به بيان أن المعتزلة هى أتقى الفرق وأبرها(٧). ومعلوم لدى طلاب العلم وعموم المسلمين أن الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام برآء من تهمة الاعتزال وإنما هم سادة علماء أهل السنة والجماعة الذين ساروا على منهاج النبوة.

٥ ـ الإمام العادل فى نظر الحسن البصرى:

عندما جاء عمر بن عبد العزيز للخلافة نجد الحسن البصرى قريبًا من الخليفة الجديد، يتعهده بالوعظ والإرشاد، ويرسم له منهاجًا للإمام العادل، وهذا دور

---

(١) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (٢/١٢٦). (٢) المصدر نفسه (٢/١٣١) .
(٣) المصدر السابق (٢/١٣٢) . (٤) القضاء والقدر فى ضوء الكتاب والسنة، ص (١٩١).
(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (١٨٩). (٧) مذاهب الإسلاميين، عبد الرحمن بدوى (١/ ٤٠).

إيجابي من الحسن - رحمه الله - يبين العمل المطلوب من العالم الرباني الذى يسعى لمساعدة المصلحين من أصحاب القرار لنصرة الإسلام. وهذا يدلنا على تكامل شخصية الحسن الإسلامية، فقد شارك فى الجهاد والتعليم والتربية، وكان رائداً لمدرسة الإصلاح الاجتماعى بين الناس، واهتم بأمراض القلوب، وعلاجها، وكانت له مواقفه السياسية من الثورات، ومن الحكام الظالمين، وهنا تتجلى شخصيته السياسية أكثر فى قربه من عمر بن عبد العزيز وشد أزره، والوقوف بجانبه والتنظير لمعالم الإصلاح والتجديد الراشدى الذى قاده عمر بن عبد العزيز، فقد جاء فى رسالته التى كتبها إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم يا أمير المؤمنين: أن الله جعل الإمام العادل قوَّام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل مفسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة[١] كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنفها من أذى الحر والقر[٢].

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالأب الحانى على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم فى حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها: حملته كرهًا ووضعته كرهًا، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته. والإمام العادل، يا أمير المؤمنين وصى اليتامى، وخازن المساكين؛ يربى صغيرهم، ويمون كبيرهم، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح؛ تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده، والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين، فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدل المال وشرد العيال، فأفقر أهله، وفرق ماله. وأعلم يا أمير المؤمنين إن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟ واذكر، يا أمير المؤمنين، الموت وما بعده، وقلة أشياعك

---

(١) النصفة: اسم من الإنصاف.

(٢) القر: البرد.

عنده، وأنصارك عليه؛ فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر، واعلم، يا أمير المؤمنين، أن لك منزلاً غير منزلك الذى أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، ويُسلمونك فى قعره فريدًا وحيدًا، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه. واذكر، يا أمير المؤمنين، إذا بعثر ما فى القبور، وحُصل ما فى الصدور، فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فالآن، يا أمير المؤمنين، وأنت فى مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل. لا تحكم، يا أمير المؤمنين، فى عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلاً[1]، ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك، وأثقالاً مع أثقالك، ولا يغُرنّك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيّباتك فى آخرتك. لا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غدًا وأنت مأسور فى حبائل الموت، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحى القيوم، إنى يا أمير، وإن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولو النهى من قبلى، فلم آلك[2] شفقة ونصحك، فأنزل كتابى إليك كمداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له من ذلك من العافية والصحة، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته[3].

والمعانى الرئيسية فى هذه الرسالة:

أ ـ أن أهم صفة فى الإمام هى العدل ولكنه عدل ممزوج بالرحمة الأبوية.

ب- وأن أولى الناس باتباع حدود الله هو الإمام، لأنه إن لم يتبعها، فأجدر بالرعية ألا يتبعوها.

ج- وأن الإمام هو المنفذ للقصاص، فلا يحق له أن يقتل أحدًا بغير حق، إن فى القصاص حياة، فكيف يقضى على الحياة من وُكل إليه أمر توفير الحياة؟.

د- أن صلاح الرعية بصلاح الإمام، وفسادها بفساده، فمسئوليته عن أفعاله هى فى الوقت نفسه مسئوليته عن أفعال كل رعيته، فما أعظم مسئوليته إذن.

---

(١) الإل: العهد. (٢) أى لم أقصر.

(٣) الحسن البصرى لابن الجوزى ص٥٦، العقد الفريد لابن عبد ربه (١/ ١٢)، تاريخ التصوف السنى، ص (١٧٩).

هـ- وتظهر هذه المسئولية خصوصًا فى تعيين الولاة، فما يرتكبه ولاة الإمام وعُمّاله. . الإمام هو أول مسئول عنها، ولهذا يجب على الإمام ألا يسلط المستكبرين على المستضعفين، لأن المتكبرين لا يرعون الحرمات، ولا يراقبون الله فى أعمالهم وأحكامهم، فإذا عيّن الإمام واحدًا من هؤلاء، فقد تحمّل مع أوزاره الخاصة أوزارهم[1].

٦ ـ الحسن البصرى يصف الدنيا لعمر بن عبد العزيز:

كتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز واصفًا له الدنيا:

أما بعد، يا أمير المؤمنين فإن الدنيا دار ظعن وانتقال، وليست بدار إقامة على حال، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة فأحذرها، فإن الراغب فيها تارك، والغنى فيها فقير، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق وجدها تذل من أعزها، وتفرق من جمعها، فهى كالسم يأكله من لا يعرفه، ويرغب فيه من يجهله، وفيه والله حتفه، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جراحه يحتمى قليلاً، مخافة ما يكره طويلاً، الصبر على لأوائها، أيسر من احتمال بلائها، واللبيب من حذرها، ولم يغتر بزينتها، فإنها غدارة ختالة خداعة، قد تعرضت بآمالها وتزينت لخطابها، فهى كالعروس. . العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، وهى -والذى بعث محمدًا بالحق- لأزواجها قاتلة، فاتق يا أمير المؤمنين صرعتها، واحذر عثرتها، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء، والبقاء مؤدٍ إلى الهلكة والفناء، واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، وتاركها موفق، والمتمسك بها هالك غرق، والفطن اللبيب من خاف ما خوفه الله، وحذر ما حذره، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء، فعند الموت يأتيه اليقين، الدنيا يا أمير المؤمنين دار عقوبة، لها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، والحازم اللبيب من كان فيها كالمداوى جراحه، يصبر على مرارة الدواء، لما يرجو من العافية، ويخاف من سوء عاقبة الدار، والدنيا، وايم الله، يا أمير المؤمنين حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، والعباد فى أضغاث أحلام، وإنى قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم:

---

(١) تاريخ التصوف الإسلامى، ص (١٨٠).

فـــإن تنج من ذى عــظيـــمــــة وإلا فـــإنى لا أخـالـك ناجـيــا

ولما وصل كتابه إلى عمر بن عبد العـزيز بكى وانتحب حتى رحمه من كان عنده، وقـال: يرحم الله الحسـن فإنه لا يزال يوقظنا مـن الرقدة، وينبـهنا من الغفلة، ولله دره من مـشفق ما أنصحه، وواعظ مـا أصدقه وأفصـحه. وكتب إليه عـمر بن عبـد العزيز: وصلت مواعظك النافـعة فاستـشفيت بهـا، ولقد وصفت الدنيا بصـفتها، والعاقل من كان فيـها على وجل، فكأن كل من كتب عليه الموت من أهلهـا قد مات، والسـلام عليك ورحمة الله، وبركـاته. فلما وصل كتابه إلى الحـسن قال: لله درّ أمير المؤمنين من قـائل حق وقابل وعظًا، لقـد أعظم الله جل ثناؤه بولايتـه المنة، ورحم بسلـطانه الأمة، وجـعله بركـة ورحمة[1]. وكتب إليه: أما بعد فـإن الهول الأعظم، والأمر المطلوب أمامك، ولا بد من مشاهدتك ذلك، إما بنجاة أو بعطب[2].

٧ ـ موقفه من الثورات التى حدثت فى عهده:

كان يرى أن تغـيير الفسـاد لا يكون بالسيف، وإنما يكون بالتـوبة والرجوع إلى الله والنصح لأصـحاب الأمور، وقـد قال: وما أعـجب أمر من يحاول أن يغـير بالسيف، فإن التغيير لا يكون إلا بالتوبة[3]، وقد قال رسول الله ﷺ فى وجوب الصبر على ما نكرهه منهم: «من رأى من أميـر شيئًا يكرهه فـليصبر، فـإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرًا فيـموت إلا مات ميتة جاهلية»[4]. ويرى بعد فقهه لهذا الحديث وأمثاله أن تسلط الحكام عـقوبة من الله تعالى تحتاج لصـبر، ويقول: لو أن الناس إذا ابتلوا من قِبل سلطانهم صـبروا ما لبثوا أن يُفرج عنـهم، ولكنهم يجزعون إلى السيف فيوكلون إليه، فـوالله ما جاءوا بيوم خير قط[5]. وكان موقفه من ثورة ابن الأشعث كـما مـر معنا، وكـان يرى أن ولاة الأمور طالما أنهم يقـيمـون الجمـعة والجماعـة والفىء، والثغور[6] والحدود، فلا يجـوز الخروج عليهم[7]، وقد علق

(١) الزهد للحسن البصرى ص (١٦٩).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٦٩).
(٣) الطبقات الكبرى (٧/ ١٢٥، ١٣١).
(٤) البخارى رقم ٦٧٢٤، مسلم رقم ١٨٤٩ .
(٥) شذرات الذهب (١/ ١٣٧)، حياة الحسن البصرى د. روضة، ص (١٩١).
(٦) حياة الحسن البصرى، ص (١٩٤).
(٧) المصدر نفسه، ص (١٩٤).

المودودى على منهج الحسن البصرى فى التعامل مع الثورات بأنه كان يشك بجدواها[١]، وكان ينظر إلى ثورة يزيد بن المهلب بقلق شديد خصوصًا وأن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز كان قد حبس يزيد بن المهلب لفساده، ولأنه إن تولى أموال المسلمين[٢] فسينفقها فى ملذاته، ويرى الحسن أن غضبة ابن المهلب غضبة لنفسه ومطامعه، فيذهب الحسن إلى حيث اجتمع الناس فى الجامع يتوكأ على عاتق معاذ بن سعد وهو يقول له: انظر هل ترى رجلاً نعرفه؟ وسر الحسن عندما لم ير فى المجموع رجلاً من أصحابه[٣]. وتزداد جرأة الحسن وصدعه بالحق، ويتقدم من المنبر ويزيد يخطب. وقال بصوت مرتفع يخاطب ابن المهلب: والله لقد رأيناك واليًا ومولى عليك، فما ينبغى لك ذلك. ويقف موقفًا أشد جرأة من سابقه فقد خرج على الناس وقد نصبوا الرايات، واصطفوا صفين، وهم ينتظرون خروج يزيد بن المهلب، ويقولون: يدعونا لسنة العمرين، فقال الحسن: إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون، ثم يسرح بهم إلى بنى مروان يريد بهلاك هؤلاء رضاهم، فلما غضب غضبة نصب قصبًا، ثم وضع عليها خرقًا ثم قال: إنى قد خالفتهم فخالفوهم، وقال: أدعوكم إلى سنة العمرين، وإن من سنة العمرين أن يوضع قيد فى رجله ثم يرد إلى السجن ويوضع فى جبة[٤].

وتزداد مواعظ الحسن وكراهيته للثورة فيخطب الناس ويقول: أيها الناس، الزموا رحالكم وكفوا أيديكم، واتقوا الله مولاكم، ولا يقتل بعضكم بعضًا على دنيا زائلة، وطمع فيها يسير، ليس لأهلها بباق، وليس عنهم فيما اكتسبوا براض، إنه لم يكن إلا كان أكثر أهلها الخطباء، والسفراء والسفهاء، وأهل التيه والخيلاء، وليس يسلم منها إلا المجهول الخفى، والمعروف التقى[٥].

وعلى أثر هذه الخطبة، يهدد مروان ابن المهلب خليفة يزيد فى الثورة فيقول: لقد بلغنى أن هذا الشيخ الضال المرائى يثبط الناس، والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبة لظل يرعف أنفه، والله ليكُفنّ عن ذكرنا وعن وجهه علينا سقاط الأبلة[٦]، وعلوج فرات البصرة، أو لأنخين عليه مبردًا خشنًا[٧]. ووقف الناس

---

(١) الخلافة والملك للمودودى، ص (١٤٩).

(٢) حياة الحسن البصرى، ص (١٩٦).

(٣) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٩١).

(٤) وفيات الأعيان (٣/ ٢٨٠)، حياة الحسن البصرى، ص (١٩٧).

(٥) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٩٨).

(٦) أُبلّته: بضمتين ومشددة: أصحابه وقبيلته.

(٧) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٩٨).

مع الحسن وقالوا له: لو أرادوك ثم شئت لمنعناك، فأجابهم بقوله: فقد خالفتكم إذًا إلى ما نهيتكم عنه، آمركم ألا يقتل بعضكم بعضًا مع غيرى، وأدعوكم إلى أن يقتل بعضكم بعضًا دونى؟[1].

هذا هو موقف الحسن من كل فتنة، يسعى لجمع شمل المؤمنين وينهى عن كل فرقة بينهم[2]. وعن سلم بن أبى الذيّال قال: سأل رجل الحسن وهو يسمع وأناس من أهل الشام فقال: يا أبا سعيد، ما تقول فى الفتن مثل يزيد بن المهلب وابن الأشعث؟فقال: لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فقال رجل من أهل الشام، ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد، نعم ولا مع أمير المؤمنين[3]. وقد سلك الحسن منهج السلم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولم يؤيد الثورة المسلحة لأسباب:

أ ـ أن الدعوة إلى الخروج عليهم يتبعها فوضى فى الأمور، واضطراب الأمن وفساد الأحوال، وفوضى ساعة يرتكب فيها المظالم ما لا يرتكب فى استبداد السنين.

ب ـ رأى أن كثرة الخروج على الولاة يضعف الدولة الإسلامية ويجعل بأس المسلمين بينهم شديدًا، فيكلب فيهم عدوهم، ويخرب عليهم حقوقهم.

ج ـ ولأنه رأى أن الدماء تراق فى الخروج بدون حق يقام، ومظلمة تدفع، والناس يخرجون من يد ظالم إلى أظلم.

د ـ وجد أن الطريق المعبّد لإصلاح هذا، إصلاح فساد المحكومين إذا تعذر عليه إصلاح فساد الحاكم، رأى أن الفساد عمّ الاثنين وتغلغل فى الفريقين، فاعتقد أن الحكام ما لم يتغير الشعب فالملازمة ثابتة بينهما[4].

٨ ـ كيف يضل قوم هذا فيهم؟

قال خالد بن صفوان: لقيت مسلمة بن عبد الملك فقال: يا خالد، أخبرنى عن حسن أهل البصرة؟ قلت: أصلحك الله، أُخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جانبه، وجليسه فى مجلسه وأعلم من قبلى به: أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبههم قولاً

(١) المصدر نفسه (٧/ ٤٩٩).
(٢) حياة الحسن البصرى، ص (١٩٨).
(٣) الطبقات الكبرى (٧/ ١٢١) حياة الحسن، ص (١٩٨).
(٤) تاريخ الجدل، ص (٣٢٣).

بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنيًا عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه، قال: حسبك، كيف يضل قوم هذا فيهم[1]. ومن أقوال الحسن البصرى ما رواه هشام بن حسّان: سمعت الحسن يحلف بالله، ما أعز أحد الدرهم إلا أذلهُ الله[2]، وقال: بئس الرفيقات، الدينار والدرهم، لا ينفعانك حتى يُفارقاك[3].

٩ـ وفاة الحسن البصرى:

مرض الحسن البصرى مرض الموت، وابنه إلى جانبه يمرضه ويعنى به، وهو على سريره يسترجع ويكثر من الاسترجاع، فيقول له ابنه: أمثلك يسترجع على الدنيا؟ فيجيبه بقوله: يا بنى لا أسترجع إلا على نفسى التى لم أصب بمثلها[4]، وعن أبان بن محبر عن الحسن أنه لما حضره الموت دخل عليه رجال من أصحابه فقالوا له: يا أبا سعيد، زودنا منك كلمات تنفعنا بهن. قال: إنى مزودكم ثلاث كلمات، ثم قوموا عنى ودعونى لما توجهت له، ما نهيتهم عنه من أمر، فكونوا من أترك الناس له، وما أمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به، واعلموا أن خطاكم خطوتان، خطوة لكم وخطوة عليكم، فانظروا أين تغدون وأين تروحون[5]. وقبل أن يسلم الحسن روحه أغمى عليه، ثم أفاق إفاقة فقال: لقد نبهتمونى من جنان وعيون ومقام كريم[6]. وفى ليلة الجمعة وفى مستهل رجب سنة عشر ومائة[7]، أسلم الروح إلى بارئها وعاش نحواً من ثمان وثمانين سنة. كما قال ابنه عبد الله[8]، وقبيل وفاته قال رجل لابن سيرين: رأيت كأن طائراً أخذ أحسن حصاة فى المسجد فقال: إن صدقت رؤياك مات الحسن، فلم يكن إلا قليلاً حتى مات الحسن[9]. وقام بتغسيله تلميذاه: أيوب السختيانى، وحميد الطويل، وصلى عليه عقيب الجمعة النضر بن عمر المقرى[10]، قال حميد

(١)، (٢)، (٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٧٦) .

(٤) المصدر نفسه (٤/ ٥٨٧) .

(٥) حلية الأولياء (٢/ ١٥٤).

(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٧).

(٧) تذكرة الحفاظ صـ٧٢، حياة الحسن البصرى، ص (٢٠٢).

(٨) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٧).

(٩) وفيات الأعيان (٢/ ٧٢)، الطبقات الكبرى (٧/ ١٢٩).

(١٠) تاريخ الذهبى، نقلاً عن حياة الحسن البصرى د. روضة، ص (٢٠٢).

الطويل: توفى الحسن عشية الخميس وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره، وحملناه بعد صلاة الجمعة ودفناه، فتبع الناس كلهم جنازته، واشتغلوا به، فلم تقم صلاة العصر بالجامع، ولا أعلم أنها تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذ، لأنهم تبعوا كلهم الجنازة، حتى لم يبق بالمسجد من يصلى العصر[1].

رحم الله الحسن البصرى النموذج الرفيع لورثة الأنبياء والعلماء الربانيين، فقد كان من الرجال العظماء، قلما تجد له مثيلاً؛ زهدًا، وورعًا، وعلمًا، وحكمة، وشجاعة، وأدبًا[2]، وكان من العلماء الذين نشطوا فى دولة الفقهاء التى قادها عمر ابن عبد العزيز ولم يبخل بوقت ولا نصيحة ولا موعظة ولا توجيه ولا إرشاد.

سابعًا: عمر والفتوح ورفع الحصار عن القسطنطينية:

عندما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كان من أول أعماله إيقاف التوسع فى المناطق النائية فى أطراف الدولة، ومحاولة سحب القوات الإسلامية من مناطق القتال، وأول أعماله فى هذا المضمار كان فى القوات التى عُنى الخليفة سليمان بحشدها وإنفاذها بقيادة أخيه مسلمة لفتح القسطنطينية، وظلت تحاصرها مدة سنتين لاقت فيها مصاعب كثيرة دون أن تفلح فى تحقيق هدفها، فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، كتب بقفل مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية، وقد كان سليمان أغزاه إياها براً وبحراً. فاشتد عليهم المقام وجاعوا حتى أكلوا الدواب من الجهد والجوع، حتى يتنحى الرجل عن دابته فتقطع بالسوق؛ ولجّ سليمان فى أمرهم، فكان ذلك يغم عمر، فلما ولى رأى أنه لا يسعه فيها بينه وبين الله عز وجل شىء من أمور المسلمين ثم يؤخر فعله ساعة، فذلك الذى حمله على تعجيل الكتاب[3]، وقد وجه عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين، فوجه إليهم خيلاً عتاقًا وطعامًا كثيرًا، وحث الناس على معونتهم، فكان الذى وجه إليه الخيل العتاق فيما قيل خمسمائة رأس[4]. ويروى خليفة أنه فى سنة ٩٩هـ حمل عمر بن عبد العزيز الطعام

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٥٨٧). (٢) حياة الحسن البصرى، ص (٥٠٣).
(٣) عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٣٢).
(٤) تاريخ الطبرى نقلاً عن عمر بن عبد العزيز للعلى، ص (١٤٠).

والدواب إلى مسلمة بن عبد الملك إلى بلاد الروم، وأمر من كان له هناك حميم أن يبعث إليه، وبعث معه بعثًا فأغاث الناس، وأذن لهم بالقفول[1].

وفى الأندلس ولىّ عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولانى، وعهد إليه. بإخلاء الأندلس إشفاقًا عليهم، إذ خشى تغلب العدو عليهم، لانقطاعهم من وراء البحر من المسلمين[2]. غير أن السمح لم ير الانسحاب الكامل فى الأندلس، وكتب إلى الخليفة يقول: إن الناس قد كثروا بها وانتشروا فى أقطارها، فاضرب عن ذلك، وأزال الأندلس عن عمالة إفريقية[3].

وفى المشرق، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الرحمن والى خراسان يأمره بإقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم، فأبوا وقالوا: لا يسعنا مرو (قاعدة خراسان). فكتب إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر: اللهم إنى قد قضيت الذى علىّ فلا تغزُ بالمسلمين، فحسبهم الذى فتح الله عليهم[4]. ويقتصر خليفة بن خياط على القول بأن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الجراح بن عبد الله الحكمى: «لا تغزُ، وتمسكوا بما فى أيديكم»[5].

وفى جبهة بلاد السند: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه، فأسلم جيشه والملوك، وتسموا بأسماء العرب وكان عمرو بن مسلم الباهلى عامل عمر على ذلك الثغر[6].

إن إيقاف عمر بن عبد العزيز التوسع القائم على استخدام المُقاتلة فى الأطراف النائية للدولة وعمله على إحلال الحوار السلمى فى إخماد الحركات المسلحة للمعارضة، لا يعنى أنه أراد إلغاء المؤسسة العسكرية التى تمتد جذورها إلى زمن الرسول ﷺ، وكان لها الدور الأكبر فى حماية الدولة وتوسيعها وتثبيت الأمن والاستقرار فيها، والواقع أن التنظيمات المتصلة بالمُقاتلة كانت تمسّ صميم الحياة المدنية، ولا غنى لأى دولة عن مؤسسة الجيش فى حفظ حدودها المخاطر التى قد

(١) تاريخ خليفة، ص (٣٢٦)، تاريخ الإسلام للذهبى نقلاً عن العلى، ص (١٤٠).
(٢) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص (١٢، ١٣).
(٣) فجر الأندلس لحسين مؤنس، ص (١٣٦، ١٣٧)، عمر بن عبد العزيز، صالح العلى، ص (١٤٠).
(٤) تاريخ الطبرى نقلا عن عمر بن عبد العزيز للعلى، ص (١٤١).
(٥) تاريخ خليفة، ص (٣٢٦)، عمر بن عبد العزيز للعلى، ص (١٤١).
(٦) فتوح البلدان، ص (٤٢).

تتعـرض لها. لذلك كـان لا بد من إبقـاء الجند والمؤسـسـات المتـصلة به، فظلت الأمصار، وهـى مراكز إقامـة المقاتلة العرب، قائمـة دون أن يلغيها، أو يبـدلها، أو يدخل تعديلات فى تنظـيماتها السكانيـة والإدارية. وقضت الأحوال أن يتـابع خلال مدة خـلافته القـصيرة، اسـتمرار الحركـات العسكرية المحـدودة النطاق فى عدد من الجبهات. ففى أذربيجان أغار الترك على المسلمين؛ فقتلوا من المسلمين جماعة ونالوا منهم، فَوَجَّه إليهم عمر بن عبد العزيز حاتم بن النعمان الباهلى، فقتل أولئك الترك، فلم يفلت منهم إلا اليسير، فقدم منهم على عمر بخناصرة خمسون أسيراً[١].

وفى سنة ١٠٠ هـ أغارت الروم فى البحر على ساحل اللاذقية، فهدموا مدينتها وسَبَوْا أهلهـا، فأمر ببنائها وتحـصينها[٢]. وفى ١٠١ هـ أغزى عمر بـن عبد العزيز الوليد بن هشـام المعيطى، وعمـرو بن قيس الكندى من أهل حمص، الصـائفة[٣]. وأمر بتـرحيل أهل طرندة[٤] وهم كارهون، وذلك لإشـفاقه عليـهم من العدو[٥]. وأراد أن يهدم المصيـصة لتعرضها لغـارات الروم، ثم أمسك عن ذلك، وبنى لأهلها مسجـداً جامعًا من ناحية كـفربيا واتخذ فيـه صهريجًا وكان اسمـه عليه مكتوبًا[٦]. وجعلها مركزاً متقدمًا لدرء الخطر عن أنطاكية من غزوات الروم المتكررة[٧].

ورغم أن الخليفـة عمر بن عـبد العزيز كـان قد حد من النشـاط العسكرى مع الروم وسحب الجيش الذى كان يـحاصر القسطنطينية وبعض الحصـون المتقدمة فى بلد الروم، إلا أنه كان حازمًا شديداً فى أخذ الحق والدفاع عنه، وهذا ما تشير إليه رواية ابن عبـد الحكم، حيث يذكر أنه عندمـا أرسل الخليفة عـمر بن عبـد العزيز رسولاً إلى ملك الروم، وقص عـليه قصـة رجل أسير فى بلد الروم ـ وقـد مرت معنا ـ أجبر على ترك الإسلام واعتناق النصـرانية، قائلين له: إن لم تفعل سملت عينك، فاختار دينه على بصره فسملت عـيناه، فأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى ملك الروم وقـال له: أقسم بالله، لئن لم ترسله إلىَّ لأبعـثن إليك من الجنود جنوداً يكون أولهم عندك وآخرهم عندى[٨]، فاستجاب ملك الروم لطلبه، وبعث بالرجل إليه[٩]. وكانت سياسة عمر بن عبد العزيز المرحلية تقوم على ضبط الثغور

---

(١) تاريخ خليفة، ص (٣٢٦)، عمر بن عبد العزيز للعلى، ص (١٤٢). (٢) فتوح البلدان، ص (٢٠).
(٣) تاريخ الطبرى نقلا عن عمر بن عبد العزيز للعلى، ص (١٤٢).
(٤) طرندة: من الأماكن القريبة من الدولة الرومانية.
(٥) فتوح البلدان، ص (٢٢٠). (٦) المصدر نفسه، ص (١٦٣)
(٧) العلاقات العربية البيزنطية ص (١١٩). (٨)، (٩) المصدر نفسه، ص (١٣١).

وحدود الدولة الإسلامية والاهتمام بفتح العقول، وإحياء القلوب وتطهير النفوس للشعوب الجديدة التى دخلت فى الإسلام، ولذلك بدأ يرسل سرايا الدعاة والعلماء للبدو القاطنين داخل الدولة الإسلامية وللشعوب التى كانت فى أشد حاجة لتعاليم الإسلام.

ثامنًا الاهتمام بالدعوة الشاملة:

ركز عمر جهوده على البناء الداخلى للدولة لترسيخ وحدتها وأمنها، ونشر العلم وتوصيله لكل أفراد الأمة ما أمكن لذلك سبيلاً، كما اهتم بنشر العدل بين الرعية وإزاحة الضغائن والأحقاد من بين المسلمين، وقد استهدف عمر بن العزيز قلوب الناس وعقولهم ونفوسهم بتعاليم الإسلام، ووضع مشروعًا كبيراً لتحقيق ذلك الهدف العظيم، ولم يكن عمر بالإنسان الذى تستهويه المشاريع الكبرى، فيقف عند حدود الخيال لا يتعداه، بل حوّل مشروعه إلى برنامج عملى قابل للتطبيق، بعدما مهد الظروف، وأحاط برنامجه بالضمانات العملية وهيأ له الأسباب مما جعله يحيله إلى واقع مشهود. وقد ساعده على نجاح مشروعه الدعوى التربوى العلمى أمور منها:

١ـ وضع قانون التفرغ للدعاة: حيث ألزم الدولة بكفالة عدد من العلماء والدعاة والمفكرين، كى تتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز مشاريع فكرية دعوية التى يعكفون عليها باختيار أو بتوجيه من الدولة، فأجرى الأرزاق على العلماء، ورتب لهم الرواتب ليتفرغوا لنشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب[1]، فقارئ القرآن الذى حفظه وقام يقرئه للناس ويعلمهم أحكامه، والمحدث الذى يعقد مجالس الإملاء وينشر الحديث النبوى، والفقيه الذى ينظر فى الكتب ويستنبط منها ويعلم الناس أمور دينهم ليعبدوا الله على بصيرة، والطالب الذى يتفرغ للعلم أو البحث والدرس، كل أولئك قد يشغلهم أمر ذويهم وأبنائهم وسدّ حاجتهم وتدبير أمور معاشهم، فقام عمر بقطع هذا الهاجس عنهم، وكفل لهم ولمن يعولون ما يعيشون به حياة كريمة، تتكفل به الدولة، ويؤخذ من بيت المال، ونعمّا فعل رضى الله عنه، فبذلك شجع كل من وجد فى نفسه الإمكانية لنشر العلم وخدمة الدين

(١) ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز، ص (١٨٤).

والأمة[1]. وكان يمنح من بيت المال مبلغًا قدره مائة دينار لكل من انقطع إلى مسجد جامع فى أى بلد إسلامى، بغرض التفقه ونشر العلم، وتدريس القرآن وتلاوته[2]. وعن أبى بكر بن أبى مريم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى والى حمص: مُرْ لأهل الصلاح من بيت المال بما يُغنيهم لئلا يشغلهم شىء عن تلاوة القرآن وما حملوا من الأحاديث[3]. وعن أبى مريم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى والى حمص: انظروا إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه، وحبسوها فى المسجد عن طلب الدنيا، فأعط كل رجل منهم مائة دينار، يستعينون بها على ما هم عليه، من بيت مال المسلمين، حين يأتيك كتابى هذا، وإن خير الخير أعجله. والسلام عليك[4]. وفرض الرزق لمن يحدث الناس بمغازى رسول الله ﷺ ومناقب أصحابه، وللقصّاص والواعظين كذلك، وذكر ابن شبة أن عمر بن عبد العزيز أمر رجلاً ـ وهو بالمدينة ـ أن يقص على الناس، وجعل له دينارين كل شهر، فلما قدم هشام بن عبد الملك جعل له ستة دنانير كل سنة[5]. ومما جاء فى كتبه بشأن إجراء الرزق على طلبة العلم لينقطعوا عن الشواغل، ما ذكره ابن عبد البر عن يحيى بن أبى كثير قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: أن أجْرُوا على طلبة العلم الرزق، وفرّغوهم للطلب[6].

٢ـ حض العلماء على نشر العلم وإعلانه، واتخاذ المساجد مراكز لتعليم الناس أمور دينهم، وإقراء طلبة العلم وإسماعهم، وإملاء الحديث النبوى، وإحياء السنة[7]. قال عكرمة بن عمار -وهو من أهل اليمن-: سمعت كتاب عمر بن عبد العزيز يقول: أما بعد، فأمر أهل العلم أن ينشروا العلم فى مساجدهم، فإن السنة كانت قد أميتت[8]، وأسند ابن عبد البر عن جعفر بن برقان الرَّقى ـ نسبة إلى

---

(١) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٧٢).
(٢) ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر، ص (١٨٤).
(٣) أصول الحديث، ص (١٧٨)، عمر بن عبد العزيز عبد الستار، ص (٧٢).
(٤) البداية والنهاية، نقلا عن عمر بن عبد العزيز عبد الستار، ص (٧٢).
(٥) أخبار المدينة نقلاً عن عمر بن عبد العزيز عبد الستار، ص (٧٣).
(٦) جامع بيان العلم (١/٢٢٨)، عمر بن عبد العزيز عبد الستار، ص (٧٣).
(٧) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٧٣).
(٨) أصول الحديث، ص (١٧٨)، عمر بن عبد العزيز، ص (٧٣).

الرقة شمال شرقى سورية ـ قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فَمُرْ أهل الفقه والعلم من عندك، فلينشروا ما علمهم الله فى مجالسهم، ومساجدهم[(١)].

٣ـ توجيه الأمة إلى أهمية العلم: وفى ذلك يقول: إن استطعت فكن عالمًا، فإن لم تستطع، فكن متعلمًا، فإن لم تستطع فأحبهم، فإن لم تستطع فلا تبغضهم. ثم قال: لقد جعل الله له مخرجًا إن قبل[(٢)].

٤ ـ إرسال العلماء الربانيين فى شمال إفريقيا:

كان عمر بن عبد العزيز يرسل العلماء إلى الأمصار بل البوادى ليعلّموا أهلها شرع الله، ويفقهوهم فيه، فقد بعث يزيد بن أبى مالك والحارث بن محمد إلى البادية ليعلما الناس السنة، وأجرى عليهما الرزق، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث وقال: ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجرًا. فذكر ذلك لعمر فقال: ما نعلم بما صنع يزيد بأسًا، وأكثر الله فينا مثل الحارث[(٣)]. وقد عبر عمر بهذا الجواب عما يجب أن يتحلى به الحاكم المسلم من مرونة فكرية، وعدم جمود على الأشكال، حيث أعلن أن أخذ الأموال لقاء الخدمات العلمية أمر لا بأس به، وسأل الله ـ من جهة أخرى ـ أن يكثر من أولئك الذين يقومون بهذه الخدمات دون أجر إلا أجر الله[(٤)]. وقد بعث عمر إلى مصر الإمام المفتى الثبت، عالم المدينة (نافعًا) مولى ابن عمر، وراويته، فعن عبد الله بن عمر: بعث عمر بن عبد العزيز نافعًا مولى ابن عمر إلى أهل مصر يعلمهم السنن[(٥)]، وأرسل عشرة من فقهاء المدرسة المصرية من رجال التابعين إلى إفريقية، ليفقهوا أهلها ويعلموهم، وينشروا بينهم حديث رسول الله ﷺ، لينالهم من الخير مثل الذى عمّ إخوانهم من أهل الحجاز والشام والعراق، وكانت معاقل العلم[(٦)]، وتطلع إلى شمال إفريقيا، ليغزو القلوب والعقول والنفوس بدين الله، فأرسل العلماء الربانيين العشرة بعد أن وضع أهدافًا لخطته التعليمية فى ذلك الإقليم منها:

---

(١) جامع بيان العلم (١/ ١٤٩).
(٢) ابن عبد الحكم نقلاً عن عمر للزحيلى، ص (٧٤).
(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٦٠)، ملامح الانقلاب، ص (١٨٤).
(٤) ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر، ص (١٨٤)
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ٩٧٩)، تذكرة الحفاظ (١/ ١٠٠) .
(٦) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٦٩).

أ ـ اختيار علماء ربانيين اشتهروا بالعلم والفقه والدعوة والتجرد للإشراف على التربية والتعليم.

ب ـ وضع خطة بعيدة المدى لنشر تعليم اللغة العربية، ومحو الأمية فى أوساط القبائل البربرية، حتى يسهل عليها بعد ذلك فهم القرآن والسنة والتعامل معهما.

ج ـ الاهتمام بربط الناس بالقرآن المجيد الذى هو حبل الله المتين، ويكون ذلك بفتح الكتاتيب، وجمعيات تحفيظ القرآن وتجويده.

د ـ البلاغ الواضح البين لعقائد أهل السنة.

هـ ـ تعليم الناس الحلال والحرام(١).

ولقد بدأت بركات عهد عمر بن عبد العزيز على الشمال الإفريقى بتعيين أمير صالح عليه، وبإرسال الفقهاء والعلماء الربانيين، وإليك ترجمة الأمير والفقهاء:

ـ إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر: ولاه عمر بن عبد العزيز على إفريقية فى المحرم سنة ٩٩ ـ ١٠٠هـ، فكان خير أمير، قال ابن خلدون: وأسلم جميع البربر فى أيامه، وأرسل معه عشرة من فقهاء التابعين وعلمائهم يفقهون الناس فى أمور الدين، ويبينون لهم الحلال والحرام(٢). وكان هذا الأمير فى غاية الزهد والتواضع حريصًا على نشر العلم وسار فى أهل البلاد بسيرة العدل، وكان شديد الحفظ لحديث رسول الله ﷺ، فقد روى عنه ابن عساكر إنه قال: ينبغى لنا أن نحفظ حديث رسول الله ﷺ كما نحفظ القرآن، أخرج له البخارى ومسلم وأبو داود، والنسائى، وابن ماجة، وأحمد، وغيرهم. ومكث فى القيروان معلمًا للناس، ناشرًا للسنة، لمدة ثلاث وثلاثين سنة، حيث توفى بها سنة ١٣١هـ(٣)، وقد جمعت شخصية إسماعيل، رحمه الله، الكفاءة، والعلم والورع، فأنتجت هذه الثمار التى ساهمت فى ترسيخ الإسلام فى شمال إفريقيا، وينبغى لنا أن نهتم بتحقيق هذه الصفات وغيرها فى نفوس القادة والولاة.

---

(١) الشرف والتسامى بحركة الفتح الإسلامى للصَّلاَّبى، ص (٣٠٦، ٣٠٧).

(٢) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، ص (١٤٨).

(٣) مدرسة الحديث بالقيروان (٢/ ١٤ - ٢٢).

ـ بكر بن سواد الجذامي، أبو ثمامة(ت:١٢٨هـ بإفريقية): أقام في الشمال الإفريقي أكثر من ثلاثين سنة محدثًا ومفتيًا، وفقيهًا، وقد انتفع به أهلها، ورووا عنه، أدخل على القيروان حديث عدد من الصحابة، منهم: عقبة بن عامر، وسهل بن سعد الساعدى، وسفيان بن وهب الخولانى، كما روى عن جماعة من التابعين منهم: سعيد بن المسيب وابن شهاب الزهرى، وقد قارب شيوخه الأربعين، وروى عنه كثير من أهل القيروان منهم عبد الرحمن بن زياد، وأبو زرعة الإفريقى، وكان ثقة فى حديثه، أخرج له مسلم والأربعة، والبخارى تعليقًا، وأحمد، والطبرانى، وغيرهم، وعداده فى المصريين رغم طول مكثه بالقيروان ووفاته بها(١).

ـ جُعثل بن عاهان الرُّعينى القتبانى، أبو سعيد(ت: حوالى ١١٥ هـ): عده أبو العرب وابن حجر وغيرهما فى التابعين، ولم يذكروا عمن روى من الصحابة، وكان محدثًا، فقيهًا مقرئًا، تولى قضاء الجند بالقيروان وبث فيها علمًا كثيرًا لمدة زادت عن خمسة عشر عامًا، وروى عنه من أهل القيروان، عبيد الله بن زحر، وعبد الرحمن بن زياد، وبكر بن سوادة، وهو زميله فى البعثة العلمية، وثقه أكثر النقاد، وأخرج له الأربعة وأحمد وغيرهم. توفى فى خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١١٥هـ(٢).

ـ حبان بن جبلة القرشى: مولاهم، أرسله عمر بن عبد العزيز لتفقيه أهل مصر، ت: ١٢٥ هـ وقيل ١٢٢ هـ بالقيروان، أدخل فى الشمال الإفريقى حديث جملة من الصحابة منهم: ابن عباس، وابن عمر، وعبد الله بن عمرو، ووالده عمرو، وبقى يبث العلم فى عاصمة الشمال الإفريقى فى مدينة القيروان أكثر من خمس وعشرين سنة، انتفع به أهلها، وروى عنه كثير منهم، كعبد الرحمن بن زياد، وعبيد الله بن زحر، وموسى بن على بن رباح وغيرهم، وهو عند النقاد ثقة فى حديثه، أخرج له البخارى فى الأدب المفرد وابن سنجر فى مسنده والحاكم فى المستدرك وغيرهم(٣).

ـ سعد بن مسعود التجيبى أبو مسعود (تُوفى بالقيروان): يروى عن جماعة من الصحابة، منهم: أبو الدرداء، ويروى عن النبى ﷺ مرسلاً حتى وهم بعضهم

(١)، (٢)، (٣) مدرسة الحديث بالقيروان (٢/ ١٤ - ٢٢) .

فعده فى الصحابة، ولذلك نبهت معظم المصادر على أنه لا صحبة له، وقد سكن القيروان، وبث فى الشمال الإفريقى علمًا كثيرًا وكانت مجالسه مليئة بالحكم والمواعظ البليغة، وكان شديدًا على الأمراء، روى عنه من أهل القيروان: مسلم بن يسار الإفريقى، وعبيد الله بن زحر، وعبد الرحمن بن زياد، فى جامع ابن وهب وغيره، وذكر الدباغ أنه توفى بالقيروان بعد أن بث فيها علمًا كثيرًا، ولم يذكر تاريخ وفاته(١).

- طلق ابن جعبان الفارسى، وقيل: جابان، والصواب الأول كما فى الإكمال، تابعى، لقى عمر وسأله، وأكثر روايته عن التابعين، كان فقيهًا عالمًا، وروى عنه من أهل القيروان: موسى بن على، وابن أنعم، ولم يذكروا مدة إقامته بها ولا تاريخ وفاته(٢).

- عبد الرحمن بن رافع التنوخى، أبو الجهم (ت بالقيروان سنة ١١٣ هـ): دخل القيروان فى وقت مبكر، سنة ٨٠هـ، وهو أجل قضاتها، وذلك على عهد حسان ابن النعمان، واستمر يبث فيها العلم ما يقارب ثلاثًا وثلاثين سنة، حتى انتفع به خلق كثير من أهلها، وقد أدخل إلى القيروان حديث جماعة الصحابة عرفنا منهم: عبد الله بن عمرو بن العاص، وحدث عنه من القرويين: عبد الرحمن بن زياد الإفريقى، وعبيد الله بن زحر الكنانى، وبكر بن سواد الجذامى وغيرهم... وهو أول من ولى قضاء القيروان وتوفى بها سنة ١١٣هـ(٣).

- عبد الله بن المغيرة بن أبى بردة الكنانى: كان مقيمًا فى القيروان قبل زمن بعثة عمر بن عبد العزيز بمدة طويلة، معروفًا لدى أهلها مشهورًا بينهم بالعدالة والتقى، وقد ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء القيروان سنة ٩٩هـ، لما علمه من فضله ودينه وعلمه، فاستمر فى منصبه إلى أن استقال منه سنة ١٢٣هـ، وكان زاهدًا ورعًا عالمًا، سار فى أهل القيروان بالكتاب والسنة، ونشر العلم بينهم لمدة طويلة زادت عن خمس وعشرين سنة، ذكره ابن حبان فى الثقات، وأثنى عليه المصنفون بالفضل والعلم والدين(٤).

---

(١) مدرسة الحديث بالقيروان (٢/ ١٤ - ٢٢).

(٢) (٣) عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج، ص (٤٥).

(٤) المصدر نفسه، ص (٤٦).

ـ عبد الله بن يزيد المعافرى الحبلى، أبو عبد الرحمن (ت: بالقيروان ١٠٠هـ): دخل القيروان فى زمن مبكر، ولعل ذلك كان مع موسى بن نصير سنة ٨٦هـ، لأنه شهد فتح الأندلس، ثم عاد إلى القيروان وسكنها، وبنى بها دارًا ومسجدًا، ثم عين ضمن أفراد البعثة العلمية، إلا أن وفاته كانت سنة ١٠٠هـ، أى بعد سنة واحدة من التكليف الرسمى، ومع ذلك فقد قال عنه المالكى: انتفع به أهل إفريقية وبث فيها علمًا كثيرًا، وأدخل القيروان حديث جماعة من الصحابة ممن لم يدخلها، وزاد فى إفشاء حديث من دخلها منهم، حدث عن ابن عمر، وعقبة بن عامر، وابن عمرو، وأبى ذر، وروى عنه من أهلها عبد الرحمن بن زياد، وأبو كريب جميل بن كريب القاضى (ت ١٣٩هـ) وغيرهما، كان رجلاً صالحًا ورعًا شديد الإقبال على نشر السنة، وكان تأثيره فى الحياة العلمية - خاصة الجانب الحديثى منها ـ بالقيروان كبيرًا، وقد بنى فيها مسجدًا لمجالسه العلمية، أجمع النقاد على توثيقه، وحديثه عند مسلم، والأربعة، وابن وهب فى جامعه وأحمد وغيرهم(١).

ـ وهب بن حى المعافرى: وقد ذكر ابن أبى حاتم أن هناك من قلبه إلى: حى بن موهب، وأن أبا زرعة قد صحح ذلك، غزا إفريقية قديمًا، لأنه سأل ابن عباس المتوفى سنة ٦٨هـ عن آنية أهل المغرب، كما فى الرياض والمعالم، وهو من أفراد بعثة عمر، وقد سكن القيروان، وبث فيها علمًا كثيرًا، وبها كانت وفاته، وقد أدخل إلى القيروان حديث ابن عباس وغيره، وروى عن النبى ﷺ مرسلاً، وروى عنه من أهل القيروان عبد الرحمن بن زياد الإفريقى، ولم تظهر المصادر حاله من حيث التعديل والجرح(٢).

هؤلاء الفقهاء العشرة من خيرة فقهاء التابعين، أرسلهم، عمر بن عبد العزيز إلى الشمال الإفريقى ليفقهوا ويعلموا الناس دينهم، فكانوا عند حسن ظنه بهم، وكانوا للناس قدوة صالحة، وقد سبق هؤلاء العشرة كثير من التابعين الذين قاموا بتعليم أهل البلاد أحكام الدين علمًا وعملاً(٣). وكان لهؤلاء العشرة آثار هامة فى القرآن الكريم وتفسيره والحديث، وفى نشر السنة العملية والاعتقادية الصحيحة،

---

(١) عصر الدولتين الأموية والعباسية، ص (٤٦).
(٢) مدرسة الحديث بالقيروان (٢/ ١٤ إلى ٢٢).
(٣) عصر الدولتين الأموية والعباسية، ص (٤٧).

وساعدوا ولاة أمور المسلمين على مقاومة النحل الخارجية وتركيز أحكام الإسلام بين البربر، فقد روى المالكى أنه لما ثارت الخوارج على حنظلة ابن صفوان بطنجة سنة ١٢٢هـ جمع حنظلة علماء إفريقية، وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية ليفقهوا أهلها، فكتبوا هذه الرسالة ليقتدى بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها: . . . فإن أهل العلم بالله وبكتابه وسنه نبيه ﷺ يعلمون أنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر آيات: آمرة، وزاجرة، ومبشرة، ومنذرة، ومخبرة، ومحكمة، ومتشابهة، وحلال، وحرام، وأمثال، فآمرة بالمعروف وزاجرة عن المنكر، ومبشرة بالجنة، ومنذرة بالنار، ومخبرة بخبر الأولين، والآخرين، ومحكمة يعمل بها، ومتشابهة يؤمن بها، وحلال أمر أن يؤتى، وحرام أمر أن يجتنب، وأمثال واعظة. فمن يطع الآمرة وتزجره الزاجرة فقد استبشر بالمبشرة وأنذرته المنذرة، ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام، ويرد العلم فيما اختلف فيه الناس إلى الله، مع طاعة واضحة ونية صالحة فقد فاز وأفلح وأنجح، وحيا حياة الدنيا والآخرة والسلام[1]، إن هذه الرسالة تعتبر وثيقة عظيمة الأهمية إذ تدل على أصالة علم هذه البعثة العلمية، ووضوح أهدافهم الشرعية أمامها، حتى أنهم أوجزوا فحوى الرسالة، ونظراً لعظيم فائدتها عممت على أن تقرأ على منابر المساجد فى جميع ضواحى إفريقية[2].

٥ ـ رسائله الدعوية إلى الملوك فى الهند وغيرها:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وقد كانت سيرته بلغتهم، فأسلم جيشبة بن داهر[3]، والملوك تسموا له بأسماء العرب. . . وبقى ملوك السند مسلمين على بلادهم أيام عمر ويزيد بن عبد الملك[4]. وقد أرسل عليهم عمر من يعلمهم دينهم[5]، كما أرسل عمر برسائل إلى ملوك ما وراء النهر

(١) رياض النفوس للمالكى (١/١٠٢، ١٠٣) . (٢) عصر الدولتين الأموية والعباسية، ص (٤٨).
(٣) فتوح البلدان، ص (٤٢٨)، عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (١٧٣).
(٤) الكامل فى التاريخ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (١٧٣).
(٥) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (١٧٣).

يدعوهم فيها إلى الإسلام فأسلم بعضهم[1]، وأما أليون قيصر الروم فقد بعث إليه عمر وفدًا برئاسة عبد الأعلى بن أبى عمرة لدعوته إلى الإسلام[2].

٦ ـ تشجيع غير المسلمين على الدخول فى الإسلام:

قام عمر بتشجيع غير المسلمين على الدخول فى الإسلام عن طريق إعطائهم الأموال لتأليف قلوبهم، وذلك اتباعًا لسنة رسول الله ﷺ، فيذكر ابن سعد عن عيسى بن أبى عطاء رجل من أهل الشام -كان على ديوان أهل المدينة- عن عمر ابن عبد العزيز أنه ربما أعطى المال من يستألف على الإسلام[3]. كذلك ذكر عن عمر بن عبد العزيز أنه أعطى بطريقًا ألف دينار استألفه على الإسلام[4].

٧ ـ تصحيح الوضع الخاص لأهل الذمة:

لقد كان لإنصافه أهل الذمة الذين أسلموا بوضع الجزية عنهم أثر واضح فى زيادة إقبال الذميين على الدخول فى الإسلام، برغم كل ما ترتب على ذلك بالنسبة لبيت المال، مثل ما فعل مع واليه على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى حيث أرسل إليه يقول: انظر من صلى قبلك إلى القبلة، فضع عنه الجزية[5]، ثم أرسل بدعوة أهل الذمة إلى الدخول فى الإسلام، فمثلاً أرسل إلى عامله الجراح بن عبد الله الحكمى يأمره بدعوة أهل الجزية إلى الدخول فى الإسلام، فإن أسلموا قبل إسلامهم، وأن يضع الجزية عنهم، ثم كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين[6]. وقد ترتب على هذه الدعوة دخول عشرات الألوف من الناس فى الإسلام طائعين، ففى خراسان أسلم نحو من أربعة آلاف ذمى على يد واليه الجراح بن عبد الله[7]، أما فى المغرب فقد أسلم عامة البربر على يد والى عمر على المغرب إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر[8].

---

(١) فتوح البلدان، ص (٤١٥).

(٢) البداية والنهاية نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (١٧٣).

(٣) الطبقات (٥/ ٣٥٠)، عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (١٧٤).

(٤) الطبقات (٥/ ٣٥٠).

(٥) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (١٧٤).

(٦) الطبقات (٥/ ٣٨٦). (٧) المصدر السابق (٥/ ٣٨٦).

(٨) فتوح البلدان، ص (٢٣٢، ٢٣٣) للبلاذرى، عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (١٧٤).

وكان ذلك دليلاً على بعد نظر عمر فى الاهتمام بالدعوة إلى الإسلام عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة، إذ كانت نتائجها لا تقل عن نتائج غيرها إيجابية، بل تتعدى ذلك إلى أنه اكتسب مسلمين جدداً دون أن يتكلف شهيداً، أو نفقة لإعداد جيوش، وهم رعاياه، ويعيشون بين أظهر المسلمين، وبالتالى أولى من غيرهم بالدعوة إلى الإسلام. وبهذا يكون الإسلام قد انتشر على عهد عمر بن عبد العزيز بالحكمة والموعظة الحسنة، والاستمرار فى أسلوب الجهاد الدعوى على أيدى علماء ربانيين تخرجوا من المدارس العلمية التى نضجت فى عهد الدولة الأموية، وهؤلاء العلماء الدعاة هم الذين نفذوا مشروع عمر بن عبد العزيز الدعوى العلمى.

الفصل السادس

الإصلاحات المالية فى عهد عمر بن عبد العزيز

لم تكن سياسة عمر المالية ارتجالية، فـهو مسئول عن دولة وكان يحسب حسابًا لكل خطوة يخطوها، ويضع الضمانات لكل عمـل يعتزم تنفيذه(١). ولقد سار فى سياسته على أمور منها:

- العزم على الاعتصام بالكتاب والسنة، والتضحية فى سبيل ذلك، وهذا ما يبدو واضحًا من كتبه للعمال وخطبه إلى رعيته، ومثال ذلك قوله: سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعـده سننًا؛ الأخذ بها اعـتصام بكتـاب الله وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر فى أمر خالفها(٢).

- ترسيخ قيم الحق والعدل ودفع الظلم: وهذا هو أساس سـياسة عـمر، فجـميع الأهداف والوسائل التى اتبعـها كانت تنسجم مع هذا الأسـاس، وإحقاق الحق ودفع الظلم هو أصل من أصول الـشريعة، ومقـصد رئيسى من مـقاصدها، قـال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. يقول ابن القـيم: فإن الشريعة مبناها وأساسهـا على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعـاد، وهى عدل كلها، ورحمة كلها، ومـصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسـألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحـمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلـى العبث، فليست من الشريعة(٣). ولقد كان عمر يرجع للحق إذا تبين له الخطأ، ويقول فى ذلك: ما من طينة أهون علىّ فتاً، ولا كتاب أيسر علىّ رداً من كتاب قضيت به، ثم أبصرت أن الحق فى غيره ففتتها(٤).

أولاً: أهداف السياسة الاقتصادية عند عمر:

١ ـ إعادة توزيع الدخل والثروة بشكل عادل:

لقد سـعى عمر بن عبـد العزيز لإعادة توزيع الدخل والثـروة بالشكل العادل، الذى يرضى الله تعالى، ويحقق قيم الحق والعدل، والتى وضعها عمر نصب عينيه

(١) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، ص (٢٧).
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٣٨).
(٣) إعلام الموقعين (٣/٣).
(٤) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى، ص (١١٣).

فقد كان يراقب الانحرافات السابقة قبل خلافته، ويلاحظ آثارها السلبية على نفوس الرعية، ولقد انتقد سياسة سليمان بن عبد الملك التوزيعية فقال له: لقد رأيتك زدت أهل الغنى، وتركت أهل الفقر بفقرهم[1]. فقد أدرك عمر بن عبد العزيز أن التفاوت الاجتماعى هو نتيجة لسوء توزيع الثروة، فرسم سياسته الجديدة لإنصاف الفقراء والمظلومين، ولقد استخدم عمر للوصول إلى هذا الهدف بعض الوسائل العملية منها:

- منع الأمراء والكبراء من الاستئثار بثروة الأمة، ومصادرة الأملاك المغصوبة ظلمًا، والتى استولى عليها الأمراء والكبراء، وإعادة هذه الأموال إلى أصحابها إذا عرفوا، أو إلى بيت المال، إذا لم يعرف أصحابها، أو كانت من الأموال العامة.

- زيادة الإنفاق على الفئات الفقيرة والمحرومة ورعايتها، وتأمين مستوى الكفاية لها عن طريق الزكاة وموارد بيت المال الأخرى[2]. وقد قام بتنفيذ هذه السياسة، كما مرّ معنا فى سياسته فى رد المظالم، ولقد كانت سياسة عمر التوزيعية تهدف إلى إيصال الناس إلى حد الكفاية؛ يلاحظ ذلك من خطبه، فقد خطب الناس يومًا فقال: وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى نستوى نحن وهم وأكون أنا أولهم[3]. وفى خطبة أخرى: .. ما أحد منكم تبلغنى حاجته إلا حرصت أن أسدّ من حاجته ما قدرت عليه، وما أحد لا يسعه ما عندى إلا وددت أنه بُدِئ بى وبلحمتى الذى يلوننى حتى يستوى عيشنا وعيشكم[4].

وقد طبق عمر هذا التصور عمليًا عندما أمر بقضاء دين الغارمين فكتب إليه عامله: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم، وله الفرس والأثاث فى بيته، فأجاب عمر: لا بدّ للرجل من المسلمين من مسكن يأوى إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث فى بيته، فهو غارم فاقضوا عنه[5]، فسياسة عمر

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٣٥).

(٢) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزى، ص (٣٥).

(٣) الإدارة الإسلامية فى عز العرب، محمد كرد على، ص (١٠٣).

(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٤٢). (٥) المصدر نفسه، ص (١٧١).

التوزيعية تهدف إلى كفاية الناس من حيث المسكن والمركب والأثاث، وهى عبارة عن حاجات أساسية، وضرورية للإنسان تصعب الحياة بدونها[1].

٢ ـ تحقيق التنمية الاقتصادية والرفاهية الاجتماعية:

سعى عمر بن عبد العزيز عن طريق العديد من الوسائل لتحقيق هذا الهدف، فقد أوجد المناخ المناسب للتنمية عن طريق حفظ الأمن والقضاء على الفتن، ورد الحقوق لأصحابها، وبذلك باتت الرعية مطمئنة على حقوقها، آمنة فى أوطانها. كذلك أمر ببناء المرافق العامة، والتى تسمى اليوم بمشاريع البنية التحتية، ولا تقوم التنمية إلا بهذه المرافق الضرورية من أنهار وترع ومواصلات وطرق، وقد أكد عمر على مبدأ الحرية الاقتصادية المقيدة بضوابط الشريعة، فانتشر الناس فى تجارتهم وتثمير أموالهم، واهتم كذلك اهتمامًا بالغًا بالزراعة، حيث كان القطاع الزراعى من أكبر القطاعات على المستوى الفردى، وله مردود كبير على ميزانية الدولة، وقد جنى عمر والأمة كلها ثمرات هذه السياسة، فقد عمّ الرخاء البلاد والعباد[2]، قال رجل من ولد زيد بن الخطاب: إنما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفًا وذلك ثلاثون شهراً، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله، يتذكر من يضعه فيهم فما يجده، فيرجع بماله، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس[3].

ثانيًا: وسائل عمر بن عبد العزيز لتحقيق الأهداف الاقتصادية لدولته:

سعى عمر بن عبد العزيز لتحقيق أهدافه الاقتصادية بوسائل منها:

١- توفير المناخ المناسب للتنمية: وقد عمل عمر على توفير المناخ المناسب للتنمية، وقام بالآتى:

أ- رد الحقوق لأصحابها: فتوافرت أجواء الأمن والطمأنينة، وترسخت قيم الحق والعدالة، وردّ الحقوق المغتصبة إلى أبناء الأمة وسمّاها مظالم[4]، وقد تحدثت عن سياسته فى رد المظالم والحقوق إلى أهلها، وذكرت الكثير من المواقف فى هذا الشأن.

---

(١) السياسية المالية والاقتصادية لعمر، ص (٣٨).

(٢) المصدر نفسه، ص (٤١). (٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٢٨).

(٤) السياسة الاقتصادية والمالية، ص (٤٣).

ب- فتح باب الحرية الاقتصادية بقيود: فقد أكد عمر على مفهوم الحرية الاقتصادية المقيدة، وكتب إلى العمال: . . وإن من طاعة الله التى أنزل فى كتابه أن يُدْعى الناس إلى الإسلام كافة وأن يبتغى الناس بأموالهم فى البر والبحر ولا يمنعون، ولا يحبسون[1]. وقدم فى موضوع آخر: . . . أطلق الجسور والمعابر للسابلة يسيرون عليها دون جُعْل[2]، لأن عمال السوء تعدوا غير ما أمروا به[3]. ولم يتدخل عمر بن عبد العزيز فى الأسعار، فعن عبد الرحمن بن شوبان قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين ما بال الأسعار غالية فى زمانك، وكانت فى زمان من قبلك رخيصة؟ قال: إن الذين كانوا قبلى كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم فلم يكونوا يجدون بُدًا من أن يبيعوا ويكسروا ما فى أيديهم، وأنا لا أكلف أحداً إلا طاقته، فباع الرجل كيف شاء، قال: فقلت: لو أنك سعَّرت، قال: ليس إلينا من ذلك شىء، إنما السعر إلى الله[4]، وتشدد عمر فى أمر السلع المحرمة ومنع التعامل بها، فالخمر من الخبائث التى لا يجوز التعامل فيها بين المسلمين لحرمتها ولضررها، حيث يؤدى شربها إلى استحلال الدم الحرام وأكل المال الحرام. ويقول عمر: فإن من نجده يشرب منه شيئًا بعد تقدمنا إليه فيه نوجعه عقوبة فى ماله ونفسه، ونجعله نكالاً لغيره[5].

وقد أثمرت سياسة عمر فى رد الحقوق وإطلاق الحرية الاقتصادية المنضبطة، حيث وفرت للناس الحوافز للعمل والانتاج، وأزالت العوائق التى تحول دون ذلك، وهذا أدى إلى نمو التجارة، وبالتالى إلى زيادة حصيلة الدخل الخاضع للزكاة، وهذا يؤدى بدوره إلى زيادة الزكاة ممّا يؤدى إلى رفع مستوى الطبقات الفقيرة وارتفاع قوتها الشرائية، والتى ستتوجه إلى الاستهلاك، وبالتالى إلى زيادة الطلب على السلعة، والخدمات، وهذا كله يؤدى إلى انتعاش الاقتصاد وارتفاع مستوى المعيشة وزيادة الرفاه[6].

٢- اتباع سياسة زراعية جديدة: فقد اتبع خطوات ترمى إلى زيادة الإنتاج الزراعى للأمة، وإليك تفصيل هذه الخطوات:

(١) سيرة عمر لابن الحكم، ص (٩٤)، السياسة الاقتصادية والمالية لعمر، ص (٤٧).
(٢) الجعل: هو ما يجعل للشخص على عمله.
(٣) الإدارة الإسلامية، محمد كرد، ص (١٠٥).
(٤) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر، ص (٤٨).
(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٠٣).
(٦) سياسة الإنفاق العام فى الإسلام، عوف الكفراوى، ص (٣٧٢).

أ- منع بيع الأرض الخراجية: سأل الناس عبد الملك بن مـروان والوليد وسليمان أن يأذنوا فى شراء الأرض من أهل الذمة، فأذنوا لهم شريطة أن يضعوا أثمانها فى بيت المال، فلما ولى عمر بن عبد العزيز، ترك هذه الأشرية على حالها، وذلك لما وقع فيـها من المواريث ومهـور النساء وقضـاء الديون، ولم يقدر على تخليـصه، وكتب كتابًا قـرىء على الناس سنة المائة: أن من اشترى شيئًا بـعد سنة مائة، فإن بيعـه مردود، وسـميت سنة مائة سنـة المدة، فتناهى الناس بعـدها عن الشراء[(١)].

ولقد طلب أهل الأرض أن يضع عليهم الصدقة بدل الخراج، فأجاب عمر: إنى لا أعلم شيئًا أثبت لمادة الإسلام من هذه الأرض التى جـعلها الله لهم فيئًا. . قال أبو عبيدة: فكأن مذهب عمر بن عبد العزيز فى الأرض أنه كان يراها فيئًا، ولهذا كان يمنع أهلها من بيـعها[(٢)]. وكتب إلى ميـمون بن مهران: أما بـعد، فحُل بين أهل الأرض وبين بيعه ما فى أيديهم، فإنهم إنما يبيعون فىء المسلمين[(٣)]. كذلك رفض عـمـر تحـويل الأرض التى دخل أهلهـا فى الإسـلام من أرض خـراج إلى أرض عشر[(٤)]، وأبقى الخراج عليـهم والعشر وقال: الخراج على الأرض والـعشر على الحب[(٥)]. وبذلك حافظ على المورد الرئيس لـلإنتاج وجعله ملكًا عامًـا للأمة بدلاً من تحويله إلى ملكيات صغيرة[(٦)].

ب- العناية بالمزارعين وتخفيف الضرائب عنهم: اعتاد بعض الخلفاء الأمويين قبل عمر بن عبـد العزيز على إرهاق المزارعين بالضـرائب، فكثرت الضرائب وتنوعت، واشـتد الأمر على أهل الأرض فهجروها، فخـربت، فأضرّ ذلك بمالية الدولة، ولقد لجأوا إلى أساليب العـذاب فى الجباية، فاضطر المزارعـون إلى بيع دوابهم أو كسوتهم لشـديد ما عليهم[(٧)]، وعندما تولى عمر سعى إلى إلغاء جميع الضرائب المخالفة للشريعة، وكتب بذلك إلى العمال كتابًا: فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور فى أحكام الله،

---

(١) الخراج للريس، ص (٣٩٠)، السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٤٩).
(٢) الأموال لأبى عبيد ص (١٢١) رقم (٢٥٦).
(٣) المصدر نفسه رقم (٢٥٧)، ص (١٢٢).
(٤) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٥٠).
(٥) الأموال رقم (٢٣٥) ص (١١٤) لأبى عبيد .
(٦) الخراج الريس، ص (٢٣٩)، السياسة المالية والاقتصادية، ص (٥٠).
(٧) الضرائب فى السواد للدورى، ص (٥٧).

وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء.. ولا تأخذن فى الخراج إلا وزن سبعة[١]، ليس لها آيين ولا أجور الضرابين[٢]، ولا هدية النيروز والمهرجان[٣]، ولا ثمن الصحف ولا أجور الفيوج ولا أجور البيوت[٤]. وقد ألغى القبالة، وكانت مألوفة فى البصرة، وألغى أسلوب الخرص[٥]. حيث كان العمال يقدرون الثمار بسعر عال ويقبضونه نقدًا، وبذلك يرهقون الزراع، فقرر عمر وضع الضريبة حسب الأسعار الفعلية، وكتب لعامله: بلغنى أن عمالك بفارس يخرصون الثمار ثم يقومونها على أهلها بسعر فوق سعر الناس الذى يتبايعون به ثم يأخذون ذلك ورقًا على قيمتهم التى قوموها.. وقد بعثت بشر بن صفوان وعبد الله بن عجلان للنظر فى ذلك ورد الثمن الذى أخذ من الناس إلى ما باع أهل الأرض به غلاتهم[٦].

ولقد أمر عمر بالغاء ضريبة ثابتة على أهل اليمن، كالخراج مع أن أرضها أرض عشرية، وكتب إلى عامله على اليمن: أما بعد، فإنك كتبت إلىّ أنك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ثابتة فى أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال، أخصبوا أو أجدبوا؛ أو حيوا أو ماتوا، فسبحان الله رب العالمين، ثم سبحان الله رب العالمين.. إذا أتاك كتابى هذا فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق، ثم ائتنف الحق فاعمل به بالغًا بى وبك، وإن أحاط بمهج أنفسنا، وإن لم ترفع إلىّ من جميع اليمن إلا حفنة من كتم[٧]، فقد علم الله إنى بها مسرور إذا كانت موافقة للحق[٨] والسلام.

ويلاحظ من كتب عمر إلى عماله الانحرافات السابقة الظالمة وإنكار عمر لها، وقد كان لها أثر اقتصادى سيئ حيث جعلت أصحاب الأرض يضعفون عن

---

(١) الدرهم الذى ضربه عبد الملك وجعل كل عشرة منها وزن سبعة مثاقيل من الذهب.

(٢) الآيين: أصول إدارية ساسانية، وهى رسوم المسّاحين أرض الخراج، وأجور الضرابين: هى أجور المختصين بالنقد من الصرافين .

(٣) النيروز والمهرجان: عيدان عند الفرس كانوا يحضرون فيهما الهدايا .

(٤) الصحف: عبارة عن أوراق تعطى براءة بالدفع . والفيوج: جمع فيج وهو رسول السلطان الذى يسعى بالكتب، وأجور البيوت: هى أجور المخازن المحلية التى توضع فيها المواد العينية قبل نقلها للمركز .

(٥) القبالة من التقبل والتقبيل: أى شخصاً كفيلاً بذلك لتحصيل الخراج مقابل قدر معلوم يأخذه لنفسه، الخرص: الحزر.

(٦) الضرائب فى السواد، ص (٦٥).

(٧) الكتم: نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر.

(٨) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٢٦)، الخراج للريس ص (٢٢٩).

أرضهم ويتركونها، فضعف الإنتاج وترتب على ذلك خسارة للبلاد ولبيت المال، وأما عمر بن عبد العزيز فكان مصرًا على تطبيق الحق وعدم اهتمامه بالكم بل بالكيف، فهو لا يريد إيرادًا كثيرًا ظالمًا[1]، وقد ساهمت إصلاحات عمر فى إلغائه للضرائب الجائرة فى انتعاش اقتصاد الدولة.

ج ـ الإصلاحات والإعمار وإحياء أرض الموات: شجع عمر على إحياء الأرض الموات، وعلى إصلاح الأراضى للزراعة، وكتب بذلك إلى عامله على الكوفة: لا تحمل خرابًا على عامر، ولا عامرًا على خراب[2]، انظر إلى الخراب فخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر، ولا تأخذ من العامر إلا وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لأهل الأرض[3]. وكتب عمر: من غلب الماء على شيء فهو له، وعن حكيم بن زريق قال: قرأت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أبى: من أحيا أرضًا ميتة ببنيان أو حرث، ما لم تكن من أموال قوم ابتاعوها من أموالهم، أو أحيوا بعضًا وتركوا بعضًا، فأجز للقوم إحياءهم الذى أحيوا ببنيان أو حرث[4]، وحرص عمر على استغلال أرض الصوافى[5]، ورأى أن ملكيتها لبيت المال، ومنع الإقطاع منها، وأمر بإعطائها مزارعة على النصف؛ فإن لم تزرع فعلى الثلث، فإن لم تزرع فأمر بإعطائها حتى تبلغ العشر، فإن لم يزرعها أحد فأمر بمنحها، فإن لم يزرعها أحد فأمر بالإنفاق عليها من بيت المال[6]. وقد اهتم عمر بالمزارعين ورفع الضرر عنهم ويروى فى ذلك أن جيشًا من أهل الشام مر بزرع رجل فأفسده، فأخبر الرجل عمر بذلك، فعوضه عشرة آلاف درهم[7]، وكان يقدم القروض للمزارعين، فقد جاء فى رسالته لواليه على العراق: أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين[8].

---

(١) السياسة الاقتصادية المالية لعمر، ص (٥٢). (٢) المصدر نفسه، ص (٥٣)، العامر: الأرض المزروعة.

(٣) الأموال لأبى عبيدة رقم (١٢٠)، ص (٥٧).

(٤) الأموال رقم (٧١٧)، ص (٣٦٩)، البنيان هو البناء، والحرث هو الزرع.

(٥) الصوافى: ما يستخلصه السلطان لخاصته، وقيل: الأملاك والأراضى التى جلا عنها أهلها وماتوا ولا وارث لها واحدها صافية.

(٦) الخراج، ص (٩٩)، يحيى بن آدم، السياسة المالية والاقتصادية، ص (٥٤).

(٧) سيرة ومناقب عمر، ص (١١٧) لابن الجوزى.

(٨) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٠٢).

د- عمر والحمى: منع عمر الحمى الخاص وأباح هذه الأراضى للمسلمين جميعًا، لا تختص بها طائفة على أخرى، وفى ذلك يقول: ونرى أن الحمى يباح للمسلمين عامة، وكانت تحمى وتجعل فيها نعم الصدقات، فيكون فى ذلك قوة ونفع لأهل فرائض الصدقات، وأدخل فيها، وطعن فيها طاعن من الناس، فنرى فى ترك حماها والتنزه عنها خيرًا، إذا كان ذلك من أمرها، وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين، وإنما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء(١)، وعندما أباح الأحماء كلها استثنى النقيع(٢) الذى حماه الرسول عليه الصلاة والسلام لإبل الصدقة(٣). فبالحمى تصبح الأرض لجماعة المسلمين، ونفعها مصروف لهم، فالحمى نقل الأرض من الإباحة إلى الملكية العامة، لتبقى موقوفة على جماعة المسلمين(٤).

هـ- توفير مشاريع البنية التحتية: سعى عمر بن عبد العزيز لتوفير هذه المشاريع منذ كان أميرًا على المدينة حتى أصبح خليفة للمسلمين، فاهتم بالمشاريع التى تخدم التجار والمزارعين والمسافرين، وعندما كان واليًا على المدينة كتب إليه الوليد بن عبد الملك كتابًا فى تسهيل الثنايا وحفر الآبار فى المدينة، فحفر منها بئر الحفير وكانت طيبة الماء(٥). كذلك عمل عمر بأمر الوليد فوّارة ماء، وأجرى ماءها ووسع المسجد النبوى ورفع منارته وجوّف محاريبه، وأنشأ الخانات والفنادق ودار الضيافة للحجاج والمسافرين(٦). كما استمر حفر خليج أمير المؤمنين بين النيل والبحر الأحمر لتسهيل نقل الطعام من مصر إلى مكة حتى أيام عمر بن عبد العزيز(٧). وكتب إليه عامله على البصرة يعرض طلب أهلها بحفر نهر لهم، فأذن له عمر وحفر النهر، وسمى نهر عدى(٨).

---

(١) سيرة عمر لابن عبدالحكم، ص (٩٨).

(٢) النقيع: موضع لبلاد مزينة على ليلتين من المدينة، وهو نقيع الخضمات الذى حماه عمر بن الخطاب لنعم الفئ وخيل المجاهدين. انظر: السياسة الاقتصادية والمالية، ص (٥٤).

(٣) فتح البارى (٥/ ٣٤) .

(٤) الاتجاه الجماعى فى التشريع الاقتصادى، ص (٢٤٢).

(٥) الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى نجد والحجاز فى العصر الأموى، ص (٥٦).

(٦) خامس الخلفاء الراشدين للبدرى، ص (١٧٠).

(٧) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، ص (٥٥). (٨) المصدر نفسه، ص (٥٧).

ثالثًا: سياسة عمر بن عبد العزيز المالية فى الإيرادات:

إن السياسة المالية بإيراداتها ونفقاتها تعتبر أداة هامة لتحقيق الأهداف الاقتصادية[1]، لذلك بدأ عمر سياسته المالية بزيادة الإنفاق على عامة الشعب، فأنفق فى رد المظالم حتى أنفد بيت مال العراق، وجلب إليه من الشام[2]، وأنفق على المشاريع الزراعية، ومشاريع البنى الأساسية، كما أنفق على الرعاية الاجتماعية لجميع طبقات الشعب، وفى جانب الإيرادات، سعى إلى إلغاء الضرائب الظالمة، فرفع الجزية عمن أسلم، وألغى الضرائب الإضافية التى كانت تؤخذ من المزارعين، وألغى المكوس والقيود، كما حافظ على حقوق بيت المال المسلوبة، فأعاد إليه القطائع، والمظالم، وأوقف امتيازات الأمراء والموظفين، وبالغ فى الاقتصاد فى الإنفاق الإدارى والحربى[3]، كل ذلك أدى إلى إطلاق الطاقات، فنمت الزراعة والتجارة، وجنى ذلك بزيادة ونمو الإيرادات، فزادت إيرادات الزكاة والخراج والعشور، وفاضت ميزانية الدولة، فوجّه عمر الفائض لزيادة الإنفاق العام لتحقيق الأهداف الاقتصادية. ونلاحظ فى التاريخ كلما استقام أمر الدولة وسارت على نهج الشريعة الإسلامية الغرّاء فاض ميزانها المالى، ولم يشعر أفرادها بعسف ولا إرهاق، ولم تهمل مصلحة من مصالحها، وكلما اعوج أمر الدولة، وحادت عن سبيل الشريعة، اختل التوازن المالى، فميزانية الدولة مرآة عدلها وجورها ونظامها وفوضاها[4].

هذا وقد تكونت إيرادات بيت المال زمن عمر بن عبد العزيز من الزكاة والجزية والخراج والعشور والخمس والفىء.

١- الزكاة:

اهتم عمر بالزكاة وحرص عليها لأنها حق فرضه الله للفقراء والمساكين والمنقطعين، والمستعبدين، ولا يجوز التهاون فيه، واهتمّ بتوزيعها على مستحقيها[5]، فأمر ولاته بالبحث عنهم وإعطائهم حقهم، وفى حالة عدم وجود فقراء أو مساكين أو محتاجين أمر عمر بشراء رقاب المستعبدين وإعناقهم من مال

---

(١) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر، ص (٥٧).

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٢٩).

(٣) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر، ص (٥٨).

(٤) المصدر نفسه، ص (٥٨).

(٥) المصدر نفسه، ص (٦٠).

الزكاة[١]. وعزم عمر على اتباع هدى النبى ﷺ فى الزكاة، وكان الولاة قبله قد تهاونوا فيها، فأخذوها من غير حقها، وصرفوها فى غير مصارفها[٢]، ومن مظاهر اتباعه للسنة فيها طلبه لكتاب رسول الله ﷺ فى الصدقات، ولكتاب عمر بن الخطابَ رضى الله عنه ـ وأمره بأن تنسخ هذه الكتب فنسخت له وكانت تشتمل على صدقة الإبل والبقر والغنم، والذهب، والورق، والتمر، والحب، والزبيب، وبيّنت الأنصبة لكل هذه الأصناف[٣]. واتبع عمر السنة فى مصارف الزكاة، فاستشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠] ثم أمر أن توضع الصدقات كما أمر الله تعالى فى كتابه[٤]، كما اتّبع عمر السنة فى جباية الزكاة، فعين عمالاً ثقاة مؤتمنين وأمرهم بجبايتها دون ظلم أو تعدٍّ، وأمرهم بكتابة براءة إلى الحول لدافعها[٥]. وأمر عمر بأخذ الزكاة من جميع الأموال التى تجب فيها، فأخذت من عطاء العمال ومن المظالم إذا رُدّت لأصحابها، ومن الأعطية إذا أخرجت لأهلها[٦]. وأكد عمر على أحقية كل قوم بزكاتهم إذا لم يستغنوا[٧]، وعندما أحضر العمال الزكاة إلى عمر أمرهم بردّها وتوزيعها فى البلاد التى جمعت منها[٨].

وكانت لهذه الإصلاحات الاقتصادية فى جباية الزكاة أثر فى زيادتها ولقد ساهمت سياسته الاقتصادية إلى زيادة تحصيل الزكاة، فتوفيره لأجواء الأمن والطمأنينة، واهتمامه بإقامة المشاريع الأساسية للزراعة والتجارة واتّباعه لسياسة الحرية الاقتصادية المقيدة، وإلغاؤه للضرائب الظالمة، أدّت جميعًا إلى ازدهار التجارة والزراعة وإلى زيادة حصيلة الزكاة[٩]، ولقد كان عمر من الموسعين لإيتاء الزكاة، برز هذا من خلال فقهه فى زكاة الثروة الزراعية، وزكاة الإبل العامة، وزكاة السمك، وزكاة العسل، وهذا الفقه من شأنه أن يزيد الأموال الخاضعة

(١) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٦٠).
(٢) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى، ص (١٢٩).
(٣) الأموال لأبى عبيد، ص (٤٤٧) رقم (٩٣٤)، السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص (٦١).
(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٩٤).
(٥) المصدر نفسه، ص (٩٩).
(٦) الأموال لأبى عبيد رقم (١٢٢٦)، ص (٥٢٩).
(٧) فتح البارى (٣/ ٣٢٢)، السياسة المالية والاقتصادية، ص (٦١).
(٨) الأموال رقم ١٩١٧ صـ٧١٢ .
(٩) ملامح الانقلاب، ص (١٣٥).

للزكاة، مما يؤثر فى زيادة جبايتها. وأما زيادة الدعوة زمن عمر، ودخول أهل الذمة فى الإسلام أفواجًا، فالراجح أنه رفع من حصيلة الزكاة، لأن هؤلاء المسلمين الجدد فيهم الأغنياء وفيهم الفقراء، وسيدفع الأغنياء حقًا مفروضًا عليهم وهو الزكاة.

وأما سيرة عمر وتقواه فقد أثرت فى دفع الزكاة للدولة مباشرة لزيادة الثقة بين الحاكم والمحكوم وهذا واضح من تدافع الناس لأداء الزكاة عندما سمعوا بخلافة عمر، وهذا يؤدى إلى زيادة حصيلة أموال الزكاة وزيادة آثارها الاقتصادية عند إنفاقها فى مصارفها[١]. وتؤكد الروايات التاريخية أن الزكاة كانت فائضة عن حاجات الناس فى ذلك الزمن، فكان الرجل يأتى بزكاته، فلا يجد من يأخذها[٢]، ومن أسباب هذا الفائض اندفاع أفراد المجتمع للعمل والإنتاج، فكثر عدد المؤدِّين للزكاة، وانخفاض عدد القابضين لها[٣].

٢ ـ الجزية:

والجزية فى الاصطلاح: هى الوظيفة (الضريبة) المأخوذة من الكافر لإقامته بدار الإسلام فى كل عام، والأصل فيها الكتاب والسنة والإجماع[٤]، وقد قام عمر بن عبد العزيز باتباع السنة فى إيراد الجزية، فقد أسقطها عمّن أسلم، لأن الجزية فرضت على الكافرين وتسقط بالإسلام[٥]، ومع ذلك فقد استمر بعض خلفاء بنى أمية فى أخذ الجزية ممن أسلم، فأخذها الحجّاج لظنِّه أنهم دخلوا الإسلام هربًا من الجزية، وقد أدى ذلك إلى زيادة النقمة على الحجّاج وعلى الأمويين[٦]، وعندما تولى عمر الخلافة سارع إلى إلغاء الجزية عن المسلمين[٧]، وتشدّد فى ذلك، وكتب إلى العمال كتابًا جاء فيه: من شهد شهادتنا، واستقبل قبلتنا، واختتن فلا تأخذوا منه الجزية[٨]. ولما سمع أهل الذمة عن عدالة عمر وسيرته سارعوا للدخول فى الإسلام، فشكا عامله ذلك، لأنه أدى إلى نقصان الجزية، فأجابه عمر: أما بعد، فإن الله قد بعث محمداً داعيًا ولم يبعثه جابيًا[٩]. ولأن عمر اعتمد فى سياسته

(١) ملامح الانقلاب، ص (١٣٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣١)، السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص (٦٩).
(٣) السياسة المالية والاقتصادية، لعمر ص (٦٩).
(٤) المغنى لابن قدامة (١٠/ ٥٥٧).
(٥) السياسة المالية والاقتصادية، ص (٧٠).
(٦) الضرائب فى السواد، ص (٥٨).
(٧) الطبقات (٥/ ٣٤٥)، الخراج للريس، ص (٢٣٠).
(٨) الأموال رقم (١٢٧)، ص (٦١).
(٩) الطبقات (٥/ ٣٨٤) .

على ترسيخ قيم الحق والعدل، ورفع الظلم عن أهل الذمة، ورفق بمزارعيهم وفرض الجزية عليهم حسب المقدرة المالية للفرد، فجعلها على ثلاث طبقات للغنى وللمتوسط وللفقير، وجعل صاحب الأرض يعطى جزيته من أرضه، والصانع يخرجها من كسبه، والتاجر من تجارته[1]، وفرض الجزية حسب طاقة البلاد المالية، فجعلها على أهل الشام أكثر منها على أهل اليمن بسبب غناهم ويسارهم[2]، ورفع الجزية عن الفقراء الذين لا يستطيعون دفعها، وأجرى عليهم رزقًا من بيت المال، كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه[3]، وخفَّضَ عمر الجزية عن أهل نجران حيث أمر بإحصائهم، فتبين له أن عددهم نقص إلى العشر، وجزيتهم بقيت كما هى، فأخذ منهم مائتى حلة بدلاً من ألفين، وأسقط جزية من مات أو أسلم[4]. وقد كانت للإصلاحات فى جباية الجزية آثار مالية لصالح بيت المال، فإسقاط الجزية عمن أسلم أدّى إلى زيادة الثقة بين الحاكم والمحكوم، والشعور بالعدل والإنصاف، وبالتالى أدّى إلى إيقاف القلاقل والفتن التى كلفت الدولة نفقات طائلة، كما إن إسلام كثير من أهل الذمة جعلهم يدفعون الزكاة بدل الجزية، والزكاة مقدارها أكبر هذا مع استمرار دفع الخراج على الأرض، أما انتشار أجواء الأمن والعدل فقد زاد الإنتاج حيث اندفع الناس للإنتاج والتنمية[5].

٣- الخراج:

هو ما تأخذه الدولة من ضرائب على الأرض المفتوحة عنوة، أو الأرض التى صالح أهلها عليها[6]. لقد ارتفع إيراد الخراج فى زمن عمر بن عبد العزيز وبلغ مائة وأربعة وعشرين مليون درهم[7]. وكانت هذه الزيادة فى إيراد الخراج نتيجة لسياسته الإصلاحية، فقد منع بيع الأرض الخراجية فحافظ على المصدر الرئيسى للإنتاج، كما اعتنى بالمزارعين، ورفع عنهم الضرائب والمظالم التى كانت تعوق إنتاجهم، واتبع سياسة الإصلاح والإعمار وإحياء الأرض الموات، كما اهتم ببناء

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٩٩).
(٢) الأموال لأبى عبيد رقم (١٠٧)، ص (٥١).
(٣) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٧١).
(٤) الخراج للريس، ص (٢٣٢).
(٥) الخراج، ص (٢٥٩) للريس، السياسة المالية والاقتصادية، ص (٧٢).
(٦) معجم لغة الفقهاء، ص (١٩٤).
(٧) الخراج للريس، ص (٢٣٨).

مشاريع البنية الأساسية للقطاع الزراعى فبنى الطرق والقنوات[1]، فمشاريع الطرق سهلت على المزارعين تسويق إنتاجهم، ومشاريع القنوات والآبار سهلت عليهم سقى محاصيلهم بكلفة أقل، كل هذه الإصلاحات الخراجية أثمرت فى النهاية وأدت إلى ارتفاع الخراج زمن عمر، فقد بلغ خراج العراق فى عهده مائة وأربعة وعشرين مليون درهم، وهذا المقدار أكبر مما جبى فى العهود السابقة، فقد بلغ خراج العراق زمن الحجاج أربعين مليون درهم[2]، وفى عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - مائة مليون درهم. أما خراج خراسان زمن عمر بن عبد العزيز فقد كان فائضًا عن حاجات الدولة، وبلغ الخراج زمن عمر أقصى قدر ممكن أن يبلغه فى الأحوال العادية[3]. وهذا الارتفاع فى مقدار الخراج يشير إلى قوة الدولة المالية، لأن خراج العراق كان يشكل أكبر نصيب من إيراداتها[4]، مما ساعد على تحقيق الأهداف الاقتصادية من دعم مشاريع البنية التحتية والمشاريع الإنتاجية والإنفاق على الطبقات الفقيرة والعاجزة، ذلك لأن إيراد الخراج يتسم بالمرونة من حيث مصارفه بعكس الزكاة فهى محددة المصارف[5].

٤- العشور:

فى الاصطلاح: ما يؤخذ على تجارة، أهل الحرب وأهل الذمة عندما يجتازون بها حدود الدولة الإسلامية[6]، فتؤخذ العشور من تجارة الحربى العُشر ومن تجارة الذمى نصف العشر، ولا تؤخذ فى السنة لنفس المال إلا مرة واحدة، ونصابها عشرون دينارًا للذمى، وعشرة للحربى[7]، وقد اهتم عمر بن عبد العزيز بإيراد العشور فوضح مبادئها للعمال، وأمر بكتابة كتاب لدافعها لإعفائه منها للحول القادم، كما منع قبض العشور، والتى كانت تفرض على الناس بغير حق[8]، وقد نشطت التجارة فى عهده، وتوافرت موارد جديدة للدولة واستطاع أن يوظفها للإنفاق العام، وكانت الإجراءات التى اتخذها عمر لتنشيط الحركة التجارية كالآتى:

---

(١) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٧٤).

(٢) الخراج للريس، ص (٢٣٧، ٢٣٨)، السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٧٥).

(٣) الخراج، ص (٢٣٧، ٢٣٨).

(٤) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص (٧٦).

(٥) المصدر نفسه، ص (٧٦).

(٦) معجم الفقهاء ص (٣١٢).

(٧) المغنى (١٠/٥٨٩)، السياسة المالية والاقتصادية، ص (٧٦).

(٨) السياسة المالية والاقتصادية، ص (٧٧).

أ- إلغاء الضرائب الإضافية التى كانت مفروضة على القطاع الزراعى[١]، وقد انعكس هذا إيجابًا على القطاع التجارى فى صورة انخفاض ملحوظ فى أسعار السلع الزراعية، فزاد فى الطلب عليها، وأحدث رواجًا فى تجارتها، وفى ظل اقتصاد قوامه الزراعة فإن زيادة عرض السلع الزراعية وانخفاض أثمانها -على النحو الذى واكب السياسة الرشيدة لعمر بن عبد العزيز- أحدث رواجًا لا فى التجارة فحسب، ولكن فى بقية قطاعات الاقتصاد الإسلامى[٢].

ب- إلغاء الضرائب على القطاع التجارى[٣]، والاقتصار على العشور، وكان لهذا تأثير ايجابى على قطاع التجارة، وقد أدى إلى تشجيع مزاولة التجارة، وزاد من أرباح التجارة، فزاد معها حجم المبادلات التجارية[٤].

ج- إلغاء أسلوب العنف فى تحصيل مستحقات الدولة المالية[٥] على التجار وغيرهم، وهذا أيضًا من عوامل تشجيع التجارة وتنميتها.

د- عمل استراحات[٦] على طريق التجارات مع بلاد الشرق، ومطالبة الولاة على البلاد التى توجد بها هذه الاستراحات بأن يضيِّفوا من مر بهم من المسلمين المسافرين[٧] يومًا وليلة، وأن يتعاهدوا دوابهم على حساب الدولة، ومضاعفة هذه المدة لمن يشكو منهم علة، وبالنسبة لمن مر بهذه الاستراحات، وكان منقطعًا أو سرقت تجارته أو تلفت لأى سبب، فكان يعطى من المال ما يكفيه للوصول إلى بلده، ولا يخفى ما كان بهذه التسهيلات والضمانات من عوامل تشجيع للتجار وللتبادل التجارى[٨].

هـ- منع العطاء عن التجار، حتى تكون التجارة مصدر رزقهم الوحيد، فيهتموا بها أكثر وينشطوا فيها، لاسيما أن التجارة كانت فى ذلك الوقت متعبة من حيث السفر، والترحال، لعدم توافر وسائل المواصلات المريحة التى نشاهدها اليوم.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٤١).

(٢)، (٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢١٨).

(٤)، (٥) المصدر نفسه، ص (٢١٨).   (٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٤٣٩).

(٧) كان معظم السفر لناحية المشرق لقصد التجارة .

(٨) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢١٩).

و- قضاء ديون كل من ادان فى غير سفه ولا سرف[1]، ويدخل ضمنهم التجار إن لم يكونوا جلهم، وقد أدى هذا القرار إلى إقالة عثرات التجار الذين أفلسوا، ومكنهم من العودة إلى مزاولة التجارة، وخاصة تلك الفئة من التجار الذين بدأوا تجارتهم عن طريق اقتراض رأس المال المطلوب.

ز- الحرص على ضبط ومعايرة وتوحيد المكاييل والموازين فى شتى أنحاء الدولة، وجعل ذلك من مواد القانون الأساسى للدولة.

ح- منع الولاة والأمراء من الاشتغال بالتجارة، حتى لا يكون فى دخولهم السوق إفساد للمنافسة الشريفة بين التجار، أو تأثير على الأسعار لصالحهم، وهى محاولة من عمر بن عبد العزيز بالبعد بالأسواق عن أى مؤثرات غير طبيعية تؤثر فى تلقائية تحديد السعر[2].

ط- منع الاحتكار، ومن ذلك إعادته دكاكين بحمص كانت فى يد مجموعة من أهل السوق، وكان ابن الوليد بن عبد الملك قد استولى عليها، وحولها إلى ملكية خاصة له، فنزعها وأعادها إلى أصحابها[3]، وبهذا فإن وجود هذه الإجراءات الإصلاحية[4] ساهمت فى ازدهار الحركة التجارية فى عهد عمر بن عبد العزيز، وبذلك زادت حصيلة إيرادات العشور، وتوافرت موارد جديدة للدولة استطاع عمر أن ينفقها على الصالح العام.

٥ ـ خمس الغنائم والفىء:

فالغنيمة فى الاصطلاح: ما استولى عليه من أموال الكفار المحاربين عنوة وقهراً حين القتال[5]، والفىء فى الاصطلاح: كل مال وصل من المشركين من غير قتال ولا بإيجاف خيل ولا ركاب[6]، فعندما تولى عمر الخلافة توجه لإصلاح الأوضاع الداخلية للدولة، لذلك لم تكثر الفتوحات فى عهده، حيث استعاض عنها بالدعوة والقدوة الحسنة، فقد بعث بكتب للملوك والشعوب، فدخل البربر فى الإسلام

(١) الأموال لأبى عبيد، ص (٢٣٤، ٢٣٥).
(٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢١٩).
(٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (٢٢٠).
(٥) الأموال لأبى عبيد، ص (٣٢٣) رقم (٦٢٦).
(٦) الأحكام السلطانية للماوردى، ص (١٩٩).

بدون قتال[1]، ولهذا لم تتحقق موارد كثيرة من خمس الغنائم زمن عمر، وما كان موجوداً فى بيت المال منه كان مصدره الفتوحات السابقة[2]. ومع ذلك فقد سعى لإصلاح موازنة خمس الغنائم، فقد جعل للخمس بيت مال مستقل عن الأموال الأخرى[3]،وأمر بوضعه فى مواضعه المذكورة فى سورة الأنفال، وآثر به أهل الحاجة منهم حيث كانوا[4]. وقد أمر بعشرة آلاف دينارمن سهم ذوى القربى فقسمها فى بنى هاشم، وساوى بين الذكر والأنثى، والصغير والكبير، فكتبت إليه فاطمة بنت الحسين تشكر له ما صنع وتقول: يا أمير المؤمنين قد أخدمت من كان لا خادم له، واكتسى منهم من كان عاريًا، واستنفق من كان لا يجد ما يستنفق[5] ولقد تمسك عمر فى حق الخمس، فلما فتحت الأندلس قبل خلافة عمر لم يخمسوها، فأمر عامله عليها أن يبين العنوة من أرضها ويأخذ منها الخمس[6]. وأما فى تصرفه فى الفىء، فقد كان متبعًا للقرآن والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين، فقد كتب كتابًا ذكر فيه الأموال والقرى التى أفاء الله بها رسوله ﷺ مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، واستدل بآيات سورة الحشر التى نزلت فى ذلك، وبين أنه ما من أحد من المسلمين إلا له حق فى الفىء، فقد ذكرت الآيات المهاجرين والأنصار ومن جاء بعدهم من المسلمين بعد الهجرة الأولى حتى تنقضى الدنيا[7]. وهو بذلك كان موافقًا لاجتهاد عمر بن الخطاب فى جعل الفىء موقوفًا على أجيال المسلمين[8]. ونظر عمر فى مصارف الخمس فوجدها موافقة لمصارف الفىء، فرأى أن يضمه إليه كما فعل عمر بن الخطاب[9]، ويصرف منها على جميع مصالح المسلمين، وكتب فى ذلك كتابًا: . .وأما الخمس فإن من مضى من الأئمة اختلفوا فى موضعه. . ووضع مواضع شتى، فنظرنا فإذا هو على سهام الفىء فى كتاب الله لم تخالف واحدة من الاثنتين الأخرى، فإذا عمر بن الخطاب -رحمه الله- قد

(١) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٨١). (٢)، (٣) المصدر نفسه، ص (٨١).
(٤) الطبقات (٥/ ٣٥٠)، سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٧٢)، السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٨٢).
(٥) الطبقات (٥/ ٣٩٠)،السياسة المالية والاقتصادية، ص (٨٢).
(٦) تاريخ الإسلام،حسن إبراهيم (١/ ٣٢٠). (٧) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٩٧).
(٨) الخراج، أبو يوسف، ص (٢٥)، السياسة المالية والاقتصادية، ص (٨٢).
(٩) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٨٣).

قضى فى الفىء قضاءً قد رضى به المسلمون، ففرض للناس أعطية وأرزاقًا جارية لهم، ورأى أنه لن يبلغ بتلك الأبواب ما جمع من ذلك، ورأى أن فيه لليتيم والمسكين، وابن السبيل، فرأى أن يُلحق الخمس بالفىء، وأن يوضع مواضعه التى سمى الله وفرض... فاقتدوا بإمام عادل فإن الآيتين متفقتان: آية الفىء وآية الخمس... فنرى أن يُجمعا جميعًا فيُجعلا فيئًا للمسلمين ولا يستأثر عليهم(١).

لقد ساعدت إصلاحات عمر فى إيرادات الخمس والفىء على تحقيق أهداف سياسته الاقتصادية، فتوزيعه للخمس على الأسهم المذكورة فى القرآن مع إيثاره لذوى الحاجة أينما وجدوا ساعد على تحقيق إعادة توزيع الدخل والثروة، وشعر الناس بالعدل وزوال الظلم، بسبب هذه السياسة الرشيدة السديدة.

رابعًا: سياسة الإنفاق العام لعمر بن عبد العزيز:

١- إنفاق عمر على الرعاية الاجتماعية:

لتحقيق هدف إعادة توزيع الدخل والثروة سعى عمر إلى زيادة الإنفاق على الفقراء والمحتاجين، وتأمين الرعاية الصحية والاجتماعية لهم، وهذه مطالب شرعية جاءت فى القرآن الكريم والسنة النبوية، ولقد اهتم منذ الأيام الأولى لخلافته باتباع الشرع والتزام الحق والعدل، فأرسل إلى العلماء يستفسر، وقد كتب ابن شهاب الزهرى لعمر كتابًا عن مواضع السنة فى الزكاة ليعمل بها فى خلافته فذكر فيها: إن فيها نصيبًا للزمنى والمقعدين(أصحاب العجز الأصلى)، ونصيبًا لكل مسكين به عاهة لا يستطيع عَيْلة وتقليبًا فى الأرض(أصحاب العجز الطارئ كالعامل الذى يصاب فى عمله والمجاهد الذى يصاب فى الحرب). ونصيبًا للمساكين الذين يسألون ويستطعمون الغنى حتى يأخذوا كفايتهم ولا يحتاجون بعدها إلى سؤال.. ونصيبًا لمن فى السجون من أهل الإسلام ممن ليس له أحد... ونصيبًا لمن يحضر المساجد، الذين لا عطاء لهم ولا سهم «أى ليست لهم رواتب ومعاشات منتظمة» ولا يسألون الناس.. ونصيبًا لمن أصابه فقر وعليه دين، ولم يكن شىء منه فى معصية الله، ولا يُتهم فى دينه.. ونصيبًا لكل مسافر ليس له مأوى، ولا أهل يأوى إليهم، فيؤوى ويُطعم وتُعلف دابته حتى يجد منزلاً أو تقضى حاجته(٢).

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٩٧)، الأموال رقم (٨٣٨).

(٢) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٨٣).

أ- الإنفاق على الفقراء والمساكين: فقد كان عمر يفكر فى الفقراء والمساكين، ويسعى إلى إغنائهم، فقد مرت معنا قصته مع زوجته فاطمة وسألته عن سر بكائه فقال لها: تقلّدت أمر أمة محمد ﷺ، فتفكرت فى الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعارى المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والكبير، وذى العيال فى أقطار الأرض، فعلمت أن ربى سيسألنى عنهم، وأن خصمى دونهم محمد ﷺ - فخشيت ألا تثبت حجتى عند خصومته، فرحمت نفسى فبكيت[1].

هذه الحادثة تلخص سياسة عمر فى الإنفاق على الفئات المحتاجة، والحادثة مليئة بالمعانى وتحتاج إلى وقفات، فقد شعر عمر بعظم المسئولية الملقاة على عاتقة حيث قال رسول الله ﷺ: «كلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته»[2]. وقد عمل عمر على سد احتياجات الناس، جاء رجل لعمر فقام بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين اشتدت بى الحاجة، وانتهت بى الفاقة، والله سائلك عن مقامى غداً بين يديه، وكان عمر قد اتكأ على قضيب، فبكى حتى جرت دموعه على القضيب، ثم فرض له ولعياله، ودفع له خمسمائة دينار حتى يخرج عطاؤه[3]، وكان رحمه الله يهتم بشأن الأرامل وبناتهن، كما حدث مع المرأة العراقية التى مرّ ذكرها. وقد قال ﷺ: «الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أو كالذى يصوم النهار ويقوم الليل»[4]. وقد خصصّ عمر داراً لإطعام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل[5]، ولم يكتف عمر بالاعتناء بالفقراء فحسب، بل امتدت رعايته إلى المرضى وذوى العاهات والأيتام، فقد كتب كتابًا إلى أمصار الشام: ادفعوا إلىّ كل أعمى فى الديوان أو مقعد، أو من به فالج، أو من به زمانة، تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة، فرفعوا إليه، فأمر لكل أعمى بقائد، وأمر لكل اثنين من الزمنى بخادم.. ثم كتب: ارفعوا إلىّ كل يتيم، ومن لا أحد له.. فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعون بينهم بالسوية[6].

ب ـ الإنفاق على الغارمين: من الفئات التى اهتم بها عمر الغارمون، فقد كتب ابن شهاب الزهرى لعمر عن سهم الغارمين: لمن يصاب فى سبيل الله فى ماله..

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٢)، سيرة ومناقب عمر لابن عبد الحكم، ص (٢٤٨).
(٢) البخارى رقم (٨٩٣).
(٣) حيلة الأولياء (٥/ ٢٨٩).
(٤) البخارى رقم (٦٠٠٦).
(٥) الطبقات (٣/ ٣٧٨).
(٦) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى، ص (٢٠٢).

ولمن أصابه فقر، وعليه دين لم يكن شيء منه في معصية الله، ولا يُتهم في دينه[1]. ولذلك أمر عمر بقضاء الدين عن الغارمين، فكتبوا إليه: إنا نجد الرجل له المسكن، والخادم، وله الفرس والأثاث في بيته، فكتب عمر: لابد للرجل من المسلمين من سكن يأوى إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوّه، وأثاث في بيته، فهو غارم فاقضوا عنه[2]. وكتب إلى والى الكوفة وقد اجتمعت عنده أموال فسأل عمر عنها، فأجاب: كتبت تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند، فأعط منهم من كان عليه دين في غير فساد، أو تزوّج فلم يقدر على نقد والسلام[3]. وكتب كتابًا قُرئ في مسجد الكوفة: من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله، ومن تزوج امرأة فلم يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله[4].

ج ـ الإنفاق على الأسرى: قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان:٨ - ١٠]. اهتم عمر بن عبد العزيز بالأسرى وبالإنفاق عليهم من بيت مال المسلمين، فقد كتب كتابًا إلى أسرى المسلمين في القسطنطينية[5]، وقد تحدثت عن الكتاب في كلامي عن الحياة الاجتماعية. واهتم بالسجناء في سجون المسلمين بسبب جرم أو قصاص، فقد أمر عمر برعايتهم والإنفاق عليهم، وكتب عمر إلى العمال: لا تدعُنَّ في سجونكم أحدًا من المسلمين في وثاق لا يستطيع أن يصلى قائمًا، ولا يبيتنّ في قيد إلا رجل مطلوب بدم، وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم في طعامهم وإدامهم[6]. وأمر لأهل السجون برزق وكسوة في الصيف والشتاء[7].

---

(١) الأموال، أبو عبيدة رقم (١٨٥٠)، السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص (٩٢).
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٧١)، السياسة المالية والاقتصادية، ص (٩٢).
(٣) المصدر نفسه لابن عبد الحكم، ص (٦٧).
(٤) الطبقات (٥/ ٣٧٤).
(٥) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص (٩٣).
(٦) الخراج، أبو يوسف، ص (٣١٥).
(٧) الطبقات (٥/٣٥٦).

د - الإنفاق على المسافرين وأبناء السبيل: اهتم عمر بالمسافرين وأبناء السبيل، فأمر عماله ببناء بيوت الضيافة على الطرق لرعاية المسافرين والاهتمام بهم، وكتب إلى أحد عمّاله: اعمل خانات فى بلادك، فمن مرّ بك من المسلمين فأقروهم يومًا وليلة، وتعهدوا دوابهم، فمن كانت به علّة فأقروه يومين وليلتين، فإن كان منقطعًا به فقوّوه بما يصل به إلى بلده[١]، وأمر عمر بالاهتمام بالحجّاج، والإنفاق عليهم ورعاية ضعيفهم وإغناء فقيرهم[٢].

هـ- الإنفاق لفك الرقاب: بعد أن أنفق عمر على الفقراء والمساكين، والعاجزين، والغارمين وأبناء السبيل وجه الأموال لفك رقاب المستعبدين، وقال عامل صدقات إفريقية: بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرًا.. فاشتريت بها رقابًا وولاءهم للمسلمين[٣].

وقد مرّ معنا إنفاق عمر على العلماء لكى يتفرغوا لدعوة الناس وتعليمهم، واتسعت رعايته الاجتماعية لتشمل جميع فئات الأمة حتى الأطفال الصغار، وحدّد لهم مبلغًا من المال ليستعين به ذووهم على تربيتهم، واهتم بمواطنيه من أهل الذمة، فكان ينفق على فقرائهم ومحتاجيهم من بيت المال[٤]، كما أنه لا بد من الإشارة إلى أن سياسة عمر بن عبد العزيز الراشدة ساهمت فى إغناء عدد كبير من المسلمين وزيادة ثرواتهم فى المجال التجارى والزراعى وغيرها، وساهمت فى سريان روح التدين وحب الآخرة فى نفوس الناس، ورغبوا فى الإكثار من فعل الخيرات ابتغاء مرضاة الله تعالى والرغبة فيما عند الله، فكثر الإنفاق فى سبيل الله لمساعدة الفقراء والمساكين والأرامل، وبناء المرافق العامة وحفر الآبار، وتشييد المساجد وغير ذلك، وهذا يخفف الأعباء المالية على بيت مال المسلمين فى العاصمة وأقاليمها الواسعة.

---

(١) تاريخ الطبرى نقلا عن السياسة المالية والاقتصادية، ص (٩٤).

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٦٥).

(٣) السياسة المالية والاقتصادية، ص (٩٤).

(٤) المصدر نفسه، ص (٩٥، ٩٦).

٢ ـ ترشيد الإنفاق فى مصالح الدولة:

كانت سياسة عمر بن عبد العزيز فى ميدان الإنفاق تقوم على أساس مبدأ الرشد الاقتصادى، أو ما يعبر عنه بمبدأ القوامة فى الإنفاق، ومقتضاه البعد عن الإسراف والتبذير والبعد عن الشح والتقتير[١]. ومن الخطوات التى اتخذها فى مجال ترشيد الإنفاق فى مصالح الدولة:

أ ـ قطع الامتيازات الخاصة بالخليفة وبأمراء الأمويين:

أعاد عمر القطائع والحقوق الخاصة إلى أصحابها والحقوق العامة إلى بيت المال، وبدأ بنفسه وبآل بيته ـ كما مرّ معنا ـ وكان عمر لا يأخذ من بيت المال شيئًا، فقالوا له: لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب، قال: كان عمر، لا مال له، وأنا مالى يغنينى[٢]. وعندما أُحضرت مراكب الخلافة لعمر بعد موت سليمان، طلب بغلته، وأمر بوضع المراكب والفرش والزينة فى بيت المال. وكانت عادة الخلفاء قبله أن يأخذ ورثة الخليفة الميت ما استعمل من ثيابه وعطوره ويُردّ الباقى إلى الخليفة الجديد، فلما استخلف عمر قال: ما هذا لى ولا لسليمان، ولا لكم، ولكن يا مزاحم ضُمّ هذا كله إلى بيت مال المسلمين[٣]، وكان عمر لا يستعمل الأموال العامة لحاجته الخاصة مطلقًا. فمرة بعث أمير الأردن بسلتى رطب إلى عمر، وقد جيء على دواب البريد[٤]، فلما وصلت عمر أمر ببيعها وجعل ثمنها فى علف دواب البريد، ومرة طلب من عامله أن يشترى له عسلاً فحمل له على دواب البريد، فأمر ببيع العسل وجعل ثمنه فى بيت المال، وقال له: أفسدت علينا عسلك[٥].

ب ـ ترشيد الإنفاق الإدارى: سعى عمر إلى تعويد أعوانه وولاته على الاقتصاد فى أموال المسلمين، فعندما طلب والى المدينة أن يصرف له شمعًا فأجابه عمر: لعمرى لقد عهدتك -يا ابن أم حزم- وأنت تخرج من بيتك فى الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح، ولعمرى لأنت يومئذ خير منك اليوم، ولقد كان فى فتائل

(١) السياسة المالية والاقتصادية ص (٩٦).
(٢) العقد الفريد (٥/ ٢٢)، السياسة المالية والاقتصادية، ص (٩٧).
(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٣٥)، السياسة المالية، ص (٩٧).
(٤) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص (٩٨).
(٥) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى، ص (٢١٠).

أهلك ما يغنيك والسلام[١]. وكتب إليه أيضًا وقد طلب قراطيس للكتابة: . . . إذا جاءك كتابى هذا فأدق القلم واجمع الخطّ، واجمع الحوائج الكثيرة فى الصحيفة الواحدة، فإنه لا حاجة للمسلمين فى فضل قول أضرّ بيت مالهم[٢]. يلاحظ حرص عمر على المال العام ويرشد ولاته للاستغلال الأمثل لموارد الدولة، فعمر يريد من العامل أن يستغل الأوراق فى الرسائل إلى أقصى درجة.

جـ - ترشيد الإنفاق الحربى: خاضت الدولة الأموية حروبًا خارجية وداخلية فكلّفت ميزانية الدولة الشىء الكثير، منها حملة القسطنطينية زمن سليمان بن عبد الملك، حيث كلفت الكثير من الأموال والشهداء دون جدوى، فما كان من عمر بعد استخلافه إلا أن أرسل كتابًا يأمر فيه مسلمة بن عبد الملك قائد الحملة بالعودة بعد أن أصاب الجيش ضيق شديد. وقد أدّت سيرة عمر وسياسته إلى استقرار الأوضاع الداخلية وتوقفت الحروب والفتن، ولما بلغت سيرته الخوارج، اجتمعوا وقالوا: ما ينبغى لنا أن نقاتل هذا الرجل[٣]. وقد ساهم إيقاف الحروب والفتن فى إيجاد مناخ عام من الراحة والطمأنينة والاستقرار ساعد فى النمو الاقتصادى للدولة وتحسن أوضاع الطبقات الفقيرة والمحتاجة بفضل الله ثم سياسة عمر الرشيدة.

---

(١) الوالى: هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم. سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٦٤).

(٢) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى، ص (١٢١).

(٣) المصدر نفسه ص (٨٦)، السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (١٠٠).

الفصل السابع

المؤسسة القضائية فى عهد
عمر بن عبد العزيز وبعض اجتهاداته الفقهية

أولاً: فى الأقضية والشهادات:

١- فى صفات القاضى: كان عمر بن عبد العزيز يدقق فى اختيار القضاة حتى لا يُبتلى الناس بقاض يتخبط فيهم بغير حق، ولهذا فقد اشترط عمر بن عبد العزيز فى القاضى خمسة شروط لا يجوز له أن يلى القضاء حتى تكتمل فيه هذه الشروط وهى: العلم، والحلم، والعفة، والاستشارة، والقوة فى الحق[١]، فعن مزاحم بن زفر قال: قدمت على عمر بن عبد العزيز فى وفد أهل الكوفة فسألنا عن بلدنا وأميرنا وقاضينا، ثم قال: خمس إن أخطأ القاضى منهن خصلة كانت فيه وصمة، أن يكون فهيمًا، وأن يكون حليمًا، وأن يكون عفيفًا، وأن يكون صليبًا وأن يكون عالمًا يسأل عما لا يعلم[٢]، وفى رواية عن يحيى بن سعيد عن عمر بن عبد العزيز قال: لا ينبغى للقاضى أن يكون قاضيًا حتى تكون فيه خمس خصال: عفيف، حليم، عالم بما كان قبله، يستشير ذوى الرأى، لا يبالى ملامة الناس[٣]، وقد قال بهذا المعنى عمر بن الخطاب[٤]، وعلى بن أبى طالب[٥] رضى الله عنهما، وذهب الأئمة الأربعة إلى موافقة عمر بن عبد العزيز فى كل أو جل هذه الصفات[٦].

٢ - فى حكم القاضى فيما استبان له ويرفع ما التبس عليه: قد يكون هناك بعض القضايا المتشابكة والتى أمرها يحيّر القاضى، فهل يحكم القاضى فيها وإن لم يظهر

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز، د. محمد شقير (٢/ ٢٨٥).

(٢) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٦٩).

(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٦٩، ٣٧٠).

(٤) المصنف لعبد الرزاق (٨/ ٢٩٩)، شذرات الذهب (١/ ١٢٠).

(٥) المغنى (٩/ ٣)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٨٥).

(٦) حاشية ابن عابدين (٤/ ٣٠٥)، روضة الطالبين (١١/ ٩٥ ـ ٩٧)، جواهر الإكليل (٢/ ٢٢١)، المغنى (٩/ ٣٩ ـ ٤٣، ٥٠).

له الحق أم يتركها لمن هو أعلم منه؟ لقد قرر عمر بن عبد العزيز قراراً هو درس فى القضاء يجب أن يعمل به إلى يوم القيامة، ذلك أنه يرى أن القاضى إن تبين له الحق حكم به، وإن لم يظهر له فلا يترك القضية وإنما يرفعها إلى من هو فوقه لينظرها[1]، عن ميمون بن مهران أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز يشكو شدة الحكم والجباية ـ وكان قاضى الجزيرة وعلى خراجها ـ قال: فكتب إليه عمر: إنى لم أكلفك ما يُعنتك، اجْبِ الطيب، واقض بما استبان لك من الحق، فإذا التبس عليك أمر فارفعه إلىّ، فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه، ما قام دين ولا دنيا[2]. وهذا الأثر يبين أن الله ـ سبحانه وتعالى - لم يجعل الناس فى العلم ولا فى الفهم سواء، بل هم درجات فى ذلك، والذى يتولى القضاء عليه أن يحكم بين الناس الذين ولى أمرهم، وذلك بما ظهر له من الحق، فإذا شق عليه أمر من هذه القضايا فعليه أن يستشير أهل العلم فى بلاده، فإن لم يجد عندهم معرفة لهذا الأمر رفعه إلى من هو أعلم منه أو إلى أولى الأمر ليحوِّل هذه القضية إلى غيره، أو ليحكم فيها إن كان من أهل العلم[3]، وكان عمر بن عبد العزيز له مجالس علمية يستشير فيها العلماء والفقهاء وأصحاب الرأى فى أمور الدين والدنيا، وكان يقتطع من أوقات راحته فى الليل، لأنه أدرك ضرورة التوصل إلى الحقائق، وقد أعرب من إدراكه العميق لما يأتى من التقاء الأفكار من نتائج فكرية إيجابية، عندما سأله رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين نهارك كله مشغول، وهذا جزء من الليل وأنت تسمر معنا؟ فقال عمر: يا رجاء، إن ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها، وإن المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة، لا يضل معهما رأى ولا يقعد معهما حزم[4]، وجدت ملاقاة الرجال تلقيحًا لألبابها[5].

٣ ـ فى الرفق بالحمقى والنهى عن العقوبة فى الغضب: كتب عمر بن عبد العزيز: من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى أمراء الأجناد. أما بعد.. فإذا حضرك الخصم الجاهل الخرق ممن قدر الله أن يوليك أمره، وأن تبتلى به فرأيت منه

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٤٨٧).
(٢) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٤٠، ٢٤١).
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٤٨٨).
(٤) ملامح الانقلاب الإسلامى، ص (١٨٦)، عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٢٤).
(٥) ملامح الانقلاب الإسلامى، ص (١٨٦).

سوء رِعة، وسوء سيرة فى الحق عليه، والحظ له، فسدده ما استطعت وبصِّره وارفق به وعلمه، فإن هو اهتدى وأبصر وعلم كانت نعمة من الله وفضلاً، وإن هو لم يبصر ولم يعلم كانت حجة اتخذت بها عليه، فإن رأيت أنه أتى ذنبًا استحل فيه عقوبة فلا تعاقبه بغضب من نفسك، ولكن عاقبه وأنت تتحرى الحق على قدر ذنبه، بالغًا ما بلغ، وإن لم يبلغ ذلك إلا قدر جلدة واحدة تجلده إياها، وإن كان ذنبه فوق ذلك، ورأيت عليه من العقوبة قتلاً فما دونه فأرجعه إلى السجن، ولا يسرعن بك إلى عقوبته حضور من يحضرك(١)، وكان عمر بن عبد العزيز إذا أراد أن يعاقب رجلاً حبسه ثلاثة أيام، ثم عاقبه كراهة أن يعجل فى أول غضبه(٢).

إن العقوبة أثناء الغضب يحتمل أن يتجاوز القاضى فيها الحق تحت تأثير الغضب فيظلم المذنب، وخوفًا من التعدى فى العقوبة فقد طلب عمر بن عبد العزيز من القاضى أن يحبس المذنب حتى يذهب غضب القاضى، ثم يحكم عليه وهو فى هدوء على قدر ذنبه(٣).

٤- خطأ الوالى فى العفو خير من تعديه فى العقوبة: عن أبى عقبة أن عمر بن عبد العزيز قال: ادرؤوا الحدود ما استطعتم فى كل شبهة، فإن الوالى إذا أخطأ فى العفو خير من أن يتعدى فى العقوبة(٤).

٥- فى ترك العمل بالظن: ولَّى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المعيطى على جند قنسرين، والفرات بن مسلم على خراجها، فتباغيا. ولم قدم قابل، وقدم الوليد ومعه رؤوس أنباط قنسرين كتب عمر إلى الفرات أن أقدم فقدم، وإنه لقاعد خلف سرير عمر إذ دخل الأنباط فقال لهم عمر: ماذا أعددتم لأميركم فى نُزله لمسيره إلىّ. قالوا: وهل قدم يا أمير المؤمنين، قال: ما علمتم به. قالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، فأقبل عمر بوجهه على الوليد، فقال: يا وليد: إن رجلاً ملك قنسرين وأرضها، خرج يسير فى سلطانه وأرضه حتى انتهى إلىَّ لا يعلم به أحد، ولا ينفر أحدًا ولا يروعه، لخليق أن يكون متواضعًا عفيفًا، قال الوليد: أجل والله

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٦٨، ٦٩).

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص (٢٣٦).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٩٠).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١٢٣)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٩١).

يا أمير المؤمنين، إنه لعفيف وإنى له لظالم، وأستغفر الله وأتوب إليه، فقال عمر: ما أحسن الاعتراف، وأبين فضله على الإصرار وردهما عمر على عملهما فكتب إليه الوليد ـ وكان مرائيًا ـ خديعة لعمر وتزينًا بما هو ليس عليه: إنى قدرت نفقتى لشهر فوجدتها كذا وكذا درهمًا، ورزقى يزيد على ما أحتاج إليه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يحط فضل ذلك، فقال عمر: أراد الوليد أن يتزين عندنا بما أظنه عليه، ولو كنت عازلاً أحدًا على ظن لعزلته، ثم أمر بحط رزقه الذى سأله، ثم أمر بالكتاب إلى يزيد بن عبد الملك وهو ولى عهده: إن الوليد بن هشام كتب إلى كتابًا ظنى أنه تزين بما ليس هو عليه، ولو أمضيت شيئًا على ظنى ما عمل لى أبدًا، ولكنى آخذ بالظاهر وعند الله علم الغيوب، فأنا أقسم عليك إن حدث بى حادث وأفضى هذا الأمر إليك فسألك أن ترد إليه رزقه وذكر أنى نقصته، فلا يظفر منك بهذا أبدًا، فإنما خادع بالله والله خادعه، فلما مات عمر واستخلف يزيد كتب الوليد: إن عمر نقصنى وظلمنى، فغضب يزيد وبعث إليه فعزله، وأغرمه كل رزق جرى عليه فى ولاية عمر ويزيد كلها، فلم يلِ له عملاً حتى هلك[١].

٦ ـ فى الهدية لولاة الأمر: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى اعتبار الهدية لولاة الأمر من خلفاء وولاة الأقاليم وقضاة وغيرهم رشوة، وقد رفض الهدية مع شدة حاجته إليها، وأمر الناس بعدم تقديم الهدايا لولاة الأمر، كما أمر الولاة بأن لا يقبلوا شيئًا من الهدايا[٢]، عن فرات بن مسلم قال: اشتهى عمر بن عبد العزيز التفاح فبعث فلم يجد شيئًا يشترون له به، فركب وركبنا معه فمر بدير فتلقاه غلمان للديرانيين معهم أطباق فيها تفاح، فوقف على طبق منها فتناول تفاحة فشمها ثم أعادها إلى الطبق، ثم قال: ادخلوا ديركم لا أعلمكم بعثتم إلى أحد من أصحابى بشىء، قال: فحركت بغلتى فلحقته فقلت: يا أمير المؤمنين، اشتهيت التفاح فلم يجدوه لك فأُهدى لك فرددته، قال: لا حاجة لى فيه، فقلت: ألم يكن رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر يقبلون الهدية. قال: إنها لأولئك هدية وهى للعمال بعدهم رشوة[٣].

٧ ـ فى نقض الأحكام إذا خالفت النصوص الشرعية: كتب عمر بن عبد العزيز برد أحكام من أحكام الحجاج مخالفة لأحكام الناس[٤]، وقد وافق عمر بن عبد العزيز على

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٢٩ - ١٣١).
(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٩٥).
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/٣٧٧).
(٤) حلية الأولياء (٥/ ٢٧٠).

رد الأحكام إذا خالفت كتاب الله أو سنة نبيه أو الإجماع، أو الشورى وذهب الأئمة الثلاثة مالك والشافعى وأحمد أنه ينقض الحكم إذا خالف الكتاب والسنة أو الإجماع(١).

٨ ـ فيمن ضيع أمانته فعليه اليمين بعدم التفريط: كتب وهب بن منبه إلى عمر بن عبد العزيز: إنى فقدت من بيت مال اليمن دنانير. فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنى لست أتهم دينك ولا أمانتك، ولكن أتهم تضييعك وتفريطك، وإنما أنا حجيج المسلمين فى مالهم، وإنما لأشحهم يمينك(٢)، فاحلف لهم والسلام(٣).

٩- فى أثر البينة الغائبة على تأخير القضاء: كان عند عمر بن عبد العزيز نفر من قريش يختصمون إليه فقضى بينهم فقال المقضى عليه: أصلحك الله! إن لى بينة غائبة، فقال عمر: إنى لا أؤخر القضاء بعد أن رأيت الحق لصاحبه، ولكن انطلق أنت فإن أتيتنى ببينة وحق هو أحق من حقهم، فأنا أول من رد قضاءه على نفسه(٤).

١٠- نفقة البعير الضال: عن الشعبى قال: أضل رجل بعيراً فوجده عند رجل قد أنفق عليه، أعلفه وأسمنه، فاختصما إلى عمر بن عبد العزيز، وهو يومئذ أمير على المدينة، فقضى لصاحب البعير ببعيره وقضى عليه بالنفقة(٥).

١١- فى حرية اللقيط: جاء كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أهل مكة أن اللقيط حر(٦).

١٢- شهادة الرجل لأخيه أو لأبيه: كتب عمر بن عبد العزيز: أن أَجِزْ شهادة الرجل لأخيه إذا كان عدلا(٧).

ثانيًا: فى الدماء والقصاص:

١- تخيير الأوفياء فى قتل العهد بين العفو والدية والقتل: كتب عمر بن عبد العزيز فى امرأة قتلت رجلاً: إن أحب الأولياء أن يعفوا عفوًا، وإن أحبوا أن يقتلوا قتلوا، وإن أحبوا أن يأخذوا، الدية أخذوها وأعطوا، امرأته ميراثها من الدية(٨).

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٤٩٩).

(٢) أى، لابد من حلف اليمين بأنه لم يفرط، فإن حلف فلا ضمان عليه لأنه مؤتمن.

(٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٠٤، ١٠٥).

(٤) الطبقات الكبرى (٥/٣٨٦).

(٥) مصنف ابن أبى شيبة (٦/ ٣١٢).

(٦) المصدر السابق(٦/ ٥٣١).

(٧) المصدر نفسه (٨/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣).

(٨) المحلى (١٠/ ٣٦١)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١١).

٢- فى التأنى حتى يبلغ ولى المقتول: كتب عمر بن عبد العزيز فى رجل قُتل وله ولد صغير، فكتب أن يتأنى بالصغير حتى يبلغ[(١)].

٣- فى عفو بعض الأولياء يسقط القود: عن الزهرى قال: وكتب به عمر بن عبد العزيز أيضًا: إذا عفا أحدهم فالدية[(٢)].

٤- فى القتل بعد أخذ الدية: قال عمر بن عبد العزيز: والاعتداء الذى ذكر الله أن الرجل يأخذ العقل، أو يقتص، أو يقضى السلطان فيما بين الجارح والمجروح، أو يعدو بعضهم بعد أن يستوعب حقه، فمن فعل ذلك فقد اعتدى والحكم فيه إلى السلطان بالذى يرى فيه من العقوبة، ولو عفا عنه لم يكن لأحد من طلبة الحق أن يعفو عنه بعد اعتدائه إلا بإذن السلطان، وعلى تلك المنزلة كل شىء من هذا النحو، فإنه بلغنا أن هذا الأمر الذى أنزل الله فيه: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] الآية، وما كان من جرح فوق الأدنى ودون الأقصى فهو يرى فيه بحساب الدية[(٣)].

٥ ـ فى القتيل يوجد فى السوق: كتب عدى بن أرطأة قاضى البصرة إلى عمر بن عبد العزيز إنى وجدت قتيلاً فى سوق الجزارين، قال: أما القتيل فديته من بيت المال[(٤)].

٦ ـ فى القتل فى الزحام: إذا قتل الإنسان بسبب ازدحام الناس ولم يعلم من قتله فهل يذهب دمه هدرًا؟ إن عمر بن عبد العزيز يرى أن من مات بهذا السبب فديته فى بيت المال[(٥)]، فعن عمر بن عبد العزيز أنه كتب فى رجلين ماتا فى الزحام: أن يُوديا من بيت المال فإنما قتله يد أو رجل[(٦)].

ثالثًا: فى الديات:

١- مقدار الدية: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد أن الدية كانت على عهد رسول الله ﷺ مائة بعير[(٧)].

---

(١) مصنف عبد الرزاق (١٠/ ١١).
(٢) المصدر نفسه (٩/ ٣١٨).
(٣) المصدر نفسه (١٠/ ١٦، ١٧).
(٤) المصدر نفسه (٩/ ٤٥٩).
(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٣٦).
(٦) المحلى (١٠/ ٤١٨).
(٧) مصنف ابن أبى شيبة (٩/ ١٢٨).

٢- فى دية اللسان: عن سليمان بن موسى قال: فى كتاب عمر بن عبد العزيز فى الأجناد: ما قطع فى اللسان فبلغ أن يمنع الكلام كله، ففيه الدية كاملة وما نقص دون ذلك فبحسابه(١).

٣ ـ فى دية الصوت والحنجرة: حيث إن الصوت مصدره الحنجرة وأن إتلافها قد يذهب بالصوت، ومن ثم فلا كلام، فقد رأى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أن فيها الدية كاملة إذا انقطع الصوت من ضربة(٢)، وعنه أنه قال: فى الحنجرة إذا كسرت فانقطع الصوت الدية كاملة(٣).

٤ ـ فى دية الذكر: وأما الذكر فلأهميته للرجل ولأنه إذا ذهب انقطعت شهوته وذهب نسله، فقد رأى عمر بن عبد العزيز أنه إذا ذهب كله ففيه الدية كاملة، وما كان دون ذلك فبحسابه، فعن عبد العزيز عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: فى الذكر الدية، فما كان دون ذلك فبحسابه(٤).

٥- فى دية إفضاء المرأة: إذا أصاب الرجل المرأة فأفضاها، فقد ينتج عن ذلك منع اللذة والجماع، وقد نتج عنه عدم حبس الحاجتين والولد، ونظراً لخطورة هذا الأمر فقد جعل فيه عمر بن عبد العزيز الدية كاملة، وفى رواية عنه أنه جعل فيه ثلث الدية(٥)، ويمكن الجمع بين الروايتين بأن عمر بن عبد العزيز يجعل فى إفضاء المرأة الدية كاملة إذا لم يحبس الحاجتين والولد، وثلث الدية إذا حبس الحاجتين والولد(٦).

٦- فى دية الأنف: نظراً للمصالح المترتبة على وجود الأنف فى التنفس عن طريقه ومعرفة الروائح والتمييز بينها، إضافة إلى جمال الوجه بوجود الأنف، والتشويه الحاصل بقطعه، كما أن العرب ترى فى جدع الأنف إهانة لا يعدلها إهانة، لذلك فقد جعل عمر بن عبد العزيز فيه الدية كاملة إذا جدع من أصله، وأن ما كان دون ذلك فبحسابه(٧).

---

(١) المصنف لعبد الرزاق (٩/ ٣٥٧)، فقه عمر (٢/ ٦٦).
(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٩).
(٣) مصنف ابن أبى شيبة (٩/ ١٧٠)، فقه عمر (٢/ ٦٩).
(٤) مصنف عبد الرزاق (٩/ ٣٧٢).
(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٧١).
(٦) مصنف عبد الرزاق (٩/ ٣٧٧).
(٧) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٧٦).

٧- فى دية الأذن: حيث إن الأذن تؤدى نصف منفعة السمع ولأنه يكون فى الإنسان منها اثنتان فإن عمر بن عبد العزيز يرى إذا استؤصلت أو ذهبت منفعتها ففيها نصف الدية، حيث إن قوله فى الأذن نصف الدية يتناول ذهاب سمعها ويتناول استئصالها(١).

٨- فى دية الرجل: لما كان الإنسان لا يستطيع المشى إلا بالرجلين وأنه بالرجل الواحدة يكون قعيداً، ولأن الرجل مما يكون فى الإنسان منه اثنتان، فقد جعل عمر ابن عبد العزيز فى الرجل نصف الدية(٢).

٩- فى دية ما بين الحاجبين: هناك بعض الجزئيات فى الديات لم يتعرض لها العلماء قبل عمر بن عبد العزيز، وهاهو عمر بن عبد العزيز يرى فيها رأيه، من هذه الأمور دية الكسر إذا وقع بين الحاجبين وشان الوجه ولم ينقل منها العظام(٣)، فقد قال: . . فإن كان بين الحاجبين كسر شان الوجه ولم ينقل منها العظام فربع الدية(٤).

١٠ ـ فى دية الجبهة إذا هشمت: قال عمر بن عبد العزيز: فى الجبهة إذا هشمت وفيها غوص من داخل مائة وخمسون ديناراً(٥).

١١- فى دية الذقن: وأما الذقن إذا كسرت فإن عمر بن عبد العزيز يرى أن فيها ثلث الدية، فقد قال: فى الذقن ثلث الدية(٦)، هكذا يقرر عمر بن عبد العزيز باجتهاده وبرأيه السديد أموراً لم يسبق إليها، منها دية الذقن إذا كسرت فإنه جعل فيها ثلث الدية نظراً لأهميتها، حيث يمتنع مع كسرها مضغ الطعام وفتح الفم. ويبدو أن هذا القول تفرد به(٧).

١٢- فى دية الأصابع: نظراً لأهمية الأصابع وخاصة أصابع اليد، فقد رأى عمر ابن عبد العزيز أن فى كل أصبع من أصابع اليد أو الرجل عشر الدية، وفى كل

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٨٠).
(٢) مصنف ابن أبى شيبة (٩/ ٢٠٩).
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٨٨).
(٤) مصنف عبد الرزاق (٩/ ٣٢٠).
(٥) المصدر نفسه (٩/ ٢٩١).
(٦) مصنف عبد الرزاق (٩/ ٣٦١)، مصنف ابن أبى شيبة (٩/ ١٧٩).
(٧) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٩٦).

قصبة من قصب الأصابع ثلث دية الأصبع إلا الإبهام لأنه قصبتان ففى كل قصبة منه نصف دية الأصبع، فعن عمر بن عبد العزيز: فى كل أصبع عشر من الإبل أو عدل ذلك من ذهب أو ورق[1].

١٣- فى دية الظفر: حتى الظفر لم يغفل عنه عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، فقد جعل فيه إذا اسود أو سقط عشر دية الأصبع عشرة دنانير، فعن عمر بن عبد العزيز أنه اجتمع له فى الظفر إذا نزع فعر[2]، أو سقط أو اسود، العشر فى دية الأصبع، عشرة دنانير[3].

رابعًا: فى الحدود:

١- أهمية إقامة الحدود: حيث إن إقامة الحدود سبب فى حفظ دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم واستتباب الأمن فى بلادهم، فقد أكد عمر بن عبد العزيز على إقامة الحدود حتى جعلها من حيث الأهمية كإقامة الصلاة والزكاة[4]، فقد كتب عمر بن عبد العزيز: إن إقامة الحدود عندى كإقامة الصلاة والزكاة[5].

٢ ـ فى منع الرجوع عن الحدود بعد بلوغها الإمام: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى مسائل الحدود إذا رفعت إلى الإمام أو القاضى، فإنها تكون قد بلغت حداً لا يمكن الرجوع فيه بل يجب تنفيذ ما ثبت من الحدود[6].

٣ ـ فى اجتماع أكثر من حد على رجل واحد: قد يأتى الرجل بعدة جرائم قبل أن يقام عليه الحد، مثل أن يزنى ويسرق ويقتل، فهل قتله كاف عن الحدود الأخرى فيأتى عليها؟ أم أنها تقام عليه الحدود ثم يقتل؟ إن الرواية عن عمر بن عبد العزيز تدل على أنه يقيم الحدود أولاً ثم يقتله[7].

٤- فى عدم القطع أو الصلب إلا بعد مراجعة الخليفة: رأى عمر بن عبد العزيز أن على الولاة مراجعة الخليفة فى قضايا القتل والصلب، وأن لا يُقتل أحد ولا يُصلب إلا بعد موافقة الخليفة على ذلك[8].

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٠٠).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ١٠٢).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٠٣).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ١١١).
(٥) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٧٨).
(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١١٣).
(٧) المصدر نفسه (٢/ ١١٧).
(٧) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٩٦).
(٨) المصدر نفسه (٢/ ١٢٠)، سيرة عمر لابن الحكم، ص (١١٤، ١١٥).

٥- يشترط في المقذوف لحده أن يكون مسلمًا: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أنه لا حد في قذف كافر، وذلك لأن الكفر أكبر من الزنا المقذوف به، فلا حاجة إلى إثبات براءته من هذا الذنب ما دام فيه أكبر منه وهو الكفر(١)، فعن طارق بن عبد الرحمن ومطرف بن طريف قالا: كنا عند الشعبي فرفع إليه رجلان، مسلم ونصراني، قذف كل واحد منهما صاحبه فضرب النصراني للمسلم ثمانين، وقال للنصراني: لما فيك أعظم من قذف هذا فتركه، فرفع ذلك إلى عبد الحميد بن زيد، فكتب فيه إلى عمر بن عبد العزيز فذكر ما صنع الشعبي، فكتب عمر يحسِّن ما صنع الشعبي(٢)، هكذا يرى عمر بن عبد العزيز أنه لا حد على قذف الكافر إذ ليس بعد الكفر ذنب، ولأن الكافر فيه الكفر وهو أكبر مما قذف به، إذ لو وجد فيه الزنا فهو أقل من الكفر، إذن فلا حد على من قذف الكافر(٣).

٦ ـ عدم سقوط الحد بقذف الرجل ابنه: إذا قذف الرجل ابنه، فهل يقام عليه الحد أم لا يقام؟ وهل من حق الأب على ابنه أن يقذفه بما ليس فيه؟ وإذا كان عليه حد فهل يسقط عنه إذا عفا الابن؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن من قذف ابنه يقام عليه الحد، إلا إذا عفا الولد عن والده فلا يقام عليه حد(٤)، فعن ابن جريح قال: أخبرني رزيق ـ صاحب أيلة ـ أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز في رجل افترى على ابنه، فكتب بحد الأب إلا أن يعفو عنه ابنه(٥).

٧ ـ عقوبة قذف النصرانية تحت المسلم: إذا كانت النصرانية تحت مسلم، ونظرًا لأن قذفها يتعدى لزوجها المسلم أو ابنها المسلم، فإن عمر بن عبد العزيز يجلد من قذفها دون الحد(٦)، فعن أبي إسحاق الشيباني عن عمر بن عبد العزيز في رجل قذف نصرانية لها ولد مسلم، فجلده عمر بضعة وثلاثين سوطًا(٧)، وقد وافق عمر ابن عبد العزيز في رأيه هذا الزهري، وقال قتادة: يجلد الحد(٨)، وقد اتفق أصحاب المذاهب الأربعة على أنه لا يحد، وأما المالكية فقالوا: ينكل من أجل أولادها المسلمين(٩).

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٣٠).

(٢) المصنف لعبد الرزاق (٦/ ٦٤ ـ ٦٥) (٧/ ١٣٠ ـ ١٣١).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٣٠).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٣٣).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٩/ ٥٠٤).

(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٣٦).

(٧) مصنف عبد الرزاق (٧/ ١٣٠).

(٨) مصنف عبد الرزاق (٧/ ١٢٩ـ١٣٠).

(٩) المغني (٨/ ٢١٦)، فقه عمر (٢/ ١٣٧).

٨ - قذف المرأة للرجل بنفسها: عن عمر بن عبد العزيز أنه أتته امرأة فقالت: إن فلانًا استكرهني على نفسي، فقال: هل سمعك أحد أو رآك؟ قالت: لا، فجلدها بالرجل[١]، هذه مسألة لا تتناول عقوبة الزنا، وإنما هي خاصة بالقذف، فالمرأة التي تدعي على الرجل أنه استكرهها على الزنا، هي بكلامها هذا تعتبر قاذفة له بنفسها، وعليها حد القذف إلا أن تأتي ببينة تدرأ عنها هذا الحد، فسماع صياح المرأة هو عند عمر بن عبد العزيز يعفيها من حد القذف أو أن يكون أحد رآها، وقد وافق عمر بن عبد العزيز في جلدها - إن لم يكن لها بينة - الزهري وقتادة وربيعة ويحيى بن سعيد الأنصاري[٢].

٩- قطع السارق بعد خروجه بسرقته: ذهب عمر بن عبد العزيز بأنه لا قطع على السارق حتى يخرج بسرقته، فعن عمر بن عبد العزيز قال: لا يقطع حتى يخرج بالمتاع من البيت[٣].

١٠ ـ النباش سارق يستحق القطع: إن من الناس من يأتي أمورًا تشمئز منها النفوس، حتى الميت في قبره لم يسلم من بعض المنحرفين، فهناك سارق يحفر القبر ويأخذ أكفان الميت، وهذا عمر بن عبد العزيز يرى أن النباش سارق يستحق القطع، لأن من سرق من الأموات كمن سرق من الأحياء[٤]، فعن معمر قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز قطع نباشًا[٥].

١١ ـ عقوبة شرب الخمر للمرّة الثانية: عن عبادة بن نسي قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يضرب رجلاً حدًا في خمر فخلع ثيابه ثم ضربه ثمانين، رأيت منها ما بضع ومنها ما لم يبضع، ثم قال: إنك إن عدت الثانية ضربتك ثم ألزمتك الحبس، حتى تُحدث خيرًا. قال: يا أمير المؤمنين أتوب إلى الله أن أعود في هذا أبدًا، فتركه عمر[٦].

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٤٠).
(٢) المحلى (١١/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٤٦).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٤٧).
(٥) مصنف بن أبي شيبة (١٠/ ٣٤).
(٦) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٦٥)، فقه عمر (٢/ ١٥٧).

١٢- عقوبة ساقى الخمر: إن من يوفر الخمر أو يقدمـها لمن يشربها ينبغى أن لا تقل عقوبتـه عن شاربها، لأنه تسبب فى إيـصالها لمن يشربها، ولذلـك فقد جلد عمر بن عبد العـزيز رضى الله عنه ساقى الشراب مع الذين يشربون[١]، فعن ابن التمـيمى أن عمر بن عـبد العزيز وجـد قومًا على شراب، ووجـد معهم ساقـيًا، فضربه معهم[٢].

١٣- إتلاف أوانى الخـمـر مع الخمـر: عن هارون بن محـمد عن أبيـه قال: رأيت عمر بن عبد العزيز بخناصرة يأمر بزقاق الخمر أن تشقق، وبالقوارير أن تكسر[٣].

١٤- إدخال الكفار الخـمر إلى بلاد المسلمين: إذا كان الكفار يعتـقدون حل الخمر ويشربونها فى بلادهم، فـإذا جاءوا إلى بلاد المسلمين ومعهم الخمـر، فهل يسمح لهم بدخولها معهم؟ أو يسمح بتـوفيرها لهم ليشربوها فى بلاد المسلمين؟ إن على الكفار فى بلاد المسـلمين أن يصبـروا عن الخمر مـا داموا يرغبـون العيش فى بلاد المسلمين، وإذا كـان لكل دولة نظمها والداخل إليـها يجب أن يراعيهـا، فإن هذا نظام دولة الإسلام وهو أيضًا نظام رب العالمين، فهو أحق بالرعاية والالتزام، ومن هذا المنطلق نجد عـمر بن عبد العزيز يـمنع أهل الذمة من إدخال الخمـر معهم إلى بلاد المسلمين فقـد كتب عمر فى خـلافته: أن لا يدخل أهل الذمة بالخمـر أمصار المسلمين فكانوا لا يدخلونها[٤].

١٥- فى عقوبة الساحر: عن همام عن يحيى أن عامل عُمان كتب إلى عمر بن عبد العزيز فى ساحرة أخذها، فكتب إليه عـمر: إن اعترفت أو قامت عليها البينة فاقتلها[٥]، وهذا مذهب الأئمـة الثلاثة أبى حنيفة ومـالك وأحمد[٦]، وقد كتب عمر بن الخطاب فى خلافته إلى الولاة أن اقتلوا كل ساحر وساحرة[٧].

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٥٩).

(٢) المصنف لعبد الرزاق (٩/ ٢٣٠).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٣٦٥).

(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٦٤).

(٥) مصنف ابن أبى شيبة (١٠/ ١٣٥).

(٦) حاشية ابن عابدين (١/ ٣١)، المغنى (٨/ ١٥٣)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٧٦).

(٧) مصنف ابن أبى شيبة (١٠/ ١٣٦).

١٦- استتابة المرتد: المسلمون لا يكرهون أحدًا علـى الإسلام، ولكنهم أيضًا لا يقبلون التلاعب بالدين، فمن دخل في دين الإسـلام طائعًا مختارًا، أو ولد في الإسلام ثم كفر بعـد إيمانه، فإن عمر بن عبد العـزيز يرى أن يستتاب ويدعى إلى الإسلام ثلاثة أيام، فإن تاب ورجع إلى الإسلام قُبل منه فإن أبى ضربت عنقه[١].

١٧- طريقـة استتابة المرتد: عن عبـد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيـه قال: كنت عاملاً لعمر بن عبد العزيز فكتبت إليه: أن رجلاً كان يهوديًا فأسلم ثم تهود فـرجع عن الإسلام، فكتب إلى عـمـر: أن ادعه إلى الإسـلام، فإن أسلم فـخلِّ سبيله، وإن أبى فادع بالخـشبة فأضجعه عليها، ثم ادعـه، فإن أبى فأوثقه ثم ضع الحربة على قلبه ثم ادعه، فإن رجع فخلِّ سـبيله وإن أبى فاقتله. قال: ففعل ذلك به حتى وضع الحربة على قلبه، فأسلم فخلى سبيله[٢]، قال الدكتور محمد شقير: لم أر قولاً لغير عـمر بن عبد العزيز بهذا التفـصيل، وذهب الأئمة الأربعة إلى أن المرتد يقتل بعد استتابته إذا لم يرجع إلى الإسلام[٣].

١٨- عقوبة المرتدة: رأى عمر بن عبد العزيز أن تستتاب المرتدة، فإن تابت وإلا تسترق وتباع على غير أهل دينها[٤]، وهذا رأى قتادة قال: تُسبى وتباع، وكذلك فعل أبو بكر بنساء أهل الردة[٥]، وروى عن الحسن قال: لا تقـتلوا النساء إذا هنّ ارتددن عن الإسلام، ولكن يدعين إلى الإسلام، فإن هن أبين سـبين فيجعلن إماء المسلمين ولا يقتلن[٦].

خامسًا: فى التعزيرات:

١- فى الحد الأقـصى للضرب تـعزيرًا: العقـوبة بالجلد تنقسم إلى قسمـين: حد وتعزير، فالحد قـد نص الشارع الحكيم عليه، فمقداره محـدد، لا مجال لأحد أن يزيد عليه أو ينقص منه، وأما الجلد تعـزيرًا فهو عقوبة لإتيان أمـر لا حد فيه، أو أى جناية لا حد فيهـا، فهو متروك للحاكم ليحدد مـقداره حسب ما يرى، إلا أن عمر بن عبـد العزيز جعل لذلك حدًا أقصى لا تجـوز الزيادة عليه على قولين[٧]،

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٣٥١)، مصنف عبد الرزاق (١٠/ ١٧١).

(٢) مصنف ابن أبى شيبة (١٢/ ٢٧٤).

(٣) روضة الطالبين (١٠/ ٧٥)، حاشية ابن عابدين (٣/ ٢٨٩).

(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٨١).

(٥) مصنف عبد الرزاق (١٠/ ١٧٦).

(٦) مصنف ابن أبى شيبة (١٠/ ١٤٠).

(٧) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٨٨).

الأول: لا تجوز الزيادة على ثلاثين جلـدة، فعن محمـد بن قيس أن عمر بن عـبد العزيز كتب إلى عامله بمصر: لا تبلغ العقوبة أكثر من ثلاثين سوطًا إلا فى حد من حدود الله[(١)]، وفى القول الـثاني: لا يبلغ بالجلد تعـزيراً أقل الحدود، فـعلى هذه الرواية لا يزاد للحر عن تسع وثلاثين جلدة ولا يزاد للعبد على تسع عشرة جلدة، لأن العشرين للعبد والأربعين للحر هى أقل الحدود[(٢)]. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: أن عاقبـوا الناس على قدر ذنوبهم، وإن بلغ ذلك سوطًا واحداً وإياكم أن تبلغوا بأحد حداً من حدود الله[(٣)].

٢ ـ النهى عن أخذ الناس بالمظنة وضربهم عـلى التهمة: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى عدم جواز الأخذ بالظن أو الضـرب على التهمة، فهو يقرر بهـذا مبدأ العدالة وترجيح التحقيق العادل على التحقيق الحازم، وذلك خوفًا من أن يظلم برئ، فقد فضل عمـر بن عبد العزيز أن يلـقوا الله بخيانتـهم على أن يلقى الله بدمائهم[(٤)]، عن إبراهيم بن هشـام بن يحيى الغـسانى قـال: حدثنى أبى عن جـدى، قال: لما ولانى عمر بن عبد العزيز الموصل، قدمتها فوجدتها من أكبر البلاد سرقًا ونقبًا[(٥)]، فكتـبت إلى عمـر أعلمه حـال البلد، وأسأله أخـذ الناس بالمظنة وأضـربهم على التهمـة، أو أخذهم بالبينة وما جرت عليـه عادة الناس، فكتب إلىَّ أن آخذ الناس بالبـينة وما جـرت عليـه السنة، فإن لم يصلحـهم الحق فـلا أصلحهم الله، قـال يحيى: ففـعلت ذلك فما خرجت من الموصل حتى كـانت من أصلح البلاد وأقله سرقًا ونقبًا[(٦)]. وكتب عدى بن أرطاة إلى عـمر بن عبد العـزيز: أما بعد- أصلح الله أمير المؤمنين، فإن قبلى أناسًا من العـمال قد اقتطعوا من مال الله -عز وجل- مالاً عظيمًـا، لست أرجو إستخراجه من أيديهم إلا أن أمـسهم بشئ من العذاب، فإن رأى أميـر المؤمنين ـ أصلحه الله ـ أن يأذن لى فى ذلك أفعل. قـال: فأجابه: أما بعد: فالعجب كل العجب من اسـتئذانك إياى فى عذاب بشر، كأنى لك جنة

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٣٦٥).
(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٨٩).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لا بن الجوزى، ص (١١٧).
(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢١٢).
(٥) النقب: النقب فى أى شئ كان.
(٦) حلية الأولياء (٥/ ٢٧١)، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١١٧، ١١٨).

من عذاب الله، وكـأن رضائى عنك ينجيك من سخط الله عـز وجل، فانظر من قامت عليه بينة عدول فخذه بما قامت عليـه البينة، ومن أقر لك بشئ فخذه بما أقر به، ومن أنكر فاستحلفه بالله العظـيم، وخلِّ سبيله، وايم الله، لأن يلقوا الله عز وجل بخيانتـهم أحب إلى من أن ألقى الله بدمائهم[1]، وهكذا يقرر عمـر بن عبد العزيز الأخـذ بالتحقيق العـادل لابالتحقـيق الحازم. وقد قال بعـدم الأخذ بالمظنة والضرب على التهمة كل من عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعطاء[2].

٣- النهى عن المثلة: حلق الرأس جعله الله نسكًا وسنة - فى الحج والعمرة - كما أن رسـول الله ﷺ نهى عن حلق اللحـية، ولكن بعض الـناس خالفـوا ذلك كله وجعلـوا حلق الرأس واللحيـة عقوبة، وهـذا عمر بن عـبد العـزيز ينهى عن هذا العمل ويسميه المثلة[3]، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل له: إياك والمثلة، جز الرأس واللحية[4]. ومذهب الأئمة الأربـعة أن لا يجوز التعزير بحلـق اللحية وعند مالك وأبى حنيفة: ولا يحلق الرأس[5].

سادسًا: فى أحكام السجناء:

١- تعجيل النظر فى أمر المتهمين: أمر عمر بن عبد العزيز بتعجيل النظر فى أمور المتهمـين، فمن كان عليه أدب فيـؤدب ويطلق سراحه، ومن لم يثبت عليه قـضية يخلى سبـيله، ويرى أن إقامة الحـدود سبب لقلة السـجناء لأنه يكون زاجرًا لأهل الفسق والزعارة[6]، فعن جعفر بن برقان قال: كـتب إلينا عمر بن عبد العزيز: . . فلو أمرت بإقامة الحدود لقلَّ أهل الحـبس، ولخاف أهل الفسق والدعارة، ولتناهوا عما هم علـيه، إنما يكثر أهل الحبس لقلة النظر فى أمـورهم، إنما هو حبس وليس نظرًا، فمـر ولاتك جميـعًا بالنظر فى أمـر أهل الحبوس فى كل الأيام، فـمن كان عليه أدبٌ أُدِّبَ وأطلق، ومن لم تكن له قضية خُلى عنه[7].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٥٥).
(٢) مصنف عبدالرزاق (١٠/ ٢١٧- ٢١٩) فقه عمر (٢ - ٢١٣).
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢١٥).
(٤) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٨٠).
(٥) مغنى المحتاج (٤/ ١٩٢)، جواهر الإكليل (٢/ ٢٢٥).
(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢٢٥).
(٧) الخراج لأبى يوسف ص (٣٠١)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢٢٥).

٢- فى الاهتمام بأمور المسجونين: قام عمر بن عبد العزيز رحمه الله بالإصلاح على كل طريق، وحقق العدل على كل صعيد، فقد اهتم بأمر المسجونين اهتمامًا شديداً، وأصدر تعليماته بتعهدهم بكل ما يحتاجونه من طعام وأدم وكسوة وغير ذلك(١)، وعن جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز: . . . وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم فى طعامهم وأدمهم. . . فمُرْ بالتقدير لهم مايقوتهم فى طعامهم وأدمهم، وصير ذلك دراهم تجرى عليهم فى كل شهر يدفع ذلك إليهم، فإنك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام والجلاوزة(٢)، وولِّ ذلك رجلاً من أهل الخير والصلاح، ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر، يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه فى يده. . . وكسوتهم فى الشتاء قميص وكساء وفى الصيف قميص وإزار، وتزاد المرأة مقنعة. . .ومن مات منهم ولم يكن له ولى ولا قرابة يغسل ويكفن من بيت المال، ويصلى عليه ويدفن(٣)، وكتب إلى أمراء الأجناد: وانظروا من فى السجون ممن قام عليه الحق. . . ولاتعد فى العقوبة، ويعاهد مريضهم ممن لا أحد له ولا مال. . . وانظر من تجعل على حبسك ممن تثق به، ومن لا يرتشى، فإن من ارتشى صنع ما أمر به(٤).

٣- سجن خاص بالنساء: يمضى عمر بن عبد العزيز قدمًا فى تنظيم السجون والاهتمام بأمر المسجونين وتعاهدهم، فيأمر بأن يجعل للنساء حبس خاص بعيداً عن الاختلاط بالرجال، مما يؤكد على اختيار أهل الدين والأمانة، ليتولوا أمور السجناء(٥)، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد: وانظروا من فى السجون ممن قام عليه الحق فلا تحبسه حتى تقيم عليه، ومن أشكل أمره فارفع إلىَّ فيه، واستوثق من أهل الزعارات فإن الحبس لهم نكال، ولا تعد فى العقوبة، ويعاهد مريضهم ممن لا أحد له ولا مال، وإذا حبست قومًا فى دين فلا تجمع بينهم وبين أهل الزعارات فى بيت واحد ولا حبس واحد واجعل للنساء حبسًا على حدة، وانظر من تجعل على حبسك ممن تثق به ومن لا يرتشى، فإن من

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢٦).
(٢) الجلاوزة: جمع جلاوز وهو الشرطى.
(٣) الخراج لأبى يوسف، ص (٣٠٠، ٣٠١).
(٤) الطبقات الكبرى لا بن سعد (٥ ـ ٣٥٦).
(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢٢٨).

ارتشى صنع ما أمر به[1]، ومما سبق نلاحظ اهتمام عمـر بن عبد العزيز بالسجناء وحرصه على إقامة العدل فيهم وإصلاح ما أفسده من قبله فى التعامل معهم.

سابعًا: فى أحكام الجهاد:

١- سن من يشرع له الاشتـراك فى القتال: كان شباب الرعيل الأول من المسلمين يتسابقون ويتنافسون على الاشتراك فى القتال، وإذا لم يسمح لأحدهم بالاشتراك فى القتال فإنه يتحسر ويحاول إقناع ولى الأمـر بأنه يستطيع القتال. وقد حدد عمر ابن عبـد العزيز سن من يسمح له بالقـتال، والفرض له مع المقاتلة حـدده بخمس عشرة سنة، ومن كـان دون ذلك فيكون فرضه فى الذرية ولا يسـمح له بالاشتراك فى القتال[2].

٢- كيفية بداية قتال غير المسلمين: عن صفوان بن عمرو قال: جاءنا كتاب عمر ابن عبد العزيز وهو خليفة إلى عامله: أن لا تقاتلن حصنًا من حصون الروم، ولا جماعة من جماعتهم حتى تدعوهم إلى الإسلام، فإن قبلوا فاكفف عنهم وإن أبوا فالجزية، فإن أبوا فانبذ إليهم على سواء[3].

٣- فى مدة الرباط: الرباط فى سـبيل الله من أحب الأعـمال إلى الله تعـالى، ويترتب عليه الأجر الوفير من الله سبحانه وتعالى، وقد ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن مدة الرباط أربعون يومًا، فقد قال: تمام الرباط أربعون يومًا[4].

٤ ـ فى حكم تصرف المقاتل فى ماله: قال عمر بن عبد العزيز: إذا كان الرجل فى الحرب على ظهر فرسه يقاتل فما صنع فى ماله فهو جائز[5].

٥- فى بيع الخيل للعدو: بيع السلاح ونقله أو الخيل أو مـا يقوى الأعداء ويشد من أزرهم ويقويهم على حرب المسلمين، جريمة فى حق من يفعله، وينبغى حجز هذه الأشياء وما فى حكمهـا حتى لا تصل إلى العدو. ومن هذا المنطلق منع عمر

(١) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٥٦)، فقه عمر (٢/ ٢٢٨).

(٢) فقه عمر (٢/ ٤١٥).

(٣) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٥٥).

(٤) المصدر نفسه (٥/ ٣٥٥) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٢٤).

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/٣٥٢).

ابن عبد العزيز حمل الخيل إلى الهند باعتبارها بلداً من بلدان المشركين فى زمن عمر بن عبد العزيز، والعداوة لا تخفى بين أهل الإسلام وأهل الشرك[1].

٦- افتداء أسارى المسلمين ولو كثر الثمن: أكد عمر بن عبد العزيز على وجوب فك أسارى المسلمين فى رسائله إلى عماله بأن يغادوا مهما بلغ ذلك من المال، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: أن فادِ بأسارى المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم[2]، وعن ربيعة بن عطاء عن عمر بن عبد العزيز أنه أعطى برجل من المسلمين عشرة من الروم وأخذ المسلم[3]، وفى رواية: أن فادوا بأسارى المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم[4].

٧- افتداء الرجل والمرأة والعبد والذمى: عن ربيعة بن عطاء قال: كتب عمر بن عبد العزيز معى وبعث بمال إلى ساحل عدن أن أفتدى الرجل والمرأة والعبد والذمى[5]. مما تقدم يظهر عدل عمر بن عبد العزيز جلياً حيث أمر بافتداء من يعيش على أرض المسلمين حتى ولو كان عبداً أو ذمياً، لأن الذمى له أن يحفظ ويدافع عنه ويفتدى لو وقع فى الأسر، وهذا أكبر دليل على وفاء المسلمين بذمتهم إلى أبعد مما يتصوره أحد[6].

٨- كراهة قتل الأسرى: عن معمر قال: أخبرنى رجل من أهل الشام ممن كان يحرس عمر بن عبد العزيز: ما رأيت عمر بن عبد العزيز قتل أسيراً قط، إلا واحداً من الترك قال: جئ بأسرى من الترك، قال: فأمر بهم أن يسترقوا، فقال رجل ممن جاء بهم: يا أمير المؤمنين لو كنت رأيت هذا ـ لأحدهم ـ وهو يقتل فى المسلمين لكثر بكاؤك عليهم. قال: فدونك فأقتله، قال: فقام إليه فقتله[7].

لقد كره عمر بن عبد العزيز قتل الأسرى، ومنع ذلك إلا واحداً قتل كثيراً من المسلمين، ولكنه أذن فى أن يسترقوا[8].

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٢٧).
(٢) حلية الأولياء (٥/ ٣١١ـ٣١٢).
(٣) الطبقات الكبرى لابى سعد (٥/ ٣٥٤).
(٤) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٢٠).
(٥) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٥٣).
(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٣٦).
(٧) مصنف عبدالرزاق (٥/ ٢٠٥، ـ٢٠٦).
(٨) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٣٨).

ثامنًا: فى النكاح والطلاق:

١- زواج المرأة بغير ولى: عن سفيان عن رجل من أهل الجزيرة عن عمر بن عبد العزيز أن رجلاً تزوج امرأة ولها ولى هو أدنى منه بدروب الروم، فرد عمر النكاح وقال: الولى وإلا فالسلطان[١].

٢- تزويج الوليين للمرأة على رجلين: عن ثابت بن قيس الغفارى قال: كتبت إلى عمر بن عبد العزيز فى جارية من جهينة زوجها وليها رجلاً من قيس، وزوجها آخر رجلاً من جهينة، فكتب عمر بن عبد العزيز أن أدخل عليها شهوداً عدولاً وخيرها فأيهما اختارت فهو زوجها.

٣- زواج الرجل بالمرأة بعد الفجور بها: إذا زنى رجل بامرأة ثم بدا له أن يتزوجها، فهل يحل له ذلك ؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى جواز ذلك إذا رأى منها خيراً، وهذا رأى رشيد لأنه يسد كثيرًا من أبواب الشر، لأنه لا فرق بين من فجر بها ومن لم يفجر بها، فلو قلنا: لا يجوز ذلك فغير هذا الرجل أولى بأن لا يقبلها، وفى هذا شرور ومفاسد عظيمة[٢]، عن يحيى بن سعيد قال: بلغنى أن عمر بن عبد العزيز سئل عن امرأة أصابت خطيئة، ثم رأى منها خيراً، أينكحها الرجل؟ فقال له: الظن كما بلغنى، أى إنها له[٣].

٤- نكاح أمرأة الأسير: عن عمر بن عبد العزيز قال: لا تنكح أمرأة الأسير أبداً مادام أسيراً[٤]، فالأسير المسلم إنما وقع فى الأسر نتيجة لإقدامه وبلائه فى قتال الإعداء رفعًا لراية الإسلام، أو دفاعًا عن بلاد المسلمين، وتقديراً لهذا الموقف النبيل، حيث ضحى بنفسه فى سبيل دينه، فإن على امرأته أن تقدر له ذلك وأن تصبر حتى يفك الله أسره، ثم يعود إليها خاصة أن بقاءه فى الأسر وغيبته هذه ليست من اختياره، كما أن إطلاق سراحه محتمل فى كل وقت ولذلك كله كان من العدل والإنصاف أن لا تتزوج امرأة الأسير مادام أسيراً[٥].

---

(١) مصنف بن أبى شيبة (٤/ ١٣٢)، فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٠٥).

(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤١٢).

(٣) مصنف بن أبى شيبة (٤/ ٢٥٠)، فقه عمر (١/ ٤١٢).

(٤) الطبقات الكبرى لا بن سعد (٥/ ٣٥١).

(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤١٧).

٥- نكاح امرأة المفقود:

إذا فُقد الرجل وانقطعت أخباره، فلا يـدرى أحى هو أم ميت فهل تبقى زوجته تنتظره؟ وما مدة الانتظار؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن امرأة المفقود تعتد أربع سنين وبعدها تتزوج[١]، وكتب عمر بن عبـد العزيز إلى عدى بن أرطأة: أن امرأة المفقود تعتد أربع سنين[٢]، والظاهر أن عمر بن عبد العزيز يرى جواز زواج امرأة المفقود بعد مضى السنين الأربع، والعدة بعدها أربعة أشهر وعشرة[٣].

٦- صداق المطلقـة قبل الدخول بها فى مـرض زوجها: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن لها نصف المهر، فلا تأثير لتطليق زوجها فى حال المرض[٤]، فعن عمر بن عبد العزيز قال: لها نصف الصداق، ولاميراث لها ولا عدة عليها[٥].

٧ ـ اشتراط الرجل لنفسه شيئًا عند زواج ابنته: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن المهـر للمرأة وإن اشـترط والدها شـيـئًا لنفـسه فـهو للمـرأة دون الأب[٦]، وعن الأوزاعى أن رجلاً زوج إبنته على ألف دينار وشرط لنفسه ألف دينار، فقضى عمر ابن عبد العزيز للمرأة بألفى دينار دون الأب[٧].

٨ ـ اللعب بالطلاق جـد: يرى عمـر بن عبـد العزيز، أن الرجل يحـاسب على الطلاق سواء كان جادًا أو هازلاً، فعن سليمـان بن حبيب المحاربى قال: كتب إلىّ عمر بن عبد العزيز: مهما أقلت السفهاء عن شيء فلا تقيلوهم الطلاق والعتاق[٨].

٩ ـ فى طلاق المكره: قد يحصل للإنسان بعض مواقف يكره فيها على الطلاق كأن يستـحلف بالطلاق على أن يفـعل كذا أو يترك كـذا، وقد يكره ويهـدد إذا لم يطلق امرأته، فهل هذا النوع من الطلاق على الصفة يقع؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن طلاق المكره لا يقع[٩]، فعنه أنه قال: لا طلاق ولاعتاق على مكره[١٠].

١٠ ـ فى تطليق الرجل نصف تطليـقة: قيل لعـمر بن عبـد العزيز: الرجل يطلق امرأته نصف تطليقة؟! قال: هو تطليقة[١١].

---

(١) فقه عمر (١/٤١٨).
(٢) المحلى (١٠/١٣٨).
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (١/٤١٨).
(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (١/٤٢٣).
(٥) مصنف ابن أبى شيبة (٤/٣٣١ـ٣٣٢).
(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (١/٤٢٥).
(٧) مصنف ابن أبى شيبة (٤/٢٠١).
(٨) المصدر نفسه (٥/١٠٦).
(٩) فقه عمر بن عبد العزيز (١/٤٣٤).
(١٠) مصنف ابن أبى شيبة (٥/٤٩).
(١١)مصنف ابن أبى شيبة (٥/٥٣)، فقه عمر بن عبد العزيز (١/٤٤١).

١١ ـ تطليق المرأة نفسها إذا جعل أمرها بيدها: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن الطلاق يقع، وأن هذا الطلاق وإن كان ثلاثًا يعتبر واحدة، وهو أحق بها إن أراد مراجعتها، فقد كتب عمر بن عبد العزيز فى رجل من بنى تميم جعل أمر امرأته بيدها، قال: إن ردت الأمر عليه فلا شيء، وإن طلقت نفسها فهى واحدة وهو أحق بها(١).

١٢ ـ إسلام المرأة تحت الكافر: إذا أسلمت المرأة تحت الرجل الكافر فإنها تخرج منه، ويفرق بينهما، فعن معمر بن سليمان عن أبيه أن الحسن وعمر بن عبد العزيز قالا فى النصرانية تسلم تحت زوجها، قالا: الإسلام أخرجها منه(٢)، فمتى أسلمت المرأة وبقى الرجل على الكفر فلابد من التفريق بينهما، حتى لا تكون للكافر ولاية على مسلمة، لأن هذا غير مقبول فى شرع الله، فعن عمر بن عبد العزيز أنه يرى إذا أسلمت المرأة تحت الرجل الكافر فإنها تخرج منه ويفرق بينهما(٣)، وهذا التفريق لا يأتى إلا بعد عرض الإسلام عليه، فإن أسلم فهى امرأته وإن أبى فإن عمر بن عبد العزيز يرى أن ذلك تطليقة بائنة(٤)، وأما إذا أسلم ولازالت امرأته فى العدة فهو أحق بها(٥).

١٣ ـ مدة انتظار الغائب: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن هناك حدًا أقصى لمدة الغيبة وهو سنتان، وبعدها إما أن يقفل الغائب إلى زوجته، وإما أن يطلقها، فقد كتب: من غاب عن امرأته سنتين فليطلق أو ليقفل إليها(٦).

هذه بعض الاجتهادات الفقهية والفتاوى والأحكام القضائية التى مارسها عمر ابن عبد العزيز والتى تدل على تبحره فى المسائل الشرعية، وقدرته على الاجتهاد وإصدار الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله ومن سبقه من الخلفاء الراشدين وعلماء الأمة، وقد قام الدكتور محمد شقير بجمع فقه عمر بن عبد العزيز، فى مجلدين، فمن أراد التوسع فليرجع إلى هذه الرسالة العلمية التى نال بها صاحبها درجة الدكتوراة من المعهد العالى للقضاء بالرياض فى المملكة العربية السعودية.

---

(١) مصنف ابن أبى شيبة (٥/ ٥٧).
(٢) المصدر نفسه (٥/ ٩٠)، فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٥٠).
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٥٠).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٤٥١).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٤٥٢).
(٦) المصدر نفسه (١/ ٤٥٥).

الفصل الثامن

الفقه الإدارى عند عمر بن عبد العزيز وأيامه الأخيرة ووفاته رحمه الله

أولاً: أشهر ولاة عمر بن عبد العزيز:

اختار عمر لسياسة الرعية وإعمال الحق بين الناس الولاة الثقات الخيرين الأبرار، ممن اشتهروا بالأمانة والعلم والقوة والتواضع وعفة النفس، والعدالة، وحسن الخلق والرحمة، والقدوة الحسنة ومشاورة الآخرين والنصح، وعدم الأنانية والكفاءة والذكاء والحكمة. وقد قال ابن كثير فى ولاة عمر بن عبد العزيز: وقد صرح كثير من الأئمة بأن كل من استعمله عمر بن عبد العزيز ثقة[(١)]. ومن هؤلاء:

١- الحجاج بن عبد الله الحكمى (ولى خراسان وسجستان):

قال عنه الذهبى: مقدم الجيوش، فارس الكتائب، أبوعقبة الجراح بن عبد الله الحكمى، ولى البصرة من جهة الحجاج، ثم ولى خراسان وسجستان لعمر بن عبدالعزيز، وكان بطلاً شجاعًا مهيبًا، عابدًا، قارئًا، كبير القدر[(٢)]. قال الجراح الحكمى: تركت الذنوب حياءً أربعين سنة، ثم أدركنى الورع[(٣)]. كان على خراسان كلها حربها وصلاتها ومالها[(٤)]. قتل عام ١١٢هـ فى خلافة هشام، فعن سليم بن عامر: دخلت على الجراح فرفع يديه، فرفع الأمراء أيديهم، فمكث طويلاً، ثم قال لى: يا أبا يحيى، هل تدرى ما كنا فيه؟ قلت: لا، وجدتكم فى رغبة فرفعت يدى معكم، قال: سألنا الله الشهادة، فوالله ما بقى منهم أحد فى تلك الغزاة حتى استشهد[(٥)]. قال خليفة: زحف الجراح من برذعة[(٦)] سنة اثنتي عشرة إلى ابن خاقا، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتل الجراح فى رمضان وغلبت الخزر على أذربيجان وبلغوا إلى قريب الموصل[(٧)]، وكان البلاء بمقتل الجراح على المسلمين عظيمًا، بكوا عليه فى كل جند[(٨)].

---

(١) البداية والنهاية نقلاً عن عمر بن عبد العزيز عبد الستار، ص (٢٧٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٨٩).

(٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه (٥/ ١٩٠).

(٦) برذعة: قصبة أذربيجان.

(٧) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٩٠).

(٨) المصدر نفسه (٥/ ١٩٠).

٢- عدى بن أرطأة الفزارى (والى البصرة):

كان أمير البصرة لعمر بن عبد العـزيز، حدث عن عمرو بن عبسة وأبى أمامة، قال عبـاد بن منصور: خطبنا عدى على منبـر المدائن حتى بكى وأبكانا[١]، وكان عمر بن عبد العزيز يتفقده بالنصائح والمواعظ، قال معمر: كتب عمر إلى عدى بن أرطأة: إنك غررتنى بعمـامتك السوداء، ومجالستك القـراء، وقد أظهرنا الله على كثير مما تكتمون، أما تمشون بين القبور؟[٢]. قدم عدى على البصرة، فقيد يزيد بن المهلب، وأنفذه إلى عمر بن عبد العزيز. فلما مات عمر، انفلت، ودعا إلى نفسه وتسـمى بالقـحطانى، ونصب رايات سـودًا، وقال: أدعـو إلى سـيـرة عمـر بن الخطاب، فحاربه مسلمة بن عبد الملك، وقـتله، ثم وثب ولده معاوية فقتل عديًا، وجماعة صبرًا، سنة اثنتين ومائة[٣]. قال الدارقطنى: يحتج بحديثه.

٣- عبدالحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب (والى الكوفة):

الإمام الثـقة الأمير العـادل أبو عمر العدوى الخطابى المدنى، ولى إمـرة الكوفة لعمر بن عبد العزيز، كان قليل الرواية، كبير القدر، توفى سنة ١١٥هـ[٤].

٤- عمر بن هبيرة (والى الجزيرة):

كان من الدهاة الشجعان، وكان رجل أهل الشام، ولاه عمر الجزيرة (١٠٠هـ) فتوجه إليها وغزا الروم من ناحية أرمينية، فهزمهم وأسر منهم خلقًا كثيرًا، واستمر على الجزيرة إلـى خلافة يزيد بن عـبد الملك، فولاه إمـارة العراق وخـراسان، ثم عزله هشام بخالد القسرى فقيده وألبسه عـباءة وسجنه، فتحايل غلمانه ونقبوا سربًا وأخرجوه منه فهرب واستجار بالأمير مسلمة بن عبد الملك، فأجاره ثم لم يلبث أن مات سنة سبع ومائة تقريبًا[٥].

٥- أبوبكر محمد بن عمرو بن حزم (والى المدينة):

وهو أحد الأئمة الأثبات الثقات، أمير المدينة ثم قاضى المدينة، قيل: كان أعلم أهل زمانه بالقضاء، روى عن أبيه وعباد بـن تميم وعن سلمان الأغر وخالته عمرة بنت عبد الرحمن وطائفة وعداده فى صغار التابعين[٦]، روى عطاف بن خالد عن

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٣).
(٢)، (٣) المصدر نفسه (٥/ ٥٣).
(٤) المصدر نفسه (٥/ ١٤٩).
(٥) المصدر نفسه (٤/ ٥٦٢).
(٦) المصدر نفسه (٥/ ٣١٤).

أمه عن زوجة ابـن حزم: أنه ما اضطجع على فراشـه منذ أربعين سنة[1]، وقيل: كان رزقه فى الشهر ثلاثة مائة دينار[2].

٦- عبد العزيز بن عبد الله بن أسيد الأموى (والى مكة):

أقر عمر على مكة عبد العزيز بن عبد الله الأموى والى سليمان بن عبد الملك، وثقه النسائى وابن حبان، توفى فى خلافة هشام بن عبد الملك[3].

٧- عبد الملك بن رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمى (والى مصر):

ذكر ابن تغرى بردى خبراً انفرد به وهو: أن عمـر بن عبد العزيز أقر على مصر عبد الملك بن رفاعة بن خالد بن ثابت الفـهمى المصرى، الذى كان حسن السيرة، عفيفًا عن الأموال ثقة فاضـلاً عادلاً بين الرعية. روى عنه الليث بن سعد وغيره، ثم عزله فى شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين دون أن يذكر سبب عزله[4]، وولى مكانه أيوب بن شرحبيل بن أكسوم بن أبرهة بن الصباح[5].

٨- إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر المخزومى (والى المغرب):

كان صالحًـا فاضلاً زاهدًا قدم إفريقيـة سنة (٩٩هـ) ويقال سنة (١٠٠هـ)، كان حسن السيرة، سار فيهم بالحق، فـأسلم على يديه عامة البربر، وكان حريصًا على إسلامهم. وكان عمر يرسل إليه بالرسائل لدعوة أهل الذمة للدخول فى الإسلام، فيقرأها عليهم. توفى إسماعيل بن عبيد الله سنة (١٣٢هـ)[6].

٩- السمح بن مالك (بالأندلس):

الأمير الشهير، استعمله عـمر على الأندلس وأمره أن يميز أرضها ويخرج منها ما كان فتحه عنوة فيأخذ منه الخـمس وأن يكتب إليه بصفة الأندلس، فقدمها سنة (١٠٠هـ) وفعل ما أمره به عمر، واستشهد غازيًا بأرض الفرنجة[7].

هؤلاء من أشهر ولاة عمر بن عبـد العزيز الذين عينهم على الأقاليم والولايات والذين كانوا عند حسن الظن.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣١٤). (٢) المصدر نفسه (٥/ ٣١٤).

(٣) تاريخ خليفة، ص(٣٢٣)، عمر وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٧٣).

(٤) عمر وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٨٩). (٥) المصدر نفسه، ص (٢٨٩).

(٦) المصدر نفسه، ص (٢٩٣). (٧) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار، ص (٢٧١).

ثانيًا: حرص عمر بن عبد العزيز على انتقاء عماله من أهل الخير والصلاح:

إن عـمال الخليـفة وأمـراء البلدان بخاصـة هم نواب الخليـفة فى أقـاليمـهم، والواسطة بينه ورعيته، ومهما كان الخليفة على درجة من الدراية فى تصريف أمور السياسة فهو لا يستطيع تحقيق النجاح إلا إذا اختار عماله بعناية تامة، لذا عنى عمر ابن عبد العـزيز ـ رحمه الله ـ عناية فائقـة باخـتياره عمالـه وولاته، وحـين نتتبع أخباره فى هذا الصدد نجد أن له شروطًا لا بد من تحققها فيمن يختار العمل عنده، ومن أهم هذه الشـروط: التقوى، الأمـانة، وحسن التـدين، فلما عـزل خالد بن الريان -الذى كان رئيسًا للحرس فى عهد الـوليد بن سليمان- نظر عمر فى وجوه الحرس فدعا عمرو بن المهاجر الأنصارى فقال: والله إنك لتعلم يا عمرو أنه مابينى وبينك قرابة إلا الإسـلام، ولكنى سمعتك تكثـر تلاوة القرآن، ورأيتك تصلى فى موضع تظن أنه لا يراك أحد فـرأيتك تحسن الصلاة، فخذ هذا السـيف قد وليتك حرسى[١]، وكان يكتب إلى عماله: إياكم أن تستـعملوا على شىء من أعمالنا إلا أهل القرآن، فإنه لم يكن عند أهل القرآن خير فغيرهم أحرى بأن لا يكون عندهم خير[٢]. وإذا شك فى أمر من يـنوى توليته لم يقـدم على توليتـه حتى يتـبين له حاله، فـحين ولى الخـلافة وفـد عليه بلال بن أبى بردة فـهنأه وقال: مـن كانت الخلافـة ـ يا أمير المؤمنين ـ شـرفته فـقد شرفتـها، ومن كانت زانتـه فقد زنتـها، واستشهـد بأبيات من الشعر فى مدح عـمر فجزاه عمر خيـرًا، ولزم بلال المسجد يصلى، ويقـرأ ليله ونهاره، فـهم عـمر أن يوليـه العراق، ثم قـال: هذا رجل له فضل، فـدس إليه ثقـة له فقال له: إن عـملت لك فى ولاية العراق مـا تعطينى؟ فضمن له مالاً جليلاً، فأخبر بذلك عمر، فنفاه وأخرجه[٣].

وكـان يكره أن يولى أحدًا ممن غـمس نفـسه فى الظلـم، أو عمل مع الظلمـة لاسيمـا الحجاج[٤]، وإذا كان من قـبل عمر يجعل للعـصبية والقـرابة من البيت الأموى وزنًا فى تولية العمل، فإنه لم يكن شىء من ذلك فى ميزان عمر، فحدث الأوزاعى أن عمر بن عـبد العزيز جلس فى بيـته وعنده أشراف بنى أميـة، فقال:

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٣١) .

(٢) المصدر نفسه، ص (٨)، سراج الملوك للطرطوشى، ص (٢٥٥).

(٣) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٨٢).

(٤) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٨٢).

أتحبـون أن أولى كل رجل منكم جنداً من هذه الأجناد؟ فقـال رجل منهم: تعرض علينا ما لا تفـعله؟ قال: ترون بساطى هذا؟ إنى لأعلم أنه يصـير إلى بلى، وإنى أكره أن تـدنسوا علىَّ بأرجلكم، فكيف أولـيكم دينى؟ وأوليكم أعراض المسلمـين وأبشارهم تحكمون فيهم؟ هيهات هيهات(١).

وقد كان لهذا النهج الذى تميزت به سياسة عمر بن عبد العزيز فى اختيار الولاة والعمال أثر فى الاسـتقرار السيـاسى فى الأقاليم، حيث رضى الناس سيـر عماله وحمـدوا فعالهم، إذ لم يكن فى عـماله من هو على شـاكلة الحجاج يتـعامل مع الناس بالشدة ويأخـذهم بالتهمـة، كما لم يكن منهم صـاحب عصبيـة يرفع أناسًا ويضع آخرين فيجدون عليه فى أنفسهم(٢).

ثالثًا: الإشراف المباشر على إدارة شئون الدولة:

أشرف عمر بن عـبد العزيز بنفسه على ما يتم فى دولته من أعـمال صغرت أو كبـرت، وكان يتابع عمـاله فى أقاليمـهم، وساعده على ذلك أجـهزة الدولة التى طورها عبـد الملك بن مروان، كالبـريد، وجهاز الاسـتخبـارات الكبير الممـتد فى أطراف الدولة، والذى كان الخلفاء يستخـدمونه فى جمع المعلومات، وعلى الرغم من عناية عمـر بن عبد العزيز فى إخـتيار الولاة، إلا أن هذا لم يمنعـه من العمل على متابعة أمـر الرعية وتصريف شئون الدولة. وقد اشـتهر عنه الدأب والجد فى العمل حتى أصـبح شعاره: لا تؤجل عمل اليـوم إلى الغد، فقد قـيل له: يا أمير المؤمنين لو ركبت فتروحت، قال: فمن يـجزى عنى عمل ذلك اليوم؟ قيل: تجزُيه من الغد قـال: فدحنى عمل يوم واحـد، فكيف إذا اجتمع علىَّ عـمل يومين(٣).
وقال ميـمون بن مهران: كنت ليلة فى سمـر عمر بن عبد العزيز فـقلت: يا أمير المؤمنين ما بقـاؤك على ما أرى ؟ أنت بالنهار فى حـوائج الناس وأمورهم، وأنت معنا الآن، ثم الله أعلم ما تخلو عليه(٤)، فقد كان ـ رحمـه الله ـ يمضى الكثير من وقته لرسم سياسته الإصلاحية التى شملت مختلف الحياة السياسية والاقتصادية

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٢).
(٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٨٣).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٥٥).
(٤) الطبقات (٥/ ٣٧١).

والإدارية، وغيرها. . حتى خلف رحمه الله كمًا هائلاً من تلك السياسات التى تمثل مواد نظام حكمه الإصلاحى الشامل، وقد بعث بهذه السياسات إلى عماله لتنفيذها فى مختلف الأقاليم، وكثيرًا ما يردفها بتوجيهات تربوية يذكر فيها عماله بعظم الأمانة الملقاة على عواتقهم، ويخوفهم بالله ويأمرهم بمراقبته وتقواه فيما يعملون ويذرون[1].

وقد كان لمواعظ عمر وتوجيهاته أثر فى نفوس عماله أشد من وقع السياط، وأبلغ من أوامر العزل والإعفاء، فكتب مرة إلى أحدهم: يا أخى، أذكرك طول سهر أهل النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء. فلما قرأ عامله الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر، فقال له: ما أقدمك ؟ قال: خلعت قلبى بكتابك، لا أعود إلى ولاية أبدًا حتى ألقى الله تعالى[2]. ولم يكتف عمر ببعث تلك السياسات والتوجيهات إلى عماله، بل كان يحرص على متابعة تنفيذها، وتحقق آثارها على رعيته. فلا يفتأ يسأل القادمين عن ذلك، فقال زياد بن أبى زياد المدنى حين قدم على عمر من المدينة: سألنى عن صلحاء أهل المدينة ورجالهم ونسائهم. . . وسألنى عن أمور كان أمر بها بالمدينة فأخبرته[3]. وخرج عمر بن عبد العزيز يومًا فركب هو ومزاحم، وكان كثيرًا ما يركب فيلقى الركبان ويتحسس الأخبار عن القرى، فلقيهما راكب من أهل المدينة وسألاه عن الناس وما وراءه، فقال لهما: إن شئتما جمعت لكما خبرى وإن شئتما بعضته تبعيضًا، فقالا: بل اجمعه، فقال: إنى تركت المدينة والظالم بها مقهور، والمظلوم بها منصور، والغنى موفور، والعائل مجبور، فسر عمر بذلك، وقال: والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب إلى مما طلعت عليه الشمس[4]. وحين قدم عليه رجل من خراسان وأراد العودة إلى بلاده طلب من عمر أن يحمله على البريد، فقال له عمر وقد اطمأن لسيرته: هل لك أن تعمل لنا عملاً وأحملك ؟ فقال الرجل: نعم. فقال عمر: لا تأت على عامل لنا إلا نظرت فى سيرته، فإن كانت حسنة لم تكتب بها ، وإن كانت قبيحة كتبت بها. قال مزاحم: فمازال كتاب منه يجيئنا فى عامل فنعزله حتى قدم خراسان[5].

---

(١)، (٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٨٦) .
(٣) المصدر نفسه، ص (١٨٧).
(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١١٥).
(٥) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٨٨).

ونلاحظ أن عمر بن عبد العزيز كان يهتم بمصادر متنوعة بجمع المعلومات، لعلمه أن المعرفة الدقيقة بأمور الرعية والولاة تحتاج لجمع معلومات صحيحة، يبنى عليها التوجيهات والأوامر والنواهى النافعة للأمة والدولة. لقد آتت هذه المتابعة الدقيقة من عمر لعماله والتوجيهات التفصيلية لهم ثمارها فى استقرار أحوال الأقاليم، كما أن هذه التوجيهات والمتابعة من عمر جعلت العمال والولاة فى حالة تحفز دائمة للعمل، حيث كانت تلك التوجيهات تقع فى نفوسهم بمكان، فحدث إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: رأيت أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يعمل بالليل كله وبالنهار لاستحثاث عمر إياه[(١)].

وكان رحمه الله يرسل المفتشين فى الأقاليم ليأتوه بالأخبار: فقد بعث على خراسان ثلاثة مفتشين، يبحثون فى ظلامات الناس من نظام خراجها، الذى قرره عدى بن أرطأة على الأهالى، وأرسل مفتشًا إلى العراق، ليأتيه بأخبار الولاة والناس فيها[(٢)]. ولقد أعلن عمر فى إطار متابعته لشئون الدولة ما يمكن تسميته بالرقابة العامة، إذ كتب لأهل الموسم فى يوم الحج الأكبر: . . .إنى برئ من ظلم من ظلمكم. . . ألا وإنه لا إذن على مظلوم دونى، وأنا معوِّل كل مظلوم. . ألا وأى عامل من عمالى رغب عن الحق، ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم. . ألا وأيما وارد فى أمر يصلح الله به ، خاصة أو عامة ، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار، على قدر ما نوى من الحسبة[(٣)]. لقد أعلن فى أكبر تجمع إسلامى، بل شجع ماديًا ومعنويًا على مراقبته، ومراقبة عماله، والإفصاح عن كل ما لا يوافق الكتاب والسنة، وبطبيعة الحال، فالأمة الإسلامية لا تحتاج إلى غير تعاليم الكتاب والسنة، إذ الالتزام بها هدف منشود[(٤)].

رابعًا: التخطيط فى إدارة عمر بن عبد العزيز:

يعرف التخطيط فى معناه العام بأنه: العملية التى تتخذ لتلبية احتياجات المستقبل، وتحديد وسائل تحقيقها[(٥)]، كما عرف التخطيط بأنه: الجسر بين الحاضر

(١) الطبقات (٥/٣٤٧)، أثر العلماء، ص (١٨٨). (٢) عمر بن عبد العزيز للزحيلى، ص (١٨٢) .

(٣) عمر لابن الجوزى، ص (٩٠) .

(٤) النموذج الإدارى المستخلص من عمر بن عبد العزيز، ص (٤١٣).

(٥) الإدارة، المنيف، ص (١٤٧).

والمستقبل، ومن هذا التعريف العام يمكن أن نقول: أن التخطيط فى الإسلام هو الإستعداد فى الحاضر لما يواجهه الإنسان فى عمله، أو حياته فى المستقبل[1]. وعمر بن عبد العزيز لم يكن ليتخذ قرارًا دونما تخطيط، وتوخٍ لعواقب الأمور، وأخذها بعين الاعتبار، ولعل من أهم المؤشرات على إدراك عمر لأهمية التخطيط والتفكير فى الأمور قوله لرجاء: يا رجاء، إنى لى عقلاً أخاف أن يعذبنى الله عليه[2]، وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد على الله ثم جمع المعلومات والقدرة على حسن قراءتها، واستشراف المستقبل، وتحقيق الأهداف المطلوبة، ففى ذلك يقول عمر: من عمل على غير علم كان يفسد أكثر مما يصلح[3]، وقد كان عمر ابن عبد العزيز فى تخطيطه يضع الأهداف ويختار السياسات، ويحدد الإجراءات، ويبلور العمل فى خطه، ففى إطار بلورة الأهداف كان هناك هدف رئيسى يسعى عمر لتحقيقه ألا وهو الإصلاح والتجديد الراشدى على منهاج النبوة والخلافة الراشدة، والقيام بكل مقومات هذا المشروع الإصلاحى من إقامة العدل والحق وإزالة الظلم، وإعادة الانسجام بين الإنسان وبين الكون والحياة وخالقهما فى إطار الفهم الشمولى للإسلام.

وأما اختيار السياسات كأحد مقومات التخطيط، فإنه قد تجلى ذلك فى تطبيقات عمر للتخطيط الإدارى، ولا أدل على ذلك من عزم عمر على الاكتفاء بالكتاب الكريم والسنة الشريفة[4]، وأنه غير مستعد للاستماع إلى أى جدل فى مسائل الشرع، والدين، على أساس أنه حاكم منفذ، وأن الشرع سيُطبق من جانبه على نفسه وعلى رعيته، كما ألزم الرعية بالتمسك بذلك الشرع القويم[5]. هذا فى إطار تحديد واختيار السياسة العامة، أما تحديد الإجراءات كأحد مقومات التخطيط أيضًا، فإن ذلك يتضح من خلال الإجراءات التى حددها لتنفيذ هذه السياسة من اللقاء الأول مع الأمة عندما وضع شروطًا لصحبته، والتى قد بينتها فيما مضى. وأما بلورة طريقة العمل، فإنه قد وضح بأنه منفذ وليس مبتدعًا ـ أى منفذًا لتعاليم الدين وأن الطاعة لمن أطاع الله[6] ـ وأن يكون أساس العمل إقامة العدل والإصلاح

(١) الإدارة فى الإسلام للضحيات، ص (٧١). (٢) عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٦٦).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، (٢٥٠). (٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٣٥).
(٥) النموذج الإدارى المستخلص من عمر بن عبد العزيز، ص (٣٩٧).
(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص (٣٥، ٣٦).

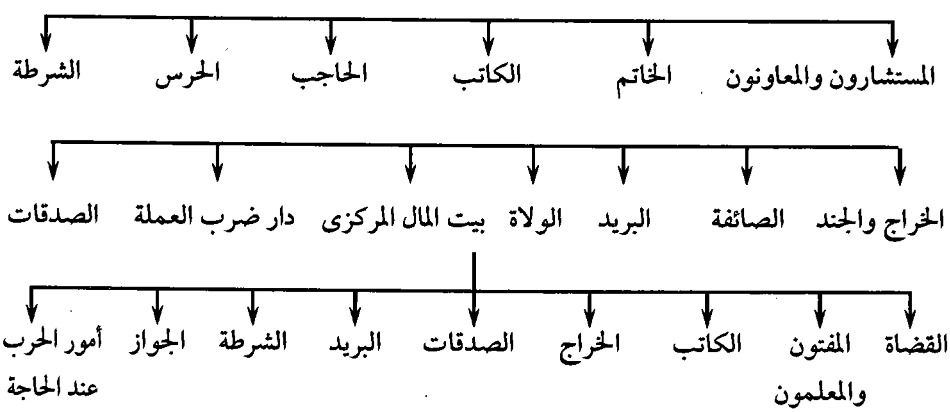
والإحسان بدلاً من الظلم والفجور والعدوان[1]. وقد مارس عمر التخطيط من حيث الشمول، وشمل تخطيطه شتى المجالات، فلم يترك مجالاً إلا طرق بابه، فى أمور السياسة والحكم، والقضاء والاقتصاد والتربية والتعليم والنواحى الاجتماعية فضلاً عن التخطيط للأمور العامة، كما اهتم ببعض الأقاليم بشكل منفصل مثل خراسان والعراق، واهتم بمؤسسات تنظيمية أخرى مثل القضاء، وبيت المال وولاة الخراج وغير ذلك[2].

خامسًا: التنظيم فى إدارة عمر بن عبد العزيز:

إن التنظيم يأتى مكملاً للتخطيط لبناء المتطلبات الإجرائية لتنفيذ الخطط، وقد جعل عمر بن عبد العزيز التنظيم أهم أولويات العمل الإدارى، ورسخ مفهوم التنظيم فى سلوكه الإدارى.

فمن حيث التنظيم الهيكلى للعمل، نجده قد جزأ أعمال الدولة إلى أربعة أجزاء رئيسية، تأتى تحت مسئولية أربعة أركان هم: الوالى والقاضى وصاحب بيت المال والخليفة[3]، بالإضافة إلى تنظيمات أخرى مثل: الخراج والجند والكتاب والشرطة والحرس وصاحب الخاتم والحاجب وغير ذلك. وفيما يلى اللائحة التنظيمية لمسئوليات العمل فى عهد عمر بن عبد العزيز[4].

رئيس الدولة الخليفة عمر بن عبد العزيز



(١) سيرة عمر، ص (١٠٢).

(٢) النموذج الإدارى المستخلص من عمر بن عبد العزيز، ص (٤٠٠).

(٣) المصدر نفسه، ص (٤٠١).

(٤) المصدر نفسه، ص (٤٠١).

وأما فيما يتعلق بالتنظيم من حيث الإجراءات والعلاقات بين الخليفة والولاة والعمال وتحديد أوجه العمل وأساليب التنفيذ، فإنه يمكننا القول إن الكثير من كتب عمر لعماله تسعى لتحقيق هذا الغرض، وإيضاح هذا الجانب التنظيمى من العملية الإدارية، فعلى سبيل المثال، أوضح أسلوب التعامل بينه وبين المظلومين وكيفية الاتصال بينه وبينهم، إذ أباح دخول المظلومين عليه من غير إذن.

ومن صور التنظيم إعادة الكثير من الأمور والقضايا إلى ما كانت عليه فى عهد الرسول (عليه الصلاة والسلام) والخلفاء الراشدين، ومثال ذلك أمره بإرجاع مزرعته فى خيبر إلى ماكانت عليه فى عهد رسول الله ﷺ، وتم الشىء نفسه بشأن (فدك)[1] إذ كتب إلى أبى بكر بن حزم واليه على المدينة يقول: إنى نظرت فى أمر فدك، فإذا هو لا يصلح، فرأيت أن أردها على ما كانت عليه فى عهد رسول الله ﷺ، وأبى بكر وعمر وعثمان، فاقبضها وولِّها رجلاً يقوم فيها بالحق، وسلام عليك[2].

كما كتب إلى عماله بكل ما يتعلق بتنظيم الأمور المالية والصدقات والضرائب والأخماس والزكاة فى الأموال والممتلكات وتنظيم العمال التجارية، ومن ليس له الحق فى ممارسة التجارة[3] وغير ذلك، كما اهتم عمر بتنظيم أمور القضاء باعتباره السبيل الرئيسى للفصل بين الناس فى منازعتهم وحماية حقوقهم، فكان لكل مصر أو ولاية قاض يقضى بما فى الكتاب والسنة، وكان قضاته فى كل مصر أجل وأفقه وأصلح علماء ذلك المصر[4]، كعامر بن شرحبيل الشعبى[5] بالكوفة، والحارث بن يمجد الأشعرى[6] بحمص، وعمر بن سليمان بن خبيب المحاربى بدمشق[7] وغيرهم، كما كان عمر يمارس القضاء بنفسه[8]، وكان الاعتبار الأساسى فى التنظيم القضائى فى نظر عمر هو مراجعة الحق، فالرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل[9]، وعندما اشتكى أهل سمرقند من قتيبة بن مسلم، عين لهم

---

(١) فدك: هى قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله لما نزل خيبر وهى خالصة لرسول الله، لأنها مما لم يطأ عليه خيل ولا ركاب، فيها عين فوَّارة ونخل كثير.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١٣١).

(٣) سيرة عمر لا بن عبد الحكم، ص (٧٨-٨٣).

(٤) النموذج الإدارى المستخلص، ص (٤٠٣).

(٥) عمر بن عبد العزيز وسياسة رد المظالم، ص (٢٧٧).

(٦) المصدر نفسه، ص (٢٨٤).

(٧) المصدر نفسه، ص (٢٨٥).

(٨) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٤٠٣).

(٩) المصدر نفسه ص (٤٠٣).

قاضى ليحكم فى هذه القضية، وقد مرت معنا، وفى هذه الحادثة أدرك عمر بن عبد العزيز مبدأ الفصل بين السلطات على أتم وجه، ذلك بأنه حينما عرف مظلمة أهل سمرقند لم يبت هو فيها، مع أنه كان يسعه ذلك، وهو خليفة المسلمين، ولم يعهد بذلك إلى عامله على سمرقند سليمان بن أبى السرى، مخافة أن يجمح به الهوى، أو أن تأخذه العزة بالإثم، ولأنه عامل باسم الخليفة الذى أبى هو نفسه أن يبت بالخلاف، ولم يفوض ذلك إلى القائد العسكرى، بل أمر بأن يجلس لهم القاضى لأن القاضى لا يتأثر بالاعتبارات العسكرية أو السياسية، ولا يأبه إلا لحكم الله، يطبق أوامر الشريعة كما وردت، وهكذا تحقق ظن عمر بن عبد العزيز، وحكم القاضى بأن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم، أى أنه أمرهم بالجلاء، لأن الفتح وقع بصورة غير مشروعة(١).

كما شملت تطبيقات عمر للتنظيم بيت الخلافة، فقد أعاد تنظيمه بما يتوافق مع نظرته فى أنه واحد من عامة المسلمين، وأنه ليس فى حاجة إلى أبهة الملك، فانصرف عن كل مظاهر الخلافة التى سادت قبله، وألغى بعض الوظائف، كصاحب الشرطة الذى يسير بين يدى الخليفة بالحربة، كعادته مع الخلفاء السابقين له، وقال له عمر: تنح عنى مالى ولك؟ إنما أنا رجل من المسلمين ثم سار وسار معه الناس(٢).

سادسًا: الوقاية من الفساد الإدارى فى عهد عمر بن عبد العزيز:

سعى عمر بن عبد العزيز لتحقيق السلامة من الفساد الإدارى، بالحرص على سبل الوقاية منه، وسد المنافذ على السموم الإدارية مثل الخيانة، والكذب، والرشوة والهدايا للمسئولين والأمراء، والإسراف، وممارسة الولاة والأمراء للتجارة واحتجاب الولاة والأمراء عن الناس ومعرفة أحوالهم، والظلم للناس والجور عليهم، وغير ذلك وإليك شيئًا من التفصيل:

١- **التوسعة على العمال فى الأرزاق:** كان أول إجراء إدارى رأى فيه عمر الوقاية من الخيانة أن وسع على العمال فى العطاء، رغم تقتيره على نفسه وأهله، وأراد بذلك أن يغنيهم عن الخيانة(٣)، فقد كان يوسع على عماله فى النفقة، يعطى

---

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (١/ ٤٠٧).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص (٦٥) لابن الجوزى.

(٣) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٣١٤).

الرجل منهم فى الشهر مائة دينار، ومائتى دينار، وكان يتأول أنهم إذا كانوا فى كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين، فقيل له: لو أنفقت على عيالك، كما تنفق على عمالك؟ فقال: لا أمنعهم حقًا لهم، ولا أعطيهم حق غيرهم، وكان أهله قد بقوا فى جهد عظيم، فاعتذر بأن معهم سلفًا كثيراً قبل ذلك[1]، وبهذا الإجراء ألا وهو التوسيع على عماله يحقق عمر أمرين مهمين:

أ ـ سد منفذ الخيانة، وما يدفع العمال من حاجة إلى الخيانة وسرقة أموال المسلمين.

ب ـ ضمان فراغ الولاة والعمال والأمراء لأشغال المسلمين وحوائجهم [2].

٢- حرصه على الوقاية من الكذب : قال ميمون بن مهران: دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده عامله على الكوفة، فإذا هو متغيظ عليه، فقلت: ما له يا أمير المؤمنين؟ قال: أبلغنى أنه قال: لا أجد شاهد زور إلا قطعت لسانه، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه لم يكن بفاعل. قال: فقال: انظروا إلى هذا الشيخ ـ مستنكراً ما قال ميمون ـ إن منزلتين أحسنهما الكذب لمنزلتا سوء[3]. والمقصود أن الكذب أحد منازل السوء، وبذلك يسعى عمر إلى قطع دابر الفساد الإدارى بالتحذير من الوقاية عما يجر إليه الكذب والتحايل فى اتخاذ القرارات[4].

٣- الامتناع عن أخذ الهدايا والهبات: رد على من قال له: ألم يكن رسول الله ﷺ يقبل الهدية؟ قال: بلى، ولكنها لنا ولمن بعدنا رشوة[5]، كما أبطل عمر أخذ الهدايا التى كان الولاة الأمويون يأخذونها وبخاصة هدايا النيروز والمهرجان، وهى هدايا تعطى فى مناسبات وأعياد الفرس، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله كتابًا، يقرأ على الناس، يبطل فيه أخذ الهدايا، التى كانت تؤخذ منهم فى النيروز والمهرجان وغيرها من الأثمان والأجور[6]، كما أنذر ولاته وعماله من أن يتخذ

(١) البداية والنهاية نقلاً عن النموذج الإدارى، ص (٣١٥).

(٢) النموذج الإدارى، ص (٣١٥) . (٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٤١٣).

(٤) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٣١٦) .

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١٨٩) .

(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٣٦).

أحداً منهم تلبيـة طلبات الخليفة أو أحـد أهله شيئًا مسلمًـا به، ومن ذلك ماحدث عندما أرسلت فـاطمة بنت عبد الملك إلى ابن مـعدى كرب[١]، تطلب عسلاً من عسل سينين أو لبنان، فبعث إليهـا، فقال له: وأيم الله لئن عدت لمثلها، لا تعمل لى عملاً أبدًا، ولا أنظر إلى وجهك[٢].

٤- النهى عن الإسراف والتبذير: فقد اتخذ قـرارات تنم على حرص شديد على أموال المسلمـين، فكان أول إجراء له بعـد توليه الخـلافة هو انصرافـه عن مظاهر الخلافـة، إذ قربت إليه المراكب، فقـال: ما هذه؟ فقـالوا: مراكب لم تركب قط، يركبها الخليفة أول ما يلى، فتـركها وخرج يلتمس بغلته، وقال: يا مزاحم - يعنى مولاه - ضم هذه إلى بيت مال المسلمين، ونصـبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيهـا أحد قط، يجلس فيهـا الخليفة أول ما يلى، قـال: يا مزاحم، ضم هذه إلى أموال المسـلمين، ثم ركب بغلتـه، وانصرف إلى الفـرش والوطاء الذى لم يجلس عليـه أحد قط، يفـرش للخلفاء أول مـا يلون، فـجعل يدفع ذلك برجله، حـتى يفضى إلى الحصير، ثم قال: يا مزاحم، ضم هذه لأموال المسلمين[٣].

وأخذ إجراء آخر لمحاربة الإسراف فى الدولة، فحـين قال له ميمون بن مهران -وهما ينظران فى أمور الناس-: مـا بال هذه الطوامير[٤] التى تكتب فيـها بالقلم الجليل، وتمد فيها، وهى من بيت مال المسلمـين ؟ فكتب إلى العمال أن لا يكتبوا فى طومار ولا يمد فـيه، قال: فكانت كتبه شـبرًا أو نحو ذلك[٥]. وقد مر معنا كتـابه لأبى بكر بن مـحمـد بن حزم الأنصـارى والى المدينة فى قصـة الشـموع، وتوجيه عمر له فى ذلك، وكيف يكتب له عندمـا قال: إذا جاءك كتابى هذا فأرق القلم، واجمع الخط واجمع الحوائج الكثيرة فى الصحـيفة الواحدة، فإنه لا حاجة للمسلمين فى فضل قول أضر ببيت مالهم، والسلام عليك[٦].

ذلك هو شـأن عمر فى كـل أمر يخص مـال المسلمين، صـغر أو كـبر، ومع جميع الولاة، فـإنه من المسلم به أن عمر لن يكون كذلك مع والـى المدينة فحسب

---

(١) لم تمدنا المصادر ما إذا كان عامل لبنان، وسينين (سيناء) .

(٢) المعرفة والتاريخ للفسوى(١/ ٥٨٠)، النموذج الإدارى، ص (٣١٧) .

(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٣٣) .

(٤) طوامير: جمع طومار وهو الصحيفة، لسان العرب (١/٣/٥٠٣) .

(٥) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٨٨) . (٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٥٥) .

بل هو كذلك مع غيره من الولاة والعمال، فكان يسعى للتوفير والاقتصاد فى الإنفاق من بيت المال، ليحول بذلك دون الإسراف والبذخ(١).

٥- منع الولاة والعمال من ممارسة التجارة: قال فى كتاب له إلى عماله: نرى أن لا يتجر إمام، ولايحل لعامل تجارة فى سلطانه الذى هو عليه، فإن الأمير متى يتجر يستأثر ويصيب أمورًا فيها عنت، وإن حرص أن لا يفعل(٢)، وذلك إدراك منه أن ممارسة العمال والولاة للتجارة، لا تخلو من أحد أمرين، إن لم يكن الاثنين معًا: فإما أن ينشغل فى تجارته ومتابعتها عن أمور واحتياجات المسلمين، وإما أن تحدث محاباة له فى التجارة لموقعه، ويصيب أمورًا ليست له من الحق فى شىء، وبهذا القرار سد عمر منفذًا خطيرًا قد يؤدى إلى فساد إدارى قل ما تتوارى عواقبه(٣). وبعد ثمانية قرون جاء ابن خلدون وكتب فى مقدمته العظيمة بعد تجارب طويلة ودراسة واسعة، ما يصدق عمر بن عبد العزيز فى نظرته الصادقة، وحكمته البالغة قال: إن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا، معسرة للجباية(٤).

٦- فتح قنوات الاتصال بين الوالى والرعية: كانت الحاشية حول الخلفاء قبل عمر ابن عبد العزيز قد حجبت الناس عن الوصول إلى الخليفة، وقد بنى الحاشية سياجًا من حديد لا ينفذ منه إليه إلا ما يشتهون وما تسمح به مصالحهم. أما عمر بن عبد العزيز، فقد أعلن الجوائز والمكافأة المالية لمن يخبره بحقيقة الحال، أو يشير عليه بشىء فيه مصلحة المسلمين ومصلحة لدولتهم، وكتب إلى أهل المواسم: أما بعد فأيما رجل قدم إلينا فى رد مظلمة أو أمر يصلح الله به خاصًا أو عامًا من أمر الدين، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة بقدر ما يرى الحسبة وبُعد السفر، لعل الله يجىء به حقًا أو يميت باطلاً، أو يفتح به من ورائه خيرًا(٥).

كما أمر العمال والولاة بأن يحرصوا على فتح قنوات الاتصال بينهم وبين الرعية ويسمعوا منهم ويتعرفوا على أحوالهم، فإن ذلك يمنع ممارسة الظلم

(١) النموذج الإدارى المستخلص، ص (٣١٩).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٨٣).

(٣) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٣٢٠).

(٤) مقدمة ابن خلدون نقلاً عن رجال الفكر والدعوة للندوى (١/ ٤٦).

(٥) رجال الفكر والدعوة (١/ ٤٧).

والتعدى على حقوق الآخرين ويتيح لكل فرد طلب ما يريد دون اللجوء إلى أساليب وطرق لا تمت للإسلام بصلة[1].

٧- محاسبته لولاة من قبله عن أموال بيت المال: لما تولى عمر بن عبد العزيز أمر بالقبض على والي خراسان يزيد بن المهلب، ولما مثل بين يديه، سأله عمر عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك. فقال: كنت من سليمان بالمكان الذى قد رأيت، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى بشيء سمعه، ولا بأمر أكرهه. فقال له: ما أجد فى أمرك إلا حبسك، فاتق الله وأدِّ ما قبلك، فإنها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها، فرده إلى محبسه، وبقى فيه حتى بلغه مرض عمر[2]. وقد كان عمر بن عبد العزيز يتحسس أخبار ولاته ويراقبهم ويحاسبهم على تقصيرهم، فقد كتب إلى أحدهم يقول: (لقد كثر شاكوك وقل شاكروك، فإما عدلت، وإما اعتزلت[3] والسلام).

سابعًا: المركزية واللامركزية فى إدارة عمر بن عبد العزيز:

أخذ عمر بن عبد العزيز بمبدأ الجمع والموازنة بين المركزية واللامركزية خلال إدارته للدولة، بتطبيق أحدهما بحسب الموقف تبعًا لمعايير محددة، فإننا نورد بعض المواقف والإجراءات التى توضح ذلك، فقد كان من الأوامر التى تدل على تطبيقه للمركزية ما ضمنه رسالته إلى عامله على الكوفة، إذ قال: . . .فإنى قد وليتك من ذلك ما ولانى الله، ولا تعجل دونى بقطع ولا صلب حتى تراجعنى فيه[4]. وهنا رجح عمر أن مصلحة الأمة فى تطبيق المركزية فى هذه المسألة البالغة الأهمية، فقد يسبق السيف العزل، فلا مصلحة للأمة فى التعجيل فى أمور القتل والصلب، وكل سيلقى جزاءه طال الوقت أم قصر، فقد كان عمر يرجح التحقيق العادل على التحقيق الصارم[5]، فما بالك به فى أمر أهم، وهو إزهاق الأرواح[6]، وهناك أمور أخرى أعم وأشمل، أوضح عمر لعماله وولاته وقضاته أنه لا بد من الرجوع

(١) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٣٢٠) .

(٢) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٦٠ - ٤٦٢) .

(٣) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٢٧٥).

(٤) تاريخ الطبرى نقلاً عن النموذج الإدارى، ص (٣٢٢) .

(٥) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٣٢٣).

(٦) المصدر نفسه، ص (٣٢٣).

إليه فيها متخذًا أسلوب المركزية فيها، وهى كل ما تبتلى به الأمة، وليس لها سابقة فى قرآن أو سنة، إذ كتب إلى عماله يبين لهم سياسته، فقال: . . . وأما ما حدث من الأمور التى تبتلى الأمة بها، مما لم يحكمه القرآن ولا سنة النبى ﷺ، فإن والى أمر المسلمين وإمام عامتهم، لا يقدم فيها بين يديه، ولا يقضى فيها دونه، وعلى من دونه رفع ذلك إليه، والتسليم لما قضى[١]، وفى مجال آخر رأى ضرورة أسلوب المركزية، حيث جعل للعراق أكثر من وال، وأصبحت خراسان وسجستان وعمان كل منها مرتبطة بالخليفة مباشرة، كما عين واليًا على الأندلس من قبله رغبة منه فى الاعتناء بإقليم الأندلس دون الارتباط بوالى إفريقية[٢]. هذا مما يدل على أن عمر بن عبد العزيز كان يأخذ بالمركزية وضرورة الرجوع إليه.

- وأما ما يدل على ممارسته اللامركزية فنورد المواقف التالية:

روى أن عمر كتب إلى عروة بن محمد عامله على اليمن، يقول: أما بعد، فإنى أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم فتراجعنى ولا تعرف بُعد مسافة ما بينى وبينك، ولا تعرف أحداث الموت، حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة، لكتبت أردها عفراء أو سوداء، فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعنى[٣]. ويبدو فى هذا القرار دقة متناهية فى تحديد الشىء المرغوب فيه من المركزية واللامركزية، وما حداه هنا إلى تبنى اللامركزية من مصلحة للأمة[٤]، وهذا موقف آخر فيه دلالة على رغبة عمر فى اتباع اللامركزية فقد كتب إلى عدى بن أرطأة يقول: أما بعد، فإنك لن تزال تعنى إلىَّ رجلاً - أى يتعبه بإرساله إليه - من المسلمين فى الحر والبرد، تسألنى عن السنة، كأنك إنما تعظمنى بذلك، وايم الله لحسبك بالحسن، يعنى - الحسن البصرى - فإذا أتاك كتابى هذا فسل الحسن لى ولك وللمسلمين[٥]. فكان عمر يؤثر اللامركزية وعدم مراجعته فى المسائل الروتينية طالما هناك من يثق بعلمه، مثل الحسن البصرى رحمه الله، فالحسن أهل لأن يُسأل لعمر، ولعدى الوالى وللمسلمين كافة[٦]، وفى هذا

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٦٣) .

(٢) الإدارة فى العصر الأموى، نجدة الخماش، ص (١٠٧) .

(٣) الطبقات (٥/ ٣٨١) .

(٤) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٣٢٤) .

(٥) المصدر نفسه صـ٣٢٤، حلية الأولياء (٥/ ٣٠٧) .

(٦) المصدر نفسه، ص (٣٢٤) .

الموقف لفتة عمرية فى تقدير وتبجيل واحترام العلماء الربانيين كالحسن البصرى وإنزاله مقامه اللائق به، فالأمم تنهض عندما تحترم علماءها الربانيين وتنزلهم المنازل التى يستحقونها.

لقد مارس عمر مبدأ الموازنة بين المركزية واللامركزية، وكانت له معايير وعوامل تدفعه إلى أى شىء منها يمكن تلخيصها فيما يلى:

١- ارتباط الموقف أو الإجراء بمصلحة عامة أو خاصة.

٢- أهمية الأمر الذى سيحدد فيه ممارسة المركزية أو اللامركزية، فالإجراء الذى يتعلق بالقتل والصلب مثلاً حرى أن تكون المركزية فيه أصلح.

٣- مستجدات الأمور مما لم يرد فى القرآن أو السنة، فهى من الأهمية بمكان.

٤- مراعاة البعد الجغرافى بين الخليفة والولاة.

٥- مراعاة الوقت وما قد ينجم عن ذلك من ضرر قد يصل إلى الموت.

٦- وجود من يعتمد عليه ويطمئن له ولعلمه ويثق به.

٧- التأثير على سرعة وسلامة الإنجاز فى العمل.

٨- مراعاة منح الثقة للقضاة والولاة والعمال[١].

فى ظل هذه المعايير جمع عمر بن عبد العزيز فى ممارسته الإدارية بين المركزية واللامركزية، بالموازنة بينهما، وتحديد الدرجة الملائمة فى ممارسته لكل منهما، وبذلك يتوافق عمر مع منظرى وعلماء الإدارة فى إدراك أبعاد هذا المبدأ[٢].

ثامنًا: مبدأ المرونة فى إدارة عمر بن عبد العزيز:

مارس عمر بن عبد العزيز المرونة فى التفاهم والحوار والفكر، وتنفيذ الأوامر والتقيد بها، ومن تلك الشواهد، ما روى ميمون بن مهران: أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قال: يا أبت ما يمنعك أن تمضى لما تريد من العدل؟ فوالله ما كنت أبالى لو غلت بى وبك القدور فى ذلك. قال: يا بنى إنما أروض الناس رياضة الصعب، وإنى لا أريد أن أحيى الأمور من العدل، فأؤخر ذلك حتى أخرج

(١) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٣٢٦). (٢) المصدر نفسه، ص (٣٢٦).

معه طمعًا من طمع الدنيا، فينفروا لهذه ويسكنوا لهذه[١]. وقال عمر: ماطاوعنى الناس على ما أردت من الحق، حتى بسطت لهم من الدنيا شيئًا[٢]. فقد أبدى بهذا الإعلان منذ توليه الخلافة، أن تحقيق الأهداف يتطلب شيئًا من المرونة والتغاضى، فليس الأمر كما يرى ولده بأن لا مانع لديه من أن تغلى بهم القدور فى سبيل تحقيق العدل، بصرف النظر عن أى اعتبار آخر[٣].

وهذا موقف آخر مع ابنه عبد الملك، وإليك ما دار بينهم من حوار:

الإبن: ما يؤمنك أن تؤتى فى منامك، وقد رفعت إليك مظالم لم تقض حق الله فيها ؟

الأب: يا بنى إن نفسى مطيتى، إن لم أرفق بها لم تبلغنى، إنى لو أتعبت نفسى وأعوانى لم يك ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا، وإنى لأحتسب فى نومتى من الأجر مثل الذى أحتسب فى يقظتى، إن الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملة لأنزله، ولكنه أنزل الآية والآيتين حتى أسكن الإيمان فى قلوبهم. يا بنى. . مما أنا فيه من أمر هو أهم إلىّ من أهل بيتك (الأمويين) وهم أهل القدرة والعدد وقبلهم ماقبلهم، فلو جمعت ذلك فى يوم واحد خشيت انتشاره علىّ ولكنى أنصف من الرجل والاثنين، فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجح له[٤].

فى الآثار السابقة، يقدم لنا عمر فقهه الحاذق فى إدارة الحركات الإصلاحية التجديدية، وتسيير البرامج التى تستهدف إسقاط الظلم والاستغلال ونشر العدل والمساواة[٥]، ففى قوله: إنى لو أتعبت نفسى وأعوانى لم يك ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا. فبين رحمه الله أن طاقة الإنسان محدودة، وأن القابلية على تحمل الجد الصارم لها حدودها هى الأخرى، والإنسان فى تقبله لالتزاماته فى حاجة ضرورية إلى وقت كاف لتمثل هذه الالتزامات من الداخل وتحويلها إلى مبادئ وقيم ممزوجة بدم الإنسان وأعصابه، ومتشعبة فى بنيته وخلاياه، وبدون هذا سوف لن تجتاز هذه الالتزامات حدود الإنسان الباطنة، وستظل هناك مكدسة على أعتاب الحس الخارجى، وطالما ظل هذا التكدس يزداد ثقلاً يومًا بعد يوم، فسوف

(١) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٨٨).
(٢) المصدر نفسه، ص (٨٨).
(٣) انموذج الإدارى المستخلص، ص (٣٢٨).
(٤) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٠٦).
(٥) ملامح الانقلاب، ص (١٧٣).

يأتى يوم لا محالة يسقط فيه الإنسان تحت وطأة هذا الثقل المتزايد غير المتمثل[١]..

ومما يلفت النظر عبارته:.. ولكنى أنصف الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجح له. إن عمر هنا يؤكد على أهمية الإنجاز وعلى دوره فى تحقيق الإصلاح والتجديد. فكثيرون هم أولئك الذين طرحوا أقوالاً أعلنوا فيها عن عزمهم على إحداث ثورة حقيقية وانقلاب يجتث الجذور العفنة، ويبدأ الزرع من جديد، ولكن هؤلاء ما لبثوا أن سقطوا وسقطت مبادئهم لأنهم طرحوا أقوالاً...أما عمر هذا المصلح الكبير والفقيه الحاذق، فإنه يريد أن يطرح أفعالاً، ولا يطرحها بالعنف والإكراه ودونما تخطيط، وإنما لينصف الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءهما حتى يسرى الإصلاح فى نفوس الأمة، أنى كانت، سريان الضياء فى الظلام.

ثم إن عمر هذا الذكى المرن لم يشأ أن يخرج شيئًا إلا ومعه طرف من الدنيا يستلين به القلوب[٢]، ولا يمكن لأحد إن يقول إن هذا يمثل تنازلاً من عمر بن عبد العزيز عن أهداف إصلاحاته الشاملة صوب إصلاح جزئى يقوم على الترقيع... لأننا ما عرفنا عمر منذ حمل مسئولية أمته، يسعى إلى التنازل، ولو شبراً واحداً، عن الأهداف التى طرحها القرآن الكريم والسنة، ولكنه هنا يقدم فقه الأسلوب الحيوى الذى تتأتى به تلك الأهداف كاملة... إن الضغط المستمر يولد الانفجار، ومهما كان سخف هذا الانفجار وعبثه فإنه لا بد أن يحرق ويدمر، وإذا كان بإمكان القادة والمسئولين تجاوز هذا الحريق والدمار عن طريق الالتزام أسلوب حيوى ينسجم وبنية الإنسان النفسية، فلماذا لا يسلكونه؟[٣] فعندما قال له ابنه عبد الملك يا أمير المؤمنين: انفذ لأمر الله وإن جاشت بى وبك القدور، فماذا كان جواب الخليفة المرن؟ يا بنى: إن بادهت الناس بما تقول احوجونى إلى السيف ولا خير فى خير لا يحيا إلا بالسيف[٤].

إن خليفة بهذا المرونة وبهذا الذكاء لا يمكن أن يجزع عن أهدافه يومًا[٥]. ومما مضى يتضح أدلة مرونة عمر فى إدارته فيما يتعلق بتنفيذ السياسة العامة، سياسة إقامة العدل ونشر الإسلام، وبناء دولة العقيدة[٦]، وإليك هذه الشواهد فى تنفيذ مبدأ المرونة:

---

(١) ملامح الانقلاب، ص (١٧٣).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٧٤).
(٣) المصدر نفسه، ص (١٧٤).
(٤) الكامل فى التاريخ نقلاً عن ملامح الانقلاب، ص (١٧٥).
(٥) ملامح الانقلاب، ص (١٧٥).
(٦) النموذج الإدارى، ص (٣٢٩).

١- فلا يحملنك استعجالنا إياك أن تؤخر الصلاة عين ميقاتها: خرج عمر على حرسه يومًا، فقال: أيكم يعرف هذا الرجل الذى بعثناه إلى مصر؟ قالوا: كلنا نعرفه ـ وكان قد كلف رجلاً بمهمة إلى مصر قبل وقت ليس ببعيد ـ قال: فليذهب إليه أحدثكم سنًا فليدعه ـ قال: وذلك فى يوم جمعة، فذهب إليه الرجل فظن الرسول أن عمر بن عبد العزيز استبطأه فقال له: لا تعجلنى حتى أشد علىَّ ثيابى، فشد عليه ثيابه، فأتى عمر، فقال: لا روع عليك، إن اليوم يوم الجمعة، فلا تبرح حتى تصلى الجمعة، وقد بعثناك لأمر عجلة من أمر المسلمين فلا يحملنك استعجالنا إياك أن تؤخر الصلاة عن ميقاتها[١]، فأبدى عمر فى هذا الموقف مرونة فى التنفيذ، رغم أنه أرسل مندوبه لأمر يهم المسلمين إنجازه على عجل[٢].

٢- هلا أقمت حتى تفطر ثم تخرج: لمستدعى عمر بن عبد العزيز عامله على خراسان، فما كان من العامل إلا أن أسرع بالمغادرة إلى الخليفة تنفيذًا لأمره وعندما وصل إلى مقر الخلافة فى دمشق ورأى الخليفة ملامح التعب والإجهاد على وجهه، سأله: متى خرجت ؟ فقال: فى شهر رمضان، فقال له عمر: قد صدق من وصفك بالجفاء !! هلا أقمت حتى تفطر، ثم تخرج[٣].

٣- لا تعنت الناس ولا تعسرهم ولا تشق عليهم: ذكر ابن سعد أن ميمون بن مهران -وكان على ديوان دمشق- قال: ففرضوا لرجل زمِن[٤]، فقلت: الزمن ينبغى أن يحسن إليه، فأما أن يأخذ فريضة رجل صحيح فلا. فشكونى إلى عمر ابن عبد العزيز، فقالوا له: إنه يتعنتنا، ويشق علينا، ويعسرنا. قال: فكتب إلىّ: إذا أتاك هذا، فلا تعنت الناس ولا تعسرهم، ولا تشق عليهم فإنى لا أحب ذلك[٥]، فكتب إليه عمر انطلاقًا من مبدأ المرونة وتسهيل الأمور.

٤- المرونة فى الحوار والتفاهم: فقد كان الحوار الهادئ ومقارعة الحجة بالحجة أسلوبه فى حواره ومناظراته ـ كما مر معنا مع الخوارج ـ فقد حدث أنه دخل على عمر أناس من الحرورية، فذاكروه شيئًا، فأشار إليه بعض جلسائه أن يرعبهم،

---

(١) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٠٦).
(٢) النموذج الإدارى، ص (٣٣٠).
(٣) تاريخ الطبرى نقلاً عن النموذج الإدارى، ص (٣٣٠).
(٤) الزَمِن: هو المبتلى بالعاهة، لسان العرب (١٣/ ١١٩).
(٥) الطبقات (٥/ ٣٨٠).

ويتغير عليهم، فلم يزل عمر بن عبد العزيز يرفق بهم حتى أخذ عليهم، ورضوا منه أن يرزقهم ويكسوهم مـابقى، فخرجوا على ذلك، فلمـا خرجوا ضرب عمـر ركبة رجل يليه من أصحابه، فقال: يا فلان إذا قدرت على دواء تشفى به صاحبك، دون الكى فلا تكوينه أبدًا[١]، وأبدى مرونة فى شتى أساليب التعامل معهم[٢].

٥- المرونة الفكرية: كان عمر يـتحلى بالمرونة الفكرية، متجنبًا الجمـود والتشدد، فـقد حـدث ـ كمـا مر مـعنا ـ أن أرسل عمـر يزيد بن أبى مالك، والحـارث بن محمد، ليعلما الناس السنة، وأجرى عليهم الأرزاق، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث وقال: مـا كنت لآخذ على علم علمنيه الـله أجرًا، فذكر ذلك لـعمر، فقـال: ما نعلم بما صنع يزيد بأسًا، وأكثـر الله فينا مثل الحارث[٣]. فلم يتخذ موقـفًا محددًا تجاه العالمين، رغم اختلاف موقفهـما تجاه قبول الأجر على تعليم الناس، فأيد أخذ الأجر على التـعليم، وأنه لا بأس فيـه، ثم دعا الله أن يكثـر من أمثـال الحارث، فاتضحت مرونتـه فى تأييد الموقفين فى آن واحد، رغم اختـلافهما ويأتى ذلك فى إطار ما عبر عنه عن قناعته التامة، أن مبدأ المرونة مطلوب وضرورى حتى قال: ما يسرنى لو أن أصـحاب محـمد ﷺ لم يخـتلفوا، لأنهم لو لم يختـلفوا، لم تكن رخصة[٤]. وقال: ما يسرنى باختـلاف أصحاب النبى ﷺ، حمر النعم[٥]. فهذه أدلة على تطبـيق عـمـر لمبـدأ المرونة فى إدارته، ولم تكن المرونة عـائقًـا لتنفـيـذ القرارات، وتحقيق الأهداف المرسومة، والوصول إلى المرامى والتطلعات[٦].

تاسعًا: أهمية الوقت فى إدارة عمر بن عبد العزيز:

كان عـمر بن عبـد العزيز يقـضى جل وقته، إن لم يكن كلـه فى تسيير أمور الدولة، أو فى عـمل فيه مـصلحة الأمـة، أو فى أداء حق الله من العبـادة، فكان يقضى ليلته فى الصلاة والمناجـاة، وكان لا يكلم أحدًا بعد أن يوتر[٧]. وفى إطار اغـتنام الوقت نسب إلى عـمر قـوله: إن الليل والنهـار يعـملان فـيك - أى فى

(١) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٧٦، ٧٨).
(٢) النموذج الإدارى، ص (٣٣١).
(٣) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٣٧).
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٧٥).
(٥) الطبقات (٥/ ٣٨١).
(٦) النموذج الإدارى، ص (٣٣٢).
(٧) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢١٠، ٢١١).

الإنسان- فاعمل فيهما[1]، وكان يغتنم الوقت فى الأعمال الصالحة وفى سرعة التوجيه والبت السريع فى الأمور، واتخاذ القرارات الإدارية، وتلافى كل ما من شأنه تأخير عمل أو مصلحة، وأهم الأدلة على ذلك ما كان منه من سرعة إجراء لإصدار ثلاثة قرارات، تحدث عنها ابن عبد الحكم ورواها قائلاً: فلما دفن سليمان ـ وكان دفنه عقب صلاة المغرب ـ دعا عمر بدواة وقرطاس، فكتب ثلاثة كتب، لم يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يؤخرها، فأمضاها من فوره، فأخذ الناس عند كتابته إياها هنالك فى همزه يقولون: ما هذه العجلة؟ أما كان يصبر إلى أن يرجع إلى منزله ؟ هذا حب السلطان، هذا الذى يكره ما دخل فيه، ولم يكن بعمر عجلة ولا محبة لما صار إليه، ولكنه حاسب نفسه ورأى أن تأخير ذلك لا يسعه، وكان الكتاب الأول عن أمر لا يمسه هو شخصيًا فى شئ، بقدر ما يمس المسلمين المجاهدين فى القسطنطينية بعد أن أصابهم من الجوع والضنك، واشتد بهم الأمر أمام عدوهم، فأمر برجوع مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية ورفع الحصار فقد رأى عمر أنه لا يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يلى شيئًا من أمور المسلمين، ثم يؤخر قفلهم ساعة، فذلك الذى حمله على تعجيل الكتاب[2]. حقًا إن الحال الذى كان عليه مجاهدو القسطنطينية لا يحتمل التأخير فى قرار عودتهم على الإطلاق، فكان الإجراء المناسب فى الوقت المناسب[3].

وكتب بعزل أسامة بن زيد التنوخى وكان على خراج مصر فعزله لظلمه وغشمه وتسلطه، كما كتب بعزل يزيد بن أبى مسلم عن إفريقية لظلمه[4]، وكان عمر يهتم بالوقت من حيث اختيار الوقت المناسب لإعلان التوجيهات أو القرارات الإدارية وسهولة إبلاغها، فكان حين يستخدم البلاغة لإبلاغ الناس يراعى الوقت الأكثر ملاءمة سواء من حيث كثرة المجتمعين أم من حيث قدسية المكان وحرمته، وبالتالى زيادة الاهتمام بما يكون فيه، ألا وهو الموسم السنوى، موسم الحج ليخطب فى المسلمين أو يكتب إلى المسلمين فى يوم حجهم الأكبر بما يراه على قدر كبير من الأهمية من أمورهم، إذ يتحقق باختيار ذلك الوقت المناسب أمران،

(١) الإدارة فى التراث الإسلامى (١/ ٢٧٩).
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٣٢).
(٣) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٣٣٧) . (٤) المصدر نفسه، ص (٣٣٧، ٣٣٨).

أحدهما: نشر التوجيه أو القرار أو الإجراء فى أكبر عدد من المسلمين، فى كل بلد من بلدانهم، والثانى سرعة الانتشار التى يحققها إعلان القرار أو التوجيه فى هذا الجمع فى ذلك الوقت(١).

ومن ذلك كتابه إلى أهل الموسم الذى جاء فيه: أما بعد، فإنى أشهد الله وأبرأ إليه فى الشهر الحرام والبلد الحرام، ويوم الحج الأكبر إنى برئ من ظلم من ظلمكم، وعدوان من اعتدى عليكم، أن أكون أمرت بذلك أو رضيته أو تعمدته إلا أن يكون وهمًا منى، أو أمرًا خفى على لم أتعهده، وأرجو أن يكون ذلك موضوعًا عنى مغفورًا لى، إذ علم منى الحرص والاجتهاد، ألا وإنه لا إذن على مظلوم دونى، وأنا معول كل مظلوم، ألا وأى عامل من عمالى رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم، وقد صيرت أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم، ألا وإنه لا دولة بين أغنيائكم، ولا أثرة على فقرائكم فى شئ من فيئكم، ألا وأيما وارد ورد فى أمر يصلح الله به خاصًا أو عامًا من هذا الدين فله مابين مائتى دينار إلى ثلاث مائة دينار على قدر ما نوى من الحسبة، وتجشم من المشقة، رحم الله امرأ لم يتعاظمه سفر يجئ الله به حقًا لمن وراءه، ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أمورًا من الحق أحياها الله لكم، وأمورًا من الباطل أماتها الله عنكم، وكان الله هو المتوحد بذلك فلا تحمدوا غيره، فإنه لو وكلنى إلى نفسى كنت كغيرى والسلام(٢).

فهذا كتاب عظيم من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فى محاربة الظلم وإقرار العدل، فهو قد سعى جاهدًا فى رد المظالم التى عرف عنها، ولكنه يتوقع أن هناك مظالم لم تصل إليه، فكتب هذا الكتاب، وأعلنه فى موسم الحج الذى يضم وفودًا من أغلب بلاد المسلمين، لتبرأ ذمته من مظالم خفية لم تبلغه، وأعلن فى هذا الكتاب براءته من الولاة الذين يقع منهم شىء من الظلم، وربط طاعتهم بطاعة الله تعالى، فهو بهذا يجعل كل فرد من أفراد الأمة رقيبًا على أمير بلده، يسعى فى تثبيته إذا استقام، وفى تقويمه إذا انحرف... ومن أروع ما جاء فى هذا الكتاب تخصيص مبلغ من المال لمن يسعى فى إصلاح أمور الأمة، وفى ذلك ضمان النفقة لمن أراد أن يسافر من أجل ذلك، حتى لا يقف به التفكر فى تأمين

---

(١) النموذج الإدارى، ص (٣٣٩).

(٢) حلية الأولياء (٥/٢٩٢ ، ٢٩٣).

تلك النفقة، ثم يختم كتابه بشكر الله جل وعلا على ما وفقه إليه من الإصلاح الذى تحقق على يديه، وهذا مثل من الإخلاص القوى لله تعالى بحيث يتلاشى حظ النفس، ولا يكون إلا لطف الله جل وعلا وتوفيقه ومعونته[1]. فهذا دليل على تطبيق عمر لمبدأ تحرى ومراعاة أهمية الوقت، حيث لم يقتصر عمر فى إدارته للوقت على اغتنام الوقت وإدراك أهميته، بل كانت إدارة كاملة لكل مقتضيات اغتنام الوقت وكل ما يتعلق به من ضرورة سرعة اتخاذ القرارات والتوجيه فى الأوقات المناسبة، والعمل على تلافى التأخير وأسبابه ودوافعه[2].

عاشراً: مبدأ تقسيم العمل فى إدارة عمر بن عبد العزيز:

كان عمر بن عبد العزيز قد أشار صراحة إلى مبدأ تقسيم العمل ومهام المسئولية للدولة، فقد كتب فى كتابه إلى عقبة بن زرعة الطائى، بعد أن ولاه خراج خراسان: . . . إن للسلطان أركانًا لا يثبت إلا بها، فالوالى ركن، والقاضى ركن، وصاحب بيت المال ركن، والركن الرابع أنا - يعنى الخليفة -[3]. هذا من حيث التقسيم الرئيسى العام، فبالإضافة إلى الأركان الرئيسية لإدارته وهى: الولاية ويشملها الوالى للإقليم، والقضاء ويمثله القاضى، ومالية الدولة ويمثلها رجل أو صاحب بيت المال والرابع السلطة العليا، للدولة رجل الدولة أو الخليفة، ويمثلها أمير المؤمنين، إلا أن هناك تقسيمات فرعية لمهام الدولة منها ما يتعلق بإمارة الجهاد، فقد كان منصور بن غالب على ولاية الحرب[4]، وعلى الصائفة كل من الوليد بن هشام، وعمرو بن قيس السكونى[5]. وقسم آخر وهو ما يتعلق بالأمن الداخلى، إذ استعمل عمر بن يزيد بن بشر الكلبى على الشرطة[6]، وولى الحرس عمر بن مهاجر بن أبى مسلم الأنصارى، وحاجبه حبيش مولاه، وأنشأ نقاط العبور وولى عليها، مثل جواز مصر، وكان عليها عمر بن رزيق الأيلى، وهى ما تعرف الآن بنقاط الجمارك[7]، وقسم ثالث يختص بالكتابة (الكتاب)، ومنهم ليث

---

(١) التاريخ الإسلامى (١٦/ ١٥١) . (٢) النموذج الإدارى، ص (٣٤٠) .
(٣) تاريخ الطبرى نقلاً عن النموذج الإدارى، ص (٣٤٢) . (٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٧١) .
(٥) تاريخ خليفة، ص (٣٢٤) . (٦) المصدر نفسه، ص (٣٢٤) .
(٧) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٣٤٤) .

ابن أبى رقية مولى أم الحكم بنت أبى سفيان[١] والخاتم وعليه نعيم بن أبى سلامة[٢]، وقسم يتولى متابعة الشئون المالية، وله تفريعات منها الخراج، ومن ولاته على الخراج عقبة بن زرعة الطائى[٣]، والصدقات إذ وليها لعمر عبد الله بن عبد الرحمن بن عتبة القرشى[٤]، وهى تمثل مؤسسة النقد فى الوقت الراهن ووليها لعمر بن أبى حملة القرشى[٥]، وكذلك الخراج المركزى وكان عليه صالح بن جبير الغدانى[٦].

وأما فى مجال التعليم والتثقيف فقد أنشأ عمر مجالس التعليم الدائمة فى المساجد، وكلف من يقوم بالتفقيه والتعليم المتنقل فى البداية، كما كلف أناسًا بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأقام دور الإفتاء إذ جعل الفتيا فى مصر إلى ثلاثة فقهاء[٧]. بالإضافة إلى ما سبق فقد كانت هناك ولايات أخرى، مثل ولاية الصلاة وولاية الحج وتسيير أموره، والبريد وغير ذلك مما لم يسعفنا المقام بالإحاطة والتفصيل له. وهكذا كان عمر بن عبد العزيز يطبق مبدأ تقسيم العمل فى دولته[٨]، فقد كان رحمه الله رجل دولة من الطراز الأول.

هذا وقد كان عمر بن عبد العزيز فى كثير من الأحيان يعطى الولاة الحق فى تعيين وزرائهم، وتشكيل مجالس شوراهم، ولهم حق الإشراف على جيش الولاية، والحفاظ على الأمن الداخلى فى الولاية، والنفقات اللازمة لكل ولاية مع الإشراف والمتابعة.... إلخ، هذه بعض الملامح والمعالم من فقه عمر بن عبد العزيز فى إدارته للدولة.

- من أسباب نجاح مشروع عمر بن عبد العزيز الإصلاحى:

كانت هناك عوامل متعددة ساهمت فى نجاح مشروعه الإصلاحى منها:

١- صفاته الشخصية من العلم، والورع والخشية، والزهد والتواضع، والحلم والصفح، والعفو، والحزم والعدل مع قدرات إدارية كبيرة فى فن التخطيط والتنظيم والقيادة والتوجيه ومعرفة الناس.

---

(١) تاريخ خليفة، ص (٣٢٤).
(٢) المصدر نفسه، ص (٣٢٥).
(٣) تاريخ الطبرى نقلاً عن النموذج الإدارى، ص (٣٤٤).
(٤) أمراء دمشق فى الإسلام، ص (٤٨).
(٥) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٩٥).
(٦) تاريخ خليفة، ص (٣٢٤).
(٧) البداية والنهاية نقلاً عن النموذج الإدارى، ص (٣٤٤).
(٨) النموذج الإدارى، ص (٣٤٥).

٢- امتلاكه لرؤية إصلاحية تجديدية واضحة المعالم، هدفها الرجوع بالدولة والأمة لمنهج الخلافة الراشدة على منهاج النبوة.

٣- التفاف الأمة حول هذا المشروع عندما لمست صدق المشرف عليه وإخلاصه.

٤- وجود كوكبة من العلماء الربانيين فى عهده، كانوا مؤهلين لقيادة الدولة والأمة، فلما جاءت الفرصة بوصول عمر بن عبد العزيز للحكم، وأتاح لهم المجال أبدعوا وأثبتوا جدارتهم فيما أسند لهم من مهام كبرى. وهذا درس مهم فى أهمية تكامل العلم الشرعى، والأمانة والتقوى مع القدرات القيادية فى شخصية العلماء الربانيين، فذلك يساعدهم على تحكيم شرع الله من خلال مناصب الدولة وقيادة الجماهير والتفاهم حول المشروع الإسلامى الكبير.

٥- الحرص على تحكيم الشرع فى كل صغيرة وكبيرة، على مستوى الدولة والأمة، فيأتى بذلك التوفيق الربانى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ [الأعراف: ٩٦].

*** أثر الالتزام بأحكام القرآن والسنة الشريفة على دولة عمر بن عبد العزيز رحمه الله:**

إن التأمل فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفى حياة الأمم والشعوب تعطى العبد معرفة أصيلة بأثر سنن الله فى الأنفس والكون والآفاق، وأوضح مكان لسنن الله وقوانينه، كتاب الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ...﴾ [النساء: ٢٦].

وسنن الله تتضح بالدراسة فيما صح عن رسول الله ﷺ بالمطالعة فى سنته ﷺ فقد كان يقتنص الفرص والأحداث ليدل أصحابه على شىء من السنن، ومن ذلك أن ناقته ﷺ (العضباء) كانت لا تسبق، فحدث مرة أن سبقها أعرابى على قعود له، فشق ذلك على أصحاب النبى ﷺ فقال لهم ﷺ كاشفًا عن سنة من سنن الله: «حق على الله أن لا يرتفع شىء من الدنيا إلا وضعه»(١) وقد أرشدنا كتاب الله إلى تتبع آثار السنن في الأمكنة بالسعى والسَّيْر، وفى الأزمنة من التاريخ والسِّير. قال

---

(١) البخارى، ك الجهاد و لسير رقم (٢٨٧٢).

تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧، ١٣٨] وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السنن بالنظر والتفكر، قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠١، ١٠٢].

* من خصائص السنن الإلهية:

١- أنها قدر سابق: قال تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] أى أن حكم الله تعالى وأمره الذى يقدره كائن لا محالة، وواقع لا محيد عنه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

٢- أنها لا تتحول ولا تتبدل: قال تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٦٠- ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٢، ٢٣].

٣- أنها ماضية لا تتوقف: قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

٤- أنها لا تخالف ولاتنفع مخالفتها: قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٢ - ٨٥].

٥- لاينتفع بها المعاندون ولكن يتعظ بها المتقون: قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧، ١٣٨].

٦ ـ أنها تسرى على البر والفاجر: فالمؤمنون ـ والأنبياء أعلاهم قدرًا ـ تسرى عليهم سنن الله، ولله سنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة على من امتثل شرع الله أو أعرض عنه(١).

الآثار الدنيويةالتى ظهرت فى دولة عمر بن عبد العزيز بسبب الحكم بما أنزل الله:

١- الاستخلاف والتمكين: حيث نجد أن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ مكن الله له فى الأرض تمكينًا عظيمًا، بسبب حرصه على إقامة شرع الله تعالى فى نفسه وأهله ومن حوله وقومه، وأمته وأخلص لله فى مشروعه الإصلاحى الراشدى، فأيده الله عز وجل وشد أزره، فقد أخذ بشروط التمكين وعمل بها، فتحقق له وعد الله، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]. وهذه سنة ربانة نافذة لا تتبدل فى الشعوب والأمم التى تسعى جاهدة وجادة لإقامة شرع الله.

٢- الأمن والاستقرار: كانت الثورات فى العهد الأموى على أشدها ضد النظام السائد، وخصوصًا من الخوارج إلا أن عمر بن عبد العزيز استطاع بالحوار والنقاش أن يقنع الكثير منهم، ولقد تميز عهده بالأمن والاستقرار بسبب عدله فى الحكم ورفعه للمظالم، واحترامه الكبير لكل شرائح المجتمع، وحرصه على تطبيق الشريعة جميع شئون الحياة. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

٣- النصر والفتح: إن عمر بن عبد العزيز حرص على نصرة دين الله بكل ما يملك، وتحققت فيه سنة الله فى نصرته لمن ينصره، لأن الله ضمن لمن استقام

(١) الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/ ٦٦٧ - ٦٦٩).

على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]. فقد وعد الله من ينصره، ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله، لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ولا يتكلم بما لا يعلم(١)، كما نرى فى حياتنا المعاصرة.

٤ ـ العز والشرف: إن الشرف الكبير والعز العظيم اللذين سطرا فى كتب التاريخ عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز كان بسبب تمسكه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإن من يعتز بالانتساب لكتاب الله الذى به تشرف الأمة ويعلو ذكرها وضع رجله على الطريق الصحيح وأصاب سنة الله الجارية فى إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] قال ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ فى تفسيره هذه الآية: فيه شرفكم(٢). فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمساكها بأحكام الإسلام.

٥- بركة العيش ورغد الحياة فى عهده: قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]

إن إقامة شرع الله تعالى وتطبيق أحكامه يجلب للأمة بركات مادية ومعنوية، فمن حقق الإيمان والتقوى يكرمه الله بهذا العطاء الربانى الكبير. والبركات التى يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون فى توكيد ويقين، ألوان شتى، لا يفصِّلها النص ولا يحددها، وإيماء النص القرآنى يصور الفيض الهابط من كل مكان، النابع من كل مكان بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان، فهى البركات بكل أنواعها وألوانها، وبكل صورها وأشكالها، وما يعهده الناس وما يتخيلونه، وما لم يتهيأ لهم فى واقع الخيال(٣). ولقد لامس الناس وشاهد هذه البركات فى عهد عمر بن عبد

(١) صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامى للصَّلاَّبىِّ (٢/ ٣٠٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٠).
(٣) فى ظلال القرآن (٣/ ١٣٣٩).

العزيز سواء كانت مادية أو معنوية، وفوجئ الناس أن بركة العيش ورغد الحياة قد عَمَّا جميع الناس، ومالية الدولة قويت، واطمأن الناس فى كل رقعة من رقعة خلافة الدولة الأموية الواسعة، حتى عز وجود من يستحق الزكاة ويقبلها، وأصبحت هذه مشكلة للأغنياء وأصحاب الأموال تطلب حلاً سريعًا، قال يحيى بن سعيد: بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرًا، ولم نجد من يأخذها منى، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فاشتريت بها رقابًا، فأعتقتهم وولاءهم للمسلمين(١). وقال رجل من ولد زيد بن الخطاب: «إنما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا، فذلك ثلاثون شهرًا، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقولوا: اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء، فما يبرح بماله يتذكر من يضعه فيهم فما يجده، فيرجع بماله، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس(٢). فهذه الفوائد العامة من بركات الحكومة الإسلامية التى تطبق شرع الله تعالى.

٦- انتشار الفضائل وانزواء الرذائل: بين الشريعة وبين الخلق أوثق الرباط وأمتن العرى، كيف لا، والرسالة من غاياتها العظمى: تزكية الأخلاق وتربية الفضائل. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. فمعنى يزكيهم: أى يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم، وتطهر من الدنس والخبث الذى كانوا متلبسين به حال شركهم وجاهليتهم(٣). ولقد اهتم عمر بن عبد العزيز بنشر الفضائل وحارب الرذائل، وتحركت معه مدرسة الوعظ والإرشاد والتزكية والتربية، والتى كان من روادها الحسن البصرى، وأيوب السختيانى، ومالك بن دينار وغيرهم. وقد حققت هذه المدرسة نتائج باهرة فى نشر الفضائل وانزواء الرذائل، وقد حدث فى عهد عمر بن عبد العزيز تجديد كبير فى توجه الأمة والمجتمع الإسلامى والتطور فى الأذواق والأخلاق والميول والرغبات فى هذه المدة القصيرة. فقد حدث الطبرى فى تاريخه:

---

(١)، (٢) رجال الفكر والدعوة (١/ ٥٨).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٤٠١)، الحكم والتحاكم (٢/ ٦٩١).

كان الوليد صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون فى زمانه، يسأل بعضهم بعضًا عن البناء والمصانع، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم بعضًا عن التزويج والجوارى، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل: ما وراءك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم؟ ومتى ختمت، وما تصوم من الشهر؟(١).

٧- الهداية والتثبيت: جاء عن عمر بن عبد العزيز فى خطابه الذى أرسل ليقرأ على الحجاج فى موسم الحج: . . . ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أمورًا من الحق أحياها الله لكم، وأمورًا من الباطل أماتها الله عنكم، وكان الله هو المتوحد بذلك فلا تحمدوا غيره، فإنه لو وكلنى إلى نفسى كنت كغيرى، والسلام عليكم(٢). ولاشك أن عمر بن عبد العزيز حرص على تحكيم شرع الله فى دولته وبذلك منحه الله نعمة عظيمة ألا وهى الهداية والتثبيت على الحق، قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. ثم قال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨] والأمر الذى وعظوا به ووعدوا الخير لأجله: هو تحكيم الشريعة والإنقياد للرسول ﷺ، فلو أنهم امتثلوا لما أمروا لثبت الله أقدامهم على الحق، فلا يضطربون فى دينهم، ولآتاهم الهداية التى لا عوج فيها بحيث توصلهم إلى الأجر العظيم(٣).

إن الهداية والثبات على الأمر، هبة يهبها الله لمن تمحض قلبه لأمره وانقادت جوارحه لحكمه(٤).

إن خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية على من لا يزال يردد ترديد الببغاء للكلمات والأصوات القائلة: إن الدولة التى تقوم على الأحكام الإسلامية والشريعة

(١) تاريخ الطبرى نقلاً عن رجال الفكرة والدعوة (١/ ٥٩).
(٢) حلية الأولياء (٥/ ٢٩٢، ٢٩٣).
(٣) فتح القدير (١/ ٤٨٥).
(٤) الحكم والتحاكم (٢/ ٦٩٠).

عرضة للمشــاكل والأزمات، وعرضة للإنهيار فى كل ساعــة، وأنها ليست إلا حلمًا من الأحلام، ولا يزال التاريخ يتحدى هؤلاء ويقول لهم[1]: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

ومما أدهشنى فى دراستى التاريخيــة تواصل الأجيال الإسلامية فيمــا بينها، عبر حلقــات متــماسكة تؤثر بــعضــها فى بعض، فــالسلطان نور الدين زنكى المتــوفى (٥٦٨هـ) كتب له الشيخ العلامة أبو حفص معــين الدين عمر بن محمد بن خضر الإربلى سيرة عمر بن عبد العــزيز؛ لكى يسير نور الدين على منهاجها، ولقد آتت معالم الإصلاح والتجديد الراشدى فى عهــد عمر بن عبد العزيز ثمارها فى الدولة الزنكية عندمــا وجدت العالم الكبــير الذى رسم ملامح المشــروع الإصلاحى وهو الشيخ أبو حفص معــين الدين، واقتنع القائد العسكرى والزعيم الســياسى بسلامة المنهج وهو نور الدين زنكى، فقــد قال أبو حفص فى مــقدمة كتــابه عن عمــر بن عبد العــزيز وتقديمه ذلك الكتاب لنور الدين: .. علمًــا منه أن الاقتداء بمن سلف من الفضــلاء والعقلاء يكمل الأجر ويبــقى الذكر، واتباع سنن المهــديين الراشدين يصلح السريرة ويحسن السيرة، وأن الله سبحــانه وتعالى أمر نبيه ﷺ بالاقتداء بمن سلف من الأنبيــاء، فقال عــز من قائل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]. فلذلك اشتد حرصه ـ أدام الله سعادته ـ على جمع السير الصالحة والآثار الواضحة، فحينئذ رأيت حقًــا علىَّ بذل الوسع فى مساعدته واستنفاد القوة فى معاضــدته بحكم صدق الولاء وأكيــد الإخاء، فصرفت وجه همــتى إلى جمع سيرة الســعيد الرشيد عــمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عــنه ـ، والتجأت إلى الله الكريم -جل اسمــه- أن يحسن معونتــى وييُسِّر ما صــرفت إليه عزيمتى، فــحين شرح الــله صدرى لذلك ولاحت أمــارات المعونة، بادرت إلى جــمع هذه الســيرة برسم خزانته المعــمورة معاونة على البــر والتقوى[2]. لقد قــدم هذا الشيخ الجليل منهاجًا علمــيًا لنور الدين زنكى من خلال سيــرة عمر بن عبد الــعزيز، فبنى دولة العقيدة، وحكم الشريعة. وأقام العدل ورفع الضرائب والمكوس عن الأمة، وعمل

(١) رجال الفكر والدعوة (١/٥٩).

(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/٢).

على إحياء السنة وقمع البدعة، وعمق هوية الأمة وفجر روح الجهاد فيها، ونشر العلم وساهم فى تحقيق الازدهار والرخاء، وكان نسيجَ وحدِه فى زهده وورعه وعبادته وصدقه وإخلاصه، ومن أراد التوسع فليراجع الجهاد والتجديد فى القرن السادس الهجرى، عهد نور الدين وصلاح الدين لمحمد حامد الناصر.

إن آثار تحكيم شرع الله فى الشعوب التى نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة التى أصابت دولة عمر بن عبد العزيز، ودولة نور الدين زنكى، ودولة يوسف بن تاشفين، ودولة محمد الفاتح لهى سنن من سنن الله الجارية والماضية، والتى لا تتبدل ولا تتغير، فأى قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم مخلصة لله فى قصدها، مستوعبة لسنن الله فى الأرض فإنها تصل إليه ولو بعد حين، وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكامها. إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان فى جهادهم وعلمهم وتربيتهم وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن الله وفقهه، ومراعاة التدرج والمرحلية والارتقاء بالشعوب نحو الكمالات الإسلامية المنشودة، إن التوفيقات الربانية العظيمة فى تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدى من أخلص لربه ودينه، وأقام شرعه، وقصد رضاه وجعله فوق كل اعتبار.

*** الأيام الأخيرة فى حياة عمر بن عبد العزيز ووفاته رحمه الله:**

١ - **آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز:** كانت آخر خطبة خطبها بخناصرة، فقال فيها: أيها الناس، إنكم لم تخلقوا عبثًا ولن تتركوا سدى، وإن لكم معادًا ينزل الله فيه للحكم فيكم، والفصل بينكم، وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعت كل شىء، وحرم الجنة التى عرضها السماوات والأرض، ألا واعلموا أنما الأمان غدًا لمن حذر الله وخافه، وباع نافدًا بباق، وقليلاً بكثير، وخوفًا بأمان، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين، وسيخلفها بعدكم الباقون كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين؟، وفى كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله؛ قد قضى نحبه وانقضى أجله، فتغيبونه فى صدع من الأرض، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد، قد فارق الأحبة، وخلع الأسباب، فسكن التراب وواجه

الحساب، فهو مرتهن بعمله، فقير إلى ما قدم، غنى عما ترك، فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقعه، وايم الله إنى لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندى، فأستغفر الله وأتوب إليه، وما منكم من أحد تبلغنا عنه حاجة إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه، وما منكم أحد يسعه ما عندنا إلا وددت أنه سداى ولحمتى، حتى يكون عيشنا وعيشه سواء، وأيم الله أن لو أردت غير هذا من الغضارة والعيش، لكان اللسان منى به ذلولاً عالمًا بأسبابه، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة، يدل فيها على طاعته، وينهى عن معصيته، ثم رفع طرف ردائه فبكى حتى شهق، وأبكى الناس حوله، ثم نزل، فكانت إياها لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله[١].

٢ ـ سقيه السم: اختلفت الروايات عن سبب مرض وموت عمر بن عبد العزيز، فعلى حين تذكر الروايات أن سبب مرضه وموته هو الخوف من الله تعالى، والاهتمام بأمر الناس، كما روى عن زوجته فاطمة بنت عبد الملك، وكما ذكر ابن سعد فى الطبقات عن ابن لهيعة[٢]، إلا أنه قد ذكر سبب آخر لموته، وهو أنه سقى السم، وذلك أن بنى أمية قد تبرموا وضاقوا ذرعًا من سياسة عمر بن عبد العزيز التى قامت على العدل، وحرمتهم من ملذاتهم وتمتعهم بميزات لا ينالها غيرهم، بل جعل بنى أمية مثل أقصى الناس فى أطراف دولة الإسلام، ورد المظالم التى كانت فى أيديهم وحال بينهم وبين ما يشتهون، فكاد له بعض بنى أمية بوضع السم فى شرابه[٣]. وهذا ليس من المستبعد أو المستغرب أن يعمد أحد هؤلاء إلى سقيه السم ليتخلص منه، وليكن ذلك عن طريق خادمه الذى يقدم له الطعام والشراب، فقد روى أنهم وعدوا غلامه بألف دينار وأن يعتق إن هو نفذ الخطة، فكان الغلام يضطرب كلما هم بذلك، ثم إنهم هددوا الغلام بالقتل إن هو لم يفعل، فلما كان مدفوعًا بين الترغيب والترهيب حمل السم فوق ظفره، ثم لما أراد تقديم الشراب لعمر قذف السم فيه ثم قدمه إلى عمر فشربه ثم حس به منذ أن وقع فى بطنه[٤]. وعن مجاهد قال: قال لى عمر بن عبد العزيز: ما يقول الناس فى؟

---

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٧٥).

(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٣)، الحلية (٥/ ٣٤٢).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٣).

(٤) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٣١٦، ٣١٧).

قلت: يقولون إنك مسحور. قال: ما أنا بمسحور، ثم دعا غلامًا له فقال له: ويحك ما حملك على أن تسقينى السم ؟ قال: ألف دينار أعطيتها وعلى أن أُعتق، قال: هات الألف فجاء بها، فألقاها عمر فى بيت المال. وقال: أذهب حيث لا يراك أحد[١]. فالسبب المباشر لمرضه وموته -كما ذكرت الروايات- كان بسبب سقيه السم[٢]. ففى عفوه عن غلامه الذى وضع له السم وتسبب فى قتله وهو قادر على أن يقتله شر قتلة -وفى عدم استفهامه من الغلام عمن أمره بوضع السم- وقد كان يستطيع إرغام الغلام والاعتراف بذلك ثم يأمر بالقصاص منهم جميعًا مثل عجيب فى العفو، وسبب ذلك لأنه كان يوقن أن ما عند الله خير، وأنه إن عفا عنه حصل له الثواب من الله تعالى على عفوه، وإن انتصر منه فأقام عليه الحد لم يأثم ولكنه لا يحصل على أجر العفو ونظرًا إلى أن أغلى شىء عنده فى هذه الحياة أن يرتفع رصيده من الحسنات فإنه قد فضل العفو على انتصاره للنفس[٣].

٣- شراء عمر موضع قبره: بلغ من تواضع عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- أنه عندما ذكروا له ذلك الموضع الرابع فى حجرة عائشة، والتى فيها قبر النبى ﷺ وأبى بكر وعمر، فقالوا: لو دنوت من المدينة حتى تدفن معهم، قال: والله لأن يعذبنى الله عذابًا - إلا النار فإنى لا صبر بى عليها - أحب إلى من أن يعلم الله من قلبى أنى أرانى لذلك أهلاً[٤]. ويأبى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - إلا أن يشترى موضع قبره من ماله الخاص، وذلك بسبب ورعه ومحاسبته الشديدة لنفسه، فقد جاءت الروايات أنه قال لمن حوله - وهو فى مرض موته -: اشتروا من الراهب موضع قبرى، فقال له النصرانى: والله يا أمير المؤمنين إنى لأتبرك بقربك وجوارك وإنه لخير أن يكون قبرك فى أرضى، قد أحللتك، ويأبى عمر قائلاً: إن بعتمونى موضع قبرى وإلا تحولت عنكم، ثم دعا بالثمن الذى اختلفت الروايات فى مقداره فقيل: دينارين، وقيل: ستة، وقيل: ثلاثين، دعا بالثمن فوضعه فى يد النصرانى، فقال أصحاب الأرض: لولا أنا نكره أن يتحول عنا ما قبلنا الثمن[٥].

---

(١) تذكرة الحفاظ (١/ ١٢٠).

(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٤).

(٣) التاريخ الإسلامى (١٦/ ٢٢٩).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٣٢١ - ٣٢٤)، فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٥).

(٥) المصدر نفسه، ص (٣٢٢، ٣٢٣).

٤ ـ وصيته لولي عهده يزيد بن عبد الملك: كتب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن عبد الملك ـ وهو فى مرض الموت ـ قائلا: بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر ـ أمير المؤمنين ـ إلى يزيد بن عبد الملك، السلام عليك:

فإني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فإني كتبت إليك وأنا دنف(١) من وجعي وقد علمت إني مسئول عما وليت، يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة، ولست أستطيع أن أخفى عليه من عملي شيئًا، يقول تعالى فيما يقول: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾: [الأعراف: ٧] فإن يرض عنى الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهول الطويل، وإن سخط عليَّ فيا ويح نفسى إلى ما أصير، أسأل الله الذى لا إله إلا هو، أن يجيرني من النار برحمته، وأن يمن عليَّ برضوانه والجنة. وعليك بتقوى الله والرعية الرعية، فإنك لن تبقى بعدى إلا قليلاً حتى تلحق باللطيف الخبير(٢).

وجاء فى رواية: . . . فإن سليمان بن عبد الملك، كان عبداً من عباد الله، قبضه الله، واستخلفني وبايع لى من قبله، وليزيد بن عبد الملك إن كان من بعدى، ولو كان الذى أنا فيه لاتخاذ أزواج، أو اعتقاد أموال، كان الله قد بلغ بى أحسن ما بلغ بأحد من خلقه، ولكنى أخاف حسابًا شديدًا، ومسألة لطيفة، إلا ما أعان الله عليه والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

لقد نصح عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ لولي عهده يزيد بن عبد الملك ما وسعه النصح، وبذل ما يقدر عليه من التخويف والتهديد من عاقبة الأمر، مع ضرب الأمثلة والاعتبار بالسابقين فقد نصح وبلَّغ أتم البلاغ(٣).

٥- وصيته لأولاده عند الموت: لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين إنك قد أفغرت أفواه ولدك من هذا المال، فلو أوصيت بهم إليَّ وإلى نظرائي من قومك فكفوك مؤونتهم، فلما سمع مقالته: قال: أجلسوني، فأجلسوه فقال: قد سمعت مقالتك يا مسلمة، أما قولك: إني قد أفغرت أفواه ولدى من هذا المال، فوالله ما ظلمتهم حقًا هو لهم،

---

(١) دنف: اشتد به المرض حتى أشفى على الموت .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص (٣١٨، ٣١٩)، فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٧) .

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٧).

ولم أكن لأعطيهم شيئًا لغيرهم، وأما ما قلت فى الوصية فإن وصيتى فيهم: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]. وإنما ولد عمر بين أحد رجلين: إما صالح فسيغنيه الله، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله، ادع لى بنىَّ، فأتوه، فلما رآهم ترقرقت عيناه، وقال: بنفسى فتية تركتهم عالة لا شىء لهم وبكى ثم قال: يا بنى إنى قد تركت لكم خيراً كثيراً، لا تمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقًا، يا بنى إنى قد مثلت بين الأمرين: إما أن تستغنوا وأدخل النار، أو تفتقروا إلى آخر يوم الأبد وأدخل الجنة، فأرى أن تفتقروا إلى ذلك أحب إلىَّ، قوموا عصمكم الله، قوموا رزقكم الله[(١)].

وجاء فى رواية: أن عمر أوصى مسلمة أن يحضر موته وأن يلى غسله وتكفينه، وأن يمشى معه إلى قبره، وأن يكون مما يلى إدخاله فى لحده، ثم نظر إليه وقال: انظر يا مسلمة بأى منزل تركتنى، وعلى أى حال أسلمتنى إليه الدنيا، فقال له مسلمة: هذه مائة ألف دينار، فأوص فيها بما أحببت، قال: أو خير من ذلك يا مسلمة ؟ أن تردها من حيث أخذتها، قال مسلمة: جزاك الله عنا خيراً يا أمير المؤمنين والله، لقد ألنت قلوبًا قاسية، وجعلت لنا ذكراً فى الصالحين[(٢)].

وفى الأثرين الماضيين دروس وعبر، ففى الخبر الأول مثل من ورع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى حتى فى وصيته لأولاده بعد موته، حيث لم يرض لنفسه أن يفارق الدنيا وقد حمل ذمته شيئًا لا يدرى على أى وضع يكون تنفيذه، فربما تصور أنه لو أوصى بهم أحد أقاربه لأعطاهم من مصدر لا يحل، فيلحقه بذلك شىء من الإثم، فلجأ إلى الله تعالى وفوض أمرهم إليه. لقد تصور فى معاملة أولاده وقوعه بين أمرين: أن يغنيهم فى الحياة الدنيا، وذلك بمنحهم شيئًا من المال العام للمسلمين، فيتعرض بذلك لنفحات النار، أو أن يكتفى بالإنفاق عليهم من المورد القليل الحلال الخالى من الشبهات، فيتعرض بذلك لنفحات الجنة، فاختار الطريق الأخير مع ثقته أن لن يضيعهم، وقد أشار إلى أنه ترك لهم السمعة العالية، حيث سيكونون موضع احترام وعطف جميع المسلمين

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١١٥، ١١٦)، التاريخ الإسلامى (١٦/ ٢٢٠).
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٢٢، ١٢٣)، التاريخ الإسلامى (١٦/ ٢٢٢).

وأهل الذمة، وأكرم بذلك من تركة، إنها تركة عظيمة لا تقدر بها أموال الدنيا عند أصحاب الأفكار النيرة، والعقول المبصرة، وفي قوله: إنما ولد عمر بين رجلين: إما رجل صالح فسيغنيه الله، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله.. لفتة جليلة إلى معية الله تعالى لأوليائه بالحفظ أخذًا من قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ وإشارة إلى أن الأمر المهم أن يبذل الوالد أقصى جهده في تربية أولاده على الصلاح ليحفظهم الله تعالى، وليس المهم أن يسعى في جمع المال لهم حتى يغتنوا من بعده، لأنهم إن لم يكونوا صالحين فسيكون ذلك المال عونًا لهم على معصية الله تعالى[1]. وأما في الأثر الثاني فيوجه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ابن عمه مسلمة بن عبد الملك إلى التحري في اكتساب المال، ويبين له أن إنفاق المال بالصدقة أو الهدية لا يجعله حلالاً، بل لا بد من التحري في كسبه، فإذا لم يكن للإنسان حق فيه وجب عليه أن يرده إلى مستحقيه، ولا يبرئ ساحته أن يتصدق به أو يهديه[2].

٦- وصيته إلى من يغسله ويكفنه: عن رافع بن حفص المدني أن عمر قال لرجاء: إذا أنا مت وغسلتموني وكفنتموني وصليتم عليَّ وأدخلتموني لحدي، فاجذب اللبنة من عند رأسي، فإن رأيت وجهي إلى القبلة فاحمدوا الله وأثنوا عليه، وإن رأيت قد زويت عنها، فاخرج إلى المسلمين ماداموا عند لحدي حتى يستوهبوني من ربي، قال: فلما وضع في لحده وقبل باللبن على وجهه، جذبت اللبنة من عند رأسه فإذا وجهه إلى القبلة فحمدنا الله وأثنينا عليه[3].

٧- كراهته تهوين الموت عليه: قال عمر بن عبد العزيز: ما أحب أن يخفف عني سكرات الموت لأنه آخر ما يرفع للمؤمن من الأجر[4]. وفي رواية: ما أحب أن يخفف عني سكرات الموت لأنه آخر ما يكفر به عن المرء المؤمن[5].

٨- حاله لما احتضر: لما احتضر عمر بن عبد العزيز، قال: اخرجوا عني فلا يبقين عندي أحد. وكان عنده مسلمة بن عبد الملك، فخرجوا، وقعد مسلمة

---

(١) التاريخ الإسلامي (١٦/ ٢٢٢). (٢) المصدر نفسه (١٦/ ٢٢٢).

(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٤٤، ٦٤٥).

(٤)، (٥) المصدر نفسه (٢/ ٦٤٨)

وفاطمة زوجه أخت مسلمة على الباب فسمعوه يقول: مرحبًا بهذه الوجوه، ليست وجوه إنس ولا بوجوه جان[1]، وجاء فى رواية: . . .قالت فاطمة بنت عبد الملك: كنت أسمع عمر يقول فى أيام مرضه: اللهم أخف عنهم موتى ولو ساعة من نهار، فلما كان اليوم الذى قبض فيه خرجت من عنده، وجلست فى بيت بينى وبينه باب، فسمعته يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]. ثم هدأ، فجعلت لا أسمع له صوتًا ولا حسًا ولا كلامًا. فقلت لوصيف كان يخدمه: لو دخلت على أمير المؤمنين فدخل وصاح، فقمت ودخلت عليه وقد أقبل بوجهه إلى القبلة، وأغمض عينيه بإحدى يديه، وأغمض فمه بالأخرى، ومات رحمه الله[2]. وجاء فى رواية: أن عمر بن عبد العزيز لما كان مرضه الذى هلك فيه قال لهم: أجلسونى، فأجلسوه، ثم قال: أنا الذى أمرتنى فقصرت، ونهيتنى فعصيت، ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه وأحد النظر، فقالوا له: إنك لتنظر نظرًا شديدًا، فقال: إنى لأرى حضرة ليست بإنس ولا جن ثم قبض[3]. وكان نقش خاتمه: عمر بن عبد العزيز يؤمن بالله.

٩- تاريخ وفاته:توفى الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر ليال بقين من رجب سنة (١٠١هـ) على أصح الروايات، واستمر معه المرض عشرين يومًا، وتوفى بدير سمعان من أرض المعرة بالشام بعد خلافة استمرت سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، وتوفى وهو ابن تسع وثلاثين سنة وخمسة أشهر، وعلى أصح الروايات: كان عمره لما توفى أربعين سنة[4].

١٠- الأموال التى تركها عمر بن عبد العزيز:اختلفت الروايات على مقدار تركة عمر بن عبد العزيز حين توفى، ولكن الروايات متفقة على قلة التركة وانعدامها[5]، ومن هذه الروايات ما رواه عمر بن حفص المعيطى قال: حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ قال: قلت: كم ترك لكم من

---

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٥٢).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٦٥٣).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ٦٥٤).

(٤) تاريخ القضاعى، ص (٣٦٣).

(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٥٠)، تذكرة الحفاظ (١/ ١١٨).

المال؟ فتبسم وقال: حدثنى مولى لنا كان يتولى نفقته، قال: قال لى عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ حين احتضر: كم عندك من المال؟ قلت: أربعة عشر ديناراً، فقال: تحتملون بها من منزل إلى منزل، فقلت: كم ترك من النحلة ؟ قال: ترك لنا نحلة ستمائة دينار ورثناها عنه عن اختيار عبد الملك، وتركنا اثنى عشر ذكراً وست نسوة، فقسمناها على خمس عشرة[1]. والصحيح أن الذكور الذين ورثوه هم أحد عشر ذكرًا، لوفاة ابنه عبد الملك قبله[2]. وقال ابن الجوزى: أبلغنى أن المنصور قال لعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه: عظنى. قال: مات عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وخلف أحد عشر ابنًا، وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً كفن منها بخمسة دنانير، وثمن موضع قبره ديناران، وقسم الباقى على بنيه، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهمًا، ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابنًا فقسمت تركته وأصاب كل واحد من تركته ألف ألف، ورأيت رجلاً من ولد عمر بن عبد العزيز قد حمل فى يوم واحد على مائة فرس فى سبيل الله عز وجل، ورأيت رجلاً من ولد هشام يُتصدق عليه[3]. ومما مضى يظهر لنا جليًا - أن المال الذى ورثه عمر بن عبد العزيز من أبيه ـ وهو مال كثير ـ أخذ فى التناقص حتى توفى ـ رحمه الله ورضى الله عنه-[4].

١١- ثناء الناس على عمر بن عبد العزيز بعد وفاته:

أ- مسلمة بن عبد الملك: حين توفى عمر ورآه مسجى قال يرحمك الله، لقد لينت لنا قلوبًا قاسية وأبقيت لنا فى الصالحين ذكراً[5].

ب- فاطمة بنت عبد الملك: فعن وهيب بن الورد، قال: بلغنا أن عمر بن عبد العزيز لما توفى جاء الفقهاء إلى زوجته يعزونها، فقالوا لها: جئناك لنعزيك بعمر، فقد عمت مصيبة الأمة، فأخبرينا يرحمك الله عن عمر، كيف كانت حاله فى بيته؟ فإن أعلم الناس بالرجل أهله. فقالت: والله ما كان عمر بأكثركم صلاة ولا صيامًا، ولكنى والله ما رأيت عبداً لله قط أشد خوفًا لله من عمر، والله إن

(١) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٣٣٧).
(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (١/٥٥).
(٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٣٣٨).
(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (١/٥٦).
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٣٢٩).

كـان ليكون من المكان الذى ينتـهى إليه سـرور الرجل بأهله، بينى وبينه لحـاف، فيخطر على قلبه الشىء من أمر الله، فـينتفض كما ينتفض طائر وقع فى الماء، ثم يشجب، ثم يرتفع بكاؤه حـتى أقول: والله لتخرجن نفسـه، فأطرح اللحاف عنى وعنه، رحمة له وأنا أقول: يا ليتنا كان بيننا وبين هذه الإمارة بعد المشرقين، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها(١).

ج- الحسن البـصرى: لما أتى الحسن مـوت عمر بن عبد العـزيز قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، يا صاحب كل خير(٢).

د- مكحول: ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز.

هـ- يزيد بن حـوشب: مـا رأيت أخوف من الحـسن البصـرى وعمـر بن عبـد العزيز(٣)، كأن النار لم تخلق إلا لهما(٤).

و- بكاء الرهبان عليه: عن الأوزاعى قال: شهدت جنازة عـمر بن عبد العزيز، ثم خرجت أريد مدينة قنسرين فمررت على راهب فـقال: يا هذا أحسبك شهدت وفاة هذا الرجل، قال: فقلت له: نعم، فأرخى عينيه فبكى سجامًا، فقلت له: ما يبكيك ولست من أهل دينه؟ فـقال: إنى لست أبكى عليـه، ولكن أبكى على نور كان فى الأرض فطفئ(٥).

ز- ملك الروم وبطارقته: بعث عمر بن عبـد العزيز وفداً إلى ملك الروم فى أمر من مصالح المسلمـين، وحق يدعوه إليه، فلما دخلوا إذا ترجمان يفـسر عليه وهو جالس على سرير ملكه، والتاج على رأسه، والبطارقة على يمينه وشماله، والناس على مراتبهم بين يديه، فـأدى إليه ما قصدوه له فتلقاهم بجـميل وأجابهم بأحسن الجواب، وانصـرفوا عنه فى ذلك اليـوم، فلما كـان فى غداة غد أتـاهم رسوله، فدخلوا عليـه، فإذا هو قـد نزل عن سريره ووضع التاج عـن رأسه، وقد تغـيرت صفاته التى شاهدوه عليها كأنه فى مصيبة، فقال: هل تدرون لماذا دعوتكم؟ قالوا: لا، قال: إن صاحب مصلحتى التى تلى العرب جاء فى كتابه فى هذا الوقت: أن

---

(١) البداية والنهاية نقلاً عن ملامح الانقلاب، ص (٥٦). (٢) فقه عمر بن عبد العزيز (١/٥٣).
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى نقلاً عن ملامح الانقلاب، ص (٥٥). (٤) صفة الصفوة (٣/١٥٦).
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٣٣١).

ملك العرب الرجل الصالح قد مات، فما ملكوا أنفسهم أن بكوا، فقال: ألكم تبكون، أو لدينكم أو له؟ قالوا: نبكى لأنفسنا ولديننا وله، قال: لا تبكوا له، وابكوا لأنفسكم ما بدا لكم، فإنه خرج إلى خير مما خلف، وقد كان يخاف أن يدع طاعة الله، فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافته، لقد بلغنى من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى لظننت أنه يحيى الموتى، ولقد كانت تأتينى أخباره باطنًا وظاهرًا، فلا أجد أمره مع ربه إلا واحدًا، بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه، ولم أعجب لهذا الراهب الذى ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته، ولكنى عجبت من هذا الذى صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها، حتى صار مثل الراهب، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلاً[(١)].

١٢- ما نسب إليه من كرامات عند موته: يحكى عن حسين القصار[(٢)] قال: كنت أجلب الغنم فى خلافة عمر بن عبد العزيز، فمررت يومًا براع وفى غنمه نحو من ثلاثين ذئبًا حسبتها كلابًا، فقلت له: يا راعى ما ترجوه بهذه الكلاب كلها ؟ فقال: يا بنى، إنها ليست كلابًا إنما هى ذئاب. قلت: يا سبحان الله ذئب فى غنم لا يضرها، فقال: يا بنى، إذا صلح الرأس فليس على الجسد من بأس[(٣)]. ويبدو أن مثل هذه القصص من المبالغات وإلا لكانت فى عهد النبوة وقيام الدولة فى المدينة وعهد الخلافة، ولم نسمع بأن الذئاب كانت ترعى مع الغنم. وقد رئيت له منامات صالحة وتأسف عليه الخاصة والعامة، لاسيما العلماء والزهاد والعباد[(٤)].

١٣- ما قيل فيه من رثاء:

أ - كثير عزّة قال فيه:

عمّت صنائعه فعم هلاكه ... فالناس فيه كلهم مأجور

والناس مأتمهم عليه واحد ... فى كل دار رنة وزفير

---

(١) مروج الذهب (٣/ ١٩٥)، فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٥٤) .

(٢) لعله جسر القصاب: اختلف فيه، والأكثرون على تضعيفه .

(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٧٠).

(٤) البداية والنهاية (١٢/ ٧١٨).

يثنى عليك لسانك من لم توله خيراً لأنك بالثناء جدير
ردت صنائعه عليه حياته فكأنه من نشرها منشور[1]

ب- وقال جرير:

ينعى النعاة أمير المؤمنين لنا يا خير من حج بيت الله واعتمرا
حملت أمرًا عظيمًا فاصطلعت به وقمت فيه بأمر الله يا عمرا
الشمس كاسفة[2] ليست بطالعة تبكى عليك نجوم الليل والقمرا[3]

جـ- وقال محارب بن دثار:

لو أعظم الموت خلقًا أن يواقعه لعدله لم يصبك الموت يا عمر
كم من شريعة عدل قد نعشت لهم كادت تموت وأخرى منك تنتظر
يا لهف نفسى ولهف الواجدين معى على العدول التى تغتالها الحفر
وأنت تتبعهم لم تأل مجتهدًا سقيًا لها سنن بالحق تفتقر
لو كنت أملك والأقدار غالبة تأتى رواحًا وتبيانًا وتبتكر[4]

رحم الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وأعلى ذكره فى المصلحين، فهذه معالم من سيرته الإصلاحية التجديدية الراشدية التى سار بها على منهاج النبوة، وقد حفظ الله لنا هذه السيرة ولم تهملها الليالى، ولم تفصلها عنا حواجز الزمن ولا أسوار القرون، فلعلها تجد من يسير على نهجه من حكامنا وزعمائنا وقادتنا، وما ذلك على الله بعزيز فى جيلنا أو فى غيره.

---

(١) البداية والنهاية (٧١٨/١٢) .
(٢)، (٣)، (٤) المصدر نفسه (٧١٩/١٢).

الفهـرس

الموضوع | الصفحة

الفصل الثانى

أهم صفاته ومعالم تجديده

الفصل الثالث

اهتمام عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة

الفصل الرابع

موقف عمر بن عبد العزيز من الخوارج والشيعة والقدرية، والمرجئة والجهمية

الفصل الخامس

حياته الاجتماعية والعلمية والدعوية

الفصل السادس

الإصلاحات المالية فى عهد عمر بن عبد العزيز

الفصل السابع

المؤسسة القضائية فى عهد عمر بن عبد العزيز وبعض اجتهاداته الفقهية

الفصل الثامن

الفقه الإدارى عند عمر بن عبد العزيز وأيامه الأخيرة ووفاته رحمه الله